

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإمام الصادق (عليه السلام) والمذاهب الأربعة

- المؤلف: الأستاذ أسد حيدر
- الموضوع: كلام و تاريخ
- المحقق : مؤسسة «نشر الفقاهة»
- عدد الأجزاء: ٨
- الناشر: مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام)
- الطبعة: الأولى
- المطبعة: ليلى
- الكمية: ٣٠٠٠
- تاريخ النشر: ١٤٢٤ هـ

شابك

المجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام) قم

الإمام الصادق والمذاهب الأربعة / ج ٢

الإمام الصادق (عليه السلام)

الإمام الصادق (عليه السلام)

الإمام الصادق (عليه السلام)

تمهيد

كنّا نتحدّث عن نشأة المذاهب الإسلامية وعوامل انتشارها وما يتعلّق بذلك من تطورات وأحداث.

كما تحدّثنا عن بعض ما يتعلّق بحياة الإمام الصادق (عليه السلام) ومشاكل عصره ، والإشارة إلى مدرسته ، وذكر عدد قليل من تلامذته ورواة حديثه.

وفي هذا الجزء نعود - بعون الله - للبحث عن حياة الإمام الصادق (عليه السلام) ومدرسته ، وبعض رواة حديثه ، بعد أن نشير لحوادث عصره ، يوم ساد الاضطراب والقلق جميع البلاد الإسلامية ، وعمّ الخوف جميع الأرجاء فلم يأمنه الطفل الراقد في مهده ، ولا الشيخ القابع في داره عندما اتّسعت دائرة المؤاخذات على ولاية الأمر ، وسوء تصرّف العمال وجورهم على الرعية ، بشكل لامجال معه إلا إلى انفجار ثورة دموية ، وانقلاب يؤدّي إلى إنهيار الدولة.

وكان أهمّ عوامل الثورة على الأمويين هو الانتصار لآل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) والطلب بثأرهم ، لأنّ الأمويين أراقوا دماءهم من غير أن تراعى حرمة لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فكانت هتافات الثوار الى الرضا من آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

وكان الإمام الصادق (عليه السلام) هو سيد أهل البيت (عليهم السلام) وزعيم الهاشميين في عصره ، وهو محطّ آمال الأمة ومعقد أمانيتها ، وهو الشخصية التي بلغت بمواهبها وسموّ معناها الى أرفع درجة من الكمال ، وأعلى ذروة من الفضل ، ولم تكن منزلته في المجتمع يعلوها الخفاء أو يحوطها شيء من الغموض.

وهنا لا بدّ لنا أن نتساءل : هل أنّ الإمام الصادق (عليه السلام) كان بمعزل عن ذلك المعترك السياسي ؟ وأنّه لم يشارك في ذلك النشاط الذي كانت دعامته هو ، الدعوة لآل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ؟ وأنّه دعا عبد الله بن الحسن ليمدّ يده فيبايعه ، لأنّه أكبر سنّاً من ولده محمد ذي النفس الزكية يوم اجتمع الهاشميون في الأبواء للمداولة في

الأمر ، ومبايعة رجل من آل البيت(عليهم السلام) تناط به مسؤولية الدعوة، كما ذكره ذلك بعض الكتاب بدون سند.

والإجابة على هذه الأسئلة تحصل عندما ندرس عوامل الثورة ، ونعرف نفسيات الثوار ونزعاتهم ، واختلاف مشاربهم وآرائهم.

ويُتضح لنا ذلك عندما نقف على الخطّة التي اختطّها الإمام لنفسه في ذلك الجو الهائج بالفتن ، والمائج بالأهواء ، إذ لم يستجب لدعوة زعماء الثورة لبيعته ، لأنّه لا يعدّهم من رجاله ولا الزمان زمانه ، ولم يغامر في نفسه وأهل بيته مغامرة عقيمة الانتاج ، تعود على المجتمع بأخطار جسيمة ، وعلى أهل بيته بسوء العاقبة ، لأنّه يعلم النتائج وما يؤول إليه الأمر وينظر إلى الحوادث عن كثب ، نظر الحكيم البصير ، والسياسي الخبير بعواقب الأمور، وكثيراً ما اعلن حقائق تلك الأوضاع وكشف نوايا أولئك القادة وما يهدفون إليه من وراء الدعوة لآل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

كما أنّه نهى أبناء عمّه عن التسرّع في الأمر وعدم القيام بأيّ نشاط ثوري الى أن يأتي الوقت المناسب؛ لأنّ القيام بشيء قبل أن يستحكم أمره، مفسدة له .

وستنحدّث في هذا الجزء وغيره - ان شاء الله - عن خطّته الحكيمة وأساليب دعوته القوية ، ومنهجه السياسي الرصين بصفته إمام عصره وزعيم أهل بيته ، بعد أن نستعرض بعضاً من مشاكل عصره، وأسباب قيام الثورة التي أطاحت بالحكم الأموي.

عصره ومشاكله

يمتدّ عصر الإمام الصادق (عليه السلام) من آخر خلافة عبد الملك بن مروان الى وسط خلافة المنصور الدوانيقي ، أي من سنة (٨٣ هـ) إلى سنة (١٤٨ هـ) فقد أدرك طرفاً كبيراً من العصر الأموي ، وعاصر كثيراً من ملوكهم ، وشاهد من حكمهم أعنف أشكاله ، وقضى حياته الأولى حتى الحادية عشرة من عمره مع جده زين العابدين (عليه السلام) ، وحتى الثانية والثلاثين مع أبيه الباقر (عليه السلام) ، ونشأ في ظلّهما يتعدّى تعاليمه ، وتنمو مواهبه ، وتربى تربيته الدينية ، وتخرّج من تلك المدرسة الجامعة ، فاختصّ بعد وفاة أبيه بالزعامة سنة (١١٤ هـ) واتسعت مدرسته

بنشاط الحركة العلمية في المدينة ومكة والكوفة ، وغيرها من الأقطار الإسلامية، وهذا هو الدور الخاص الذي يهمنّا العرض له وتلزمنا دراسته.

كان العصر الذي اختصّ به الإمام الصادق (عليه السلام) عصر فتن واضطراب في جميع البلاد الإسلامية ، وحروب طاحنة ونزاع بين رجال الدولة ، وقد اصطدمت بتحركات تهدّد كيانهما ، وتجاوبت البلاد بلغة الإنكار على الأمويين، والمؤامرات السرية قد قاربت النجاح في تدبيرها الخفيّ، وهم في غفلة عن معالجة تلك المشاكل التي حلّت بالأمّة، ولم ينظروا الى المصالح التي تحتاجها سلامة البلاد كاهتمامهم بمصالح أنفسهم.

وقد عمّ الاستياء جميع الطبقات لسوء المعاملة الاقتصادية والسياسية ، وكان وضع الدولة يستوجب العمل على إيجاد طرق لحلّ تلك المشاكل التي فتحت عليهم باب المؤاخذات من جميع الطبقات، فقد كانت سيرة الحكام تخالف نظم الإسلام بصورة لا مجال الى السكوت عنها.

وتتابعت الحوادث واشتدّت الأمور ، وكلّما ولي الحكم واحد منهم تزداد قائمة المؤاخذات ، وتظهر في عهده أمور تبعث في النفوس الكراهة لعهدهم والاستياء منهم.

وكان الوضع الاقتصادي عاملاً مهماً في بثّ النقمة ومضاعفة المقاومة لذلك الحكم ، فقد عملوا على زيادة الخراج واتباع الطرق السيئة في الجباية ، وأجحفوا في تقديره كما فعلوا في فارس. إذ كان عمال بني أمية يخرصون الثمار على أهلها ، ثم يقومونها بسعر دون سعر الناس الذي يتبايعون فيه ، فيأخذونها على قيمتهم التي قدروها^(١) وأخذوا الجزية ممن لم تجب عليهم كما فعلوا بمصر ، فإنّ عبد العزيز بن مروان أمر بإحصاء الرهبان فأحصوا ، وأخذت منهم الجزية ، وهي أول جزية أخذت من الرهبان.

وفرض الأمويون ضرائب إضافية ، كالرسوم على الصناعات والحرف وعلى من يتزوّج أو يكتب عرضاً.

(١) العصر العباسي الأول. الأستاذ عبد العزيز الدوري.

وأرجعوا الضرائب الساسانية التي تسمى هدايا النوروز ، وأوّل من طالب بها معاوية، وأمر أهل السواد أن يهدوا له في النوروز والمهرجان ، ففعلوا ذلك، وبلغ ثلاثة عشر ألف ألف درهم^(٢).

وقدم دهقان هرات واسمه خراسان ، إلى أسد بن عبد الله القسري عامل هشام سنة (١١٩ هـ) بهدايا المهرجان بما قيمته ألف ألف^(٣).

ويقول الطبري : قدم والي هرات ، ومعه دهقان سنة (١٢٠ هـ) بهدايا كان بها قصران : قصر من فضة وقصر من ذهب ، وأباريق من ذهب وأباريق من فضة ، وصحاف من ذهب وصحاف من فضة ، والديباج الهروي والقوهي والمروي^(٤).

وبعث عبد الملك بن مروان الى عامله في الجزيرة يأمره أن يحصي الجماع ويعتبر الناس كلهم عمّالاً بأيديهم ، ويحسب ما يكسبه العامل سنته كلّها ، ثم يطرح من ذلك نفقته في طعامه وأدمه وكسوته ، وطرح أيام الأعياد كلّها ، ففعل العامل ، ووجد الذي يحصل من ذلك في السنة لكلّ فرد أربعة دنانير فألزمهم ذلك جميعاً^(٥).

وكان عامل اليمن : محمد بن يوسف أخو الحجاج قد ارتكب أنواع العسف والجور ، فكان يصادر أملاك الاهالي وأموالهم ، وضرب عليهم ضريبة معينة عدا الخراج الذي ضربه الإسلام^(٦).

وقدم أسامة بن زيد على سليمان بن عبد الملك بما اجتمع عنده من الخراج - وكان والياً عليه في مصر - وقال له : يا أمير المؤمنين إني ما جئتُك حتى نهكت الرعية وجهت ، فإن رأيت أن ترفق بها وترفعه عليها ، وتخفف من خراجها ما تقوى به على عمارة بلادها وصلاح معاشها ، فافعل ، فإنّه يستدرك ذلك في العام المقبل. فقال له سليمان : هبلتُك أمك ، احلب الدر ، فإذا انقطع فاحلب الدم ، فالنجا^(٧).

وبهذا جهدت الرعية ، وفقدت الرفاهة ، فكان الكل متأثراً من تأدية تلك الضرائب الثقيلة التي تتمتع بها أقلية مستهترة ، ولا يهمّ ولاية الأمر بما ينجم من وراء ذلك من خراب البلاد ، واغتتم العمّال رغبة ولاية الأمر في تحصيل المال وجبايته ، فكانوا

(٢) تاريخ الوزراء للجيشياري ص ١٥ .

(٣) الكامل لابن الأثير ج ٥ ص ٢١٦ .

(٤) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٤٦٥ حوادث سنة ١٢٠ هـ.

(٥) الخراج ص ٢٧ .

(٦) السيادة العربية ص ٢٨ .

(٧) تاريخ الوزراء للجيشياري ص ٣٢ .

يعبثون في جبايتها للحصول على الثروة من وراء ذلك. وربما كان الخلفاء من الأمويين يُخولون عمالهم ما يحصل تحت أيديهم من جباية الضرائب. فقد خول والي خراسان ما حصل له ، وهو عشرون ألف ألف درهم من تلك الضرائب.

وسوخ يزيد بن معاوية لعبد الرحمن بن زياد والي خراسان بما اعترف له من المال ، وهو عشرون ألف درهم ، وكان عنده من العروض أكثر منها ، فقال عبد الرحمن يوماً لكتابه : إني لأعجب كيف يجيئني النوم وهذا المال عندي! فقال له : وكم مبلغه ! قال : إني قدرت ما عندي لمائة سنة ، في كلّ يوم ألف درهم لا أحتاج منه الى شراء رقيق ولا كراع ولا عرض من العروض ، فقال له كاتبه : أنام الله عينك أيها الأمير ، لا تعجب من نومك وهذا المال عندك ، ولكن اعجب من نومك إذا ذهب ثم نمت !

فذهب ذلك المال كله ، أودع بعضه فذهب ، وجدد بعضه ، وسرق بعضه. فآل أمره الى أن باع فضة مصحفه ، وكان يركب حماراً صغيراً تتال رجله الأرض ، فلقبه مالك بن دينار ، فقال له : ما فعل المال الذي قلت فيه ما قلت ؟ قال : كلّ شيء هالك إلا وجهه !^(٨).

مشكلة الخراج

ولمّا ولي عمر بن عبد العزيز ، عالج مشكلة الخراج والجزية والضرائب الإضافية التي هي أعظم من الخراج ، إذا لم تكن محدودة أو مقرّرة ، بل يعود أمرها الى العمال أنفسهم. فكتب الى عامل الكوفة :

أمّا بعد فإنّ أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة في أحكام الله ، وسنة خبيثة سنها عليهم عمال السوء ، وإنّ قوام الدين العدل والاحسان ، فلا يكن شيء أهمّ إليك من نفسك ، فلا تحملها قليلاً من الاثم ، ولا تحمل خراباً على عامر ، وخذ منه ما أطاق وأصلحه حتى يعمر. ولا يؤخذ من الغامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض ، ولا تأخذن أجور الضرائب ، ولا هدية النوروز والمهرجان ، ولا ثمن المصحف ، ولا أجور الفتوح ، ولا أجور البيوت ، ولا درهم النكاح. ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض، فاتبع في ذلك أمري ، فإنّي قد وليتك من ذلك ما ولاني

(٨) تاريخ الوزراء للجيشياري ص ٣٢ .

الله. ولا تعجل دوني بقطع ولا صلب حتى تراجعني فيه ، وانظر من أراد من الذرية أن يحجّ، فعجلّ له مائة ليحج بها والسلام^(٩).

وانتهى ذلك الاصلاح الذي سار فيه عمر بوفاته ، لأنّ يزيد بن عبد الملك - عندما ولي الخلافة - أمر باعادة تلك الضرائب التي أمر عمر بإبطالها ، فكتب إلى عمّاله :

أمّا بعد فإنّ عمر كان مغروراً ، فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده. وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى ، أخصبوا أم أجذبوا ، أحبّوا أم كرهوا ، حيوا أم ماتوا^(١٠).

فزاد الضغط وعظمت المحنة ، وأصبحت هذه الضرائب عبئاً ثقيلاً أثقلت كاهل الأمة، وبالأخص البلاد المغلوبة التي وقعت تحت «إسراف العمال في تحصيل الأموال وجبايتها، وعبثهم بما تحت أيديهم منها ، وانفاقها في مصالحهم الشخصية ، وقد كانت تتخذ مرة إحدى الولايات وسيلة للحصول على الثروة وجمع المال»^(١١).

ومما يدلنا على عظيم الاهتمام في تحصيل الولاية للحصول على الثروة ؛ قضية بلال بن أبي بردة عندما وفد على عمر بن عبد العزيز فلزم المسجد يصلي ويديم الصلاة ، فأعجب به عمر. فقال عمر لعلاء بن أبي بندار : إن يكن سر هذا كعلانيته ، فهو رجل العراق غير مدافع. فقال العلاء : أنا آتيك بخبره ، فجاء إليه وهو في المسجد وقال له : قد عرفت حالي من أمير المؤمنين ، فإن أنا أشرت بك على ولاية العراق فما تجعل لي ؟ قال : لك عمالتي سنة ، وهي عشرون ألف ألف ، قال : فاكتب بذلك ، فكتب له ورجع العلاء الى عمر بن عبد العزيز ، فكتب الى عامله بالكوفة : إنّ بلالاً غرّنا بالله ، فسبكناه فوجدناه خبثاً كله والسلام^(١٢).

فنرى بلالاً يبذل عشرين ألف ألف للحصول على إمرة العراق ، فلا بدّ أن يتعوّض بأضعافها في أقلّ من سنة ، كما تقتضيه سيرة الولاة وجشع الجباة في ذلك الدور.

سيرة الجباة

وكانت جباية العراق قد أسندت الى الدهاقين - رؤساء القبائل - فساروا فيهم سيرة غير مرضية.

(٩) الكامل لابن الأثير ج ٥ ص ٢٩، تاريخ الطبري ج ٨ ص ١٣٩ .

(١٠) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢٧٣ .

(١١) السيادة العربية ص ٣٠ .

(١٢) الكامل للمبرد ج ١ ص ١٥٨ ط ١ .

وفي خراسان كانت الضرائب توزع على رؤوس الأهلين لا على مساحة الأرض ، إذ لو فرض على مساحة الأرض ، لوقع أكثره على الدهاقين.

وقد فرض الأمويون الضريبة على من أسلم ، وكان ذلك سبباً في تأخر خطى انتشار الاسلام ، لأنّ الضريبة تؤخذ من غير المسلم ، وهي الجزية والخراج ، وعند إسلام الذمّي يعفى من الإثنتين. فلما دخل كثير من الذميين في الإسلام عن عقيدة ، أو عن رغبة في الخلاص من الضرائب ، عرف النقص في ميزانية الدولة ، ففرض الأمويون الجزية والخراج على من أسلم ، فوقف انتشار الإسلام ، لمعارضته لمصالح الدولة المادية. وقد لمس أهل الكتاب والملل والديانات روح التسامح فمن تحرّكت في نفسه دوافع الإيمان الحقّ وجد في الأحكام الإسلامية روحاً جديدة وفي الشريعة المحمدية توحيداً حقاً، ومن راح يتقي دفع الحقّ المالي الذي ترتب على الفتح الإسلامي فصار الى طريقة إشهار الإسلام، ولكنه بمرور الوقت يجد أنّ ما اتخذه ستاراً ينفذ الى الأعماق بنوره ويرى في سلوك المخلصين وأفعال جنود الدعوة حوافز على الإيمان.

ثم انقلب المسؤولون في الحكم الى جباة وكاد سلوك الدعاة الأول ينحصر في مجالات ضيقة، لأنّ الملوك أقبلوا على الدنيا بكلّ وجوها ولم يكن لهم من الإسلام إلا الاسم. ومن الدواهي أن يتابعهم على ذلك الذين اتّخذوا الدين زياً وبنيت مكانتهم في المجتمع على أساس صلتهم بالدين وتفرغهم لأمر الشريعة. ولم يكن إسقاط تلك الضرائب في الواقع مضرّاً في مصلحتها أو مخلّاً في ميزانيتها، بل كان معارضاً لشجع الولاة، وطمع الجباة ومصلحة الدهاقين، فكانت تلك الأعمال القاسية التي سار عليها العمال تفسح للناقمين مجالاً واسعاً، وتملأ القلوب على الأمويين غيظاً، لأنّ سيرة العمال مستمدة من سلطان لا يهّمه تذمر الرعية، ولا يصغي لشكاية مظلوم، ويعظم على المسلمين أن تسودهم أمة تتجاهر بالظلم وتخالف الأحكام. وقد هجرت السنن وبنيت تعاليم الكتاب وراء الظهور، حتى أصبح ذلك من شعار الدولة، فكان رجال الأمة يتألمون من تلك الأوضاع السيئة، وما حلّ بالأمة الإسلامية من الجور والعسف بالحكم، وإراقة الدماء وغصب الأموال وهتك الحرمات، فقام دعاة الإصلاح وصلحاء الصحابة بالمعارضة منذ عهد الدولة الأولى، وأنكر المسلمون أشدّ الإنكار معاملة الأمويين الجائرة.

وكلّما امتد عمر الدولة ازداد السخط وعظم الإنكار من جميع الطبقات، ولهذا رافقت الثورات حكم الأمويين منذ البداية.

وكانت ثورة الإمام الحسين (عليه السلام) هي بداية الانطلاق لنشر الوعي الاسلامي ضد الأمويين ، وصرخة مدوية هزت عروش الظالمين ، وأول طلائع تلك الثورات الإسلامية هي ثورة المدينة المنورة في واقعة الحرة سنة (٦٣ هـ) استنكاراً لأعمال يزيد وإجرامه.

فكانت ثورة دموية انتهت بالغلبة للجيش الأموي ، وأقدم جيش يزيد الذي أعده لهذا الغرض على ارتكاب فظائع ومذابح وجرائم ما أجمع المؤرخون على استنكاره ، فقد أباح مسلم المدينة ثلاثاً لجنده يقتلون أهلها ، ويسلبونهم أموالهم ، وقتل ثمانون من أصحاب الرسول والباقون منهم أخذت عليهم البيعة ليزيد ، بيعة عبودية واسترقاق. كما قتل سبعمئة رجل من حملة القرآن ، وألف وسبعمئة من بقايا المهاجرين والأنصار ، وعشرة آلاف من أوساط الناس سوى النساء والصبيان^(١٣).

وافتنى الأمويون ألف عذراء^(١٤). اضافة الى أعمال النهب والسبي، وكان الرجل من أهل المدينة بعد ذلك إذا زوج ابنته لا يضمن بكارتها ويقول لعلها افتضت في وقعة الحرة^(١٥).

ثم تتابعت الثورات في البلاد العربية ، وتفاقت حركة الإنكار على سوء السيرة ، والظلم للرعية والاستهانة بمقدرات الأمة فكانت ثورات في العراق وفي الحجاز وفي الاردن ومصر وغيرها.

الموالي والثورة

وبعد هذا العرض يمكننا تنفيذ مزاعم القائلين : بأنّ الموالي هم العامل الوحيد لانهايار الدولة الأموية لأسباب ذكروا منها :

إنّ الدولة الأموية عربية بحتة وليس في مناصب الدولة للموالي نصيب.

وإنّ الموالي كانوا يحققون بذلك على المجتمع العربي الممثل في الدولة الأموية.

وإنّ الموالي قد حاولوا إعادة المجد الساساني ، وأنّ الصراع بين الكتلتين إنّما هو صراع عنصري بحت ، وكانت مؤازرتهم للدعوة الهاشمية إنّما هو طمع في استرداد المجد القديم. الى غير ذلك مما ذكره كثير من الكتاب من مستشرقين وغيرهم.

(١٣) انظر البداية والنهاية ج ١ ص ٢٢ والدولة الإسلامية للخبوطي ص ٢٠٥ .

(١٤) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٦١ .

(١٥) الآداب السلطانية لابن الطقطقي ص ١٠٧ .

ونحن لا ننكر أثر الموالي في الثورة على الدولة الأموية ، كيف وقد تكاملت القوى في خراسان ، وظهرت الدعوة وعظم أمر أبي مسلم الخراساني؟
ولكننا لا نذهب الى مذهبوا إليه من إسناد العوامل الى الموالي فحسب ، ومعنى هذا سلب الأمة الإسلامية من كلّ وعي وشعور بما لمسوه من أمور كان اللازم إنكارها ، وعدم الخضوع لها وقد أشرنا لبعض الحوادث من قبل.
هذا من جهة ومن جهة أخرى أنّ الثورة في بلاد فارس كان أكثر زعمائها من رؤساء العرب كسليمان بن كثير الخزاعي ، وقحطبة بن شبيب الطائي وأبوداود الشيباني وغيرهم من رؤساء قبائل العرب في خراسان وهم من المقاتلة أيام الفتوح الأولى من النزارية واليمانية.
وكان رجال الدعوة من العرب لا من الفرس كنصر بن صبيح التميمي وعبد الرحمن بن سلم والجهم بن عطية وغيرهم.
وكان النقباء جلهم من العرب والمنتسبين إلى أشهر القبائل : فمنهم خمسة من خزاعة ، وثلاثة من تميم وبعضهم من ربيعة وغيرها من القبائل العربية.

الموالي ووظائف الدولة

وأما القول بأنّ الأمويين قد أبعدوا الموالي عن وظائف الدولة ممّا بعث الحقد في قلوبهم والكيد للأمويين فهو غير صحيح ؛ لأننا نرى أنّ الموالي قد استغلّوا أهمّ وظائف الدولة في العصر الأموي، كرئاسة الديوان وجباية الخراج وأمانة السر ، وقيادة الجيوش وإمارة بعض البلدان ، وإليك أنموذجاً من ذلك:
سرجون بن منصور مولى معاوية كان يتولّى رئاسة ديوان الرسائل والخراج لمعاوية وابنه يزيد ولمعاوية بن يزيد ولمروان بن الحكم.
عبد الرحمن بن دراج تولى الرسائل لمعاوية ، وكان أخوه على خراج العراق في أيامه.

مرداس مولى زياد بن أبيه كان على رئاسة ديوان الرسائل لزياد ، وكان على الخراج في العراق مولاه زادا نفروخ.
أبو الزعيزعة مولى عبد الملك كان يتولّى ديوان الرسائل في عهده، وكان أمين سره عمر بن الحارث مولى بني عامر.

جناح مولى عبد الملك: يترأس ديوان الخاتم.^(١٦)
أبو العلاء يزيد بن أبي مسلم مولى ثقيف: يتقلد للحجاج رسائله ويقتل الناس بأمره ،
وولي خراج العراق بعد موت الحجاج.^(١٧)
سعيد الصابي: على ديوان الخاتم للوليد بن عبد الملك ، وكاتبه شعيب العماني
مولاه.

الليث بن أبي فروة: مولى أم الحكم كان يكتب لعمر بن عبد العزيز ، وجعل خراج
العراق بيد عبد الله بن ذكوان مولى رملة بنت شيبه.^(١٨)
محمد بن يزيد مولى الأنصاري: كان والياً على مصر من قبل عمر بن عبد
العزيز ، وبعد وفاة عمر عزله يزيد بن عبد الملك وولى مكانه يزيد بن مسلم مولى
ثقيف.^(١٩)

سالم مولى سعيد بن عبد الملك: كان على ديوان الرسائل للوليد بن يزيد.
عبد الحميد بن يحيى مولى العلاء : كان يتولى رئاسة ديوان الرسائل لمروان
الحمار: وكذلك عثمان بن قيس مولى خالد القسري.^(٢٠)

طارق بن زياد مولى موسى بن نصير: كان من القواد العسكريين.^(٢١)

نيزك بن صالح مولى عمر بن عبد العزيز: كان على إمارة الشاش..

أسامة مولى معاوية على إمارة مصر.^(٢٢)

طارق بن عمر مولى عثمان بن عفان ولي المدينة وكان من ولاية الجور.^(٢٣)

وكان الكثير منهم يتولى السلطة التشريعية كعطاء بن يسار مولى ميمونة أم
المؤمنين المتوفى سنة (١٠٢ هـ).

وعلى قضاء مصر سمنان مولى عبد الله بن عمرو بن العاص المتوفى سنة (١٢٧

هـ).

وكان مفتي مصر وشيخها أبو رجاء بن حبيب المتوفى سنة (١٢٨ هـ)

وغير هؤلاء.

(١٦) تاريخ الطبري ج ٦ ص ١٨١ - ١٨٢.

(١٧) تاريخ دمشق ج ٦٥ ص ٣٨٨، ترجمة يزيد بن أبي مسلم، الرقم ٨٤٣٧.

(١٨) تاريخ الطبري ج ٦ ص ١٨٠ - ١٨١.

(١٩) تاريخ الطبري ج ٦ ص ٦١٧.

(٢٠) تاريخ الطبري ج ٦ ص ١٨١ و ١٨٢.

(٢١) البداية والنهاية ج ٩ ص ٩٨ - ٩٩.

(٢٢) انظر تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٥١.

(٢٣) تهذيب الكامل ج ١٣ ص ٣٤٨ / ٢٩٥٣.

وكان الأمويون يكرمون علماء الموالي ويشيّدون بذكرهم. فقد نادى منادي الدولة أن لا يفتي إلاّ عطاء بن رباح ، وأرسلوا نافع الديلمي مولى ابن عمر المتوفى سنة (١١٧ هـ) الى مصر يعلم الناس السنن.

وكانت الفتيا بدمشق لسليمان بن أبي موسى المتوفى سنة (١١٧ هـ) مولى الأمويين.^(٢٤)

ولزيد بن أسلم العدوي المتوفى سنة (١٣٦ هـ) حلقة في المسجد النبوي. ويطول بنا الحديث ويتسع البحث إن أردنا استقصاء ذكر من أشغل وظائف الدولة الهامة من الموالي ، من ولاية وقواد وقضاة وأمناء سر وامراء خراج وجباة أموال.

أسباب انهيار الدولة

ومهما تكن محاولة جعل انهيار الدولة لحقد الموالي فحسب ، فهو أمر بعيد كلّ البعد عن الصحة، وإنّ الباعث له تبرئة الأمويين من كل ما ارتكبه ، وأنّ المسلمين قد أقرّوا ذلك الحكم ولم يعارضوا ، وأنّ انهيار الدولة كان لأسباب عنصرية.

وليس ببعيد أن تكون هذه المحاولة من أناس حملهم حب الأمويين عليها كما حمل غيرهم على وضع الأحاديث التي يستطيعون بواسطتها التمويه على السذج من الناس في تبرير تلك الأعمال المنكرة منها:

يحدّثنا ابن الأثير أنّ معاوية بن أبي سفيان قال لولده يزيد : اطلب مّيّ فلست بسائل شيئاً إلاّ أجبتك اليه ، فقال : حاجتي أن تعتقني من النار لأنّ من ولي أمر أمة محمد ثلاثة أيام أعتقه الله من النار ، فتعقد لي البيعة بعدك^(٢٥).

وساروا على هذا يفهمون الناس ويركزون عقيدة ولايتهم أمر الأمة والدين ويتحلّون بالقداسة، مع عظيم تلك المنكرات حتى سرت هذه الفكرة الى عمّالهم وقواد الجيوش.

هذا مسلم بن عقبة لما فعل بالمدينة ما فعل وانصرف، ثم نزل به الموت في الطريق فقال: إني لم أعمل عملاً قط بعد شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً عبده ورسوله أحبّ إليّ من قتل أهل المدينة ، ولا أرجى عندي منه في الآخرة^(٢٦).

(٢٤) تهذيب الكمال ج ١٢ ص ٩٢ / ٢٥٧١.

(٢٥) الكامل ج ٤ ص ٦٢ .

(٢٦) الكامل ج ٤ ص ٦١ .

وأشهد عند الوليد أربعين شيخاً منهم أنّ الخليفة لا يعاقب ، وأن من ولي أمر الأمة ثلاثة أيام أعتق من النار ؛ وهم يحاولون بذلك ردّ تلك الأحاديث الواردة عن الرسول الأعظم في التشديد على الولاية ، وإلزامهم بالعدل وهم لا يستطيعون ذلك ويخشون الإنكار. فقد صحّ عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال لجابر بن عبد الله: أعاذك الله من إمارة السفهاء، قال : وما إمارة السفهاء ؟ قال : أمراء يكونون بعدي لا يقتدون بهديي ، ولا يستتوبون بسنتي ، فمن صدّقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فأولئك ليسوا مني ولست منهم ، ولا يردوا حوضي ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فأولئك مني وأنا منهم ، وسيردوا عليّ حوضي^(٢٧). وقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : إنّ هلاك أمتي أو فساد أمتي رؤوس أمراء أغيلة سفهاء من قريش^(٢٨).

وعن كعب بن عجرد مرفوعاً : سيكون أمراء يكذبون ويظلمون ، فمن صدّقهم بكذبهم ومن أعانهم على ظلمهم فليس منّي ولا أنا منه ، ولا يرد عليّ الحوض يوم القيامة ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ، ولم يعنهم على ظلمهم فهو منّي وأنا منه ، ويرد عليّ الحوض يوم القيامة^(٢٩).

وقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : «سيكون عليكم أمراء تشغلهم أشياء عن الصلاة حتى يؤخروها فصلوها لوقتها»^(٣٠).

وعن عوف بن مالك عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال : إن شئتم أنبأتكم عن الإمارة وماهي : أولها ملامة وثانيها ندامة ، وثالثها عذاب يوم القيامة ، إلا من عدل وكيف يعدل مع قريبه^(٣١).

وعن بشر بن عاصم عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) : «من ولي شيئاً من أمر المسلمين أتى به يوم القيامة حتى يوقف على جسر جهنم ، فإن كان محسناً نجا ، وإن كان مسيئاً انخرق به الجسر فهو به سبعين خريفاً» ، رواه الطبراني^(٣٢).

وعن أبي ذر مثله ، وعن عمر بن الخطاب عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال : أفضل الناس عند الله منزلة يوم القيامة إمام عادل رفيق ، وشرّ عباد الله عند الله منزلة يوم القيامة إمام جائر خرق^(٣٣). أخرجه الترمذي^(٣٤) والطبراني في الأوسط^(٣٥).

(٢٧) مسند أحمد ج ٣ ص ٣٢١ .

(٢٨) مسند أحمد ج ٢ ص ٢٥٥ .

(٢٩) تأريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ٢ ص ٤٣٧ ، ترجمة محمد بن صالح ، الرقم ٩٥٧ .

(٣٠) مسند أحمد ج ٥ ص ٣٥ .

(٣١) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١٣٢ .

(٣٢) المعجم الكبير ج ٢ ص ٣٩ ، ح ١٢١٩ .

(٣٣) الخرق بالضم : الجهل والحمق ، ومنه الحديث : الرفق يمن والخرق شوم .

(٣٤) انظر مجمع الزوائد ج ٥ ص ١٩٧ .

(٣٥) المعجم الأوسط ج ١ ص ٢٣٠ ، ح ٣٥٠ .

وعن أنس عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) «يجاء بالإمام الجائر يوم القيامة فتخاصمه الرعية فيفلحوا عليه فيقال له : سد ركناً من أركان جهنم» ، رواه البزار^(٣٦).

وعن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : «مامن أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً لا يفكه إلا العدل». رواه أحمد بإسناد جيد رجاله رجال الصحيح^(٣٧) ، ومثله عن سعد بن عباد. وعن أبي هريرة بزيادة «وإن كان مسيناً زيد غلاً إلى غله» رواه البزار^(٣٨) ، والطبراني^(٣٩).

وعن عمر بن الخطاب أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ألا أخبركم بخيار أمرائكم وشرارهم ، خيارهم الذين تحبونهم ويحبونكم وتدعون لهم ويدعون لكم وشرارهم أمرائكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم. أخرجه الترمذي

وعن أنس بن مالك : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : من ولي من أمور المسلمين شيئاً فغشهم فهو في النار^(٤٠).

وقد وضعوا في فضائل معاوية من الأحاديث المكذوبة والأقوال الشاذة التي يتبرأ منها الإسلام ، فأنكر المسلمون ذلك ، ولكن أتى يجدي الإنكار في وقت ألجمت فيه الأفواه ، وكبتت الشعور ، وحكم على أهل الصدق منهم بالتنكيل الشديد ، والطرده والتبعيد؟ وقد حقق الحفاظ تلك الأكاذيب وأظهروا حقائقها ، ونصّوا على وضعها ، وإليك بعضاً منها :

أخرج أبو نعيم في الحلية بسند عن ابن عمر قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : يطلع عليكم رجل من أهل الجنة ؛ فطلع معاوية ، ثم قال من الغد مثل ذلك فطلع معاوية ، ثم قال من الغد مثل ذلك فطلع معاوية^(٤١).

وعن هشام بن عروة عن عائشة في حديث طويل فيه أن النبي دعا لمعاوية فقال : اللهم اهده بالهدى واجنبه الردى ، واغفر له في الآخرة والأولى^(٤٢).

(٣٦) مجمع الزوائد ج ٥ ص ٣٧١ ، حديث ٩٠٣٩ .

(٣٧) مسند أحمد ج ٣٧ ص ١٢٠ ، ح ٢٢٤٥٦ .

(٣٨) البحر الزخار ج ٢٩ ص ١٩٢ ، ح ٣٧٤٠ .

(٣٩) المعجم الكبير ج ٦ ص ٢٢ ، ح ٥٣٨٧ و ٥٣٨٨ .

(٤٠) كنز العمال ج ٥ ص ٧٥٧ ، ح ١٤٣٠٠ .

(٤١) الحلية ج ١٠ ص ٢٩٣ .

(٤٢) انظر فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ج ٢ ص ٩١٣ / ١٧٤٨ - ١٧٥١ .

الى غير ذلك من الأكاذيب والموضوعات التي يتحرّج القلم عن ذكرها ، وقد وضع جزءاً من تلك الأكاذيب في فضل معاوية بعض المشهورين بالكذب، وهو محمد بن عبد الواحد وأمره مشهور في ذلك^(٤٣).

والف الهيتمي كتاباً في فضل معاوية وما أبعدته عن الفضائل! ولا يسع الوقت لمناقشته^(٤٤) بعد ان كفانا ذلك حقاظ الحديث ورجال العلم^(٤٥).

ولم يكتفوا بالأكاذيب على رسول الله بوضع الأحاديث، حتى جرتهم أطماعهم وساقطهم جرأتهم على الله وعلى رسوله بوضع الأحاديث في مدح عاصمة ملكهم ومقرّ دولتهم ، ولا نودّ اطالة الحديث في المحاولات الفاشلة في تبرير أعمال الأمويين وإسناد الثورة عليهم لا من جهة حكمهم بل من جهة العنصرية فحسب.

عظات وعبر

وعلى أيّ حال فقد بيّنا أنّ الثورة بصورتها العامة إنّما هي ضد الحكم الأموي، وقد كانت هذه الثورات عنيفة ، تعبّر بعمق وأصالة عن استنكار المسلمين لتلك المعاملة القاسية التي عاملوا بها الأمة ، واتخاذهم تلك الاجراءات ضد أهل البيت (عليهم السلام) وهم يحسبون أنّهم يحسنون لأنفسهم صنعا ، ويأملون من ورائها تخليد سلطانهم مع الزمن ، ولم يلتفتوا الى حراجة الموقف وسوء العاقبة؛ حيث إنّ الخلافة الإسلامية تدور عليها سعادة الأمة وقوّة الإسلام، وقد عظم على المسلمين أن تتحوّل من أوج العظمة الى حضيض الاستهتار ، وأصبحت الأوضاع مقلوبة، فوليتها بعد الخلافة الراشدة من لا عهد له بالدين ، ولا معرفة له بالهدى ، وهم أولو غلظة لا ينفذ الى قلوبهم شعاع الرحمة ، فلا يسمعون لمتظلم شكوى ، ولا يدفعون عن الأمة ما يسوؤها من تلك المعاملات القاسية.

فكانت عاقبة أمرهم أن مزّقوا كلّ ممزّق ، وخرج بقية السلف منهم من رجال ونساء هائمين على وجوههم خوفاً على أنفسهم وطلباً للنجاة ، ولجأوا لبلاد النوبة،

(٤٣) انظر الخطيب ج ٢ ص ٣٥٧ .

(٤٤) أنظر الغدير ج ١٠ و ١١ فهناك تعرف معاوية ، فقد أبرز صورته البحاثة الأميني في اطار الواقع ، وهناك تعرف تلك الأحاديث وقيمتها ، فقد ناقشها من الطرق العلمية بما لا مجال الى إنكاره.

(٤٥) لسان الميزان ج ١ ص ٣٠٠، حديث ٦٣٧ و ج ٤ ص ٢٥٨ حديث ٥٠٢٠، وفوائد المجموعة ص ٤١٩ .

فأخرجهم عظيمها ، فكانوا عرضة للخطر ، حتى صاروا الى بجاوة، فقاتلهم عظيمها ، وانصرفوا يريدون اليمن ، ومروا في البلاد هائمين.

وكان عبيد الله وعبد الله ولدا مروان الحمار آخر ملوك الأمويين هما قادة تلك الفرقة الهائمة ، فعرض لهما طريقان بينهما جبل ، فأخذ كل واحد منهما في طريق ، وهما يريان أتهما يلتقيان بعد ساعة ، فسارا يومهما ذلك ، ثم راما الرجوع فلم يقدر ا وسارا أياماً ، ثم لقي عبد الله منسراً من مناسر الحبشة فقاتلهم فزرقه رجل منهم بمزراق فقتل عبد الله واستأسر أصحابه ، فأخذت الحبشة كل ما معهم وتركوهم ، فمروا في البراري عراة حفاة حتى أهلكهم العطش ، فكان الرجل يبول في يده ويشربه حتى لحقوا عبيد الله بن مروان، وقد ناله من العري والشدة أكثر ممّا نالهم ، ومعه عدة من حرمه عراة حفاة ، قد تقطعت أقدامهم من المشي ، وشربوا البول حتى تقطعت شفاههم ، ووافوا المنذب فأقاموا بها شهراً، وجمع الناس لهم شيئاً ثم خرجوا يريدون مكة في زي الحمالين^(٤٦). ولما سبيت نساء مروان ومررن على منازلهن رفعن

بالبكاء. وهذا من أعظم العظات والعبر.

ويروى أنّ عامر بن صالح الخراساني صاحب مقدمة صالح بن علي عمّ السفاح لما قتل مروان الجعدي آخر ملوك بني أمية دخل دار مروان وجلس على سريرهِ ودعا بعشائه، وجعل رأس مروان في حجر ابنته ، وأقبل يوبخها فقالت له : يا عامر، إنّ دهرأ أنزل مروان وأقعذك على سريرهِ حتى تعشيت عشاءه ، لقد أبلغ في موعظتك ، وعمل في إيقاظك وتنبيهك، إن عقلت وفكرت ، ثم قالت : يا أبتاه ويا أمير المؤمنيناه ، فأخذ عامر الرعب ، ولما بلغ السفاح ذلك كتب اليه يوبخه^(٤٧).

وكان عبيد الله بن مروان ولي العهد قد ظفر به المنصور وأودع في السجن ، وأخرجه المنصور يوماً من سجنه وكان مقيداً بقيد ثقيل ، فقال له المنصور : بلغني أنّ لك قصة عجيبة مع ملك النوبة فما هي ؟ فقال : يا أمير المؤمنين والذي أكرمك بالخلافة ما اقدر على النفس من ثقل الحديد ، ولقد صدأ قيدي من رشاش البول ،

(٤٦) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٣٤٧ - ٣٤٨ ، العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٥ ص ١٩٩ - ٢٠١ .

(٤٧) الشذرات ج ١ ص ١٨٤ .

وأصبّ عليه الماء في أوقات الصلاة ، ثم قصّ عليه القصة وأعادته إلى السجن ، وأودع فيه الى أيام الرشيد فهلك^(٤٨).

ولمّا دخل عبد الله بن علي دمشق أمر بنبش قبور بني أمية ، فنّش قبر معاوية بن أبي سفيان فلم يجدوا فيه إلا خيطاً مثل الرماد ، ونّش قبر عبد الملك ابن مروان فوجدوا فيه جمجمة ، ونّش قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه حطاماً كأنه الرماد ، وأخرج جسد هشام بن عبد الملك فضرّبه بالسياط وصلّبه وحرّقه وذراه في الهواء^(٤٩).

وقتل سليمان بن علي بالبصرة جماعة من بني أمية وأمر بهم فجروا بأرجلهم وألقوا في الطريق فأكلتهم الكلاب ، واختفى كثير منهم كعمر بن معاوية بن عمر بن سفيان بن عتبة فضاقت عليه الأرض ، والتجأ الى سليمان ابن علي متخفياً ، ووقف على رأسه ، فقال : لفظتني البلاد اليك ، ودلّني فضلك عليك. فأما قتلتني فاسترحمت ، وإما رددتني سالماً فأمنت. فقال : ومن أنت ؟ فعرفّه نفسه. فقال : مرحباً بك ما حاجتك ؟ فقال : إنّ الحرم اللواتي أنت أولى الناس بهنّ وأقربهم اليهنّ قد خفن لخوفنا ، ومن أخاف خيف عليه ، فقال: حقن الله دمك ووفر مالك ، وكتب بذلك الى السفاح فأمنه^(٥٠).

قيام الدولة العباسية

وطويت صفحة الدولة الأموية بقتل مروان الجعدي^(٥١) وهو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، ببيع له بالخلافة سنة (١٢٦ هـ) وقتل يوم الإثنين لثلاث عشرة خلت من ذي الحجة سنة (١٣٢ هـ). وفي هذه السنة قامت الدولة العباسية. وتوقع الناس في العهد الجديد عهداً سعيداً وانتقالاً مباركاً ، ونتيجة صالحة بعد خوض غمرات الحروب ، ومشاهدة المحن والتضحية في سبيل تحقيق تلك الأمنية ، وهي إقامة دولة عادلة تحكم بكتاب الله وسنة نبيّه، التي لم يظفر بها المسلمون في العهد الأموي إلا ببعضها في أيام عمر بن عبد العزيز.

(٤٨) الشذرات ج ١ ص ١٨٦.

(٤٩) الكامل ج ٥ ص ٢٠٥.

(٥٠) الكامل ج ٥ ص ٢٠٦.

(٥١) نسبة الى جعد بن درهم وكان مؤدبه وهو من زنادقة أهل الشام.

فتطلّعوا فجر ذلك العهد الميمون ، وشخصوا بأبصارهم الى معرفة المتربع على دست الحكم ، وهو الرضا من آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وأصبح المجتمع يزخر بآمال عظيمة ، لأنهم أعدل الناس في الحكم ، وأعلمهم بالدين ، فانكشف الأمر بظهور بني العباس واختصاصهم بمنصب الخلافة ، بعد أن خابت آمال بعض زعماء الثورة وقوَّاد الجيش بإسناد الحكم لآل علي (عليه السلام) ، وفي طليعتهم جعفر بن محمد وقد رفض ذلك الطلب كما سيأتي بيانه.

ولم يكن العباسيون ليتجرأوا على الإفصاح عن نواياهم وأغراضهم وهم ينضمون جموع الناقمين ومسيرة الثورة وابقوا على ما في نفوسهم، وهم يتمسكون في السرّ بشمول شعار «الرضا من آل محمد» لعائلتهم ولم يخطر ذلك ببال الثوار، وظل العباسيون يضمرون نواياهم.

والدعوة لم تكن للعباسيين ، ولم تكن دولتهم هي المتوقعة ، بل هي الى الرضا من آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فحسب ، وهم دعاة هذه النهضة انتصاراً للعلويين وطلباً بدمائهم الزكية ، وبذلك استطاعوا أن ينظموا حزبهم ويجمعوا انصارهم ، وهم ينضمون الى جانب العلويين في جميع الدور الأموي ، ويخفون ما أبدته الأيام وأظهره الزمن عندما حان الوقت لاقتطاف ثمار تلك الاتعاب ، إذ لا بدّ أن يستنكر الناس هذا الأمر ، ويؤاخذوهم بهذا الاختصاص.

وشعر العباسيون بتحسس الناس، كما شعروا بعدم ثقة أكثر العرب بدولتهم؛ فلا يستطيعون أن يشيدوا كيان دولتهم على أكتافهم ، فرأوا من الضرورة تقوية الجيش والاعتماد على القوة بالأكثرية الساحقة ، فاخصوا بالخراسانيين من بين عناصر الدولة ، وأطلقوا عليهم اسم الشيعة والأنصار ، لأنهم عرفوا نفسياتهم من قبل ، فجعلوا بلادهم مهداً للدعوة ، ومحلاً لبذر تلك الفكرة، كما جاء في وصية إبراهيم الإمام ، فاظهروا العطف على أبناء عمّهم في دورهم الجديد واهتمامهم بتتبع قتلة الحسين (عليه السلام) ، اظهراً لنصرة آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، وإقناعاً للرأي العام.

ولما دخل نساء مروان الحمار على صالح بن علي تكلمت ابنة مروان الكبرى فقالت : يا عمّ أمير المؤمنين حفظ الله لك من أمرك ما تحبّ، نحن بناتك وبنات أخيك وابن عمّك، فليسعنا من عفوك ما وسعك من جورنا ، قال : والله لا أستبقي منكناً أحداً... - الى أن قال لها - : ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين وأهل بيته ؟ ألم يخرج

اليه بحرم رسول الله سبايا فأوقفهن موقف السبي ؟ ألم يحمل رأس الحسين (عليه السلام) وقد قرع دماغه ؟ فما الذي يحملني على الاستبقاء عليكن ؟ قالت : فليسعنا عفوك^(٥٢). ولما قتل مروان وجيء برأسه الى السفاح ، فلما رآه سجد ورفع رأسه فقال: الحمد لله الذي أظهرني عليك وأظفرتني بك ، ولم يبق ثأري قبلك وقبل رهطك أعداء الدين ، وتمثل بقول الشاعر :

لو يشربون دمي لم يرو شاربهم *** ولا دماؤهم للغيظ ترويني^(٥٣)
حتى عرف الناس منهم ذلك ، وأنشد الشعراء في تلك الغاية التي كانت تقوم بها الدولة في دورها الجديد عندما قتل السفاح بقية الأمويين ، ثم أمر بالقائهم في الصحراء في الانبار فجرّوا بأرجلهم ، وعليهم سراويلات الوشي فوقف عليهم سديف وأنشد :

طمعت أمية أن سيرضى هاشم *** عنها ويذهب زيدها وحسينها
كلا وربّ محمد وإلهه *** حتى يبيد كفورها وخؤونها^(٥٤)
إلى غير ذلك من الأمور التي اتخذوها في تهدئة الرأي العام ، وقام السفاح بالأمر وأظهر في خطبته الافتتاحية ما تميل اليه النفوس من المواعيد من إعادة العدل والمساواة والعمل بكتاب الله وسنة نبيّه، بقوله :
أيّها الناس لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله وذمة العباس علينا أن نحكم فيكم بما انزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير في العامة والخاصة بسيرة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)^(٥٥) ثم ذكر أعمال بني أمية وما ارتكبه في الأمة.
فأخذ الناس بنود هذه الخطبة بعين الاعتبار ، وتوقعوا تحقيق تلك الوعود ، ولكنها كانت وهماً من الأوهام وأقوالاً حملتها الريح.

افتتحت صحيفة الدولة العباسية مصبوغة بالدم القاني ، وورثوا سلطان الأمويين بعد ذلك الانقلاب ، وكانت الأسباب التي أدت الى فوزهم بالخلافة بعضها أمور غير متوقعة ، وبعضها ساعدهم الحظ فيها ، فكان نصيبهم النجاح. وأهم تلك الأسباب التي اعتمدوا عليها هي الانتصار لآل محمد من بني أمية ، لأنهم اضطهدوا آل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فكانت هذه المشكلة من أعظم المشاكل التي تقف أمامهم في سبيل توطيد ملكهم وامتداد سلطانهم ، لأنهم يعرفون العلويين ونفسياتهم ومنزلتهم في

(٥٢) الكامل ج ٥ ص ٢٠٤ .

(٥٣) الكامل ج ٥ ص ٢٠٣ .

(٥٤) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠٧ .

(٥٥) الكامل ج ٥ ص ١٩٧ .

المجتمع الإسلامي، لذلك كان أهمّ شيء عندهم هو أمر العلويين ، والوقوف أمام نفوذهم ، فاتخذوا تلك الطرق في إقناع الناس وأظهروا لهم الحب المصطنع والعطف الذي ينطوي من وراءه غيظ يحرق القلوب ، فكانت أيام السفاح وشطر من خلافة المنصور على تلك السياسة الهادئة ريثما يتمّ لهم النفوذ وتحكم أسس الدولة.

ولمّا آن وقت اظهر ما كانوا يكتُمونه ، نقّذوا تلك الخطط الانتقامية من آل علي (عليه السلام) ، فلم يدّخر المنصور - بعد أن عظمت شوكته وامتدّ سلطانه - وسعاً لسحق العلويين وحزبهم ، لأنه يرى أن في بقائهم تحطيم نفوذه وتمزيق ملكه الذي ناله باسمهم بعد املاق وبؤس واضطهاد وعذاب ، فهو يتوقع في كل آونة قيام ثورة دموية يترأسها علويّ يحوط به عدد كثير من الأمة ، فتوجّه بكلّ ما في وسعه من جد وحزم ، وأنالهم شرّ أنواع العذاب ، وصبّ عليهم كؤوس غضبه وعاملهم بقسوة وشدة ، حتى قال أحد مخضرمي الدولتين شعراً :

يا ليت جور بني مروان دام لنا *** وليت عدل بني العباس في النار

مواقف

الإمام الصادق (عليه السلام)

مواقف الإمام الصادق (عليه السلام)

مواقف الإمام في الحكم الأموي

قضى الإمام الصادق (عليه السلام) خمسين عاماً من عمره في العهد الأموي ، أي من سنة (٨٣ هـ) إلى سنة (١٣٣ هـ) وهي السنة التي زال فيها سلطان الأمويين وقام على أنقاضه سلطان بني العباس.

ولقد شاهد حكم الأمويين في أيام عظمة سلطانهم ، وقوة نفوذهم ، ورأى تلك المعاملة القاسية التي عومل بها رجال الأمة ، وشاهد تلك الفجائع التي حلت بالمسلمين ، من جراء التحكّم والاستبداد من دون وازع ديني أو خوف عقاب أخروي.

فكان يطرق سمعه بين آونة وأخرى قتل جماعة ممن عرفوا بالولاء لآل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ومطاردة آخرين ، وتهبط عليه أنباء الفجيعة بزعماء أهل بيته ، الذين أراق الأمويون دماءهم من غير أن تُراعى فيهم حرمة لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد قتل زيد بن عليّ بالكوفة سنة (١٢٢ هـ) و صلب جسده عارياً منكوساً ، وأجساد خواصه معه خمس سنوات ، ثم أحرق وتُسف في اليمّ.

ثم أردفوه بولده يحيى بن زيد ، كما شاهد نصب عينيه ما كابده جدّه الإمام زين العابدين من جور الأمويين حتى قضى بالسّم على أيديهم ، وكذلك أبوه الإمام الباقر (عليه السلام).

وشاهد ولاية المدينة يجمعون العلويين قريباً من المنبر ليسمعوهم شتم عليّ وتنقيصه.

وكانت تؤلمه أنباء جور الولاية وعسفهم بالحكم ، وما يوقعونه في الأمة الإسلامية. وإذا رجع إلى ذلك الماضي المحزن وما يبلغه من حديث تلك الحوادث المؤلمة كواقعة الطف التي هي نصب عينيه كأنه قد شاهدها ، وكان يعقد المجالس فينشده الشعراء رثاء جدّه الحسين (عليه السلام) فيها فيبكي ، فهي تمثل له في كلّ آونة ، فيتوجّع لها قلبه ، ولكّنه يركن إلى الصبر.

وكذلك حديث يوم الحرّة وحديثها شجون ، فلا تزال آثار تلك الفاجعة باقية وإن طال العهد ، وشاهد أولئك الحكام الذين يحكمون باسم الخلافة الإسلامية وماهم منها

بشيء ، فلا عدل في حكم ، ولا مساواة في حقّ، ولا نظام يضمن للناس حريّاتهم ، والأمر إلى الفوضى أقرب منها إلى النظام.

عاش الإمام (عليه السلام) وسط ذلك الجوّ المضطرب بالفوضى والعبث والفساد والتلاعب بمقدرات الأمة ، وهو (عليه السلام) يحس بآلام الناس أكثر من غيره ، فماذا يصنع وقد طوّقه الأمويون برقابة شديدة ، وضربوا حوله دائرة ضيّقة ليحصروا نفوذه فيها .

ورغم ذلك كله راح (عليه السلام) يؤدي رسالته ليعالج إصلاح الوضع من طريق الهداية والإرشاد ونشر تعاليم الإسلام ، وإفهام الناس تلك النظم التي أهملها حكام عصره وجعلوها وراء ظهورهم ، وحكموا بلغة السيف وساسوا الأمة بالإرهاب والقسوة.

ولم يستجب (عليه السلام) للدعوات التي تتوالى عليه - عندما أعلنت الثورة على الأمويين - ليقود الثورة ويتقدّم الركب ، لأنّه على علم من نتائج تلك الحركات وهو أعرف بنفسيات زعماء الثورة وقادة الجيوش ، وهم إن ادعوا الولاء لآل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) والانتصار لهم ، وطلب البيعة إلى الرضا منهم ، ولكن هناك غايات في نفوس القوم لا تتحقّق إلا بهذه الادّعاءات ، فرفض (عليه السلام) تلك الطلبات الموجهة إليه لعلمه بما وراء الأكمة من الخطر.

ولقد ابتعد (عليه السلام) عن ذلك المعترك وبذل لأبناء عمّه النصّح بأن لا يزجّوا أنفسهم في ذلك الصراع ، وحدّرهم عاقبة الأمر التي لا تعود عليهم إلا بالخيبة، ولا يتحقّق لهم هدف ما دام الوقت لم يأت ، والدخول في أمر قبل أن يستحكم مفسدة له ، وإنّ إعلان الثورة في ذلك الوقت لا يجدي نفعاً بل يؤدي إلى مزيد من التضحيات واتّساع شقة الخلاف والفرقة ، وهو يعرف نوايا العباسيين وما يطلبونه من وراء انضمامهم إلى جانب العلويين.

موقف الإمام في دعوة الخلال لبيعته

ولمّا سبر أبو سلمة الخلال أحوال بني العباس وعرف نواياهم عزم على العدول عنهم إلى بني عليّ ، فكتب ثلاثة من أعيانهم : جعفر بن محمد الصادق (عليهما السلام) ، وعبد الله المحض، وعمرو الأشرف ، وأرسل الكتب مع رجل من مواليتهم وقال له : اقصد أولاً جعفر بن محمد الصادق ، فإن أجاب فأبطل الكتابين الآخرين وإن لم يجب فالق عبد الله المحض ، فإن أجاب فأبطل كتاب عمرو ، وإن لم يجب فالق عمرو.

فذهب الرسول إلى جعفر بن محمد (عليه السلام) أولاً ، ودفع إليه كتاب أبي سلمة فقال (عليه السلام) :

مالي ولأبي سلمة وهو شيعة لغيري ، فقال له الرسول : اقرأ الكتاب فقال الصادق لخادمه : أذن السراج ، فأدناه ، فوضع الكتاب على النار حتى احترق ، فقال الرسول : ألا تجيبه ؟ قال : قد رأيت الجواب.

ثم مضى الرسول إلى عبد الله المحض ، ودفع إليه الكتاب ، فقرأه وقبله وركب في الحال إلى الصادق (عليه السلام) وقال : هذا كتاب أبي سلمة يدعوني فيه إلى الخلافة ، قد وصل إليّ على يد بعض شيعتنا من أهل خراسان.

فقال الصادق (عليه السلام) : ومتى صار أهل خراسان شيعة ؟ أنت وجهت إليه أبا مسلم ؟ هل تعرف أحداً منهم باسمه ؟ فكيف يكونون شيعة وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك !!؟ فقال عبد الله : كان هذا الكلام منك لشيء.

فقال الصادق (عليه السلام) : قد علم الله أنني أوجب النصح على نفسي لكل مسلم ، فكيف أدخره عنك ! فلا تمن نفسك ، فإن هذه الدولة ستتم لهؤلاء^(٥٦) - يعني بني العباس - . ودخل عليه سدير الصيرفي فقال : يا أبا عبد الله ما يسعك القعود . فقال (عليه السلام) : ولم يا سدير ؟ قال : لكثرة مواليك وشيعة وأنصارك . فقال : يا سدير ، وكم عسى أن يكونوا ؟ قال : مائة ألف . قال : مائة ألف ؟ قال : نعم ، ومائتي ألف . فكان الجواب من الإمام بما حاصله عدم الركون لهذه الكثرة لقلة المخلصين منهم وعلمه بالعواقب^(٥٧) .

إخباره بصيرورة الأمر لبني العباس

ولما بايع الهاشميون محمد بن عبد الله بن الحسن ، قال لهم الإمام الصادق (عليه السلام) : لا تفعلوا فإن الأمر لم يأت بعد ، وضرب بيده على ظهر أبي العباس السفاح ، ثم ضرب بيده على كتف عبد الله بن الحسن وقال : والله إنها ماهي إليك - أي الخلافة - ولا إلى ابنك ، ولكنها لهم - أي لبني العباس - وإنّ ولدك لمقتولان . ثم نهض وتوكل على يد عبد العزيز بن عمران الزهري فقال : رأيت صاحب الرداء الأصفر ؟ - يعني المنصور - قال : نعم . قال : فإنا والله نجده يقتله . فقال عبد العزيز : أقتل محمداً ؟ . قال : نعم ، قال : فقلت

(٥٦) الآداب السلطانية لابن الطقطقي ص ١١١ .

(٥٧) أصول الكافي ج ٢ ص ٢٤٣ .

في نفسي حسده وربّ الكعبة. قال عبد العزيز : فو الله ما خرجت من الدنيا حتى رأيت المنصور قتلها^(٥٨).

ولا زال الإمام الصادق (عليه السلام) يخبر بصيرورة الأمر لغير آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ولا زال يقول : إنه صائر لبني العباس.

روى علي بن عمرو عن ابن داحة أنّ جعفر بن محمد قال لعبد الله بن الحسن - وكان السفاح والمنصور معهما - : إنّ هذا الأمر والله ليس اليك ولا إلى ابنك وإنّما هو لهذا - يعني السفاح - ثم لهذا - يعني المنصور - ثم لولده من بعده لا يزال فيهم حتى يؤمّروا الصبيان ويشاوروا النساء ، وإنّ هذا - يعني المنصور - يقتله على أحجار الزيت^(٥٩) ثم يقتل أخاه بعده ، ثم قام مغضباً يجرّ رداءه فتبعه المنصور.

فقال : أتدري ما قلت يا أبا عبد الله ؟ قال : أي والله أدريه وإنّه لكائن. وعلى أيّ حال فإنّ الإمام الصادق (عليه السلام) قد مرّت عليه أخطار هائلة وفجائع مؤلمة وقد تلقاها بقلب مؤمن بالله ملتجئاً إليه سبحانه وتعالى في جميع أموره ، مخلصاً له في دعوته لا تأخذه في الحقّ لومة لائم ، ولا يقعد به عن أداء رسالته خوف ظالم ، وقد خاض غمار تلك الأخطار بثبات قلب ورأي سديد وحكمة بالغة. وقد اختطّ لنفسه طريقاً سار فيه إلى الدعوة وتأدية الرسالة ، وأمر أصحابه بالثبات والعمل بما يدعون إليه من تطبيق نظام الإسلام ، وأمرهم بالدعوة الصامتة وقد عرف حاجة المجتمع إلى الالفة ، وإزالة رواسب الخلافات وحمل الناس على تطبيق مبادئ الإسلام ليوحد من المجتمع الإسلامي قوة متكاتفة تصرخ في وجوه الظلمة ، وتحملهم على الاعتدال في السيرة والعدل في الحكم، والمساواة في الرعاية ، وسيأتي مزيد بيان لهذا الموضوع، كما تقدمت الإشارة إليه في الجزء الأول.

موقفه من الحركات الفكرية

هذا من ناحية الموقف السياسي. أمّا ما يتّصل بالحياة الاجتماعية والعقائد الدينية فكان الأمر أدهى وأمر ، فقد صحبت تلك العاصفة السياسية تيّارات فكرية جارفة ، وهزات إحادية قوية ، وتطور غريب في النزعات والاتجاهات أقلق بال حماية الشريعة والذائدين عن حوضها ، وحدثت عصبية جاهلية ذميمة ، وقد نهض الإمام

(٥٨) أنظر مقاتل الطالبين ص ١١٧ ، تاريخ الطبري ج ٩ ص ٢٣٣ ط ١.

(٥٩) أحجار الزيت موضع بالمدينة المشرفة وهو خارجها ، استشهد به محمد بن عبد الله بن الحسن سنة (١٤٥ هـ) وقتل أخوه إبراهيم بالعراق لخمس ليال بقين من ذي القعدة منها وكان عمره (٤٨) سنة.

الصادق(عليه السلام) لمقارعة أهل الباطل ، وباحث الفلاسفة والدهريين ، وأهل الكلام الجدليين ، الذين تصدّوا لإفساد معتقدات الناس فأبطل بنور حكمته مقالاتهم الفاسدة وسفستهم الفارغة^(٦٠) ، فنبههم عن غفلتهم وأيقظهم من رقدهم ، وأوضح لهم اعوجاج مذاهبهم والتواء سبلهم ، ودعاهم إلى كلمة الحقّ، وجادلهم بالتّي هي أحسن ، وناقشهم بالبرهان الساطع وقد احتفظ التاريخ بكثير من تلك المناظرات ، كما نظرت في التوحيد مع الزنديق الذي قدم من مصر ، واسمه عبد الملك لينظر الإمام، فناظره حتى آمن قلبه ، واطمأنت نفسه بعد الزيغ والارتياب ، وطلب من الإمام تعليمه وإرشاده، وقال : اجعلني من تلاميذك، فقال الصادق لهشام، خذ إليك فعلمه^(٦١). وجاء إليه زنديق آخر وسأله عن أشياء : منها أنّه قال له : كيف يُعبد الله ولم يُر ؟ فقال أبو عبد الله : رأته القلوب بنور الإيمان ، وأثبتته العقول بيقظتها إثبات العيان ، وأبصرته الأبصار بما رأته من حسن التركيب وإحكام التأليف من عظمتة دون رؤيته. إلى آخر المناظرة^(٦٢).

وكان الجعد بن درهم من الزنادقة يضلّ الناس ويغويهم وقد جعل في قارورة تراباً وماءً فاستحال دوداً وهواماً فقال : أنا خلقت هذا ، لأنّي كنت سبب كونه. فبلغ ذلك جعفر بن محمد (عليه السلام) فقال : ليقلّ كم هو، وكم الذكر والإناث إن كان خلقه وليأمر الذي يسعى إلى هذا أن يرجع إلى غيره. قال ابن حجر : فبلغه ذلك فرجع^(٦٣). وله مناظرات مع عبد الكريم بن أبي العوجاء^(٦٤) وأصحابه وغيرهم من الزنادقة ، فكان جوابه الفصل والحكم العدل ، وستأتي الإشارة إلى تلك المناظرات في باب احتجاجاته.

موقفه من حركة الغلاة

وإنّ من أعظم المشاكل على الإمام الصادق (عليه السلام) وأهمّها عنده هي حركة الغلاة الهدامة الذين تطلّعت رؤوسهم في تلك العاصفة الهوجاء إلى بثّ روح التفرقة بين المسلمين ، وترعرعت بنات أفكارهم في ذلك العصر ليقوموا بمهمة الانتصار

(٦٠) الرسالة الأولى في الإمام الصادق (عليه السلام) للأستاذ توفيق الفكيكي المحامي.

(٦١) الإمام الصادق للمظفر ج ١ ص ٢١٢.

(٦٢) انظر احتجاج الطبرسي ج ٢ ص ٣٣٧ وبحار الأنوار ج ٤ ص ٢٦ والكافي ج ١ ص ١٣٨ ح ٤ في احتجاجات الصادق.

(٦٣) لسان الميزان ج ٢ ص ١٠٥.

(٦٤) عبد الكريم بن أبي العوجاء هو خال معن بن زائدة قتل على الزندقة سنة (١٦١ هـ). ولما أخذ لتضرب عنقه، قال :

لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحرم فيها الحلال وأحلل الحرام.

لمبادئهم وأديانهم التي قضى عليها الإسلام ، فقد اغتتموا الفرصة في بثّ تلك الآراء الفاسدة في المجتمع الاسلامي ، فكانوا يبتئون الأحاديث الكاذبة ويسندونها إلى حملة العلم من آل محمد ليلبسوا مبدأهم الصحيح ثوباً لا يليق به ، ويسندوا إليه ما ليس منه ، فكان المغيرة بن سعيد^(٦٥) يدّعي الاتصال بأبي جعفر الباقر (عليه السلام) ويروي عنه الأحاديث المكذوبة ، فأعلن الإمام الصادق (عليه السلام) كذبه والبراءة منه ، وأعطى لأصحابه قاعدة في الأحاديث التي تروى عنه فقال : لا تقبلوا علينا حديثاً إلا ما وافق القرآن والسنة ، أو تجدون معه شاهداً من أحاديثنا المتقدمة ، فإنّ المغيرة بن سعيد لعنه الله دسّ في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدث بها فاتّقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا وسنة نبينا (صلى الله عليه وآله وسلم).

وقال (عليه السلام) : «لعن الله المغيرة بن سعيد ولعن يهودية كان يختلف إليها...» الخ .^(٦٦) فكان (عليه السلام) يهتمّ أشدّ الاهتمام بأمر الغلاة ، لأنّ بعضهم ادّعى أنّ جعفر بن محمد إله - تعالى الله عن قوله - فعظم ذلك على الإمام جعفر بن محمد (عليه السلام) وحاول أن يقدر عليه فلم يقدر ، فأعلن لعنه والبراءة منه ، وجمع أصحابه وأعلمهم بذلك وكتب إلى جميع البلدان بكفره ولعنه والبراءة منه^(٦٧).

وقد أعلن (عليه السلام) براءته من الغلاة ويقول لأصحابه : لا تقاعدوهم ولا تواكلوهم ، ولا تشاربوهم ، ولا تصافحوهم ، ولا توارثوهم. ولما قتلوا بالكوفة قال (عليه السلام) : لعن الله أبا الخطاب ولعن الله من قُتل معه ولعن الله من دخل قلبه رحمة لهم ، وكان يقول على أبي الخطاب لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.^(٦٨)

وقال لأبي بصير : يا أبا محمد، ابرأ ممن يرى أنّنا أرباب. فقال أبو بصير : أنا بريء إلى الله منه ، قال : ابرأ ممن يزعم أنّنا أنبياء. فقال : أنا بريء منه إلى الله.^(٦٩)

وقال (عليه السلام) : من قال بأننا أنبياء فعليه لعنة الله ، ومن شكّ في ذلك فعليه لعنة الله.^(٧٠) وله كثير من هذه الأقوال التي أظهرها للملأ في محاربة تلك الفئة الزائغة وحثّ الناس على مقاومتهم ، وكان يقول : ليس لهؤلاء شيء خير من القتل. ولم يكذب يعلن

(٦٥) المغيرة بن سعيد مولى بجيلة، كذاب قال ابن عدي : لم يكن بالكوفة ألعن من المغيرة بن سعيد كان يكذب على أهل البيت. قتله خالد القسري سنة (١١٩ هـ) مع عدد من أصحابه.

(٦٦) رجال الكشي ص ٢٢٥ / ٤٠٣.

(٦٧) دعائم الإسلام ص ٦٢ - ٦٣.

(٦٨) رجال الكشي ص ٢٩٦ / ٥٢٤.

(٦٩) رجال الكشي ص ٢٩٧ - ٢٩٨ / ٥٢٩.

(٧٠) رجال الكشي ص ٣٠١ / ٥٤٠.

(عليه السلام) على الملأ براءته حتى أحدث ذلك صدعاً في صفوفهم وفرّق كلمتهم ، وعرف الناس نواياهم وما يقصدون في إظهار تلك العقائد الفاسدة ، فمزّق الله شملهم وأباد جمعهم ، ولم يُبق لهم أثراً في الوجود.

وعلى أيّ حال فإنّ عصر الإمام من أهمّ العصور ففيه من المشاكل مالم تكن في غيره ، ولا يسعنا التفصيل لجميع تلك المشاكل، وسيأتي مزيد بيان لتلك الأوضاع كما سنعرّض إلى بعض مناظراته مع أهل الفرق وجميع أهل الأهواء والآراء الفاسدة ، وهو يدعوهم بدعوة الحق، لاتباعه فكان لكلامه أثر في تنفيذ آرائهم وإبطال أقوالهم.

ومهما يكن من أمر فإنّ مشكلة الغلاة في عصر الإمام الصادق (عليه السلام) كانت من أهمّ المشاكل الاجتماعية ، التي واجهها (عليه السلام) ونبه المسلمين على نوايا أولئك الأفراد الذين قاموا بنشاط معاد للإسلام في تلك الحركات الفكرية في عصر ازدهار العلم وانطلاق الفكر.

وقد أعلن - كما تقدّم وسيأتي فيما بعد - الحرب عليهم وأمر أتباعه بمقاطعتهم والتبري منهم ، مما أدّى إلى كشف الستار عن نواياهم السيئة ، وإظهار مقاصدهم الخبيثة إلى الرأي العام ، فوئدت حركاتهم في مهدها ، ولم يبق إلا نقل أقوالهم في بطون الكتب.

وسنرى في الأبحاث القادمة كيف ارتكب بعض الكتاب جناية العمد لهضم الحقيقة ، في الابتعاد عن نزاهة البحث بتعصّبهم الأعمى عندما راحوا يربطون بين الحاضر والماضي ، ويقىمون هياكل وهمية ، وبيتدعون أسماء فرق بلا مسميات وينسبون لها إلى الشيعة بما لا يتلاءم وواقع الحقيقة والعقل.

وليس من شك بأنّ تلك التهجّمات إنّما كانت لأغراض سياسية بحتة وليس للعلم فيها دخل ، وهي من وحي التعصّب ونسج الخيال ، كما أشرنا إليه سابقاً ونتعرّض له فيما بعد.

الإمام الصادق (عليه السلام)
تلامذته ورواة حديثه

الإمام الصادق (عليه السلام) تلامذته ورواة حديثه

توجيهه الأمة الى الشعور بالمسؤولية

كانت المدينة المنورة مأهولة بالصحابة والتابعين ، زاخرة برجال الأمة، تنتظم فيها حلقات الفقه ، وتكثر عليها الوفود من أطراف البلاد ومختلف الأقطار ، ويتخرج منها حقاظ الحديث والفقهاء ، لأنها دار هجرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وموطن الشرع ومبعث النور ، وعاصمة الحكم الإسلامي الأول ، وهي مهد السنن والمرجع للأمة ومعدن العلم والفقه ، ولها المكانة السامية ، وفيها أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وعترته « الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » فهم حملة العلم وأعلام الأنام وحكام الإسلام^(٧١) ، قوم بنور الخلافة يشرقون وبلسان النبوة ينطقون^(٧٢).

وفي هذا البلد الطيب والبيت الطاهر ولد أبو عبد الله الصادق (عليه السلام) ونشأ في بيت النبوة ، ودرج في ربوع الإيمان ، ونهض (عليه السلام) لأداء رسالته في نشر تعاليم الإسلام من دار الهجرة ومهبط الوحي ومعدن الرسالة.

وكانت مدرسة الإمام الصادق (عليه السلام) ثابتة المبدأ متصلة الكفاح ، وجد الناس فيها ثروة علمية ، وكانوا يحيون فيها حياة فكرية تهدب النفوس وتسمو بالعقول ، وترتقي بهم إلى أوج المعرفة والكمال.

وكان (عليه السلام) غرضه المباشر هو توجيه الناس إلى أسمى درجة من التفكير ، وإفهام الأمة نظم الإسلام على الوجه الصحيح ، وتطبيقه بين أفراد الأمة من طريق العلم وحرية التفكير ، ليعالج مشاكل ذلك المجتمع بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويدعو الناس من طريق الهداية والإرشاد إلى التمسك بتعاليم الدين ، وتطبيق تلك النظم التي أهملها الحكام وجعلوها وراء ظهورهم.

وازدهرت المدينة المنورة في عصر الإمام الصادق (عليه السلام) ، وزخرت بطلاب العلم ووفود الأقطار الإسلامية ، وانتظمت فيها حلقات الدرس ، وكان بيته كجامعة إسلامية يزدهم فيه رجال العلم وحملة الحديث من مختلف الطبقات ، ينتهلون موارد

(٧١) الكلمة لسعيد بن المسيب وهو أحد التابعين.

(٧٢) القول لمسلم بن هلال العبدي. مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ج ١ ص ٢١٨.

علمه ويقتبسون من ضياء معرفته ، وقد اغتتموا تلك الفرصة فازدحموا عليه يسألونه
إيضاح ما أشكل عليهم «فحمل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر
ذكره في جميع البلدان» (٧٣).

وازدحم على بابيه العلماء واقتبس من مشكاة أنواره الأصفياء ، وكان متجهاً إلى
العمل بما يرضي الله لا يفتر عن ذكره ولا ينفك عن طاعته.

يحدثنا مالك بن أنس ، وهو تلميذ الإمام تردّد عليه زماناً طويلاً قبل أن تفصل
بينهما عوامل الدولة ، وتحول وجهة نظر مالك عن الإمام عندما رفعت من مقامه ،
وأعلنت من شأنه ، ووجهت الأنظار إليه طوعاً أو كرهاً رهبة أو رغبة يقول : ولقد
كنت أرى جعفر بن محمد (عليه السلام) وكان كثير التبسّم ، فإذا ذكر عنده النبي (صلى الله
عليه وآله وسلم) اصفرّ لونه ، وما رأيته يحدث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا على
طهارة. ولقد اختلفت إليه زماناً فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال : إمّا مصلياً، وإمّا
صامتاً ، وإمّا يقرأ القرآن ، ولا يتكلم بما لا يعنيه ، وكان من العلماء والعباد الذين
يخشون الله (٧٤).

وفي رواية الحافظ النيسابوري : وكان كثير الحديث طيّب المجالسة كثير الفوائد ،
فإذا قال : قال رسول الله اخضر مرةً واصفر أخرى حتى ينكره من يعرفه. ولقد
حجبت معه فلما استوت به راحلته عند الإحرام انقطع الصوت في حلقه وكاد يخرّ
من راحلته.

ولو اطلعنا على أخبار الإمام الصادق ومناظراته لعلمنا حقيقة واقع ذلك العصر
في جانبه الديني وحياته الفكرية، فهو عصر شهد تلاقي الأفكار والتقاء الآراء في
أطار المجتمع الإسلامي الواسع الذي انضمّ إليه طوائف من أديان سابقة وشعوب من
حضارات أخرى، وقد استهوت مناهج هؤلاء وطرقهم عقول بعض المسلمين فتوغلوا
في تقليدها وتوسّعوا في مجاراتها، فكان أن اختلّ ثبات الرأي وضوابطه المعروفة،
وأقحموا أنفسهم في مغاليق ومبهمات عمد الإسلام الى إيضاحها وبيانها في مسائل
التوحيد والإيمان وعموم الأحكام غير أنهم مالوا الى بهرج اللفظ والصياغة وظنّوا أنّ
تغيير وسائل القول وألوان الكلام سيكتب لهم المنزلة السامية والمكانة العليا فكيف
وقد تعمّدوا ما لا يؤمن بنتيجته؟ واتخذوا من المناهج ما يقتضي تكلفاً يبعد عن وضوح
المعهود وجلائه.

(٧٣) الصواعق المحرقة لابن حجر ص ١٢٠ .

(٧٤) التوسل والوسيلة لابن تيمية ص ٥٢ .

وهنا برز الإمام الصادق في خضم معترك فكري وديني، ولولا خصائص الإمامة ونور النبوة الذي يفيض من منطقه لما تمكّن بشر من القيام بتلك المهمات والمسؤوليات الجسام، فكان (عليه السلام) يتصدى للأفكار التي تمسّ العقيدة وتؤثر في الدين، وكان يتحرى أقول الآخرين وينظر أصحاب الدعوات والآراء والكلّ يلجأ إليه لما اشتهر به من علم، وقد كان (عليه السلام) في موجات هذا الخضم لا ينسى كيف يصون نفسه من الحكام ويجنب شيعته الأذى وهو يعدّهم إعداداً متميزاً ويوجههم توجيهاً هادفاً.

وقد كان منهم نخبة يلزمونه ويختصون به وقد وكل إليهم الإمام الصادق كثيراً من المهام الاجتماعية وعهد إليهم بأدوار دينية ودفع بهم الى واقع الأمة وكل منهم لديه ذخيرة من التعاليم والآداب الدينية.

وفي تلك الفترة كانت مدرسته (عليه السلام) تقوم على قاعدة علمية كبرى تتفرع منها بقية العلوم التي يتلقاها الطلاب، فربط (عليه السلام) ضروب النشاط العلمي في مجمع مدرسته ومنتداهما بالتوحيد والإيمان، وجعل من وجوب المعرفة بالله أصلاً لذلك، فكان يملئ على أصحابه وطلابه قائلاً: وجدت علم الناس كلهم في أربع: أولها أن تعرف ربك، والثاني أن تعرف ما صنع بك، والثالث أن تعرف ما أراد منك، والرابع أن تعرف ما يخرجك عن دينك. ولا نريد أن نشير الى أغلب جوانب الحركة الفكرية في مدرسة الإمام الصادق، لأنّ ذلك سيتوزع على أجزاء الكتاب فنعاود ذكرها وبحثها لكننا نؤكد على بنائها والاهتمام العالي في منهجها وإشراف الإمام الصادق على نشاطها ومباشرة مهماتها بنفسه، وقد أصبح لمنهجها ورجالها شهرة في أرجاء العالم الإسلامي واختلف إليها طلاب العلم على تباين مقاصدهم، وكان الإمام يجيب كلّ من يسأله مراعيّاً اهتمامات السائل ومقاصده.

عن يونس بن يعقوب قال: كنت عند أبي عبدالله (عليه السلام) فورد عليه رجل من أهل الشام فقال له: إني رجل صاحب كلام وفقه وفرائض وقد جئت لمناظرة أصحابك.

قال له أبو عبدالله: كلامك هذا من كلام رسول الله (صلى الله عليه وآله) أو من عندك؟ فقال: من كلام رسول الله (صلى الله عليه وآله) ومن عندي بعضه، فقال له أبو عبدالله (عليه السلام): فأنت إذن شريك رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟ قال: لا، قال: سمعت الوحي عن الله؟ قال: لا، قال الصادق (عليه السلام): فتجب طاعتك كما تجب طاعة رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟ قال: لا، فالتفت أبو عبدالله إليّ فقال: يا يونس ابن يعقوب، هذا قد خصم نفسه، ثم أمر (عليه السلام) بعضاً من

أصحابه ورجال مدرسته بأن يكلموا الرجل^(٧٥) فانعقدت مناظرة ستأتي تفاصيلها حسب البحث إن شاء الله.

حثه على التجارة وطلب الرزق

كان الحلقات التي تعقد في مدرسة الإمام الصادق (عليه السلام) هي الصعيد الذي تنطلق عليه تعاليم الإمام وإرشاداته ، فكان يزرع الفضيلة في النفوس ويغرس الخير فيها.

وكان حديثه (عليه السلام) يشمل كل أمور الحياة وجوانبها ، فهو يهدف إلى تصفية الغرائز ويرسم طريق الصلاح والهداية ويوضح للناس سبل الخير.

وجعل هدفه الأسمى في توجيه الناس إلى الورع عن محارم الله والخوف منه ، والامتثال لأوامره ، والشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى وجعل يوم الحساب ماثلاً أمام أعينهم للمحافظة على القيم الروحية، وليرفع من مستوى أخلاقهم، وكان (عليه السلام) يرمي إلى تشجيع روح العمل والقيام بواجبات المعاش لتكون شخصية المسلم تجمع بين زاد المعاد بالإيمان الخالص وزاد المعاش بالكسب الحلال. وكان يسمي التجارة ودخول السوق بالعز، كما يحدثنا المعلى بن خنيس، قال: رأني أبو عبد الله وقد تأخرت عن السوق، فقال لي: اغد إلى عزك. وقال لآخر وقد ترك غدوه إلى السوق: مالي أراك تركت غدوك إلى عزك؟! قال: جنازة أردت أحضرها. قال: فلا تدع الرواح إلى عزك. وقال لمعاذ ببيع الأكيسة عندما ترك التجارة: لا تتركها فإن تركها مذهبة للعقل، اسع على عيالك وإياك أن يكونوا هم الساعة عليك. وسأل عن رجل من أصحابه، فقال: ما حبسه عن الحج؟ فقيل: ترك التجارة وقلّ شئنه، فاستوى الإمام جالساً وكان متكئاً، ثم قال: لا تدعوا التجارة فتهونوا؛ اتجروا بارك الله لكم. وقال معاذ: قلت لأبي عبد الله: إني هممت أن أدع السوق، فقال: إذا سقط رأيك ولا يستعان بك على شيء^(٧٦)

فهو بهذه التعاليم القيّمة يبعث في نفوس أصحابه إلى طلب المعاش ليجد منهم ذوي نفوس لا تخضع لذي ثروة ، ويحتفظون بكرامتهم عن الخضوع له والاستغناء عنه ، وليكونوا ذوي قدرة على الإنفاق عن سعة لمساعدة ذوي العسرة وأهل الضنك من المؤمنين. ولما كان حبّ المال يؤدّي إلى الانصراف عن قيم الحياة الرفيعة ، ويدعو صاحبه إلى العناء والاستغراق في جمعه والانشغال به ، نبه على ذلك بقوله :

(٧٥) الإرشاد ص ٢٦٠، الاحتجاج ص ١٢٢ .

(٧٦) الكافي ج ٥ ص ١٤٩ ح ١٠.

ليكن طلبك للمعيشة فوق كسب المضيع ودون طلب الحريص الراضي بدنياه المطمئن اليها ، انزل نفسك من ذلك بمنزلة المنصف المتعفف ، وترفع بنفسك عن منزلة الواهن الضعيف، وتكسب ما لا بد منه للمؤمن. ثم يحدثهم عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بما يرويه عن آبائه في الإجمال بالطلب وعدم الاستغراق في حب المال. ولما كان الاقتصاد في المعيشة أقوى عامل للتوفير وزيادة الثروة ، فلم يهمل هذه الناحية بل نبّه عليها بقوله (عليه السلام):

« إن السرف يورث الفقر ، وإن القصد يورث الغنى ».(٧٧)

دعوته الى العمل

وكان يحثّ على العمل ويعمل بنفسه ولا يحتقر ذلك ، لأنّ تكريم الإنسان في عمله ، فهو (عليه السلام) قد حثّ على العمل قولا وفعلا. وقد تضافرت الأخبار بأنّه كان يعمل بيده ويتجر بماله .

يحدّثنا أبو عمر الشيباني ، قال : رأيت أبا عبد الله الصادق - وبيده مسحاة يعمل في حائط له والعرق يتصبب - ، فقلت : جعلت فداك أعطني أكفك ، فقال لي : إني أحبّ أن يتأدّى الرجل بحرّ الشمس في طلب المعيشة.(٧٨) ويقول إسماعيل بن جابر : أتيت أبا عبد الله وإذا هو في حائط له ، وبيده مسحاة وهو يفتح بها الماء... (٧٩)

وعن الفضل بن قرة قال : دخلنا على أبي عبد الله في حائط له ، وبيده مسحاة يفتح بها الماء وعليه قميص... وكان يقول إني لأعمل في بعض ضياعي ، وإنّ لي من يكفيني ليعلم الله عزّ وجلّ أنني أطلب الرزق الحلال.(٨٠)

وكان (عليه السلام) يشجّع على العمل ويحثّ عليه ، لأنّه يرى أنّ الكسالة تؤدّي الى الخطّ من كرامة المرء ، وتقذف به في حضيض الهوان. فإنّ الإسلام يرشد بتعاليمه الى الجدّ وطلب المعيشة في الدنيا ، كما أرشد الى العمل وطلب الجزاء في الآخرة. ولقد وهب الله للإنسان في عقله وجسمه قدرة يطرق بها أبواب الخير في رزقه ، فلا يصحّ له أن يذر أعمال تلك القوة ويسأل الرزق بلسان العاجز الكسلان.

(٧٧) من لا يحضره الفقيه ج ٣ ص ١٠٧ ، ح ٤٤٦ .

(٧٨) الكافي ج ٥ ص ٧٦ ح ١٣ .

(٧٩) الكافي ج ٥ ص ٧٦ ح ١١ .

(٨٠) من لا يحضره الفقيه ج ٣ ص ١٠٤ ح ٤٢٧ .

وقد ورد في الحديث : «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً»^(٨١).
فالعامل في الإسلام ضمن قواعده المهمة ، ولم يرض للمسلم البطالة والكسل ،
حتى ورد في الحديث «ملعون ملعون من ألقى كله على الناس»^(٨٢) ، ملعون ملعون من ترك من
يعول به»^(٨٣).

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) : ما غدوة أحدكم للجهاد في سبيل الله بأعظم من غدوة من
يطلب لولده و عياله ما يصلحهم.^(٨٤)

وقال (عليه السلام) : الشاخص في طلب الحلال كالمجاهد في سبيل الله^(٨٥). الى غير ذلك من
شدة الاهتمام بطلب الحلال. فكان الإمام الصادق (عليه السلام) كثيراً ما يلقي على
تلامذته تلك الدروس القيّمة ويحثهم على العمل والجدّ، وينهاهم عن البطالة التي تخمد
جذوة الفكر ، وتعودّ الجسم على العجز ، وتميل به عن الاعتدال ، وتسقطه في
المجتمع من عين الاعتبار. ولقد قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : «إني لأرى الرجل
فيعجبني ، فأقول : أله حرفة ؟ فإن قالوا : لا. سقط من عيني»^(٨٦).

ولذلك قال الإمام الصادق (عليه السلام) لمعاذ عندما أراد ترك العمل والتجارة : إذا
يسقط رأيك ولا يستعان بك على شيء.

وبعد أن دعاهم (عليه السلام) الى العمل قولاً وفعلاً بيّن لهم قواعد مشروعة لما يصحّ
الاكتساب به وما لا يصح ، وفصلّ لهم أهمّ ما يتعلق بنظام الحياة الاجتماعية من
حيث الكسب للمال ، وكيفية تملّكه وانفاقه ، لأنّ المال وسيلة فعّالة في حياة الانسان ،
فلا بدّ من نظام يكفل بيان ذلك ، ونقتصر على بعض ما رواه الحسن بن علي بن شعبة
في تحف العقول : أنّ سائلاً سأل الإمام (عليه السلام) كم جهات معاش العباد التي فيها
الاكتساب والتعامل بينهم ووجوه النفقات ؟ فقال (عليه السلام) :

جميع المعاش كلها من وجوه المعاملات فيما بينهم ممّا يكون لهم فيه المكاسب أربع جهات ويكون
منها حلال من جهة وحرام من جهة.

(٨١) من لا يحضره الفقيه ج ٣ ص ١٥٦ ح ٣٥٦٩.

(٨٢) الكافي ج ٥ ص ٧٢ ح ٧.

(٨٣) من لا يحضره الفقيه ج ٣ ص ١٦٨ ح ٣٦٣٠.

(٨٤) دعائم الاسلام ج ٢ ص ١٥ ح ٩.

(٨٥) بحار الأنوار ج ١٠٠ ص ١٧ ح ٧٨.

(٨٦) بحار الأنوار ج ١٠٠ ص ٩ ح ٣٨.

فأول هذه الجهات الأربع : الولاية ، ثم التجارة ، ثم الصناعات ، ثم الاجارة. والفرض من الله تعالى على العباد في هذه المعاملات الدخول في جهات الحلال ، والعمل بذلك الحلال منها ، واجتناب جهات الحرام.

فإحدى الجهتين من الولاية ولاية العدل الذين أمر الله بولايتهم على الناس. والجهة الأخرى ولاية ولاية الجور ، فوجه الحلال من الولاية ولاية الوالي العادل وولاية ولاته بجهة ما أمر به الوالي العادل بلا زيادة ولا نقصان ، فالولاية له والعمل معه ، ومعاونته وتقويته حلال محلل.

وأما وجه الحرام من الولاية فولاية الوالي الجائر وولاية ولاته، فالعمل لهم والكسب معهم بجهة الولاية لهم حرام محرّم، معذب فاعل ذلك على قليل من فعله أو كثير ، لأن كل شيء من جهة المعونة له معصية كبيرة من الكبائر ، وذلك أنّ في ولاية الوالي الجائر دروس الحقّ كله ، فلذلك حرم العمل معهم ومعاونتهم والكسب معهم إلا بجهة الضرورة ، نظير الضرورة الى الدم والميتة... ثم بيّن(عليه السلام) بقية المعاملات والمكاسب بما لا يتّسع المجال لذكره هنا.(٨٧)

وقول الإمام الصادق من أعظم الأدلة على منهج أهل البيت في اعتزال الجائرين وحثّ الأمة على الابتعاد عنهم حتى أنّ المكانة التي يحتلّها العمل في حياة المرء وما قام به الإمام(عليه السلام) من دعوة الى العمل قيّد حلّها وبيّن جهة الحرام منها إذا كانت مع الاعتراف بولايتهم والإقرار بشرعيّتهم فالعمل على مثل هذه الحال حرام والكسب في ظلّ الولاية لهم حرام، فانظر الى مثل هذا التوجيه الذي يرمي الى الحفاظ على روح الشريعة في صورة المجتمع وهيكله، ويجعل الجور طارئاً والظلم قصيراً، لأنّ الأمور لابدّ أن تعود الى وضعها.

وكذلك فإنّ الإمام(عليه السلام) يعرض الحالات الاجتماعية التي تكثّر صورها ويصوّر حكم الدين فيها لكي يزيع عن الناس غشاوة الجهل ويدفعهم الى حال من التبصّر والمعرفة، فهو يقول للوليد بن صبيح عن الثلاثة الذين يُردّ دعاؤهم قال(عليه السلام): أحدهم له مال فأنفق في وجهه فيقول: ياربّ ارزقني، فيقول الله عزّ وجل: ألم أرزقك؟ ورجل يجلس في بيته ويسعى في طلب الرزق ويقول: رب ارزقني، فيقول الله عزّ وجل: ألم أجعل لك سبيلاً الى الرزق؟ ورجل له امرأة تؤذيه، فيقول: يا ربّ خلصني منها، فيقول الله عزّ وجل: ألم أجعل أمرها بيدك؟

ولأصحاب النظريات الحديثة والمدافعين عن الطبقات الكادحة نقول: إنّ الإمام الصادق كان يصنّف أبواب المعاملات بعرض المسائل وأحكامها على تلامذته، فعن

هشام بن الحكم في الحمّال والأجير أنّ الإمام الصادق قال: لا يجفّ عرقه حتى تعطيه أجرته.

وعن شعيب قال: تكارينا للإمام الصادق (عليه السلام) قوماً يعملون له في بستان له وكان أجّلهم الى العصر، فلما فرغوا قال (عليه السلام): يا شعيب اعطهم أجورهم قبل أن يجفّ عرقهم^(٨٨).

دعوته للألفة والأخوة الإسلامية

وكان (عليه السلام) يدعو الى الاحتفاظ بالأخوة الإسلامية ، ويدعو الى الألفة والتقارب ، وينهى عن التباغض والتباعد ، ويحاول تأليف القلوب بمختلف الطرق ، لأنّ الحبّ أقوى عامل لسعادة بني الانسان ، وبالحبّ ينتظم العالم، وهو القانون الطبيعي لكيان الحياة، ولذلك نجد روح الإسلام مفعماً بالمودة والإخاء والاخلاص والنصيحة، فكتاب الله وسنة رسوله الكريم دعوة خالصة ونداء دائم، بالأخوة وجمع الكلمة ونبذ الفرقة، والاعتصام بالدين، أما الكراهية فإنّها تبعث الشقاء وتثير الشحناء ، لأنّ عين الكراهة لا تبصر المحاسن بل تتطلع الى العيوب ، وان لم تجد فتقلب الحسن قبيحاً ، فلذلك نهى الشارع المقدّس عن الأمور التي تثير العداء بين المسلمين ، وتخلّ بتماسكهم وتخلخل أوضاعهم وتخلق الاضطراب والنفرة، وتذهب الى أبعد حدود القلق، فكان من أسس نظام الدين الإسلامي هي الأخوة ، فلذا آخى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بين أصحابه ، وأمر المسلمين بالمؤاخاة. وقال تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)^(٨٩) وجعل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عنوان الاخوة : أن تحبّ لآخيك ما تحبّ لنفسك، فإذا كنت تحبّ لآخيك الخير أحبّه لك^(٩٠) ، فكانت راحة نفسك من عاملين قويين.

وهكذا إذا كثرت الأسباب والدواعي ، واتسع ميدان الإخاء ، فإذا كان المسلم يحب نفع أخيه كما يحبّه لنفسه ، فبالطبع إنّهُ لا يأتي منه ضرر ، فإذا أمن الإنسان ضرر أبناء جنسه ، فتلك هي السعادة ، وهل ترى مظهراً للمدنية الصحيحة أجلى من هذا المظهر؟ فالله سبحانه وتعالى رحمة بعباده جعل الأخوة الإسلامية ليتم لهم نظام الحياة ، ويتعاونوا على البرّ والتقوى ، ولا يتعاونوا على الإثم والعدوان.

لذلك كان الإمام الصادق (عليه السلام) يدعو بتعاليمه الى الأخوة الإسلامية. ويحثّ على مساعدة الإخوان وقضاء حوائجهم.

(٨٨) الكافي للكليني: ٢٨٩/٥ ح ٣ بتفاوت يسير، تذكرة الفقهاء للعلامة الحلي: ٢٩٠/٢.

(٨٩) الحجرات : ١٠ .

(٩٠) بحار الأنوار ج ٧١ ص ٢٣٥ ح ٣٢.

قال صفوان الجمال : دخلت على أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) إذ دخل عليه رجل من أهل مكة يقال له ميمون فشكى إليه تعذر الكراء عليه ، فقال لي (عليه السلام) : قم فأعن أخاك ، فقممت معه فيسّر الله كراه ، فرجعت الى مجلسي ، فقال أبو عبد الله : ما صنعت في حاجة أخيك ؟ فقلت : قضاها الله بأبي أنت وأمي ، فقال : أما إنك إن تعين أخاك المسلم أحبّ اليّ من طواف اسبوع في البيت.^(٩١)

وذلك لأنّ مساعدة الإخوان توجب المحبة والألفة ، وبهما تحصل المنافع العامة. وقد عالج الإسلام مشكلة الحبّ والكراهة ، وهما من أعظم المشاكل الاجتماعية ، فإنّ الحبّ إذا حصل في المجتمع فلا تجد هناك مشكلة من مشاكل الحياة الاجتماعية. والمحبة تخمد جذوة الرذائل ، ومعنى هذا أنّ رذائل الشخص قلما تصيب من أحبه ، ومن ثم قيل : «العدالة خليفة المحبة».

قال سقراطيس : لا يستطيع أحد من الناس أن يعيش بغير المودة ، وإن مالّت اليه الدنيا ، فإن ظنّ أحد أنّ أمر المودة صغير ، فالصغير من ظنّ ذلك.

ولنا في تعاليم الإمام الصادق (عليه السلام) وحكمياته - التي كان يلقيها على تلك المجموعة الوافرة من الناس في مدرسته - كفاية على إيضاح فوائد الحبّ في الله ومضار الكراهة ، فكان ينصح المسلمين ويحذرهم عاقبة التباعد والبغضاء ، ولم يقتصر على القول في هدم عوامل الفرقة ، بل كان يسعى لذلك من طرق مختلفة ، حتى أنّه أقام بعض أصحابه وأمرهم أن يصلحوا المتخاصمين على شيء من حطام الدنيا من ماله الخاص.

يحدّثنا أبو حنيفة سابق الحاج - واسمه سعيد بن بيان - قال : مرّ بنا المفضل ابن عمر وأنا وختن لي نتشاجر في ميراث ، فوقف علينا ساعة ، ثم قال لنا : تعالوا الى المنزل ، فأتيناه ، فأصلح بيننا بأربعمائة درهم ، فدفعها إلينا من عنده حتى إذا استوثق كلّ واحد منا من صاحبه ، قال : أما إنّها ليست من مالي ، ولكنّ أبا عبد الله الصادق (عليه السلام) أمرني إذا تنازع رجلان من أصحابنا في شيء أن أصلح بينهما وافتديهما من ماله ، فهذا مال أبي عبد الله^(٩٢).

سياسته تجاه الظلم والظالمين

(٩١) الكافي ج ٢ ص ١٩٨ ح ٩ ، نهاية الحديث (بالبیت مبتدأ).

(٩٢) الكافي ج ٢ ص ٢٠٩ باب الاصلاح بين الناس ح ٤ .

لقد تسالمت العقول واتفقت آراء العقلاء على قبح الظلم ، فهو من أعظم الرذائل ، كما أنهم لم يجمعوا على تقدير فضيلة كإجماعهم على فضيلة العدل الذي هو أصل كل خير ، والقلب النابض لجميع الفضائل ، ولا يخرج شيء من الفضائل عنه . فهو اسمى هدف يسعى الإسلام لتحقيقه ، ويأبى أن تهدمه رذيلة حب السلطة والتغلب .

وكان الإمام الصادق (عليه السلام) ينهى عن الظلم ويحارب الظالمين ، ويأمر بالابتعاد عنهم وعدم التعاون معهم ، وأقواله في ذلك كثيرة ، فأصبحت نوراً تهتدي به النفوس ، ويتردد ذكرها على ألسنة العلماء من أقدم العصور ، وجاء ذكرها في أمهات الكتب ، فهي نور ساطع في أفق العقلية البشرية ، وقد سنّ قواعد مشروعة لمقاومة الظالمين ، وهي خير وسيلة لتقويض كيان الظلم ومحو دعائمه .

وكان أهل البيت (عليهم السلام) يعظّمون على الإنسان إرتكاب العدوان على الغير والظلم للناس ، فقد جاء عن إمام أهل العدل أمير المؤمنين (عليه السلام) : «والله لنن أبيت على حسك السعدان مسهّداً أو أجرّ في الأغلال مصقّداً أحب اليّ من أن القى الله ورسوله ظالماً لبعض عبادِهِ ، وغاصباً لشيء من الحطام» .

ويقول : « والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ، ما فعلت »^(٩٣) الى غير ذلك من تعاليمه وأحكامه .

وقد قام كل من أهل البيت (عليهم السلام) بما يجب عليه في نصرته العدل ومحاربة الظلم ، وقد بذلوا أنفسهم لتحقيق ما دعا إليه الإسلام بما يكفل للأمة السعادة ، لذلك كانوا طعمة لسيوف الظالمين ؛ لأنهم كانوا حرباً على الظلم ، وساروا في سياسة سلبية ازاء الحكام الظالمين ، فلم يركنوا إليهم ، ولم يتعاونوا معهم امتثالاً لأمر الله تعالى : (ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار)^(٩٤) ؛ وبهذا تحفظ الأمة كرامتها ، وتكسب قوّة ورفعة ، بينما تضع الحكام الظالمين في مأزق يجعلهم في معزل عن الناس وابتعاد عن الرعية ، وبذلك تكون الأمة قادرة على إرغام الحكام الظالمين على الاعتدال في السيرة والحكم في العدل .

يحدّثنا صفوان الجمال قال : دخلت على الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) ، فقال لي : يا صفوان كلّ شيء منك حسن جميل ، خلا شيئاً واحداً .

قلت : جعلت فداك أيّ شيء ؟

قال : كراك جمالك من هذا الرجل - يعني هارون - .

(٩٣) نهج البلاغة، صبحي الصالح ص ٣٤٧ .

(٩٤) هود : ١١٣ .

قلت : والله ما أكريته أشراً ولا بطراً ، ولا للصيد ، ولا للهو ، ولكن أكريته لهذا الطريق - يعني طريق مكة - ، ولا أتولاه بنفسي ، ولكن أبعث معه غلماني .

قال : يا صفوان أيقع كراك عليهم ؟

قلت : نعم جعلت فداك .

قال : أتحبّ بقاءهم حتى يخرج كراك ؟

قلت : نعم .

قال : فمن أحبّ بقاءهم فهو منهم ، ومن كان منهم فهو كمن ورد النار . قال صفوان : فذهبت وبعثت جمالي عن آخرها .^(٩٥)

وقد قام الإمام الصادق (عليه السلام) بدوره في عصره فأعلن للملأ أضرار الظلم ، لأنّ كلّ فساد في الأرض وشقّ لعصى الطاعة ، واضطراب في نظام العمران إنّما يعود إلى الجور بين الناس ، بل إنّ كلّ قحط وجذب وضيق وضنك ، وجوع وخوف وبلاء وانتقام إنّما هو من ظلم العباد بعضهم بعضاً ، لذلك أمر الإمام الصادق (عليه السلام) بالابتعاد عنهم ، كما أبعد عنه المتقرّب إليه منهم وحرّم الولاية لهم ، لأنّه يرى : « أنّ في ولاية الجائر دروس الحقّ كلّها ، وأحياء الباطل كلّها ، وأظهار الظلم والجور »^(٩٦) ، كما ورد عنه ذلك ، وكان يقول : العامل بالظلم والمعين له والراضي به شركاء .

ودخل عليه عذافر فقال (عليه السلام) : بلغني أنّك تعامل أبا أيّوب والربيع ، فما حالك إذا نودي بك في أعوان الظلمة ؟ ونهى يونس بن يعقوب عن معاونتهم حتى على بناء المساجد .^(٩٧) وسأله رجل من أصحابه عن البناء لهم وكراية النهر ، فأجابه (عليه السلام) :

« ما أحبّ أن أعقد لهم عقدة أو وكيّت لهم وكاء ولا مدة بقلم ، إنّ أعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار حتى يحكم الله بين العباد »^(٩٨) .

وجاءه مولى من موالي علي بن الحسين (عليه السلام) فقال له : جعلت فداك لو كلمت داود بن علي أو بعض هؤلاء فادخل في بعض هذه الولايات ؛ فقال له (عليه السلام) : ما كنت لأفعل . فانصرف إلى منزله متفكراً ، وقال ما أحسبه منعني إلا مخافة أن أظلم أو أجور ، والله لأتّينه ولأعطينه الطلاق والعناق والأيمان المغلظة أن لا أظلم أحداً ولأعدلن . قال فأتّيته فقلت : جعلت فداك إنّني فكرت في إبانك عليّ ، فظننت أنّك إنّما

(٩٥) وسائل الشيعة ج ١٧ ص ١٨٢ ، أبواب ما يتكسّب به ، ب ٤٢ ، ح ١٧ .

(٩٦) تحف العقول ص ٣٤٧ .

(٩٧) التهذيب ج ٦ ص ٣٣٨ ، ح ٩٤١ .

(٩٨) الكافي ج ٥ ص ١٠٧ ، ح ٧ .

كرهت ذلك أن أجور أو أظلم ، وإن كل امرأة لي طالق وكل مملوك لي حرّ وعليّ
وعليّ.. إن ظلمت أحداً أو جرت عليه ولم أعدل.

فقال (عليه السلام) : كيف قلت؟ فأعدت عليه الأيمان ، فرفع رأسه الى السماء فقال :
تناول السماء أيسر عليك من ذلك^(٩٩).

وقد وردت عن أهل البيت أحاديث بجواز الولاية إذا كان فيها صيانة العدل واقامة
حدود الله ، والإحسان الى المؤمنين ، والسعي في الإصلاح ، ومناصرة المظلومين ،
والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر. فهناك أحاديث عن الأئمة (عليهم السلام) توضّح
النهج الذي ينبغي أن يجري عليه الولاة والموظفون ، كما ورد في رسالة الإمام
الصادق الى النجاشي أمير الأهواز^(١٠٠).

وقوله (عليه السلام) : «إنّ لله في أبواب الظلمة من نور الله به البرهان ، ومكّن له في البلاد ،
فيدفع به عن أوليائه ، ويصلح به أمور المسلمين»^(١٠١).

وقد أشرنا لنهجه الذي وضعه في سياسته التي سار عليها مدة حياته ، وهي
السياسة السلبية التي أرادها للأمة ، وقد مرّ تقسيمه للولاية : ولاية عدل ، وولاية
جور ، وسن تلك القاعدة المشروعة في معاملة ولاية الجور في عصره.

يقول أحد رجال القانون^(١٠٢) في بيان تلك القاعدة عند تعرّضه لرأي الإمام
السياسي في عدم المعاونة مع أمراء عصره :

إنّ الإمام (عليه السلام) قد سنّ قاعدة مشروعة للسياسة السلبية ، وهي ما يسمونها
اليوم باللغة السياسية بالعصيان المدني أو سياسة عدم التعاون مع حكومة أو دولة لا
تحترم الحقوق ، أو تسيء التصرف ، فتعبت بحرمة قانونية المعاهدات والمواثيق ،
أو تتحدّى قدسية الدساتير ، وحقوق الأمة المشروعة ، الى غير ذلك من وسائل الظلم
، وذرائع الباطل التي تتوسل بها الحكومات العاشمة والدول القوية المستعمرة ،
وحكام الاستبداد والفساد في سبيل الغايات الخبيثة الدينية.

فالإمام الصادق (عليه السلام) قد أوجب على الأفراد عدم التعاون مع ولاتهم الجائرين
على اختلاف درجاتهم ومناصبهم من أعلاهم الى أدناهم ، وحرّم عليهم العمل لهم
والكسب معهم ، وحذّر وأوعد الفاعل لذلك بالعذاب لارتكابه معصية كبيرة من

(٩٩) الكافي ج ٥ ص ١٠٧ ، ح ٩٦.

(١٠٠) وسائل الشيعة ج ١٢ ص ١٣٩ ، باب جواز الولاية لنفع المؤمنين ، ح ٢٢٣٣٠ ، عن الأُمالي في كتاب التجارة ،
وسننشرها في قسم الوصايا .

(١٠١) وسائل الشيعة للحر العاملي ج ٢٠ ص ٣١٧ ، باب الميم ، ترجمة محمد بن إسماعيل بن بزيع ، الرقم ٩٨٦ عن
الرضا (عليه السلام) مع اختلاف يسير .

(١٠٢) هو المحامي الشهير توفيق الفكيكي في الرسالة الاولى في حياة الصادق ص ٢٧ .

الكبائر ، لأنّ في بذل المعونة للوالي الجائر إماتة الحقّ كلّ واحياء الباطل كلّ ، وفي تقويته اظهار الظلم والجور والفساد وسحق السنن وطمس الشرائع - والعياذ بالله - ولا نريد أن نكثر القول في شرف هذه القاعدة للسياسة السلبية وفي فوائد حكمتها ، وهذه القاعدة الوحيدة الناجعة لعل السياسة الفاسدة واوبائها المهلكة. وليس للأحرار المصلحين في كلّ أمة قاعدة أخرى يلجأون إليها في إكراه المستبدين والمستعبدين والمستهترين بحقوق الأمة للخضوع الى إجابة رغبات الشعب وتحقيقها وتطبيق القوانين وخدمة العدل واحترام الحقّ، إلا اتباع هذه القاعدة المثالية في السياسة السلبية. ولا يقوى على انتهاج هذه الخطة القويمة إلا أصحاب القلوب العامرة بقوة الإيمان ، وأرباب النفوس الملتهبة بحرارة العقيدة الصحيحة الصلبة ، وأهل الصبر على تقديم القرابين الغالية من أرواحهم الطاهرة في سبيل حريّات الرعية وصيانة حقوقهم من جور الجائرين واعتسافهم. فهل بعد هذا العلاج الشافي من علاج يستعمله الإمام الصادق (عليه السلام) لمداواة السياسة الأموية والعباسية المريضة في روحها ودماغها ؟ - اللهم لا - حتى إذا وجد المعين والنصير ، فكيف إذا لم يكن هذا وذاك؟

والظلم في جميع أنواعه قبيح عقلا وشرعاً ، ولم ينحصر الظلم في الولاية بل هو عامّ لجميع أنواع المعاملات التي تقع خلاف الحقّ، وفي ذلك أحاديث كثيرة.

روي عن أبي حمزة عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال : «أما إنه ما ظفر بخير من ظفر بالظلم ، أما إن المظلوم يأخذ من دين الظالم أكثر مما يأخذ الظالم من مال المظلوم» ثم قال : «من يفعل الشر بالناس فلا ينكر الشر إذا فعل به»^(١٠٣).

وقال : «من أكل من مال أخيه ظلماً ولم يرده اليه ، أكل جذوة من النار يوم القيامة»^(١٠٤). وكان يوصي أصحابه بقوله : إياكم أنّ تعينوا على مسلم مظلوم فيدعو عليكم فيستجاب له فيكم، فإنّ أبانا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يقول : إن دعوة المسلم المظلوم مستجابة وليعن بعضكم بعضاً ، فإنّ أبانا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يقول : معونة المسلم خير وأعظم أجراً من صيام شهر ، واعتكافه في المسجد الحرام ، وقال : من أعان ظالماً على مظلوم لم يزل الله عليه ساخطاً حتى ينزع عن معونته^(١٠٥).. إلى غير ذلك من تعاليمه وإرشاداته.

عِزَّة النفس

(١٠٣) الكافي ج ٢ ص ٣٤٤ ، ح ٢٢.

(١٠٤) الكافي ج ٢ ص ٣٣٣ ، ح ١٤.

(١٠٥) وسائل الشيعة ج ١٦ ص ٥٧ ، أبواب جهاد النفس ، ب ٨٠ ، ح ٥.

هي إكرام المرء نفسه ووضعها في مرتبتها ، ورفع المنزلة من السعادة التي يجدها الشخص في هذا العالم ، وسبب رفعة المنزلة إنما هي الأعمال المختلفة التي يقوم بها المرء تبعاً لما توحى إليه نفس عزيزة تنزع إلى الرفعة والسمو ، فيضع نفسه في موضعها ، ويباشر ما يليق بشأنه ؛ والتعدي عن ذلك إذلال للنفس ، وتعرض بكرامتها. وفي ذلك يقول الإمام الصادق (عليه السلام) : لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه. قيل وكيف يذل نفسه ؟ قال : يدخل في شيء يعتذر منه^(١٠٦). وقد تقدّم حثه لطلب المعاش خوفاً من ذلة النفس واستهانتها ، وكان في كثير من تعاليمه التي ينهى بها عن ارتكاب الأمور الحقيرة التي تجعل الإنسان لا يشعر من نفسه بالفضيلة ، فالرذائل كلها تذهب بعزة النفس ، والفضائل هي الأساس المبتني لعزة النفس.

فالكذب والخيانة والرياء والغش والطمع والميل مع الهوى أمور تذهب بعزة النفس ، وتبعد السعادة وتجلب الشقاء ، كما أن العفة والقناعة والأمانة والصبر والصدق والوفاء تبعث في النفس عزة وسمواً ، وقد أمر الله ورسوله بذلك. ولسنا بحاجة إلى إقامة الدليل على مضارّ الجرائم ، وأنها تجعل الإنسان ذليلاً ، وتهوي به إلى حضيض الهوان ، كما أن الفضائل ترفع من قدره ويشعر بعزة نفسه ، وقد جاء في نظام الإسلام بيان الأمور التي توجب ذلك ، فالسعادة كلّ السعادة في الامتثال.

فالله سبحانه وتعالى أراد لعباده العزة في جميع تلك الأوامر ، والتعاليم الأخلاقية ، لذلك كان خلفاء النبي وحملته علمه هم مثال الإنسانية الكاملة ، وقد نشروا تلك التعاليم القيمة التي يجب أن يتّصف بها المؤمن.

يقول الإمام الصادق (عليه السلام) : « من برئ من الشر نال العز »^(١٠٧).

ويقول : « المؤمن له قوة في دين ، وحزم في لين ، وإيمان في يقين ، وحرص في فقه ، ونشاط في هدى ، وبر في استقامة ، واغماض عند الشهوة ، وعلم في حلم ، وشكر في رفق ، وسخاء في حق ، وقصد في غنى ، وتجمل في فاقة ، وعفو في قدرة ، وطاعة في نصيحة ، وورع في رغبة ، وحرص في جهاد ، وصلاة في شغل ، وصبر في شدة ، في الهزاهز وقور ، وفي الرخاء شكور ، لا يغتاب ولا يتكبر ولا يبغى وإن بغى عليه صبر ، ولا يقطع الرحم ، وليس بواهن ، ولا فظ ولا غليظ ، ولا

(١٠٦) تهذيب الأحكام للطوسي ج ٦ ص ١٨٠ ، ٨٠ - باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ح ٣٦٩ .

(١٠٧) بحار الأنوار ج ٧٥ ص ٢٢٩ ، ح ٥.

يسبقه بصره ، ولا يفضحه بطنه ، ولا يغلبه فرجه ، ولا يحسد الناس ، ولا يقتتر ، ولا يبذر ولا يسرق ، بل يقتصد ، ينصر المظلوم ، ويرحم المساكين»^(١٠٨).

ويقول (عليه السلام) : «إنَّ الله فَوْضَ الى المؤمن أموره كلها ، ولم يفَوْضَ اليه أن يكون ذليلاً ، أما تسمع الله تعالى يقول : (والله العزة ولسوله وللمؤمنين)^(١٠٩) فالمؤمن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلاً ، إنَّ المؤمن أعزَّ من الجبل ، الجبل يُسْتَقَلُّ منه^(١١٠) بالمعاول ، والمؤمن لا يُسْتَقَلُّ من دينه شيء»^(١١١).

وكثير من الأخبار والأحاديث الواردة في براءة المؤمن من ذلة النفس التي هي من نتائج الجبن وخبائث الصفات ، وتلزمه المهانة وعدم الاقتحام في معالي الأمور ، والمسامحة في النهي عن المنكر والأمر بالمعروف ، والاضطراب بعروض أدنى شيء من البلايا والمخاوف ، وأن يتَّصف بقوة الإرادة في السيطرة على نزعاته وميوله.

قوة الإرادة

إرادة الإنسان هي المحرك الأول لقوة العمل ، وبقوة هذه الإرادة تكافح هذه الغرائز الشاذة ، وتصادم الميول المتطرفة ، وبقوة الإرادة تبتدئ الفضيلة ويتم التوازن ، وقوي الإرادة هو الإنسان العظيم الذي يأتي بالعجائب إذا أحسن توجيه إرادته الى أعمال الخير ومحاسن الصفات ، أما إذا توجه بها إلى أعمال الشر ، فإنه يجرّ على نفسه نقصاً آخر لا يقلّ خطراً عن ضعف الإرادة ، وقد جمع الإمام الصادق قوة الإرادة في كلمته البليغة وهي قوله : «ما ضعف بدن عما قويت عليه النية»^(١١٢).

وقوة الإرادة عنصر سام يقوم عليه كيان الشخص ، بل هي نتاج شخصية منظّمة أحسن التنظيم ، فالرجل ذو الارادة القوية هو الذي يعرف طرق تحقيق ما يطلبه من الخير له ولأبناء جنسه ، محكماً عقله موجّهاً قوّته بكلّ إقدام وثبات ، وإنّ له مثلاً أعلى ينظّم طاقاته.

(١٠٨) بحار الأنوار ج ٦٤ ص ٢٩٤ ، ح ١٨.

(١٠٩) المناققين : ٨.

(١١٠) الجبل يستقل منه : من القلة ، أي ينقص ويؤخذ منه.

(١١١) الكافي: ٦٣/٥ .

(١١٢) بحار الأنوار ج ٦٧ ص ٢٠٥ ، ح ١٤.

وقد ورد في تعاليم أهل البيت (عليهم السلام) ما يدلّ على مزيد من الاهتمام في تكوين هذه الشخصية القويّة الارادة ، وإنّ كلمة الإمام الصادق (عليه السلام) على قصرها فهي جامعة وافية لبيان قوّة الإرادة.

وبهذا العرض الموجز نكتفي عن البحث هنا في بقية المواضيع الهامّة التي كان الإمام الصادق (عليه السلام) يهتم بها ويبينها للمجتمع ، فقد كان (عليه السلام) يجهد في توجيه الناس نحو الخير والسعادة واتباع الحقّ ليخلق مجتمعاّ تتمثل فيه تعاليم الإسلام ، وتتجسّد في سلوك أفراد تلك الآداب والنظم القيّمة ، وسيأتي فيما بعد بعض جوامع الكلم من أقواله الحكمية التي كان يلقيها في مجالس وعظه وإرشاده ووصاياه لأصحابه.

وليس من الممكن استقصاء كلّ ما صدر عنه من حكم ، وتلقى الناس عنه من مواظ فإنّ له من التراث الفكري ما يملأ عدّة مجلّدات.

ومن المؤسف له أنّ تلك التعاليم القيّمة متفرقة في بطون الكتب ، ولو جُمعت لكانت أكبر ثروة علمية للمسلمين ، لأنّه (عليه السلام) قضى حياته في نشر العلم، وبذل جهده في إرشاد الناس والنصح لجميع أفراد الأمة .

فتعاليمه هي القوانين الأخلاقية الصالحة لكلّ العصور والجماعات ، والكفيلة لرفي الفرد والأسرة ، على نحو يرضاه العقل ويطمئنّ إليه الوجدان، لأنّها مستقاة من ينبوع الوحي ، ومستمدة من التعاليم النبويّة.

وعلى أيّ حال فقد كان الإمام الصادق (عليه السلام) حريصاً على توجيه الأمة، يحاول تطهير النفوس من الرذيلة وتقويمها من اعوجاج الميول في الغرائز ، ليتعاونوا ويصبحوا بنعمة الله إخواناً متحابين متراحمين ، لينالوا بذلك السعادة كما قرأنا من تعاليمه وما نقرؤه بعد ، فقد كان يؤدّب أصحابه بآداب الإسلام ، ويحرص على استقامتهم.

مراسلاته

كانت للإمام الصادق (عليه السلام) مراسلات الى مختلف الأقطار تتضمن نصائحه الثمينة يدعوهم الى سبيل ربّه ، وكانت تهبط عليه أسئلة من البلدان النائية يسألونه إيضاح ما أشكل عليهم من أمور دينهم ودنياهم ، ونرى من الخير التعرّض لبعضها

واثبات البعض منها بقدر ما يسع المجال ليقف القارئ على صور مختلفة تمثل نواحي العظمة وعظيم حبه للخير.

رسالة لعبد الله النجاشي

قال عبد الله بن سليمان النوفلي^(١١٣) : كنت عند جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) فإذا بمولى لعبد الله النجاشي^(١١٤) ورد عليه ، فسلم وأوصل اليه كتاباً ففضه وقرأه فإذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أطل الله بقاء سيدي وجعلني من كلّ سوء فداه، إني بليت بولاية الأهواز ، فأرى سيدي أن يحدّ لي حدّاً أو يمثل لي مثلاً لأستدل على ما يقربني الى الله عزّ وجلّ والى رسوله - الى أن قال - : فعسى أن يخلصني الله بهدايتك ودلائلك ، فأئك حجة الله على خلقه ، وأمينه في بلاده ، ولا زالت نعمته عليك ». فأجابه أبو عبد الله (عليه السلام) :

«بسم الله الرحمن الرحيم : حاطك الله بصنعه ، ولطف بك بمئه ، وكلاك برعايته فإنه وليّ ذلك - الى أن يقول - : فأني ملخص لك جميع ما سألت عنه إن أنت عملت به ولم تجاوزه ، رجوت أن تسلم إن شاء الله.

أخبرني أبي عن آبائه عن علي بن أبي طالب (عليهم السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال : من استشاره أخوه المؤمن فلم يحضه النصيحة سلبه الله لبه.

واعلم أيّ سائير عليك برأي إن أنت عملت به تخلصت ممّا أنت متخوفه ، واعلم أنّ خلاصك ونجاتك من حقن الدم وكفّ الأذى من أولياء الله ، والرفق بالرعية ، والتأني وحسن المعاشرة ، مع لين في غير ضعف وشدة في غير عنف. ومدارة صاحبك ومن يرد عليك من رسله ، وارتق فتق رعيّتك بأن توافقهم على ما وافق الحقّ والعدل إن شاء الله.

إياك والسعاة وأهل النمام فلا يلتزقنّ منهم بك أحد ، ولا يراك الله يوماً وليلة وأنت تقبل منهم صرفاً ولا عدلاً فيسخط الله عليك ، ويهتك سترك.

فأمّا من تأنس به وتستريح اليه وتلج أمورك إليه ، فذلك الرجل الممتحن المستبصر الأمين الموافق لك على دينك.

(١١٣) عبد الله بن سليمان النوفلي، روى عنه هشام بن يوسف وغيره وخرّج له الترمذي في صحيحه. صحيح الترمذي ج ٦ ص ١٢٦ ، ح ٣٧٨٩.

(١١٤) عبدالله النجاشي، أو ابن النجاشي: هو أبو بجير عبدالله بن غنيم الأسدي، ولي الأهواز من قبل المنصور، وقد اتصل بالإمام الصادق وسأله عن كثير من المسائل وكان الإمام (عليه السلام) يجيبه، قال النجاشي: إنّ هذا - يعني الإمام الصادق - عالم آل محمد، وإنّ الذي كنت عليه باطل وإنّ هذا صاحب الأمر.

وإياك أن تعطي درهماً أو تخلع ثوباً أو تحمل على دابة في غير ذات الله لشاعر أو ممزح إلا أعطيت مثله في ذات الله.

ولتكن جوانذك وعطاياك وخلعك للقواد والرسل ، والأحفاد وأصحاب الرسائل ، وأصحاب الشرط والأخماس ، وما أردت أن تصرفه في وجوه البرّ والنجاح والفتوة والصدقة والحجّ والمشرب والكسوة التي تصلي بها وتصل بها ، والهدية التي تهديها الى الله عزّ وجلّ وإلى رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) من أطيب كسبك.

يا عبد الله، اجهد أن لا تكنز ذهباً ولا فضة ، فتكون من أهل هذه الآية التي قال الله عزّ وجلّ : (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...) (١١٥).

ولا تستصغر من حلوى وفضل طعام تصرفه في بطون خالية ليسكن بها غضب الله تعالى، واعلم أنني سمعت من أبي يحدث عن آبائه عن أمير المؤمنين (عليهم السلام) أنه سمع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول يوماً : ما آمن بالله واليوم الآخر من بات شبعاناً وجاره جائع ، فقلنا : هل كنا يا رسول الله ، فقال : من فضل طعامكم ومن فضل تمركم ورزقكم ، وخلقكم وخرقكم تطفنون بها غضب الربّ.

فخرج أمير المؤمنين (عليه السلام) من الدنيا وليس في عنقه تبعة لأحد حتى لقي الله محموداً غير ملوم ولا مذموم ، ثم اقتدت به الأنمة من بعده بما قد بلغكم لم يتلطخوا بشيء من بوائقها...

يا عبد الله إياك أن تخيف مؤمناً فإنّ أبي محمداً حدّثني عن أبيه عن جدّه علي بن أبي طالب (عليهم السلام) أنّه كان يقول : « من نظر الى مؤمن ليخيفه بها أخافه الله يوم لا ظلّ إلا ظله ، وحشره في صورة الذرّ لحمه وجسده وجميع اعضائه حتى يورده مورده ».

ثم ذكر له (عليه السلام) الأحاديث المتضمنة لمكارم الأخلاق وطيب الصفات التي يجب أن يسير عليها الوالي ، والتي تضمن له النجاة إن عمل بها وسار على الجادة (١١٦).

وجاء اليه رجل من الأهواز فقال : يا أبا عبد الله، إنّ في ديوان النجاشي عليّ خراجاً فإن رأيت أن تكتب له كتاباً ، فكتب اليه هذه الكلمة الموجزة :

بسم الله الرحمن الرحيم : سرّ أخاك يسرك الله.

فلما ورد الكتاب على النجاشي امتثل ذلك وأجاز الرجل وأكرمه وأسقط الخراج وقال له : هل سررتك ؟ قال : نعم. (١١٧)

رسائله في الصفات

(١١٥) التوبة : ٣٤.

(١١٦) بحار الأنوار ج ١٧ ص ٢٦٣ ، والوسائل في باب الولاية من أبواب التجارة.

(١١٧) بحار الأنوار ج ٤٧ ص ٣٧٠ ، ح ٨٩.

وكتب إليه عبد الملك بن أعين من العراق يخبره : أن قوماً بالعراق يصفون الله بالصورة وبالتخطيط ، فإن رأيت - جعلني الله فداك - أن تكتب إليّ بالمذهب الصحيح من التوحيد.

فكتب إليه : سألت - رحمك الله - عن التوحيد وما ذهب إليه من قبلك فتعالى الله الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، تعالى عما يصفه الواصفون المشبهون الله بخلقه المفترون على الله ، فاعلم رحمك الله : إن المذهب الصحيح في التوحيد ما نزل به القرآن من صفات الله جل وعز ، فانف عن الله تعالى البطلان والتشبيه ، فلا نفى ولا تشبيه ، هو الله الثابت الموجود ، تعالى الله عما يصفه الواصفون ، ولا تعدوا القرآن فضلوها بعد التبيان^(١١٨).

رسالته الى جماعة من أصحابه

وكتب إلى جماعة من أصحابه : اتقوا الله وكفوا ألسنتكم إلا من خير ، - إلى أن قال : - وعليكم بالصمت إلا ما ينفعكم الله به في آخرتكم ويؤجركم عليه ، وأكثروا من التهليل والتقديس ، والتسبيح والثناء على الله ، والتضرع إليه والرغبة فيما عنده من الخير ، الذي لا يقدر قدره ولا يبلغ كنهه أحد ، فاشغلوا ألسنتكم بذلك عما نهى الله عنه من أقاويل الباطل التي تعقب أهلها خلوداً في النار من مات عليها ولم يتب إلى الله ولم ينزع عنها.

وكتب إلى جماعة منهم أيضاً نكتطف منها :

أما بعد، فسلوا ربكم العافية ، وعليكم بالدعة ، والوقار والسكينة والتنزه كما تنزه الصالحون منكم ، إلى أن قال : وعليكم بحب المساكين المسلمين ، فإن من حقرهم وتكبر عليهم فقد زل عن دين الله ، واعلموا أن من حقر أحداً من المسلمين القى الله عليه المقت ، فاتقوا الله في إخوانكم فإن لهم عليكم حقاً أن تحبّوهم فإن الله أمر نبيّه بحبهم ، فمن لم يحب من أمر الله بحبه فقد عصى الله ورسوله ، ومن عصى الله ورسوله ومات على ذلك مات من الغاوين.

إياكم أن يبغى بعضكم على بعض فإنها ليست من خصال الصالحين ، فإنه من بغى صير الله بغيه على نفسه ، وصارت نصرة الله لمن بغى عليه ، ومن نصره الله غلب وأصاب الظفر من الله. إياكم أن يحسد بعضكم بعضاً فإن الكفر أصله الحسد.

إياكم أن تعينوا على مسلم مظلوم يدعو الله عليكم ويستجاب له فيكم ، فإن أبانا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : إن دعوة المظلوم مستجابة.

إياكم أن تشره نفوسكم إلى شيء مما حرم الله عليكم ، فإن من انتهك ما حرم الله عليه حال الله بينه وبين الجنة^(١١٩).

(١١٨) الكافي ج ١ ص ١٠٠ .

(١١٩) بحار الأنوار ج ٧٥ ص ٢١١ - ٢١٢ .

وصاياه

ليس من الغريب أن نرى كثيراً من علماء الأمة يغتنمون فرصة الاتصال بالإمام الصادق (عليه السلام) ويطلبون منه أن يزودهم بوصاياه التي هي أثنى شيء عندهم ، لأنهم يجدون فيها اكمال نقص ، وتوجيهاً للخير والسعادة ، وقد وجدوا فيه شخصية إسلامية قد طبعت على الخير والبر ، فهو يتوخى لهم السعادة ويقيم لهم الحجج الواضحة والبراهين اللائحة ، فهو من أهل بيت لا تجهل منزلتهم ، ولا تنكر مكانتهم ، وهم أولى بتبليغ الأحكام وهداية الأنام ، مهما كثرت عوامل المعارضة ووقفت الصعوبات في طريق الوصول الى الغاية.

والإمام الصادق فريد عصره ووحيد زمانه لا يلحق أثره ولا يبلغ شأوه ، فلذلك نرى التفاف الأمة حوله وانتهاهم من تعاليمه ، وحرصهم على حصول تلك الوصايا الثمينة والتعاليم القيّمة.

هذا سفيان الثوري - وهو من علماء الأمة - يتردد على الإمام ويطلب منه أن يوصيه بما ينفعه ، ثم يستزيده مرّة بعد أخرى.

وهذا أبو حنيفة يغتنم الحضور عنده ويصغي لوصاياه عندما قدم الى المدينة ، وكذلك في الكوفة يوم دخلها الإمام الصادق (عليه السلام) ، كما تحدّث بذلك كتب مناقب أبي حنيفة وغيرها.

وهذا الإمام مالك يلزم صحبته ويرافقه ويتزوّد منه، وكثير من علماء الأمة كانوا يغتنمون فرصة الحضور عنده ليسمعوا منه وينتفعوا بوصاياه ، لأنهم يطلبون الخير لأنفسهم وللأمة.

وقد أكثر سفيان الثوري لذكر تلك الوصايا ونشرها للملأ، ولا يستبعد أن يكون ذلك هو السبب في مطاردته من قبل السلطة ، بعد أن فشلت في محاولتها لاستمالاته حتى مات مغضوباً عليه من قبل ولاية الجور.

وكان حفص بن غياث وهو أحد الأعلام يطلب من الإمام أن يوجّهه ويزوّد به بوصاياه ، وقد احتفظ التاريخ بكثير من ذلك. وعلى كلّ حال فإنّ وصايا الإمام الصادق (عليه السلام) كثيرة ونقتصر على القليل منها.

وصيته لحفص بن غياث

وقد جاء في وصيته لحفص بن غياث^(١٢٠) قوله : «إن قدرتم أن لا تعرفوا فافعلوا ، وما عليك إن لم يثن الناس عليك ، وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس إذا كنت عند الله محموداً » إلى أن قال : «إن قدرت أن لا تخرج من بيتك فافعل ، فإنّ عليك في خروجك أن لا تغتاب ولا تكذب ولا تحسد ، ولا ترائي ولا تتصنع ، ولا تداهن...»^(١٢١).

وصيته لسفيان الثوري

الوقوف عند كلّ شبهة خير من الاقتحام في الهلكة ، وترك حديث لم تروه أفضل من روايتك حديثاً لم تحصه ، إنّ على كلّ حقّ حقيقة ، وعلى كلّ صواب نوراً ، فما وافق كتاب الله فخذوه ، وما خالفه فدعوه^(١٢٢).

وقال نصر بن كثير^(١٢٣) : دخلت أنا وسفيان الثوري على جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) فقلت : إني أريد البيت فعلمني شيئاً أدعو به ، فقال : إذا بلغت البيت الحرام فضع يدك على الحائط ثم قل : يا سابق الفوت يا سامع الصوت يا كاسي العظام لحماً بعد الموت ثم ادع بما شئت. فقال له سفيان شيئاً لم أفهمه.

فقال : يا سفيان إذا جاءك ما تحبّ فأكثر «الحمد لله»، وإذا جاءك ما تكره فأكثر من «لا حول ولا قوة إلا بالله»، وإذا استبطأت الرزق فأكثر من «الاستغفار»^(١٢٤).

ولقيه مرّةً فقال : يا ابن رسول الله أوصني. قال : يا سفيان لا مروءة لكذوب ، ولا أخ لملول ، ولا راحة لحسود ، ولا سودد لسيئ الخلق.

فقال : يا ابن رسول الله زدني ، قال : يا سفيان ثق بالله تكن مؤمناً ، وارض بما قسم الله لك تكن غنياً ، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً ولا تصحب الفاجر يعلمك من فجوره ، وشاور في أمرك الذين يخشون الله عز وجل.

فقال : يا ابن رسول الله زدني ، فقال : يا سفيان من أراد عزّاً بلا عشيرة وغنىً بلا مال وهيبة بلا سلطان؛ فلينتقل من ذل معصية الله الى عز طاعته^(١٢٥).

(١٢٠) حفص بن غياث بن طلق بن معاوية النخعي المتوفى سنة (١٩٤ هـ) أحد الأعلام، روى عن الإمام الصادق خراج

حديثه أصحاب الصحاح الستة الجزء الأول من هذا الكتاب: ص ٨٧.

(١٢١) الوسائل ج ١١ ص ٢٨٣ أبواب جهاد النفس الباب ٥١، ح ١.

(١٢٢) تاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ١١٥.

(١٢٣) سيأتي ذكره في رواية حديث الصادق (عليه السلام).

(١٢٤) حلية الأولياء ج ٣ ص ١٩٦.

(١٢٥) بحار الأنوار ج ٧٥ ص ٢٦١، ح ١٦٠.

وقال سفيان للصادق مرّة : لا أقوم حتى تحدّثني. قال له : أنا أحذّثك وما كثرة الحديث لك بخير يا سفيان ، إذا أنعم الله عليك بنعمة فأحببت بقاءها ودوامها؛ فأكثر من الحمد والشكر عليها فإنّ الله عز وجل قال : (لئن شكرتم لأزيدنكم)^(١٢٦) وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار ، فإنّ الله تعالى قال في كتابه : (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلَ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا)^(١٢٧) يا سفيان، إذا أزنك أمر من سلطان أو غيره ، فأكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله؛ فإنها مفتاح الفرج وكنز من كنوز الجنة. فعقد سفيان بيده وقال : ثلاث وأي ثلاث^(١٢٨).

وصيته لعبد الله بن جندب

يا ابن جندب إنّما المؤمنون الذين يخافون الله ، ويشفقون أن يسلبوا ما أعطوا من الهدى ، فإذا ذكروا الله ونعماءه وجلوا وأشفقوا ، وإذا تليت عليهم آياته ، زادتهم إيماناً ممّا أظهره من نفاذ قدرته ، وعلى ربّهم يتوكلون.

يا ابن جندب، يهلك المتكل على عمله ، ولا ينجو المجترئ على الذنوب الواثق برحمة الله. قال عبد الله بن جندب : فمن ينجو ؟ قال : الذين هم بين الخوف والرجاء كأنّ قلوبهم في مقلب طائر شوقاً الى الثواب وخوفاً من العقاب.

ويل للساهين عن الصلاة ، النائمين في الخلوات ، المستهزئين بالله في الفترات ، أولئك الذين لا خلاق لهم في الآخرة ، ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولهم عذاب أليم.

يا ابن جندب أحبب في الله ، وأبغض في الله ، واستمسك بالعروة الوثقى ، واعتصم بالهدى يقبل عملك..

وخذ حظك من آخرتك ، ولا تكن بطراً في الغنى ، ولا جزعاً في الفقر ، ولا تكن فظاً غليظاً يكره الناس قربك ، ولا تكن واهياً يحقرك من عرفك ، ولا تشار^(١٢٩) من فوقك ، ولا تسخر بمن هو دونك ، ولا تنازع الأمر أهله ، ولا تطع السفهاء.

يا ابن جندب صل من قطعك ، واعط من حرمك ، وأحسن إلى من أساء إليك ، وسلم على من سبك ، وأنصف من خاصمك ، واعف عمّن ظلمك كما أنّك تحبّ أن يعفى عنك.

(١٢٦) إبراهيم: ٧ .

(١٢٧) نوح: ١٠ - ١٢ .

(١٢٨) حلية الأولياء ج ٣ ص ١٩٣ .

(١٢٩) يقال شارّه: عابه وازدرى به.

يا ابن جندب لا تتصدقن على أعين الناس يزكوك ، فإنك إن فعلت ذلك فقد استوفيت أجرك ، ولكن إذا اعطيت بيمينك فلا تطلع عليها شمالك ، فإن الذي تتصدق له سرّاً يجزيك علانية قد علم ما تريد^(١٣٠).

وقال (عليه السلام) لأصحابه :

لا يتكلم أحدكم بما لا يعنيه ، وليدع كثيراً فيما يعنيه حتى يجد له موضعاً ، فربّ متكلم في غير موضعه جنى على نفسه بكلامه ولا يمارين أحدكم سفيهاً ولا حليماً ، فإنه من ماري حليماً أقصاه ، ومن ماري سفيهاً أرداه ، واذكروا أخاكم إذا غاب عنكم بأحسن ما تحبون أن تذكروا به إذا غبت عنه ، واعملوا عمل من يعلم أنّه مجازى بالإحسان مؤاخذاً بالإجرام.^(١٣١)

الى غير ذلك من وصاياه الجلييلة لخواصه وأصحابه وأهل بيته وغيرهم.^(١٣٢) ممّا هو جدير بأن يجعل دستوراً لنظام الحياة ، فقد كان يبذل جهده لتطهير النفوس من الارجاس الطبيعيه البشرية ، ومكافحة الشهوات البهيمية ، واتخاذ أنجع الوسائل لتحقيق غرضه السامي ، فكان كلامه يسيل على سامعيه رقة وعذوبة تحكم على مستمعه الاستزادة لما يبدو من خلاله صورة من التعاليم الإسلامية الحقّة ، يلقيها مخلص قد توخّى الخير للمتعلّم ، وابداء النصيحة الخالصة التي لا تشوبها شائبة ، فهو ينقشها على صفحات قلوب الخالص منهم ، فلا تنمحي وإن كثرت عوامل المحو. وهانحن ذا نقدم من نصائحه نبذاً قصيرة هي جوامع الكلم وآيات بينات في الأدب والبلاغة وفرقان حكيم جاء بالفلسفة الخلقية.

جوامع الكلم

* اتقوا الله وكونوا إخوة بررة متحابين في الله ، متواصلين ، متراحمين ، تزاوروا وتلاقوا.

* اتقوا الظلم فإنّ دعوة المظلوم تصعد إلى السماء.

* من لم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم ، إنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قال : من أصبح

لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم ، ومن سمع رجلاً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم.

(١٣٠) تحف العقول ص ٧٣ - ٧٥.

(١٣١) بحار الأنوار ج ٧٥ ص ٢٦٥ ، ح ١٧٦.

(١٣٢) تجد الكثير منها في الوسائل والكافي وحلية الاولياء وتحف العقول وغيرها.

* صدقة يحبها الله : إصلاح بين الناس إذا تفسدوا ، وتقارب بينهم إذا تباعدوا.

* المؤمن من طاب مكسبه ، وحسنت خليقته ، وصحت سريره ، وأنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من كلامه ، وكفى الناس شره ، وأنصف الناس من نفسه.

* المؤمن حسن المعونة. خفيف المؤونة ، جيد التدبير لمعاشه ، ولا يلسع من جحر مرتين.
* اجعلوا أمركم هذا لله ، ولا تجعلوه للناس ، فإنه ما كان لله فهو لله ، وما كان للناس فلا يصعد إلى الله.

* إياكم وهؤلاء الرؤساء الذين يترأسون، فإنه ما خفقت النعال خلف رجل إلا هلك وأهلك.

* لا تمارين حليماً ولا سفيهاً ، فإن الحليم يقلبك ، والسفيه يؤذيك.

* إياكم والخصومة ، فإنها تشغل القلب ، وتورث النفاق ، ومن زرع العداوة حصد ما بذر ، ومن لم يملك غضبه لم يملك عقله.

* كان أبي يقول : أي شيء أشد من الغضب ؟ إن الرجل ليغضب فيقتل النفس التي حرم الله ، ويقذف المحصنة.

* من كافأ السفيه بالسفه فقد رضي بما أوتي اليه حيث احتذى مثاله.

* من عذر ظالماً بظلمه ، سلط الله عليه من يظلمه ، فإن دعا لم يستجب له ، ولم يؤجره الله على ظلامته.

* احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم ، فليس شيء أعدى للرجال من اتباع أهوانهم ، وحصاد ألسنتهم.

* من ساء خلقه عذب نفسه.

* العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق ، لا تزيده سرعة السير إلا بُعداً.

* من أكرمك فأكرمه ، ومن استخف بك فأكرم نفسك عنه.

* إياكم والمزاح فإنه يذهب بماء الوجه.

* لا شيء أحسن من الصمت ، ولا عدو أضر من الجهل ، ولا داء أدوى من الكذب.

* المؤمن مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف.

* العدل أحلى من الماء يصيبه الظمان.

* ما أوسع العدل وإن قل!

* من كف يده عن الناس ، فإنما يكف يداً واحدة ويكفون عنه أيدي كثيرة.

* من كان له عقل كان له دين ومن كان له دين دخل الجنة.

* الفقهاء أمناء الرسل فإذا رأيتم الفقهاء قد ركبوا إلى السلاطين فاتهموهم.

* إذا بلغك عن أخيك شيء يسوؤك فلا تغتم ، فإن كان كما يقول كانت عقوبة عجلت ، وإن كان على غير ما يقول كانت حسنة لم تعملها.

* لا يتم المعروف إلا بثلاثة : بتعجيله ، وتصغيره ، وستره.

* بُني الإنسان على خصال ، فمما بني عليه أنه لم يبن على الخيانة والكذب.

* ثلاثة تورث المحبة : الدين ، والتواضع ، والبذل.

* من برئ من ثلاث نال ثلاثة : من برئ من الشر نال العز ، ومن برئ من الكبر نال الكرامة ، ومن برئ من البخل نال الشرف.

* ثلاثة مكسبة للبغضاء : النفاق ، والعجب ، والظلم.

* آفة الدين الحسد ، والعجب ، والفخر.

* إن المؤمن يغبط ولا يحسد.

* اتقوا الله واعدلوا فإنكم تعيرون على قوم لا يعدلون.

* ما قدست أمة لم يؤخذ لضعيفها من قوياها بحقه.

* ويل لقوم لا يدينون الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

* ثلاثة يحجزن عن طلب المعالي : قصر الهمة ، وقلة الحياء ، وضعف الرأي.

* ثلاثة يجب على كل إنسان تجنبها : مقارنة الأشرار ، ومحادثة النساء ، ومجالسة أهل البدع.

* ثلاثة أشياء يحتاج إليها الناس طراً : الأمن ، والعدل ، والخصب.

* ثلاثة تكدر العيش : السلطان الجائر ، والجار سوء ، والمرأة البذية.

* الصلة وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار.

* ليس منا من لم يحسن مجاورة جاره.

* من رزق ثلاثاً نال الغنى الأكبر : القناعة بما أعطي ، واليأس مما في أيدي الناس ، وترك الفضول.

* ليس بحازم من لا ينظر في العواقب ، والنظر في العواقب تلقيح القلوب.

* إذا رأيت العبد متفقداً لذنوب الناس ناسياً لذنوبه ، فاعلموا أنه قد مكر به.

* أقصر نفسك عما يضرها من قبل أن تفارقك ، واسع في فكاكها كما تسعى في طلب معيشتك ، فإن نفسك رهينة بعملك.

* تعوذوا بالله من سطوات الليل والنهار ، قيل : وماهي ؟ قال الأخذ على المعاصي.

* لا تشاور أحمقاً ، ولا تستعن بكذاب ، ولا تثق بمودة الملوك : فإنّ الكذاب يقرب لك البعيد ، ويبعد لك القريب ، والأحمق يجهد لك نفسه ، ولا يبلغ ما تريد ، والملوك أوثق ما كنت به خذلك ، وأوصل ما كنت له قطعك.

* بطانة السلطان ثلاث طبقات : طبقة موافقة للخير ، وهي بركة على السلطان ، وطبقة غايتها المحاماة على مافي أيديها ، فتلك لا محمودة ولا مذمومة ، بل هي إلى الذم أقرب ، وطبقة موافقة للشر وهي مشومة مذمومة عليها وعلى السلطان.

* لا يستغني أهل كلّ بلد عن ثلاث ، فإنّ عدموا ذلك كانوا همجاً : فقيه عالم ورع ، وأمير خير مطاع ، وطبيب بصير ثقة.

* الإخوان ثلاثة : مواس بنفسه ، وآخر مواس بماله ، وهما الصادقان في الإخاء ، وآخر يأخذ منك البلغة ويريدك لبعض اللذة ، فلا تعدّه من أهل الثقة.

* كفى بالحلم ناصراً.

* مامن عبد كظم غيظاً إلا زاده الله عزّاً في الدنيا والآخرة.

* ما يقدم المؤمن على الله عزّ وجلّ بعمل بعد الفرائض أحبّ إلى الله تعالى من أن يسع بخلقه.

* صنائع المعروف وحسن البشر يكسبان المحبة ويدخلان الجنة.

* من زرع العداوة حصد ما بذر.

* من دخله العجب هلك.

* العجب كلّ العجب ممن يعجب بعمله ، ولا يدري بما يختم له.

* ما من رجل تكبر أو تجبر إلا لذلة وجدها في نفسه.

* إذا كان الزمان زمان جور وأهله أهل غدر ، فالطمأنينة إلى كل أحد عجز.

* إذا أردت أن تعلم صحة ما عند أخيك ، فأغضبه فإن ثبت لك على المودة فهو أخوك وإلا فلا.

* لا تثقن بأخيك كلّ الثقة ، فإنّ سرعة الاسترسال لا تقال.

* المؤمن حسن المعونة خفيف المؤونة جميل التدبير لمعيشته ، ولا يلسع من جحر مرتين.

* من صحة يقين المسلم أن لا يرضي الناس بسخط الله ، ولا يلومهم على ما لم يؤته الله ، فإنّ

الرزق لا يسوقه حرص حريص ولا يرده كراهية كاره.

* خف الله كأنك تراه ، وإن كنت لا تراه فإنّه يراك ، وإن كنت ترى أنه لا يراك فقد كفرت ، وإن كنت

تعلم أنه يراك ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين اليك.

* أيما أهل بيت أعطوا حظهم من الرفق فقد وسع الله عليهم في الرزق ، والرفق لا يعجز عنه

شيء ، والتبذير لا يبقى معه شيء.

- * اطلبوا العلم وتزيتوا معه بالحلم والوقار ، ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باظلكم بحقكم.
- * إنما المؤمن إذا غضب لم يخرج غضبه من حق ، وإذا رضي لم يدخله رضاه في باطل.
- * اتقوا الله ولا يحسد بعضكم بعضاً.
- * ما ذنبان ضاريان في غنم قد غاب عنها رعاتها ، بأفسد فيها من حب المال والشرف في دين المسلم.
- * ثلاثة هم أقرب الخلق الى الله يوم القيامة : رجل لم تدعه قدرته في حال غضبه ، أن يحيف على من تحت يديه. ورجل مشى بين اثنين فلم يمل مع أحدهما على الآخر ، ورجل قال الحق فيما له وعليه.
- * للمتكلف ثلاث علامات : ينازع من فوقه ، ويقول ما لم يعلم ، ويتعاطى ما لا ينال.
- * اتقوا الله في الضعيفين : اليتيم ، والنساء.
- * وقال للمفضل بن زيد : أنهاك عن خصلتين فيها هلك الرجال : أن تدين الله بالباطل ، وتفتي الناس بما لا تعلم.
- * لا يطمعن ذو الكبر في الثناء الحسن ، ولا الخب في كثرة الصديق ، ولا السيء الأدب في الشرف ، ولا البخيل في صلة الرحم ، ولا المستهزئ في صدق المودة ، ولا القليل الفقه في القضاء ، ولا المغتاب في السلامة ، ولا الحسود في راحة القلب ، ولا المعاقب على الذنب الصغير في السؤدد ، ولا القليل التجربة المعجب برأيه في رياسة.
- * إن السفه خلق لنيم يستطيل على من دونه ويخضع لمن فوقه ، وإياك وما تعتذر منه.
- * طبعت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها.
- * من غضب عليك ثلاث مرات فلم يقل فيك سوءاً اتخذته خلا ، ومن أراد أن تصفو له مودة أخيه فلا يمارينه ولا يمازحنه ولا يعدّه ميعاداً فيخلفه.
- * لا تخالطن من الناس خمسة : الأحمق ، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك ، والكذاب فإن كلامه كالسراب يقرب منك البعيد ويباعد منك القريب ، والفاسق فإنه يبيعك بأكلة ، والبخيل فإنه يخذلك في وقت أحوج ما تكون اليه ، والجبان فإنه يسلمك.
- * ثلاثة تجب لهم الرحمة : غني افتقر ، وعزيز قوم ذل ، وعالم تلاعب به الجهال.
- * إذا أراد الله برعية خيراً ، جعل لهم سلطاناً رحيماً ووزيراً عادلاً.
- * إنما المؤمنون إخوة بنو أب وأم ، وإذا ضرب على رجل منهم عرق سهر له الآخر.
- * قال حفص بن أبي البخترى : كنت عند أبي عبد الله الصادق ودخل عليه رجل ، فقال لي : أتجبه ؟ فقلت : نعم ، فقال : ولم لا تجبه ؟ وهو أخوك وشريكك في دينك ، وعونك على عدوك ، ورزقه على غيرك^(١٣٣).

* الانتقاد عداوة ، وقلة الصبر فضيحة ، وإفشاء السر سقوط.

* إياكم والنظرة ، فإنها تزرع في القلب الشهوة وكفى بها لصاحبها فتنة. طوبى لمن جعل بصره في قلبه ولم يجعل بصره في عينه.^(١٣٤)

هذا قليل من كثير في هذا الباب فإنّ تراثه الفكري وتعاليمه القيّمة لا يمكننا الاحاطة بها الآن. ومن الخير للعلم والإنسانية أن يضاعف العاملون منا جهودهم لجمع المتفرّق من ذلك التراث الثقافي الفكري من مظانه ، وهو كثير حافل. ولنا في تعاليمه كفاية على إيضاح ما كان يبذله من النصح لأفراد الأمة ، ويجهد نفسه في معالجة النفوس من أمراض فواتن الدنيا ، وغريزة الطمع التي تحول خير المجتمع الى شر يسلب راحة الضمير ، ويودع فيه القلق والنكد ، ويفتح باب الظلم والتباغض. هذا من الناحية الأخلاقية والتعاليم الإسلامية. أما ما يتّصل بناحية العلوم من تفسير وفقه وحديث وحكمة وكلام وغيرها ، فليس هذا محلّ التعرّض لذلك ، وستقف على البعض منه في مطاوي البحث ، عند التعرّض لآرائه وفقهه في الاجزاء القادمة إن شاء الله.

وسياتي - إن شاء الله - بيان لبعض حكمه ومواعظه التي كان يلقيها على مسامع طلاب العلم ، ووفود الاقطار الإسلامية.

فإنه (عليه السلام) لم يدّخر نصحاً ، ولم يألُ جهداً في توجيه النصح لكلّ أحد، فتجد له في كل مناسبة قولاً ، وفي كل مجال حكمة ، ولكلّ مشكلة حلاً. وقد تضمنت كتب الأخلاق ، والحديث ، والأدب الشيء الكثير من تلك النصائح والحكم والمواعظ التي كان يتلقاها منه كبار علماء عصره الذين قصدوه على اختلاف مراتبهم ، فانتهلوا من معارفه، وكان ذلك فخراً واعتزازاً لهم.

الأمويون وحديث أهل البيت

لابدّ لنا ونحن في معرض الحديث عن مدرسة الإمام الصادق (عليه السلام) من أن نتعرف على بعض المنتمين اليها والمتخرجين منها ، وهم من حملة العلم ورجال الفكر الذين تركوا للأجيال أهم ما يخلفه العقل الإنساني من إنتاج وإبداع .

وليس من شك في أنّ مدرسة الإمام الصادق (عليه السلام) كانت تمتاز بطابع الانفصال عن الدولة ، في عدم الخضوع لتوجيهات الحكام ، والسير في ركابهم، فلم تتعاون معهم ، ولم تساند سلطاتهم ، لأنّها وجدتّهم بعيدين كلّ البعد عن واقع الحكم الإسلامي ، الذي يضمن تقدّم الأمة في جميع مجالات الحياة ، ويتكفلّ سعادة المجتمع في جميع الظروف .

وبهذا فقد قاومت السلطة انتشار ذكر آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ومنعت الناس عن الاتصال بهم والرواية عنهم .

ورغم ذلك كله فقد استطاعت مدرسة الإمام الصادق (عليه السلام) أن تجتاز تلك العقبات ، فكان لها السبق في نشر العلم ، والفضل في تحرير الفكر الإسلامي .

ومن الجدير بالذكر أن نشير الى الفرق بين تدخل الدولة الأموية في معارضتها لانتشار ذكر آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وبين تدخل الدولة العباسية في ذلك .

فلم يكن الأمويون يتّخذون ألعيب سياستهم من وراء الستر ويعارضون أهل البيت (عليهم السلام) من طريق الخفاء والتكتم كما فعلته الدولة العباسية في أول عهدها ، بل كان أمرهم ظاهراً لا خفاء عليه ، وكان أبرز شيء عندهم هو العداء لأهل البيت (عليهم السلام) وعقاب أنصارهم ، فقد كانوا يصبّون جام غضبهم على من يروي عن أهل البيت (عليهم السلام) أو ينقل عنهم فتوى ، لأنّ ذلك يمسّ شؤون الدولة، فأبعدوا الفقهاء الذين يقفون لجانب الحقّ، ولا يراعون جانب أغراض الدولة ومصالحها الخاصة ، وقرّبوا اليهم من جعلوه قنطرة للوصول الى تلك الأغراض، كما أنّهم اتخذوا مواليهم للفتيا ورفعوا من شأنهم :

كسليمان بن موسى الأشدق مولا هم الأموي المتوفى سنة (١١٩ هـ) كان مفتي دمشق وعالمها^(١٣٥).

وعبد الله بن ذكوان المتوفى سنة (١٣٠ هـ) مولا هم الأموي أحد الرواة عن أبي هريرة . قال الليث : رأيت أبا الزناد وخلفه ثلاثمائة طالب ، وقال الذهبي : ولي بعض أمور بني أمية^(١٣٦).

وغيرهم من الموالى الذين شجّعهم الأمويون ، وجعلوا لهم منزلة في المجتمع ويدا في التشريع الإسلامي، منهم :

نافع مولى ابن عمر المتوفى سنة (١١٧ هـ) . وكان ابن عمر يقول له : اتق الله ويحك يا نافع ولا تكذب عليّ كما كذب عكرمة على ابن عباس^(١٣٧).

وسليمان بن يسار أخو عطاء المتوفى سنة (١٠٧ هـ) جعلوه للفتيا في المدينة^(١٣٨).

ومكحول مولى بني هزيل المتوفى سنة (١١٣ هـ) كان عالم دمشق ومرجع الفتيا^(١٣٩).

وأبو حازم سلمة بن دينار الأعرج مولى بني مخزوم المتوفى سنة (١٢٠ هـ)، كان عالم المدينة ومفتيها^(١٤٠).

وسليمان بن طرخان المتوفى سنة (١٤٣ هـ) ^(١٤١).

وإسماعيل بن خالد البجلي مولا هم المتوفى سنة (١٤٥ هـ) ^(١٤٢).

وعكرمة مولى ابن عباس المتوفى سنة (١٠٥ هـ) . وناهيك ما لعكرمة من منزلة لأحاديثه وأفاعيله^(١٤٣)، وغيرهم مما يطول ذكرهم .

(١٣٥) سير أعلام النبلاء ج ٦ ص ٢١٨ / ٨٠٨ .

(١٣٦) ميزان الاعتدال ج ٤ ص ٩٤ / ٤٣٠٦ .

(١٣٧) تهذيب التهذيب ج ٧ ص ٢٦٧ .

(١٣٨) سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ٣٧٣ / ٥٤٠ .

(١٣٩) تهذيب الكمال ج ٢٨ ص ٤٦٤ / ٦١٦٨ .

(١٤٠) تهذيب التهذيب ج ٤ ص ١٢٩ / ٢٥٨٢ .

(١٤١) تهذيب التهذيب ج ٤ ص ١٨١ / ٢٦٧٠ .

(١٤٢) تهذيب الكمال ج ٣ ص ٦٩ / ٤٣٩ .

(١٤٣) تهذيب الكمال ج ٢٠ ص ٢٦٤ / ٤٠٠٩ .

وعلى كلّ حال فقد كان الأمويون يقرّبون من يرون فيه أهليّة لتنفيذ أغراضهم ، ولذلك غضبوا على سعيد بن المسيب المتوفى سنة (٩٣ هـ) وضربوه وشهروه في المدينة ، لآثمه خالف غرض الدولة ، ولقي غيره من العلماء تنكيلا في سبيل ذلك .
وخلاصة القول أنّ الأمويين كان اتجاههم للسياسة وقد ابتعدوا عن شؤون الدين ، فكان من سياستهم أن يقبلوا قول كلّ أحد ولا يسمعون لأهل البيت قولا ، ويعاقبون من يذكرهم في ذلك .

كما يحدثنا الإمام أبو حنيفة عندما دعي ليسأل عن مسألة فقهية من قبل أحد الأمويين. قال أبو حنيفة : فاسترجعت في نفسي لأني أقول فيها بقول علي(رضي الله عنه) وأدين الله به ، فكيف أصنع ؟

قال: ثم عزمت أن أصدقه وأفتيه بالدين الذي أدين الله به ، وذلك أن بني أمية كانوا لا يفتون بقول عليّ ، ولا يأخذون به ، الى أن يقول : وكان عليّ لا يذكر في ذلك العصر باسمه، وكانت العلامة بين المشايخ أن يقولوا : قال الشيخ. وكان الحسن البصري يقول فيه: أخبرنا أبو زينب^(١٤٤) .

ويعطينا الحسن البصري^(١٤٥) صورة جليّة عن ذلك الاهتمام والجهد الذي بذله الأمويون في معارضة حديث أهل البيت (عليهم السلام) ، فقد كان الحسن مع قربه من الدولة وعظيم منزلته في المجتمع إذا أراد أن يحدث عن علي (عليه السلام) يقول : قال أبو زينب ، ويظهر الابتعاد عن علي(عليه السلام) حتى ظهر منه ما يوجب الإنكار عليه، فقال له أبان بن عياش : ما هذا الذي يقال عنك أنك قلته في عليّ (عليه السلام) ؟!
فقال : يا ابن أخي أحقن دمي من هؤلاء الجبابرة - يعني بني أمية - لولا ذلك لسال بي أعشب^(١٤٦) .

ولسنا بحاجة إلى إقامة الدليل على عظيم اهتمام الأمويين في معارضة حديث أهل البيت (عليهم السلام) وخصومتهم لهم ومعاقبة من يتقرّب اليهم .
يقول الشعبي : ماذا لقينا من آل أبي طالب ؟ إن احببناهم قتلنا ، وإن أبغضناهم دخلنا النار^(١٤٧) . وقد برهن الأمويون على ذلك بما احتفظ التاريخ بكثير منه .

(١٤٤) مناقب أبي حنيفة للمكي ج ١ ص ١٧١ .

(١٤٥) أبو سعيد هو الحسن بن أبي الحسن البصري مولى أم سلمة المتوفى سنة (١١٠ هـ) كان مناصراً لبني مروان ، ودولتهم مدينة له بقوة دفاعه كما هي مدينة للحجاج بقوة بطشه حتى قيل : « لولا لسان الحسن البصري وسيف الحجاج لوئدت الدولة المروانية في مهدها وأخذت من وكرها » .

(١٤٦) الحسن البصري لأبي الفرج بن الجوزي ص ٧، وابن أبي الحديد ج ١ ص ٣٩٦ .

وعلى أيّ حال فقد اشتدّت المحنة على المسلمين ، وأصبح الأكثر يجازف بحياته لاختراق تلك الخطوط ، واجتياز تلك الحدود ، ممّا أوجب سخط الدولة عليهم .

ولمّا فسخ المجال بضعف الدولة الأموية ووجد المسلمون بعض الحرية ، ازدحموا على أبواب بيت النبوة لأخذ التعاليم ورواية الحديث ، فكانت للإمام الباقر (عليه السلام) حلقة في المدينة لا تعقد أي حلقة علمية إلا بعد انتهائه من الحديث، وكذا في مكة . وقد احتفظ الحجاز بولائه لأهل البيت (عليهم السلام) والمدينة بصوره خاصة ، وكان الناس بأشدّ ما يكون من الحاجة الى الأخذ من أهل المدينة ، لقرب عهدهم من الرسول وفيها علماء الصحابة ، وهم أقوى الناس في الحديث ، حتى أنّ أكثر الصحابة الذين كانوا في سائر الأقطار يشدّون الرحال الى المدينة ليتأكّدوا من صحة ما يسمعون من الحديث .

وكرّرت الهجرة الى دار الهجرة ، وتتابعَت الوفود من أطراف البلاد، ونشطت الحركة العلميّة في عصر الإمام الصادق (عليه السلام) ورفعت الموانع ، فكان بيته جامعة إسلامية يؤمّها طلاب العلم ورواد الحقيقة ، فكان عدد المنتمين لمدرسته أربعة آلاف رجل .

وقد أفرد الحافظ أبو العباس أحمد بن عقدة المتوفى سنة (٢٣٠ هـ) ، فيهم كتاباً ذكر فيه أربعة آلاف رجل ممن روى الحديث عن الصادق (عليه السلام) وذكر منهم الشيخ الطوسي المتوفى سنة (٤٦٠ هـ) ما يزيد على ثلاثة آلاف .

وقال الشيخ نجم الدين في المعتبر : « روى عن الصادق أربعة آلاف رجل وبرز بتعليمه من الفقهاء الأفاضل جمّ غفير، الى أن يقول : حتى كتبت من أجوبة مسائله أربعمئة مصنف لأربعمئة مصنف ، سموها بالأصول »^(١٤٨) .

وليس من الغريب أن يترأس الإمام الصادق (عليه السلام) تلك الحركة العلميّة فهو من أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وكان يتّصف بصفات الكمال التي بعثت الاعجاب في نفوس الأمة على اختلافهم في الآراء والمعتقدات . وله القدم الراسخ والباع الطويل في كلّ علم ، والنظر الثاقب في جميع العلوم ، فاشتهر ذكره في الحديث

(١٤٧) عيون الأخبار لابن قتيبة ج ٢ ص ١١٢ .

(١٤٨) أنظر الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: الجزء الأول ص ٨٧ ، المعتبر ج ١ ص ٢٦ .

وسائر العلوم والفنون ، حتى وجد في الكوفة تسعمائة شيخ، كلّ يقول : حدّثني جعفر بن محمد . (١٤٩)

بعض المؤلفين من تلامذته

وقد ألّف تلامذته المختصون به كتباً في سائر العلوم والفنون، منهم :

- ١ - أبان بن تغلب الربيعي أبو سعيد الكوفي المتوفى سنة (١٤١ هـ) . له كتاب « معاني القرآن » ، كتاب « القراءات » ، كتاب من الأصول على مذهب الشيعة (١٥٠) .
- ٢ - علي بن يقطين المتوفى سنة (١٨٤ هـ) . له كتاب ما سئل عنه الإمام الصادق من أمور الملاحم (١٥١) .
- ٣ - أبو حمزة ثابت بن أبي صفية الثمالي المتوفى سنة (١٥٠ هـ) . له كتاب في التفسير ، وكان من تلامذة الباقر والصادق (عليهما السلام) (١٥٢) .
- ٤ - أبو بصير يحيى بن القاسم المتوفى سنة (١٥٠ هـ) وهو من تلامذة الباقر والصادق (عليهما السلام) . له تفسير القرآن ، ذكره ابن النديم (١٥٣) .
- ٥ - علي بن حمزة أبو الحسن الكوفي البطائي من تلامذة الإمام الصادق . له كتاب جامع أبواب الفقه ، ذكره النجاشي (١٥٤) .
- ٦ - إسماعيل بن أبي خالد محمد بن مهاجر . له كتاب مبوب في القضاء ، ذكره الشيخ الطوسي (١٥٥) .
- ٧ - المفضل بن عمر الكوفي . له كتاب التوحيد الذي أملاه عليه الإمام الصادق عندما التقى المفضل بأحد الزنادقة وناظره ، وطلب من الإمام أن يملي عليه بما يقوى به على مناظرة الزنادقة ، فأملى عليه الإمام الصادق تلك الدروس القيّمة التي تحتوي على دلائل التوحيد ، ومحكم البراهين على وجود الصانع الحكيم من بيان هيئة العالم ، وتأليف أجزائه ، وكيف خلق الإنسان وتكوينه ، وكيفية ولادته وتغذيته ،

(١٤٩) أعيان الشيعة ج ١ ص ٦٦٤ .

(١٥٠) فهرست ابن النديم ص ٣٠٨ .

(١٥١) المصدر السابق.

(١٥٢) كشف الظنون ج ٢ ص ٤٤٤ وفهرست ابن النديم ص ٥٠ .

(١٥٣) الفهرست ص ٢٤٤ .

(١٥٤) رجال النجاشي ج ٢ ص ١٠٧ / ٧١٢ .

(١٥٥) الفهرست ص ٤٥ حديث ٣٠ .

وغرائزه وطبائعه ، وبيان الدماغ وعظمته ، وما فيه وفي سائر الأعضاء من عجيب الصنع ، وعظيم القدرة ، وذكر الفؤاد والنخاع ، والدم والأوردة والشرابين ، وبيان قوى البدن من جاذبة وماسكة وهاضمة ودافعة ، وبيان تركيب بدنه وتنسيق أعضائه وانتصاب القامة واعتدالها ، وبيان الحواس وأعمالها وأسرارها والوسائط التي بينها من ضياء وهواء ، وماهية الصوت وحقيقة الكلام ، والمنطق والكتابة وما أعطي الإنسان من علم ، والأشياء المخلوقة لمأرب الإنسان ، وما يتوقف عليه نظام حياته ، إلى غير ذلك .

وقد شرحه الأستاذ الطبيب الماهر محمد الخليلي شرحاً وافياً بالعرض ، وطبقه على العلوم الحديثة في مجلدين ، ولا يزال مخطوطاً نتمنى له الظهور لعالم النشر .

٨ - هشام بن الحكم المتوفى سنة (١٨٥ هـ) .

أبو محمد الشيباني الكوفي من تلامذة الإمام الصادق وابنه موسى الكاظم (عليهما السلام) ، له من الكتب : كتاب «الإمام» ، كتاب «حدوث الأشياء» ، كتاب «الرد على الزنادقة» ، كتاب «الأكف» ، وغيرها . وقد ذكر له ابن النديم خمسة وعشرين كتاباً^(١٥٦) .

٩ - محمد بن علي بن النعمان، أبو جعفر الأحول المعروف بـ «مؤمن الطاق» وتسميه خصومه شيطان الطاق من أصحاب أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) ، كان متكلماً حاذقاً ، له من الكتب : كتاب «الإمامة» ، كتاب «المعرفة» ، كتاب «الرد على المعتزلة» ، كتاب في أمر طلحة والزبير^(١٥٧) .

وغير هؤلاء من تلامذة الإمام الصادق (عليه السلام) الذين ألفوا في عصره سائر العلوم والفنون ، كما ستقف عليه في بحث تدوين الفقه والحديث .

ونعود إلى الحديث عن بعض رواة حديث الإمام الصادق (عليه السلام) من كبار العلماء وحملة الحديث من رؤساء طوائف وأئمة مذاهب وغيرهم ، مقتصرين على ذوي الشهرة منهم ومن خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة ، وقد سلطنا طريق الاختصار لضيق المجال .

تلامذته ورواة حديثه

(١٥٦) الفهرست لابن النديم ص ٢٥٠ .

(١٥٧) الفهرست ص ٢٢٤ .

١ - إبراهيم بن سعد :

إبراهيم بن سعد بن عبد الرحمن الزهري المتوفى سنة (١٨٣ هـ) أحد الأعلام ومن رجال الصحاح الستة ، روى عنه يزيد بن هارون وأحمد بن حنبل وخلق كثير ، وثقه ابن معين ، وأبو حاتم ، والعجلي ، وأحمد بن حنبل ، وروايته عن الصادق في التهذيب والكافي يرويهما عنه ابنه يعقوب .^(١٥٨)

٢ - إبراهيم بن زياد :

إبراهيم بن زياد البغدادي المتوفى سنة (٢٢٨ هـ) . روى له مسلم وأبو داود والنسائي.^(١٥٩)

٣ - إبراهيم بن محمد :

إبراهيم بن محمد بن يحيى الأسلمي أبو إسحاق المدني المتوفى سنة (١٩١ هـ).^(١٦٠)

٤ - إبراهيم بن طهمان :

إبراهيم بن طهمان بن شعيب الهروي المتوفى سنة (١٦٨ هـ) . كان أحد الأعلام ومن رجال الصحاح الستة ، قال أبو نعيم : حدث عن جعفر بن محمد الصادق ، وثقه أحمد ، وأبو داود ، وأبو حاتم .^(١٦١)

٥ - إبراهيم بن علي :

إبراهيم بن علي بن الحسن بن رافع المدني . روى عنه أحمد بن محمد ، وإبراهيم بن المنذر ، ويعقوب بن حميد . خرج حديثه ابن ماجه.^(١٦٢)

٦ - إبراهيم بن مهاجر الأزدي :

روى عنه حفص بن راشد وغيره ، وذكره الخطيب في المتفق .^(١٦٣)

٧ - إبراهيم بن محمد :

إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى المتوفى سنة (١٨٤ هـ) . أحد الأعلام روى عنه الشافعي ووثقه ، والثوري ، ويحيى بن آدم . قال أحمد بن حنبل : كان قديراً معتزلياً جهماً كل بلاء فيه . وقال ابن عقدة : ليس بمنكر الحديث .

(١٥٨) تهذيب التهذيب ج ١ ص ١١٠ / ١٩٠ .

(١٥٩) تهذيب التهذيب ج ١ ص ١٠٤ / ٢١٤ .

(١٦٠) تهذيب الكمال ج ٢ ص ١٨٤ / ٢٣٦ .

(١٦١) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٢١٣ / ٢٠٠ .

(١٦٢) تهذيب الكمال ج ١ ص ١٥٥ / ٢١٦ .

(١٦٣) المتفق والمتفرق ج ١ ص ٢٢١ / ٤٩ .

وقال ابن عدي : هو كما قال ابن عقدة. ذكره الشيخ الطوسي في رجال الصادق ، وأن له كتاباً مبوباً في الحلال والحرام يرويه عن جعفر بن محمد . وقال بعض ثقات العامة : إن كتب الواقدي سائرهما إنما هي منه .^(١٦٤)

٨ - بسام بن عبد الله :

بسام بن عبد الله الصيرفي أبو الحسن الكوفي ، وثقه احمد ويحيى بن معين. خرج له النسائي في صحيحه . قال ابن حجر : « صدوق من الخامسة »^(١٦٥).

٩ - بشار بن قيراط :

بشار بن قيراط النيسابوري أبو نعيم ، روى عنه عبد الله بن الوليد بن مهران وعمر بن رافع ونوح بن أنس ، قال ابن عدي كان ينتحل الرأي ، وروى عنه عمار بن الحسن .^(١٦٦)

١٠ - بشار بن ميمون :

بشار بن ميمون الخراساني المتوفى سنة (١٨٠ هـ). سكن مكة ، وقدم بغداد وحدث بها عن جعفر بن محمد ، فترك الناس حديثه ، نظراً لظروف سياسة الدولة التي تريد أن تطبع الناس بطابعها الخاص .^(١٦٧)

١١ - تلید بن سليمان :

تلید بن سليمان المحاربي أبو سليمان الكوفي الأعرج المتوفى سنة (١٩٠ هـ) ، روى عنه أحمد بن حنبل وإسحاق بن موسى ، خرج حديثه الترمذي . قال ابن عقدة : إن له كتاباً عن الصادق يرويه عنه جماعة .^(١٦٨)

١٢ - الجراح بن مليح :

الجراح بن مليح الرواسي الكوفي المتوفى سنة (١٧٥ هـ) . روى عنه ابنه وأبو قتيبة ، وسفيان بن عتبة ، وابن مهدي . قال ابن سعد : ولي بيت المال ببغداد في خلافة هارون ، وكان ضعيفاً في الحديث . روى له البخاري في الأدب المفرد ،

(١٦٤) تهذيب التهذيب ج ١ ص ١٤٢ / ٢٥٤ .

(١٦٥) ميزان الاعتدال ج ٢ ص ١٧ / ١١٦٨ .

(١٦٦) ميزان الاعتدال ج ٢ ص ٢٠ / ١١٨٠ .

(١٦٧) تهذيب الكمال ج ٤ ص ١٧٨ / ٧٢٩ . وفيه : « بشر بن ميمون » .

(١٦٨) تهذيب الكمال ج ٤ / ٣٢٠ / ٧٩٨ .

ومسلم في صحيحه ، وأبو داود والترمذي وابن ماجه . قال أبو أحمد بن عدي : له أحاديث صالحة وروايات مستقيمة . وحديثه لا بأس به ، وهو صدوق . (١٦٩)

١٣ - جرير بن عبد الحميد :

جرير بن عبد الحميد بن قرط أبو عبد الله الرازي القاضي المتوفى سنة (١٨٨ هـ) . روى عنه ابن راهويه ، وابنا أبي شيبة ، ويحيى بن معين ، وموسى القطان ، ومحمد بن قدامة وغيرهم ، قال العجلي : كوفي ثقة نزل الري . وقال النسائي : ثقة . وقال أبو قاسم : مجمع على ثقته ، وهو من رجال الصحاح الستة . عدّه الشيخ في رجاله من أصحاب الصادق . وقال ابن حجر في التقریب : ثقة صحيح . (١٧٠)

١٤ - حبيب بن النعمان :

حبيب بن النعمان الأسدي أحد بني عمر بن أسد . قال النجاشي : حبيب بن النعمان النجاشي رجل من بني أسد من أهل البادية ، له كتاب يرويه عن الصادق (عليه السلام) . وقال ابن حجر : حبيب بن النعمان مقبول من السادسة . وذكره ابن حبان في الثقات . روى له أبو داود وابن ماجه . (١٧١)

١٥ - حبيب بن يسار :

حبيب بن يسار الكندي الكوفي . روى عنه زكريا بن يحيى الحميري ، وأبو الجارود ، ويوسف بن صهيب وغيرهم . وثقه ابن معين ، وأبو زرعة ، وأبو داود . وذكره ابن حبان في الثقات . قال ابن حجر : ثقة من الثالثة . ذكره الشيخ في رجال الصادق وأخرج حديثه الترمذي وأبو داود . (١٧٢)

١٦ - الحسن بن عياش :

الحسن بن عياش بن سالم الأسدي أبو محمد الكوفي المتوفى سنة (١٧٢ هـ) . روى عنه ابن مهدي وأحمد بن يونس . وثقه ابن معين والنسائي وابن حبان . خرج له مسلم والترمذي والنسائي . (١٧٣)

١٧ - الحكم بن عتبة :

الإمام الصادق والمذاهب الأربعة / ج ٢

(١٦٩) تهذيب الكمال ج ٤ ص ٥١٧ / ٩١٠ .

(١٧٠) تقريب التهذيب ج ١ ص ١٣٢ / ١٠١٥ .

(١٧١) لسان الميزان ج ٢ ص ٣٢٢ / ٢٣٢٥ .

(١٧٢) تهذيب الكمال ج ٥ ص ٤٠٤ / ١١٠١ .

(١٧٣) تهذيب التهذيب ج ٢ ص ٢٨٤ / ١٣٤٥ .

الحكم بن عتبة أبو محمد الكندي مولا هم المتوفى سنة (١١٣ - ١١٤ هـ) . روى عنه الأعمش ، ومنصور ، وأبو إسحاق السبيعي ، والشيباني وغيرهم ، وهو من رجال الصحاح الستة ؛ ذكره النجاشي في رواة الصادق ، روى له في الكافي والتهذيب والنهاية . قال ابن حجر : ثقة ثبت فقيه . وقال ابن عيينة : ما كان بالكوفة بعد إبراهيم والشعبي مثل الحكم . وثقه أبو حاتم وابن معين . وقال العجلي : كان صاحب سنة وأتباع ، وكان فيه تشيع إلا أن ذلك لم يظهر منه . وقد نص على تشييعه شعبة بن الحجاج وابن قتيبة . (١٧٤)

١٨ - الحارث :

ابن عمران الجعفري المدني. خرّج حديثه ابن ماجة ، وروى عنه عبد الله بن عمر بن محمد المعروف بمشكدانه ، وعلي بن محمد الموصلي ، ومحمود بن غيلان. (١٧٥)

١٩ - الحارث :

ابن عمير البصري. نزيل مكة ، روى عنه ابنه حمزة ، وعبد الرحمن بن مهدي وجماعة ، وكان حماد بن زيد يقدّمه ويثني عليه وثقه ابن معين وخرّج حديثه الأربعة . (١٧٦)

٢٠ - حميد بن قيس :

حميد بن قيس الأعرج المتوفى سنة (١٣٠ هـ) من رجال الصحاح الستة . روى عنه معمر والسفيانان ، ومالك بن أنس وغيرهم . (١٧٧)

٢١ - حماد بن عيسى :

حماد بن عيسى الجهني المدني. نزيل البصرة المتوفى سنة (٢٠٨ هـ) . خرّج حديثه الترمذي وابن ماجة . وروى عنه إسحاق الجوزجاني ، ومحمد بن بكار البصري ، ومحمد بن المثنى وغيرهم . (١٧٨)

٢٢ - الحارث بن عمران الأسدي :

الحارث بن عمران الأسدي . روى عنه أبو سعيد الأشج ، وخرّج حديثه ابن ماجة . (١٧٩)

(١٧٤) تهذيب التهذيب ج ٢ ص ٣٨٨ / ١٥٢٨ ، المعارف لابن قتيبة ص ٣٤١ .

(١٧٥) تهذيب التهذيب ج ٢ ص ١٣٢ / ٢٦٠ .

(١٧٦) تهذيب التهذيب ج ٢ / ١٣٢ / ٢٦١ .

(١٧٧) ميزان الاعتدال ج ١ ص ٦١٥ / ٢٣٤١ .

(١٧٨) تهذيب الكمال ج ٧ ص ٢٨١ / ١٤٨٦ .

٢٣ - حاتم بن إسماعيل :

حاتم بن إسماعيل المدني أبو إسماعيل الحارث مولى بني عبد الدار الإمام
الصادق (عليه السلام) تلامذته ورواة حديثه

المتوفى سنة (١٨٦ - ١٨٧ هـ) . خرّج حديثه أصحاب الصحاح وروى عنه
يحيى بن سعيد القطان ، وإبراهيم بن حمزة ، وهارون بن معروف ، وعثمان ابن أبي
شيبه ، ومحمد بن مهران وغيرهم. (١٨٠)

٢٤ - داود بن الزبرقان :

داود بن الزبرقان الرقاشي أبو عمر البصري ثم البغدادي المتوفى سنة (١٨٦ هـ) .
روى عنه سعيد بن عروة ، وبقية وعلي بن حجر وشعبة بن الحجاج وهو من
شيوخه ، وأبو صالح المصري ، والحسن بن عرفة وغيرهم ، ذكره في جامع الرواة
وعده ابن حجر من الطبقة الثامنة . خرّج حديثه
الترمذي وابن ماجه . (١٨١)

٢٥ - الربيع بن حبيب :

الربيع بن حبيب العبسي مولا لهم الكوفي ، روى عنه وكيع وغيره .
وثقه ابن معين . وقال البخاري : منكر الحديث ، خرّج حديثه
ابن ماجه . (١٨٢)

٢٦ - رحيل :

رحيل - بالمهمله مصغر - ابن معاوية بن حديج الجعفي ، روى عنه أخوه زهير ،
وشجاع بن الوليد . وثقه ابن حبان ، وخرّج حديثه أبو داود والترمذي . قال ابن حجر
: صدوق من السابعة . (١٨٣)

٢٧ - رقبة :

رقبة بن مصقلة العبدي الكوفي أبو عبد الله المتوفى سنة (١٢٩ هـ) . روى عنه
سليمان التميمي ، وأبو عوانة ، وابن فضل . قال أحمد : ثقة مأمون ، وعده ابن حجر

(١٧٩) سنن ابن ماجه ج ١ ص ٦٣٣ ح ١٩٦٨ ، كتاب المجروحين ج ١ ص ٢٢٥ ، الحاكم في المستدرک ج ٢ ص ١٦٣ ،
معجم رجال الحديث للسيد الخوئي ج ٥ ص ١٧٦ الرقم ٢٥٠١ ، متحد مع ترجمة الحارث بن عمران الجعفري الكلابي ،
المديني الرقم ١٨ .

(١٨٠) تهذيب التهذيب ج ٢ ص ١١٧ / ١٠٥٤ .

(١٨١) تهذيب الكمال ج ٨ ص ٣٩٣ / ١٧٥٩ .

(١٨٢) تهذيب التهذيب ج ٣ ص ٢١٦ / ١٩٦٤ .

(١٨٣) تقريب التهذيب ج ١ ص ٢٤٥ / ٢١٠٨ . وفيه : « من التاسعة بدل السابعة » .

من السادسة . خرّج حديثه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجه في التفسير . (١٨٤)

٢٨ - الركين بن الربيع :

الركين بن الربيع بن عميلة أبو الربيع الكوفي المتوفى سنة (١٣١ هـ) . روى عنه شعبة ، والثوري، ومعتمر بن سليمان . وثقه النسائي ، وخرّج حديثه البخاري في الأدب المفرد ، ومسلم في صحيحه والأربعة . قال ابن حجر : ثقة من الرابعة . (١٨٥)

٢٩ - زكريا بن إسحاق :

زكريا بن إسحاق المكي المتوفى سنة (١٤٨ هـ) . وثقه البخاري وأبو داود وابن معين، وهو من رجال الصحاح الستة، وكان يُرمى بالقدر . ووثقه ابن معين وابن حجر . (١٨٦)

٣٠ - زياد بن سعد :

زياد بن سعد الخراساني أبو عبد الرحمن المكي نزيل اليمن . روى عنه ابن جريح ، وهمام ومالك بن أنس ، وهو من رجال الصحاح الستة . قال النسائي: ثقة ثبت . ذكره ابن حجر في الطبقة السادسة . (١٨٧)

٣١ - زيد بن عطاء :

زيد بن عطاء بن السائب الكوفي الثقي . روى له الترمذي وأبو داود . (١٨٨)

٣٢ - زهير بن محمد التميمي :

زهير بن محمد التميمي أبو المنذر الخراساني المتوفى سنة (١٦٢ هـ) . تقدّم في الجزء الأول . (١٨٩)

٣٣ - زيد بن الحسن :

زيد بن الحسن القرشي الأنماطي . روى عنه إسحاق وابن المديني، وخرّج حديثه الترمذي في صحيحه . (١٩٠)

٣٤ - سعيد بن سالم :

(١٨٤) تهذيب الكمال ج ٩ ص ٢١٩ / ١٩٩٣ .

(١٨٥) تهذيب الكمال ج ٩ ص ٢٢٤ / ١٩٢٥ .

(١٨٦) تقريب التهذيب ج ١ ص ٣١٣ / ٢٠٢٥ .

(١٨٧) تهذيب التهذيب ج ٣ ص ٣١٨ / ٦٧٨ .

(١٨٨) تهذيب التهذيب ج ٣ ص ٣٦١ / ٧٦٦ .

(١٨٩) راجع الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، الجزء الأوّل ص ٩٣، تهذيب الكمال ج ٩ ص ٤١٤ / ٢٠١٧ .

(١٩٠) تهذيب الكمال ج ١٠ ص ٤٥٤ / ٢٢٧٩ .

سعيد بن سالم القداح أبو عثمان الكوفي . روى عنه الشافعي ويحيى ابن آدم. قال أبو داود : صدوق يذهب الى الأرجاء . وقال ابن حجر: صدوق يتهم ، رمي بالأرجاء، وكان فقيهاً من كبار التاسعة . خرج حديثه أبو داود والنسائي.(١٩١)

٣٥ - سعيد بن عبد الجبار :

سعيد بن عبد الجبار الزبيدي أبو عثمان (أو عثيم) الحمصي ، خرج له ابن ماجه ، روى عنه محمد المقدمي ، وهشام بن عبيد الله ، ويحيى بن المغيرة الرازي وغيرهم .(١٩٢)

٣٦ - سعيد بن عبد الرحمن :

سعيد بن عبد الرحمن الجمحي أبو عبد الله المدني المتوفى سنة (١٧٦ هـ) . وثقه ابن معين ، وروى عنه ابن وهب ، ومحمد بن سليمان ، وعلي بن حجر . روى له مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه .(١٩٣)

٣٧ - سلمة بن كهيل :

سلمة بن كهيل الحضرمي أبو يحيى الكوفي المتوفى سنة (١٢١ هـ) . روى عنه ابنه يحيى وشعبة وحماد بن سلمة وغيرهم ، وهو من رجال الصحاح الستة. قال ابن المديني : له نحو مائتين وخمسين حديثاً . وثقه أحمد . وقال ابن حجر : ثقة في الرابعة. كان من البترية، وكان من تلامذة الباقر والصادق ، وقد ذمه الإمام الباقر مع جماعة بقوله : إنهم أضلوا كثيراً ممن ضلّ من هؤلاء ، وإنهم ممّن قال الله عز وجل : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين)(١٩٤)(١٩٥) .

٣٨ - سليمان بن مهران الأعمش :

سليمان بن مهران الأسدي الكاهلي(١٩٦) أبو محمد الكوفي الأعمش المتوفى سنة (١٤٧ - ١٤٨ هـ) . أحد الأعلام ، ومن رجال الصحاح الستة ، ورؤساء المذاهب البائدة . روايته عن الصادق في كتاب من لا يحضره الفقيه في نكت الحج .(١٩٧)

٣٩ - سليمان :

(١٩١) تهذيب التهذيب ج ٤ ص ٣١ / ٥٤ .

(١٩٢) تهذيب التهذيب ج ٤ ص ٤٧ / ٨٦ .

(١٩٣) تهذيب الكمال ج ١٠ ص ٥٢٨ / ٢٣١٢ .

(١٩٤) رجال الكشي ص ٢٤٠ حديث ٤٣٩ ، تقريب التهذيب لابن حجر العسقلاني ج ١ ص ٣٧٩ .

(١٩٥) البقرة: ٨ .

(١٩٦) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة الجزء الأول ص ٢٢٠ .

(١٩٧) من لا يحضره الفقيه ج ٤ / ٢٨٦ ح ٥٦٤٩ .

سليمان بن بلال التيمي القرشي مولا هم أبو محمد، المتوفى سنة (١٧٢ هـ) .
خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة . وروى عنه أبو عامر العقدي ، وابن المبارك ،
ومعلى بن منصور ، وعبد بن وهب وغيرهم . وثقه ابن سعد ، وابن عدي ، واحمد بن
حنبل ، ونصّ ابن داود على توثيقه، وذكره في أصحاب الإمام علي بن موسى الرضا
، وأكثر علماء الرجال يعدّونه من تلامذة الإمام الصادق (عليه السلام) ^(١٩٨) وقد أدرك
عصر الإمام الرضا (عليه السلام) .

٤٠ - سفيان الثوري :

سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري ^(١٩٩) أبو عبد الله الكوفي المتوفى سنة (١٦١ هـ) .
أحد الأعلام ومن رجال الصحاح الستة ، ورؤساء المذاهب البائدة . كان كثير
التردد على الإمام الصادق ، وله أخبار كثيرة يرويها عنه ابن داود ، والحلي
والكشي . ^(٢٠٠)

٤١ - سفيان بن عيينة :

سفيان بن عيينة بن أبي عمران المتوفى سنة (١٩٨ هـ) وهو أحد رؤساء المذاهب
البائدة . ^(٢٠١)

٤٢ - سعيد بن عبد الرحمن :

سعيد بن عبد الرحمن الجمحي المتوفى سنة (١٧٤ هـ) أحد الأعلام .
روى له أصحاب الصحاح ماعدا البخاري ، وثقه أحمد وغيره . وذكره
الشيخ الطوسي ^(٢٠٢) .

٤٣ - سنان بن هرون :

سنان بن هرون البرجمي أبو بسر الكوفي . روى عنه وكيع ومحمد بن سليمان .
خرج له الترمذي في صحيحه . ^(٢٠٣)

٤٤ - سعيد بن طريف :

(١٩٨) تهذيب التهذيب ج ١ ص ٣٥٣ / ٧٤٢ ، وتاريخ الإسلام للذهبي ج ٦ ص ٤٥ .

(١٩٩) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة الجزء الأول ص ٢١٣ .

(٢٠٠) رجال الكشي ص ٣٩٢ الحديث ٧٣٩ ، ج ٤ ص ٩٩ / ١٩٩ .

(٢٠١) تهذيب التهذيب ج ٤ ص ١٠٦ / ٢٥٤٤ .

(٢٠٢) رجال الطوسي ص ٢١٢ الحديث ٧٧٢٧ .

(٢٠٣) تهذيب التهذيب ج ٤ ص ٢٢٠ / ٢٧٣٧ .

سعيد بن طريف الحنظلي الإسكافي الكوفي . روى عنه اسرائيل وابن عليّة. خرّج حديثه الترمذي وابن ماجّة . قال ابن حجر : كان رافضياً من السادسة . عدّه الشيخ من أصحاب الصادق، ورواياته مطروحة وغير مستقيم . (٢٠٤)

٤٥ - سعيد بن أبي خثيم :

سعيد بن أبي خثيم بن رشد الهلالي أبو معمر الكوفي المتوفى سنة (١٨٠هـ) روى عنه أحمد بن حنبل، وعبد الله بن أبي شيبة . وثقه ابن معين وغيره . قال في التقريب : أبو معمر الكوفي صدوق رمي بالتشيع. خرّج له الترمذي والنسائي (٢٠٥).

٤٦ - سعيد بن حسان :

سعيد بن حسان المخزومي المكي القاضي . روى عنه السفينان ، وأبو أحمد الزبير ، ووكيع ، وأبو نعيم وغيرهم . وثقه ابن معين . وعدّه الشيخ من أصحاب الصادق . وقال ابن حجر: صدوق له أوهام من السادسة . خرّج حديثه مسلم، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجّة . (٢٠٦)

٤٧ - سعيد بن سالم :

سعيد بن سالم القداح بن عثمان المكي ، أصله من خراسان أو الكوفة، وقال ابن حجر : صدوق يُرمى بالارجاء ، وكان فقيهاً من كبار التاسعة . روى عنه الشافعي، ويحيى بن آدم ، وأسد بن موسى ، وأحمد بن يونس وغيرهم ، قال ابن معين : ليس به بأس . وقال أبو داود وابن عدي : صدوق يذهب الى الارجاء . خرّج له أبو داود والنسائي . (٢٠٧)

٤٨ - سعيد بن مسلمة :

ابن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي، ويقال مسلمة بن أمية ابن هشام كان ينزل الجزيرة. خرّج حديثه الترمذي وابن ماجّة، وروى عنه محمد بن إدريس الشافعي ، وعمر بن إسماعيل بن مجالد ، وعلي بن ميمون العطار، وغيرهم. ذكره الذهبي من رواة حديث الإمام الصادق (عليه السلام)، وقال ابن داود : له كتاب وهو من تلامذة الإمام الصادق (عليه السلام) . (٢٠٨)

٤٩ - سالم بن عبد الواحد :

(٢٠٤) رجال الطوسي ص ٢١٣ الحديث ٢٧٩٥ .

(٢٠٥) تهذيب التهذيب ج ٤ ص ٢٠ / ٢٣٨٨ .

(٢٠٦) تهذيب الكمال ج ١٠ ص ٣٨٤ / ٢٢٥٠ .

(٢٠٧) تهذيب الكمال ج ١٠ ص ٤٥٤ / ٢٢٧٩ .

(٢٠٨) تهذيب التهذيب ج ٤ ص ٧٥ / ٢٤٨٨ .

سالم بن عبد الواحد المرادي أبو العلاء الكوفي . روى عنه الصباح بن محارب ووكيع . خرّج له الترمذي . قال ابن حجر : مقبول . وقال الخزرجي : ضعفه ابن معين ، ووثقه ابن حبان . (٢٠٩)

٥٠ - شعبة بن الحجاج :

شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي^(٢١٠)، مولا هم أبو بسطام المتوفى سنة (١٦٠ هـ) . الحافظ أحد الأئمة الاعلام . قال ابن المديني : له نحو ألفي حديث . وقال أحمد : شعبة أمة وحدة وهو من رجال الصحاح الستة . روى عن الإمام الصادق وحضر عنده . وروايته عنه في التهذيب . يروي عنه يحيى بن أبي بكر وخلق كثير . (٢١١)

٥١ - شعيب بن خالد :

شعيب بن خالد البجلي . عدّه ابن حجر في التقريب من الطبقة السابعة . قال النسائي : ليس به بأس . خرّج حديثه أبو داود . وروى عنه يحيى بن العلاء الرازي ، وعمر بن قيس ، وحجاج بن دينار ، وزهير بن معاوية وغيرهم . (٢١٢)

٥٢ - الضحاك بن مخلد :

الضحاك بن مخلد الشيباني^(٢١٣) أبو عاصم النبيل المتوفى سنة (٢١٢ هـ) والمتولد سنة (١٢٢ هـ) . البصري الحافظ أحد الأعلام ، ومن رجال الصحاح الستة ، من شيوخ البخاري وأحمد وابن المديني وغيرهم . قال النجاشي : روى عن جعفر بن محمد كتاباً ، يرويه عنه هارون بن مسلم وعباس بن محمد بن حاتم ، وذكر ذلك في الخلاصة أيضاً . وكان آخر تلامذة الإمام الصادق وفاة . (٢١٤)

٥٣ - طلحة بن زيد :

طلحة بن زيد القرشي أبو مسكين الرقي . روى عنه شيبان بن فروخ . رماه أحمد وابن معين بالوضع . روى له ابن ماجه . (٢١٥)

٥٤ - عاصم بن عمر :

(٢٠٩) تهذيب الكمال ج ١٠ ص ١٦٠ / ١٢٥٣ .

(٢١٠) تقدمت ترجمته في الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٩٢ .

(٢١١) تهذيب التهذيب ج ٤ ص ٢٩٧ / ٥٩٠ .

(٢١٢) تهذيب التهذيب ج ٤ ص ٣٠٨ / ٥٩٩ .

(٢١٣) تاريخ الإسلام للذهبي ص ٦ - ٤٥ ، وتقدمت ترجمته في الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٩٤ .

(٢١٤) خلاصة الأقوال ص ٣٦١ الفصل (١٤) .

(٢١٥) تهذيب الكمال ج ١٣ ص ٣٩٥ / ٢٩٦٨ .

عاصم بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب. وثقه ابن حبان ، وضعفه أحمد . روى عنه أبو داود الطيالسي ، وإسماعيل بن أبي أويس ، ومحمد بن فليح ، وعبد الله بن نافع ، وابن وهب وغيرهم . خرّج حديثه الترمذي وابن ماجه (٢١٦) .

٥٥ - عاصم بن حميد :

عاصم بن حميد الحنات الكوفي. وثقه أبو زرعة . وقال ابن حجر : صدوق من السابعة. وروى عنه محمد بن عبد الله بن نمير ، ويحيى الحماني ، وإسماعيل بن موسى الفزاري ، وأبو نعيم الطحان . (٢١٧)

٥٦ - عاصم بن سليمان :

عاصم بن سليمان البصري أبو عبد الرحمن المعروف بالكوزي المتوفى سنة (١٤١ هـ) أحد الأعلام ، ومن رجال الصحاح الستة . وروى عنه قتادة ، وسليمان التيمي ، ومعمّر بن راشد ، وحماد بن زيد ، وشعبة ، وإسماعيل بن زكريا وغيرهم (٢١٨) .

٥٧ - عامر بن السمط :

عامر بن السمط التيمي الكوفي أبو كنانة . وثقه ابن حجر وابن القطان ، وخرّج له النسائي في مسند عليّ . (٢١٩)

٥٨ - عتبة بن عبد الله :

عتبة بن عبد الله بن عتبة بن عبد الله بن مسعود أبو العميس الهذلي . روى عنه شعبة ، وأبو معاوية ، وأبو أسامة. وثقه أحمد وابن معين . خرّج حديثه أصحاب الصحاح الستة ، له نحو أربعين حديثاً . (٢٢٠)

٥٩ - عثمان بن فرقد :

عثمان بن فرقد العطار البصري^(٢٢١) . روى له البخاري والترمذي . (٢٢٢)

٦٠ - عثمان بن عبد الرحمن :

(٢١٦) تهذيب الكمال ج ١٣ ص ٥١٧ / ٣٠١٧ .

(٢١٧) تهذيب الكمال ج ١٣ ص ٤٨٢ / ٣٠٠٥ .

(٢١٨) تهذيب التهذيب ج ٥ ص ٤٠ / ٣١٦٤ .

(٢١٩) تهذيب التهذيب ج ٥ ص ٦٠ / ٣١٩٦ .

(٢٢٠) تهذيب الكمال ج ١٩ ص ٣٠٩ / ٣٧٧٦ .

(٢٢١) تاريخ الإسلام للذهبي ج ٦ ص ٤٥ .

(٢٢٢) تهذيب الكمال ج ١٩ ص ٤٧٥ / ٣٨٥٤ .

عثمان بن عبد الرحمن بن عمر بن سعد بن أبي وقاص الزهري أبو عمر المدني
الوقاص ، ويقال له المالكي نسبة الى جدّه الأعلى أبي وقاص مالك المتوفى في خلافة
الرشيد .

كذب ابن معين ، قال ابن حجر متروك . (٢٢٣)

٦١ - عثمان بن مطر :

عثمان بن مطر البصري الشيباني . روى عنه مسلم بن إبراهيم ، وخرّج حديثه ابن
ماجة . (٢٢٤)

٦٢ - عطاء بن مسلم :

عطاء بن مسلم الخفاف الحلبي أبو مخلد المتوفى سنة (١٩٠ هـ) . روى عنه ابن
المبارك ، وأبو توبة ، وعبد الرحمن بن يزيد ، وهشام بن عمار . وثقه ابن معين ،
وخرّج حديثه الترمذي في الشمائل ، والنسائي في السنن . (٢٢٥)

٦٣ - علي بن حمزة :

علي بن حمزة أبو الحسن الأسدي المتوفى سنة (١٨٠ - ١٨٢ هـ) المعروف
بالكسائي العالم النحوي، أحد الأئمة القراء من أهل الكوفة استوطن بغداد، وكان قد
تعلم النحو على كبر سنه ، وقد روى الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) وجماعة
من أعلام الحديث، ذكره الذهبي . (٢٢٦)

٦٤ - علي بن صالح :

علي بن صالح أبو الحسن الهمداني الكوفي المتوفى سنة (١٥١ هـ) ، خرج له
مسلم والأربعة ، وروى عنه ابن نمير ووکیع وأبو نعيم . وثقه أحمد ، وابن معين .
قال ابن المديني: له نحو ثمانين حديثاً، وقال ابن حجر : ثقة عابد من الطبقة التاسعة
(٢٢٧) .

٦٥ - العوام بن حوشب :

(٢٢٣) تهذيب التهذيب ج ٧ ص ١١٨ / ٤٦٥٥ .

(٢٢٤) تهذيب الكمال ج ١٩ ص ٤٩٤ / ٣٨٦٣ .

(٢٢٥) تهذيب الكمال ج ٢٠ ص ١٠٤ / ٣٩٤٠ .

(٢٢٦) سير أعلام النبلاء ج ٨ ص ٨٠ / ١٣٥٨ .

(٢٢٧) تهذيب التهذيب ج ٧ ص ٢٨٣ / ٤٩١٩ .

العوام بن حوشب الشيباني الربعي أبو الحرث الواسطي المتوفى سنة (١٤٨ هـ).
أحد الأعلام ، ومن رجال الصحاح الستة . قال العجلي: ثقة روى عنه نحو مائتي
حديث . (٢٢٨)

٦٦ - عيسى بن عمر :

عيسى بن عمر الأسدي الكوفي المتوفى سنة (١٥٦ هـ) المعروف بالهمداني.
روى عنه ابن المبارك ووكيع . وثقه ابن معين والنسائي . خرّج له الترمذي والنسائي
(٢٢٩) .

٦٧ - عبد الجبار :

عبد الجبار بن العباس الهمداني الشبامي . روى عنه مسلم بن قتيبة ، وابن المبارك
. قال أبو حاتم ، وابن حجر : صدوق روى له البخاري في الأدب المفرد ، والترمذي
في صحيحه . (٢٣٠)

٦٨ - عبد العزيز :

عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون التميمي مولا هم المدني المتوفى
سنة (١٦٦ هـ) . أحد الأعلام ، ومن رجال الصحاح الستة . روى عنه الليث وابن
مهدي ، وخلق كثير . وثقه ابن سعد ، وابن حبان . وقال ابن معين : ثقة كان يرى
القدر ، ثم رجع . ذكره الشيخ والاردبيلي والاسترابادي في رواة حديث الصادق (عليه
السلام) . (٢٣١)

٦٩ - عبد العزيز :

عبد العزيز بن محمد بن عبيد الدراوردي أبو محمد الجهني مولا هم المدني
المتوفى سنة (١٨٧ هـ) . خرّج حديثه أصحاب الصحاح ، وروى عنه إسحاق ابن
راهويه ، ويعقوب الدورقي، وخلق كثير. وثقه ابن المديني وغيره . (٢٣٢)

٧٠ - عبد العزيز :

عبد العزيز بن عمران بن عبد الرحمن بن عوف الزهري المدني المتوفى سنة
(١٩٧ هـ)، خرّج حديثه الترمذي ، وروى عنه ابنه سليمان ، ويعقوب بن محمد

(٢٢٨) تهذيب الكمال ج ٢٢ ص ٤٢٧ / ٤٥٤١ .

(٢٢٩) تهذيب التهذيب ج ٨ ص ٤١٥ / ١٩٩ .

(٢٣٠) تهذيب الكمال ج ١٦ ص ٣٨٧ / ٣٦٩٤ .

(٢٣١) رجال الطوسي ص ٢٣٩ الحديث ٣٢٧٧ ، رجال الاسترابادي ص ١٩٤ .

(٢٣٢) تهذيب التهذيب ج ٦ ص ٣١٥ / ٦٨٠ .

الزهري ، وعلي بن محمد المدائني ، ومحمد بن عيسى الطباع ، وأبو غسان الكناني ، وإبراهيم بن المنذر وغيرهم . (٢٣٣)

٧١ - عبد العزيز :

عبد العزيز بن المطلب بن عبد الله المخزومي المدني المتوفى في خلافة المنصور ، روى له البخاري في الأدب المفرد ، ومسلم والترمذي في الصحيح ، وابن ماجة في السنن . (٢٣٤)

٧٢ - عبد الوهاب :

عبد الوهاب بن عبد المجيد بن الصلت المتوفى سنة (١٩٤ هـ) ، من شيوخ الشافعي ، واحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين ، وابن المديني وغيرهم . (٢٣٥)

٧٣ - عبد الملك بن جريح :

عبد الملك بن جريح (٢٣٦) أحد الأعلام ، ومن رجال الصحاح توفي سنة (١٤٩ هـ) (٢٣٧) .

٧٤ - عبد الله بن رجاء :

عبد الله بن رجاء المكي أبو عمران المكي المتوفى سنة (١٨٠ هـ) ، روى عنه أحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين وإسحاق وخلق كثير . خرّج حديثه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة والبخاري في جزء القراءة ، وثقه ابن معين ، وأبو حاتم ، وابن سعد . (٢٣٨)

٧٥ - عبد الله بن جعفر :

عبد الله بن جعفر بن نجيح السعدي مولا هم المدني المتوفى سنة (١٧٨ هـ) . روى عن قتبية وعلي بن حجر . خرّج حديثه الترمذي وابن ماجة . (٢٣٩)

٧٦ - عبد الله بن جعفر :

(٢٣٣) تهذيب الكمال ج ١٨ ص ١٧٨ / ٣٤٦٥ .

(٢٣٤) تهذيب الكمال ج ١٨ ص ٢٠٦ / ٣٤٧٥ .

(٢٣٥) تهذيب التهذيب ج ٦ ص ٣٩٧ / ٨٣٧ .

(٢٣٦) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ج ١ .

(٢٣٧) تهذيب الكمال ج ١٨ ص ٣٣٨ / ٣٥٣٩ .

(٢٣٨) تهذيب الكمال ج ١٤ ص ٥٠٠ / ٣٢٦٣ .

(٢٣٩) تهذيب الكمال ج ١٤ ص ٣٧٩ / ٣٢٠٦ .

عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة أبو محمد المدني المتوفى سنة (١٧٠ هـ) ، وثقه العجلي . وقال ابن معين : صدوق . خرّج حديثه مسلم والأربعة . (٢٤٠)

٧٧ - عبد الله بن الزبير :

عبد الله بن الزبير بن عيسى الأسدي المكي المتوفى سنة (٢١٩ هـ) ، من شيوخ البخاري . خرّج له في صحيحه ، وروى له أبو داود الترمذي ، وابن ماجه في التفسير ، له كتاب عن الصادق يرويه عنه يعقوب الأسدي . (٢٤١)

٧٨ - عبد الله بن دكين :

عبد الله بن دكين أبو عمر الكوفي نزيل بغداد . خرّج حديثه البخاري في الأدب المفرد ، روى عنه يزيد بن هارون ، وأبو نعيم ، وموسى بن إسماعيل ، ومحمد بن بكار الريان وغيرهم ، وثقه أحمد . (٢٤٢)

٧٩ - عبد الله بن ميمون :

عبد الله بن ميمون بن داود القداح المخزومي مولاهم المكي ، روى عنه أبو الخطاب زياد بن يحيى ، ومؤمل بن أهاب ، ويعقوب بن حميد ، وأبو الأزهر وغيرهم ، خرّج حديثه الترمذي ، ضعفه النسائي ، وقال أبو حاتم : منكر الحديث . ووثقه ابن داود الحلبي . (٢٤٣)

٨٠ - عبيد الله بن عمر :

عبيد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب أبو عثمان المدني المتوفى سنة (١٤٧ هـ) . أحد الفقهاء السبعة والعلماء الاثبات ، ومن رجال الصحاح الستة . روى عنه شعبة والسفيانان والليث ومعر وخلق كثير . وذكر حديثه عن الصادق أبو نعيم في الحلية . وعدّه الشيخ وغيره من رجاله . (٢٤٤)

٨١ - علي بن هاشم :

(٢٤٠) تهذيب الكمال ج ١٤ ص ٣٧٢ / ٣٢٠٣ .

(٢٤١) تهذيب التهذيب ج ٥ ص ١٩٢ / ٣٤٣١ .

(٢٤٢) تهذيب الكمال ج ١٤ ص ٤٦٩ / ٣٢٥٠ .

(٢٤٣) تهذيب التهذيب ج ٦ ص ٤٦ / ٣٧٧٧ .

(٢٤٤) تهذيب التهذيب ج ٧ ص ٣٤ / ٤٤٨٥ .

علي بن هاشم بن البريد العابدي أبو الحسن الكوفي المتوفى سنة (١٨٠ هـ). أحد الأعلام ومن شيوخ أحمد بن حنبل، وأحمد وابن معين، وابن منيع، وغيرهم. خرّج حديثه البخاري في الأدب المفرد، ومسلم في صحيحه والأربعة^(٢٤٥).

٨٢ - علي بن عبد الأعلى :

أبو الحسن الكوفي الأحول خرّج حديثه أبو داود، والنسائي، والترمذي، وابن ماجه. وروى عنه إبراهيم بن طهمان، وهيثم، وزهير بن معاوية وغيرهم. وثقه الترمذي، وقال أحمد والنسائي ليس به بأس، وذكره ابن حبان في الثقات^(٢٤٦).

٨٣ - عمرو بن خالد :

عمرو بن خالد القرشي . مولى بني هاشم . روى عنه إسماعيل بن يونس ، وعباد بن كثير البصري ، وجعفر بن زياد ، وغيرهم . خرّج حديثه ابن ماجه^(٢٤٧).

٨٤ - عمرو بن هارون :

عمرو بن هارون البلخي المتوفى سنة (١٩٤ هـ) . كان كثير الحديث، بصيراً بالقراءات، وكان من كبار الطبقة الرابعة . وخرّج حديثه الترمذي وابن ماجه . وروى عنه الرازيون ، وهشام بن عبيد الله، وابن حميد . وكان عنده من الصادق(عليه السلام) ستون حديثاً . وكتب عنه أحمد بن حنبل^(٢٤٨).

٨٥ - عمر بن قيس :

عمر بن قيس الملائي الكوفي المتوفى سنة (١٤٦ هـ) . روى عنه إسماعيل ابن أبي خالد والثوري وإسماعيل بن زكريا ، ومصعب بن سلام وغيرهم. وثقه أبو حاتم ، وأحمد والنسائي. وروى له البخاري في الأدب المفرد ، ومسلم في صحيحه والأربعة^(٢٤٩).

٨٦ - عمرو بن دينار :

(٢٤٥) تهذيب الكمال ج ٢١ ص ١٦٣ / ٤١٤٧ .

(٢٤٦) تهذيب الكمال ج ٢١ ص ٤٤ / ٤٠٩٩ .

(٢٤٧) تهذيب الكمال ج ٢١ ص ٦٠٣ / ٤٣٥٧ .

(٢٤٨) تهذيب التهذيب ج ٨ ص ٩٣ / ٥٣٣٥ .

(٢٤٩) تهذيب الكمال ج ٢١ ص ٤٨٤ / ٤٢٩٦ .

عمرو بن دينار المكي أبو محمد الأثرم الجمحي مولا هم المتوفى سنة (١٢٦ هـ).
روى عنه جماعة كمالك وشعبة وداود . أخذ عن الباقر والصادق (عليهما السلام) وحديثه
في الصحاح الستة . (٢٥٠)

٨٧ - فضيل بن عياض :

فضيل بن عياض بن السعد بن بسر التميمي (٢٥١) المتوفى سنة (١٨٧ هـ). (٢٥٢)

٨٨ - فضيل بن مرزوق الكوفي :

فضيل بن مرزوق الكوفي. روى عنه يحيى بن آدم وغيره. وثقه السفينان، وقال
ابن معين : شديد التشيع . خرّج حديثه مسلم والأربعة . (٢٥٣)

٨٩ - فليح بن سليمان :

فليح بن سليمان بن أبي المغيرة الخزاعي أبو يحيى الكوفي المتوفى سنة (١٦٨ هـ) .
أحد الأعلام ومن رجال الصحاح الستة. روى عنه ابن وهب وأبو عامر وخلق
كثير. ضعفه النسائي ، وقال ابن حجر : صدوق كثير الخطأ . (٢٥٤)

٩٠ - القاسم بن معن :

القاسم بن معن - بفتح الميم وسكون العين - ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود
الهمداني المتوفى سنة (١٧٥ هـ) . أبو عبد الله الكوفي . روى عنه ابن مهدي وأبو نعيم
وغيره ، وثقه أبو حاتم . خرّج له أبو داود والنسائي . (٢٥٥)

٩١ - القاسم بن عبد الله :

القاسم بن عبد الله بن عمر بن حفص بن عمر بن الخطاب العمري العدوي
المتوفى سنة (١٥٠ هـ) ، روى عنه محمد بن الحسن بن زبالة المدني وعبد الله ابن
وهيب وآخرون ، رماه أحمد بن حنبل بالكذب . خرّج له ابن ماجه . (٢٥٦)

٩٢ - محمد بن إسماعيل :

محمد بن إسماعيل بن جابر بن ربيعة أبو عبد الله الكوفي المتوفى سنة (١٦٧ هـ).
قال ابن حجر : صدوق يتشيع ، خرّج حديثه النسائي في الخصائص . وروى عنه

(٢٥٠) تهذيب التهذيب ج ٨ ص ٢٥ / ٥٢١٤ .

(٢٥١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ج ١ .

(٢٥٢) تهذيب الكمال ج ٢٣ ص ٢٨١ / ٤٧٦٣ .

(٢٥٣) تهذيب الكمال ج ٢٣ ص ٣٠٥ / ٤٧٦٩ .

(٢٥٤) تعريب التهذيب ج ٢ ص ١٢١ / ٦١١٧ .

(٢٥٥) تهذيب الكمال ج ٢٣ ص ٤٤٩ / ٤٨٢٧ .

(٢٥٦) تهذيب الكمال ج ٢٣ ص ٣٧٥ / ٤٧٩٨ .

يحيى بن آدم، وأبو نعيم ، ويحيى الحماني ، ومحمد بن الحسن بن المختار. ذكره ابن أبي حاتم من رواة حديث الصادق (عليه السلام). (٢٥٧)

٩٣ - محمد بن إسحاق :

محمد بن إسحاق بن يسار المتوفى سنة (١٥١ هـ) . روى عنه يحيى الأنصاري، وشعبة، والحمدان، وخلق كثير ، خرّج حديثه مسلم والأربعة . (٢٥٨)

٩٤ - محمد بن فليح :

محمد بن فليح بن سليمان المدني المتوفى سنة (١٩٧ هـ) . خرّج له البخاري، والنسائي، وابن ماجه ، روى عنه إبراهيم بن المنذر بن أبي علقمة الغروي ، ومحمد بن يعقوب الزبيري ، وأبو سعيد الأشج . (٢٥٩)

٩٥ - محمد بن الحسن :

محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني أبو الحسن الكوفي نزيل واسط . خرّج حديثه الترمذي ، وروى عنه إسماعيل بن إبراهيم الترماني ، والحسن ابن حماد الحضرمي، وأحمد بن منيع وغيرهم . (٢٦٠)

٩٦ - محمد بن راشد :

أبو عبد الله محمد بن راشد المكحولي الدمشقي الخزاعي نزيل البصرة المتوفى سنة (١٧١ هـ) . خرّج حديثه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وروى عنه الثوري وشعبة - وهما من أقرانه - وابن المبارك، وابن مهدي، وزيد بن أبي الزرقاء، والوليد بن مسلم ، ويزيد بن هارون وغيرهم . وثقه ابن معين ، وقال عبد الرزاق: ما رأيت رجلاً أروع منه في الحديث، وقال أحمد بن حنبل : إله ثقة . وسئل عنه أبو حاتم فقال : إله كان رافضياً . وقال أبو زرعة : لم يكتب عنه أبو مسهر لأله كان يرى الخروج على الأئمة - أي على حكام عصره - . قال الذهبي بعد نقله لقول أبي حاتم ونسبة ابن راشد للرفض : وفيه نظر فكيف يكون دمشقي نزيل البصرة رافضياً؟! والله أعلم . وبعد قليل من مرافقة الذهبي في أشكاله وتأمّله وتعجّبه من رجل شامي ينسب إلى الرفض وهي نسبة تحطّ بمقام الشخص ، وتستوجب ترك حديثه وتعرضه لكلّ نقص وتهجم.

(٢٥٧) تهذيب الكمال ج ٢٤ ص ٤٧٣ / ٥٠٦٢ .

(٢٥٨) تهذيب التهذيب ج ٩ ص ٣٣ / ٥٩٦٠ .

(٢٥٩) تهذيب التهذيب ج ٩ ص ٣٥٠ / ٦٥١٨ .

(٢٦٠) تهذيب الكمال ج ٢٥ ص ٧٦ / ٥١٥٣ .

نعم بعد قليل يرتفع اشكال الذهبي ويوضح له الأمر فيقول: ثم تأملت فوجدته - أي محمد بن راشد الرافضي - خزاعياً وخزاعة يوالون أهل البيت^(٢٦١).

ونحن هنا نود أن لا نخرج عن الموضوع فنعلق على هذا الكلام، ولا نقول أكثر من قولنا: بأن موالاة أهل البيت وحبهم هو علامة الرفض عندهم، والرفض كما أوضحته عبارات كثير من المحدثين موجب للرمي بالزندقة والخروج عن الإسلام، وموجب لتترك الرواية، وهذه من جنيات سوء الفهم، والتحدّي لنواميس الإسلام، والردّ لوصايا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بآله، ولزوم حبهم، ووجوب موالاتهم.

٩٧ - محمد بن مجيب :

محمد بن مجيب الثقفي الكوفي سكن بغداد، وكان كثير الرواية عن جعفر ابن محمد. وروى عنه عبد الرحمن بن عفان، وعبد الرحمن بن نافع، وعيسى بن محمد بن مسلم والفيض بن وثيق^(٢٦٢).

٩٨ - محمد بن ثابت :

محمد بن ثابت بن أسلم البناني البصري. روى عنه عبد الصمد بن عبد الوارث، وجعفر بن سليمان، وأبو داود الطيالسي، وأبو عبيدة وخلق كثير. خرّج حديثه الترمذي^(٢٦٣).

٩٩ - محمد بن جعفر :

محمد بن جعفر بن أبي كثير المدني. روى عنه خالد بن مخلد وسعيد بن أبي مريم وثقه ابن معين، وقال ابن حجر في التقريب: ثقة من الطبقة السابعة خرّج حديثه أصحاب الصحاح الستة^(٢٦٤).

١٠٠ - معلى بن هلال :

معلى بن هلال الحضرمي أبو عبد الله الكوفي. روى عنه قتيبة. كدّبه أحمد وغيره، وخرّج له ابن ماجه^(٢٦٥).

١٠١ - معمر بن راشد :

(٢٦١) ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٥٥ .

(٢٦٢) تهذيب التهذيب ج ٩ ص ٣٧٠ / ٦٥٥٤ .

(٢٦٣) تهذيب الكمال ج ٢٤ ص ٥٤٧ / ٥١٠٠ .

(٢٦٤) تهذيب الكمال ج ٢٤ ص ٥٨٣ / ٥١١٧ .

(٢٦٥) تهذيب الكمال ج ٢٨ ص ٢٩٧ / ٦١٠٢ .

معمر بن راشد الصنعاني أبو عروة البصري المتوفى سنة (١٥٣ هـ) . قال ابن حجر : ثقة ثبت فاضل . روى عنه أيوب والثوري وخلق كثير . خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة^(٢٦٦)

١٠٢ - معمر بن يحيى :

معمر بن يحيى بن سام الضبي الكوفي ، وثقه أبو زرعة . وخرج حديثه البخاري في صحيحه^(٢٦٧) .

١٠٣ - منصور بن المعتمر :

منصور بن المعتمر السلمي أبو عتاب الكوفي المتوفى سنة (١٣٢ هـ) . روى عنه خلق كثير ، وهو أحد الأعلام ومن رجال الصحاح الستة ، وروى عن الباقر والصادق (عليهما السلام) . قال العجلي : ثقة ثبت له ألفي حديث .^(٢٦٨)

١٠٤ - المنهال بن عمر :

المنهال بن عمر الأسدي مولا هم الكوفي . وثقه ابن معين والنسائي ، وخرج له الحسين والباقر والصادق (عليهم السلام) .^(٢٦٩)

١٠٥ - ميسرة بن حبيب :

ميسرة بن حبيب النهدي أبو حازم الكوفي . روى عنه شعبة واسرائيل ، ووثقه ابن معين والعجلي والنسائي . خرج له البخاري في الأدب المفرد وأبوداود والترمذي والنسائي ، قال ابن حجر : صدوق من السابعة .^(٢٧٠)

١٠٦ - مالك بن أنس :

مالك بن أنس الأصبحي^(٢٧١) المتوفى سنة (١٧٩ هـ) أحد أئمة المذاهب الأربعة^(٢٧٢)

١٠٧ - مكي بن إبراهيم :

مكي بن إبراهيم الحنظلي أبو السكن البلخي المتوفى سنة (٢١٥ هـ) . أحد الحفاظ ومن شيوخ البخاري . روايته في الصحاح الستة .^(٢٧٣)

(٢٦٦) تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٢١٩ / ٧١٢٦ .

(٢٦٧) تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٢٢٤ / ٧١٣١ .

(٢٦٨) تهذيب الكمال ج ٢٨ ص ٥٤٦ / ٦٢٠١ .

(٢٦٩) تهذيب الكمال ج ٢٨ ص ٥٦٨ / ٦٢١٠ ، نقد الرجال ج ٤ ص ٤٢٣ / ٥٤٤٢ .

(٢٧٠) تقريب التهذيب ج ٢ ص ٢٩٥ / ٧٩٢٤ .

(٢٧١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة الجزء الأول ص ٢٢٧ .

(٢٧٢) تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٥ / ٦٧٢٣ .

(٢٧٣) تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٢٦٢ / ٧١٩٥ .

١٠٨ - مسعود بن سعد :

مسعود بن سعد الكوفي أبو سعد الجعفي. روى عنه أبو خالد الأحمر وأبو غسان النهدي . قال ابن معين : ثقة من خيار عباد الله ، وقال ابن حبان: يكتب حديثاً. خرّج له مسلم والنسائي . (٢٧٤)

١٠٩ - مسلم بن خالد :

مسلم بن خالد المخزومي مولاهم أبو خالد المكي المعروف بالزنجي المتوفى سنة (١٨٩ هـ). روى عنه الشافعي وابن وهب وغيره. وثقه ابن معين. خرّج له أبو داود وابن ماجه . (٢٧٥)

١١٠ - مصعب بن سلام :

مصعب بن سلام التميمي الكوفي نزيل بغداد . روى عنه أحمد بن حنبل وأبو الأشج . قال ابن معين : ليس به بأس . وقال العجلي : ثقة . خرّج له الترمذي في صحيحه . (٢٧٦)

١١١ - معاوية بن صالح :

معاوية بن صالح الحضرمي أبو عبد الرحمن الحمصي المتوفى سنة (١٥٨ هـ). عالم الأندلس وقاضيه ، روى عنه الثوري والليث وابن وهب. وثقه أحمد ، وابن معين . روى له مسلم والأربعة . (٢٧٧)

١١٢ - معاوية بن عمار :

معاوية بن عمار البجلي الدهني المتوفى سنة (١٧٥ هـ). روى عنه يحيى بن سعيد ، ومعاذ بن معاذ، وخلق كثير. وثقه ابن معين، وابن داود . روى له مسلم والترمذي والنسائي . قال في منهج المقال : له كتب يرويها عنه أصحابنا : كتاب الصلاة ، كتاب يوم وليلة ، كتاب الطلاق ، كتاب الدعاء . (٢٧٨)

١١٣ - معروف بن خربوذ :

معروف بن خربوذ - بفتح الخاء والراء - مولى عثمان بن عفان المكي. روى عنه وكيع وغيره. خرّج له البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه، وهو من تلامذة الباقر

(٢٧٤) تهذيب الكمال ج ٢٧ ص ٤٧٣ / ٥٩١٠ .

(٢٧٥) تهذيب الكمال ج ٢٧ ص ٥٠٨ / ٥٩٢٥ .

(٢٧٦) تهذيب الكمال ج ٢٨ ص ٢٨ / ٥٩٨٤ .

(٢٧٧) تهذيب الكمال ج ٢٨ ص ١٨٦ / ٦٠٥٨ .

(٢٧٨) منهج المقال للأسترابادي ص ٣٣٦ .

والصادق(عليهما السلام) . وهو غير معروف الكرخي المتوفى سنة (٢٠٠ هـ) ، والمدفون ببغداد ، وهو من علماء الشيعة وأصحاب الإمام الرضا (عليه السلام) وقبره ظاهر يزار (٢٧٩) .

١١٤ - مفضل :

أبو جميلة مفضل بن صالح الأسدي الكوفي النخاس . خرّج حديثه الترمذي ، وروى عنه محمد بن عبيد المحاربي ، وأحمد بن بديل الياامي ، ومحمد بن إسماعيل الأحمسي وغيرهم . (٢٨٠)

١١٥ - النعمان بن ثابت :

النعمان بن ثابت أبو حنيفة التيمي^(٢٨١) مولا هم الكوفي المتوفى سنة (١٥٠ هـ) رئيس المذهب الحنفي . (٢٨٢)

١١٦ - نوح بن دراج :

نوح بن دراج النخعي مولا هم الكوفي القاضي المتوفى سنة (١٨٢ هـ) . روى عنه سعيد بن منصور ، وخرّج له ابن ماجة في التفسير . (٢٨٣)

١١٧ - هارون بن سعد العجلي :

هارون بن سعد العجلي . قال ابن معين : ليس به بأس . خرّج له مسلم في صحيحه ، وقال الكشي : هو زيدي . وقال ابن حجر : رمي بالرفض . ويقال رجع عنه . (٢٨٤)

١١٨ - هارون بن موسى :

هارون بن موسى الأزدي مولا هم أبو عبد الله القارئ . روى عنه بهز بن أسد ، ومسلم بن إبراهيم ، وخلق كثير . خرّج له البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود . وثقه ابن معين . قال ابن حجر : ثقة مقرر إلا أنه رمي بالقدر من السابعة (٢٨٥) .

١١٩ - هلال بن أبي حميد :

(٢٧٩) تهذيب الكمال ج ٢٨ ص ٢٦٣ / ٦٠٨٦ .

(٢٨٠) تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٢٤٤ / ٧١٧١ .

(٢٨١) تقدمت ترجمته في الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٤٠٢ .

(٢٨٢) تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٣٢٥ / ٧٢٩٧ .

(٢٨٣) تهذيب الكمال ج ٣٠ ص ٤٣ / ٦٤٩٠ .

(٢٨٤) تقريب التهذيب ج ٢ ص ٣١٦ / ٨١٣٨ .

(٢٨٥) تقريب التهذيب ج ٢ ص ٣١٩ / ٨١٥٨ .

هلال بن أبي حميد أو ابن مقلاص أبو أيوب الصيرفي الكوفي . روى عنه مسعر وشعبة، وخرّج له البخاري وأبو داود ، ومسلم والترمذي والنسائي . (٢٨٦)

١٢٠ - وهيب بن خالد :

وهيب بن خالد الباهلي البصري المتوفى سنة (١٦٥ هـ) . أحد الحفاظ الأعلام، ومن رجال الصحاح الستة . قال ابن سعد : حجة كثير الحديث . وقال في منهج المقال: وهيب بن خالد البصري ثقة. وقال النجاشي : إنّ له كتاباً يرويه عنه إسماعيل. (٢٨٧)

١٢١ - يحيى بن سعيد :

يحيى بن سعيد بن فروخ القطان (٢٨٨) المتوفى سنة (١٩٨ هـ) . أحد الأعلام ومن الحفاظ المشهورين . روى عنه أصحاب الصحاح الستة ، وهو من شيوخ أحمد وابن معين . (٢٨٩)

١٢٢ - يحيى بن قيس :

يحيى بن سعيد بن قيس الأنصاري المدني أبو سعيد المدني القاضي المتوفى سنة (١٤٤ هـ) روى عنه الأوزاعي والسفيانان وخلق كثير. قال ابن المديني : له ثلاثمائة حديث. خرّج له البخاري في الأدب المفرد . قال ابن سعد : ثقة حجة (٢٩٠) .

١٢٣ - يحيى بن سليم :

يحيى بن سليم الطائفي أبو محمد القرشي نزيل مكة المتوفى سنة (١٩٣ هـ) . روى عنه أحمد وإسحاق وقتيبة . احتجّ به البخاري والجماعة . وثقه ابن معين والنسائي وابن سعد. (٢٩١)

١٢٤ - يعلى بن الحرث :

يعلى بن الحرث المحاربي الكوفي المتوفى سنة (١٦٨ هـ) . روى عنه وكيع وابن مهدي وجماعة. وثقه ابن معين ، وخرّج له البخاري ومسلم والنسائي والترمذي وابن ماجة . (٢٩٢)

(٢٨٦) تهذيب الكمال ج ٣٠ ص ٣٢٨ / ٦٦١٥ .

(٢٨٧) رجال النجاشي ج ٢ ص ٣٩٢ / ١١٥٩ .

(٢٨٨) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة الجزء الأول ص ٩٣ .

(٢٨٩) تهذيب التهذيب ج ١١ ص ١٨٨ / ٧٨٧٤ .

(٢٩٠) تهذيب الكمال ج ٣١ ص ٣٤٦ / ٦٨٣٦ .

(٢٩١) تهذيب الكمال ج ٣١ ص ٣٦٥ / ٦٨٤١ .

(٢٩٢) تهذيب الكمال ج ٣٢ ص ٣٨١ / ٧١١١ .

وبهذه العجالة نكتفي عن التوسّع في ذكر الرواة إذ لا يسع المجال هنا لأكثر من هؤلاء، وقد ذكرنا عدداً وافراً منهم في كتابنا عن حياة الإمام الصادق ، كما إننا سنتعرّض لذكر حملة فقهه من الشيعة في الجزء الثالث من هذا الكتاب .

وسياتي ذكر آخرين منهم في بحثنا عن رجال الحديث من الشيعة في الجزء السادس من الذين خرّج حديثهم أصحاب الصحاح الستة، ويتجاوز عددهم ثلاثمائة رجل .

الرواة :

نظراً لاشتهار مدرسة الإمام الصادق (عليه السلام) ، إذ أصبحت جامعة إسلامية كبرى، تقصدها وفود الأمصار ، فقد كثر المنتمون إليها من جميع الأطراف على اختلافهم في الآراء والمعتقدات ، والميول والنزعات ، ولهذا فلم يكونوا سواء في حسن الاستماع ، وقوة الحفظ ، وصدق اللهجة ، وإخلاص النية .

وربّما كان فيهم من ذوي الأغراض السيئة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، لغاية في نفوسهم ، فتعمّدوا الكذب ، ونسبوا إليه (عليه السلام) ما لم يصدر عنه، أمثال : وهب بن وهب القاضي المعروف بأبي البختري ، فقد اشتهر هذا الرجل في الكذب ذكره ، وعرف أمره^(٢٩٣) .

وسالم بن أبي حفصة العجلي^(٢٩٤) والمغيرة بن سعيد ، وصائد النهدي ومحمد بن مقلص .

وحيث كان لوضّاع الأحاديث أخطر آفة على العلم ، وأعظم خطر على الدين ، فقد أعلن الإمام (عليه السلام) للملأ وجوب الحذر ، ولزوم التحقّظ من هؤلاء الذين انحرفوا عن طريق الاستقامة والصواب ، فكان يقول : والله ما الناصب لنا حرباً بأشدّ علينا مؤونة من الناطق علينا بما نكره، ويقول : إنّ الناس قد أولعوا بالكذب علينا ، وإني أحدث أحدهم بالحديث فلا يخرج من عندي حتى يتأوله على غير تأويله ، وذلك أنّهم كانوا لا يطلبون بأحاديثنا ما عند الله وإنّما يطلبون الدنيا ، وكلّ يحبّ أن يدعى رأساً^(٢٩٥) .

(٢٩٣) تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٤٧٤ / ٧٣٢٣ .

(٢٩٤) هو أبو يونس سالم بن أبي حفصة المتوفى سنة (١٤٠ هـ) خرج حديثه البخاري في الأدب المفرد والترمذي في صحيحه، قال ابن داود : كان يكذب على أبي جعفر وقد لعنه الإمام الصادق (عليه السلام) .

(٢٩٥) رجال الكشي ص ١٣٥ - ١٣٦ الحديث ٢١٦ .

وقد كان بعضهم يغيّر ما ينقله عنه بزيادة أو نقيصة . قال له رجل من أصحابه : يا ابن رسول الله قد بلغنا عنك إنك قلت : إذا عرفتم فاعملوا ما شئتم . فقال أبو عبد الله إني قلت : إذا عرفتم فاعملوا ما شئتم، فإنّه يقبل منكم. وكان يقول : إنا أهل بيت لا يزال الشيطان يدخل فينا من ليس منا ، ولا أهل ديننا ، فإذا رفعه ونظر الناس إليه ، أمره الشيطان فيكذب علينا.^(٢٩٦) الى غير ذلك من أقواله في تحذير الأمة من قبول ما ينقل عنه بواسطة أولئك الدجالين كأبي البختری وأضرابه من الكذابين ، وأبي الخطاب وأمثاله من الغلاة الذين اندسوا في صفوف المسلمين ليفرقوا الكلمة ويغيّروا القلوب. وقد قضى الإمام الصادق(عليه السلام) على حركاتهم ، وفرّق شملهم ، ولم يبق لهم ذكر إلا في بطون الكتب وعلى ألسنة دعاة الفرقة الذين تجنّدوا لخدمة خصوم الإسلام، وهم كما يقول القائل :

إن يسمعوا الخير أخفوه وإن علموا *** شراً اذاعوا وإن لم يعلموا كذبوا
وقد اهتمّ علماء الحديث من الشيعة، وبذلوا جهدهم في عناية تامة بالبحث والتحقيق عن معرفة الحديث، وترتيب طبقات رجاله والتنبّث في أحوالهم وبيان عدالتهم، فألفوا كتباً تكشف النقاب عن أحوال الرجال منها :
كتاب الرجال لشيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي المتوفى سنة (٤٦٠هـ).

وكتاب الشيخ أحمد بن علي بن أحمد النجاشي المتوفى سنة (٤٥٠هـ).
وكتاب الضعفاء المنسوب للشيخ أحمد بن عبيد الله الغضائري وكان معاصراً للشيخ الطوسي .
وكتاب تقي الدين الحسن بن علي بن داود، وهو من تلامذة جمال الدين ابن طاووس والمحقق الحلي .

وكتاب الخلاصة لأبي منصور جمال الدين العلامة الحلي المتوفى سنة (٧٢٦هـ).
وغيرها من كتب الرجال ، وقد تشدّد الشيعة في قبول الرواية أكثر من غيرهم ، ولهم شروط خاصة ، والمسلمون بصورة عامة يشترطون شروطاً في الراوي حذراً من الكذابين الذين أخبر عنهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال : «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^(٢٩٧) ولهذا كان الصحابة لا يأخذون بالرواية إلا ممن يصح الأخذ عنهم، ويتأكدون في ذلك مع قرب عهدهم من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .

مشاهير الثقات

(٢٩٦) بحار الأنوار ج ٧ ص ٢٨٩ .

(٢٩٧) مسند أحمد بن حنبل ج ١ ص ٧٨ .

كان من المناسب ذكر مشاهير الثقات من أصحاب الإمام الصادق (عليه السلام)، والمؤلفين منهم وبيان أحوالهم بترجمة وافية ، ولكن نطاق هذا الجزء لا يتسع لذكرهم، وسيأتي ذلك في الجزء الثالث إن شاء الله ، ونرى هنا أن نشير الى بعض المؤلفين من الرواة لحديثه (عليه السلام)، ونترك ذكر الآخرين لمحل آخر ، ونقتصر على ذكر اسمائهم حذراً من الإطالة:

إبراهيم بن خالد العطار العبدي ، وإبراهيم بن نعيم العبدي المعروف بأبي الصباح ، وإسحاق بن بشر الكاهلي ، وإسحاق بن جندب ، وأنس بن عياض الليثي المدني ، وبرد الاسكاف الأزدي من تلامذة الباقر والصادق (عليهما السلام) ، وأيوب بن عطية الحذاء ، وثابت بن جرير ، وثابت الضرير ، وثعلبة بن ميمون القارئ الفقيه ، وجحدر بن المغيرة الطائي الكوفي ، وجفير بن الحكم أبي المنذر العبدي ، وجميل بن دراج ، وحارث بن المغيرة النضري ، وحبیب بن النعمان الاعرابي الأسدي ، وحذيفة بن زائدة الأسدي ، وحريز بن عبد الله الأزدي السجستاني ، وحسان بن مهران الكوفي ، والحسن بن الحسين بن الحسن الجحدري الكندي ، وخطاب بن مسلم الكوفي ، وخلاّد السندي البزاز الكوفي ، وداود بن الحسن الأسدي الكوفي ، وداود بن سرحان العطار الكوفي، ورافع بن سلمة بن زياد بن أبي الجعد الأشجعي ، وزريق بن الزبير الخلقاني ، وزكريا بن يحيى الواسطي ، وزيد بن يونس أو ابن موسى أبي أسامة الشحام الكوفي ، وسالم الحنّاط أبي الفضل الكوفي ، وسالم بن مكرم بن عبد الله من أصحاب الصادق والكاظم (عليهما السلام) ، والسري بن عبد الله بن يعقوب السلمي الكوفي ، وسعيد بن عبد الرحمن أو عبد الله الأعرج السمان التميمي الكوفي ، وسعيد بن غزوان الأسدي ، وكتاب سلام بن أبي عمرة الخراساني وهو من الكتب الموجودة الباقية^(٢٩٨) ، وسليم الفراء الكوفي ، وسليمان بن داود المنقري أبوأيوب الشاذكوني ، وسماعة بن مهران الحضرمي ، وسويد بن مسلم ، وسيف بن سليمان التمار الكوفي ، وشعيب العفرقوفي ، وشهاب بن عبد ربه بن أبي ميمون من أصحاب الصادق والكاظم (عليهما السلام)، والصباح الحذاء بن صبيح إمام مسجد دار اللؤلؤ بالكوفة ، وصباح بن يحيى المزني الكوفي من تلامذة الباقر والصادق (عليهما السلام) ، وصفوان بن مهران الكوفي ، وطلاب بن حوشب الشيباني الكوفي ، وعاصم بن سليمان البصري ، وعامر بن جداعة الأزدي ، وعبيد بن زرارة بن أعين

الشيباني ، وعبيد الله بن الوليد الرصافي يروي عن الباقر والصادق (عليهما السلام) ، وعقبة بن خالد الأسدي الكوفي ، وعلي بن عقبة بن خالد الأسدي الكوفي ، وعمار بن مروان البكري ، وعمار بن موسى الساباطي، وعمر بن إبراهيم الأزدي ، وعمر بن إلياس بن عمرو بن إلياس البجلي، وعمر بن حريث الصيرفي الأسدي الكوفي ، وعمر بن خالد الأفرق الخياط، وعمر بن منهال بن مقلص الصيرفي، وأبي محمد بن قتيبة بن محمد الأعشى المؤدب المغربي ، وكعيب بن عبد الله مولى بني طرفة الكوفي، ومالك بن عطية الأحمسي الكوفي البجلي ، ومحمد بن حمران النهدي ، ومحمد بن عذافر بن عيسى الصيرفي المديني من أصحاب الصادق والكاظم (عليهما السلام)، وعباد بن صهيب أبو بكر البصري ، وعباس بن الوليد بن صبيح الكوفي ، وعبد الحميد بن أبي العلاء بن عبد الملك الأزدي ، وعبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الفزاري ، وعبد الغفار بن حبيب الطائي ، وعبد الغفار بن قيس بن فهد الأنصاري من تلامذة الباقر والصادق (عليهما السلام)، وعبد الكريم بن هلال الجعفي الكوفي يقال له الخلقاني ، وعبد الله بن أبي يعفور، وعبد الله بن بكير ابن أعين الشيباني ، وعبد الله بن زرارة بن أعين الشيباني ، وعبد الله بن سعيد ابن شبل ، وعبد الله بن غالب الأسدي الشاعر الفقيه ، وعبد الله بن الفضل بن عبد الله الهاشمي النوفلي، وعبد الملك بن حكيم الخثعمي الكوفي ، وعبد الملك بن عتبة النخعي الصيرفي الكوفي .

الى آخر ما هو مذكور في كتاب الفهرست للشيخ الطوسي ، وكتاب النجاشي، وجامع الرواة . وقد ذكر شيخنا الباحثة حجة الإسلام الشيخ محمد المحسن الطهراني في كتابه (الذريعة) الجزء السادس عدداً وافراً منها في حرف الحاء ، وذكر طرق الرواية لها ، كما أنه ذكر في الجزء الأول في حرف الهمزة في باب الأصول عدداً كثيراً من رجال الأصول الذين دونوا أحاديثهم عن الإمام الصادق (عليه السلام) . وقد ذكرنا بعض من لهم كتب عن الإمام الصادق (عليه السلام) في تلك المجموعة المتقدمة ولم نعد ذكرهم، كما أننا لم نذكر من هؤلاء هناك .

جابر بن حيان

اشتهر جابر بن حيان بعلم الكيمياء ، وهو أول من عرف به ، ونسب أخذه وتعلمه لذلك عن الإمام الصادق (عليه السلام) ، وقد اختلفت الآراء في ذلك ، وها نحن ذا نذكره استطراداً في البحث ، فلسنا من أهل الاختصاص فيما اختص به أبو عبد الله جابر

بن حيان بن عبد الله الكوفي المعروف بالصوفي ويقال الحراني الصوفي ، فهو أول من اشتهر في علم الكيمياء وتلميذ الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)، وهو أول من تكلم في علم الكيمياء ، ووضع فيها الكتب وبيّن صنعة الأكسير والميزان ، ونظر في كتب الفلاسفة في الإسلام ، واكتشف جابر في امتحاناته أموراً كثيرة في علم الكيمياء ، وترجمت بعض مصنفاته الى جميع اللغات ، وطبعت واشتغل بها الناس فانتفعوا بها ، ونسب إليه قوم اختراع الجبر ، وألف خمسمائة رسالة في الكيمياء في ألف ورقة ، وهي تتضمن رسائل جعفر الصادق (عليه السلام) واختلف الناس في أمر جابر اختلافاً كثيراً .

فيذهب البعض الى أنّه شخصية موهومة ، وأنّه اسم موضوع، وضعه المصنّفون في هذا الفن . ويؤيدون هذا الرأي بأنّ شخصية جابر تلك الشخصية العظيمة لم يكن لها ذكر في تاريخ العرب .

وأجاب ابن النديم عن هذا الايراد بقوله : إنّ رجلاً فاضلاً يجلس ويتعب فيصنف كتاباً يحتوي على ألفي ورقة ، يتعب قريحته وفكره بإخراجه ويتعب يده وجسمه بنسجه ثم ينحله لغيره ، إما موجوداً أو معدوماً ضرب من الجهل، وأنّ ذلك لا يستمر على أحد ولا يدخل تحته من تحلى ساعة واحدة بالعلم ، وأيّ فائدة في هذا وأيّ عائدة ، والرجل له حقيقة ، وأمره أظهر وأشهر ، وتصنيفاته أعظم وأكثر .

ولهذا الرجل كتب في مذاهب الشيعة أنا أوردتها في مواضعها ، وكتب في معان شتى من العلوم قد ذكرتها في مواضعها من الكتاب. وقد قيل : إنّ أصله من خراسان ، والرازي يقول في كتبه المؤلفة في الصنعة، قال: أستاذنا أبو موسى جابر بن حيان . ثم ذكر ابن النديم مؤلفاته^(٢٩٩) .

وللقدماء والمتأخرين ومن المستشرقين كلام كثير في شأن جابر ، وقد نشر رسائله المستشرق كراوس ، وفيها دلالة على تشييعه وأخذه عن الإمام الصادق (عليه السلام) كإمام مفترض الطاعة متبّع الرأي .

وقد كبر على المستشرقين أن يكون رجل عربي مسلم ومن أهل القرن الثاني للهجرة يمتاز بتلك الآراء السديدة ، وتكون نظرياته الأسس العامة التي قام عليها علم الكيمياء قديمة وحديثة ، فصاروا يخطون في تعرّضهم لكتبه كحاطب ليل ، فمرة يشكون في وجوده وتارة في زمانه ، وأخرى فيما نسب إليه من تلك الكتب ، ورابعة

في نسبة ما يرويه البعض عن أستاذه الصادق (عليه السلام) ، وخامساً في التبويب والوضع والأسلوب ، لأنه لم يكن يعرفه أهل ذلك العصر الى غير ذلك .

وقد فُتد تلك الشكوك والمزاعم الكاتب إسماعيل مظهر صاحب مجلة (العصور) فيما نشره في المقتطف (٦٨ ، ٥٤٤ ، ٥٥١ ، ٦١٧ ، ٦٢٥) وجلّى في هذه الحلبة الأستاذ أحمد زكي صالح فيما كتبه في مجلة الرسالة المصرية السنة الثامنة ص١٢٠٤ و١٢٠٦ .

ولقد فُتد تلك الأوهام والمزاعم تفنيدياً حكيماً علمياً وصرّح مراراً بتشيعه وقال في مناقشة رأي الأستاذ كراوس : ومن الجلي الواضح لدى كلّ من درس علم الكلام أنّ فرق الشيعة كانت أنشط الفرق الإسلامية حركة ، وكانت أول من أسس المذاهب الدينية على أسس فلسفية حتى أنّ البعض ينسب فلسفة خاصة لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) (٣٠٠) .

ومنهم من يقول إنه تلميذ خالد بن يزيد ، واستدل ملا كتاب جلبي على ذلك بالبيتين المشهورين من قول بعض الشعراء :

حكمة أورثناها جابر *** عن إمام صادق القول وفي

لوصي طاب في تربته *** فهو كالمسك تراب النجف

وذلك لأنّ خالد بن يزيد وفيّ لعليّ واعترف له بالخلافة ، وترك الإمارة (٣٠١) .

وهذا الاستدال بعيد عن إثبات الدعوى من كلّ وجه بما لا حاجة الى إيضاحه، وعبارات جابر بن حيان في رسائله تؤيد ما يقوله الأكثر بأنّه أخذ ذلك عن الإمام الصادق (عليه السلام) فقد كرّر في عباراته ما يشعر بذلك ، ويعبّر عنه بقوله : حدثني سيدي عن آبائه واحداً بعد واحد وقال لي ... (٣٠٢) .

ويقول : وكنت يوماً قاصداً دار سيدي جعفر « صلوات الله عليه»، ويكثر من قوله : وحقّ الله وحقّ سيدي صلوات الله عليه ... (٣٠٣) .

وفي ص٣١٦ في المقالة ٢٤ : رضي الله عن سيدي فإنّه كان إذا مرّ به مثل هذه الخواص شيء قال : يا جابر هذه حياة القلوب، وما ينبغي إذا نظرت في كتبنا هذه إلا أن تجمعها وما ينضاف إليها من فنونها والسلام .

(٣٠٠) حياة الإمام الصادق للمظفر ص٢٠٢ .

(٣٠١) كشف الظنون ج٢ ص١٩٨ .

(٣٠٢) رسائل جابر بن حيان التي نشرها المستشرق كراوس ص٣٣٥ في كتاب السر المكنون .

(٣٠٣) كتاب الخواص الكبير ص٢٠٥ .

وقد نصّ أكثر المؤرخين والكتاب على ذلك كابن خلكان في (وفيات الأعيان)^(٣٠٤)، والياضي في (مرآة الجنان)^(٣٠٥)، وابن الوردي في (تاريخه)^(٣٠٦)، والحاج خليفة في (كشف الظنون)^(٣٠٧)، وبطرس البستاني في (دائرة المعارف)^(٣٠٨)، و «ش» سامي في (قاموس الاعلام باللغة التركية).

ويقول الأستاذ الدكتور محمد يحيى في كتابه (الإمام الصادق ملهم الكيمياء): من الأمور التي تلفت النظر في تاريخ العلوم مشكلة الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) وعلاقته الكبرى مع جابر بن حيان، أبو الكيمياء في العصور الوسطى، ولقد تصدّى الى هذا الموضوع عدد من المستشرقين، والكيميائيين، فلم يوفوه حقّه، لأنهم عالجوا المشكلة دون أن يكفوا أنفسهم عناء البحث في رسائل جابر نفسها، ممّا لها علاقة مع الإمام الصادق (عليه السلام) مبرزين ميزاتها، وامكانية صدورّها عن الإمام، وإننا في هذه الدراسة المقتضبة سوف نحاول أن نقوم في عمل هذا الاستقراء. مستعينين بما وصل الى أيدينا من المصادر التي نعتزّ بأثنا قليلة، ومن الضروري عمل دراسة عملية عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)، ومكانته الأدبية، ودوره في التاريخ الفكري الإسلامي لتظهر لنا كثيراً من النقط الغامضة على ضوء النهار.

الى أن يقول في ص ٣٩: لدى مطالعتنا للتراث الضخم الذي خلفه لنا جابر عن الكيمياء نرى اعترافاً صريحاً بأنّ المعلم لهذه الصنعة هو الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)، وقد اطلع على هذه الحقيقة كثير من المستشرقين الغربيين فاعتقدوا في ذلك مبالغة عظيمة، وفي النقد الذي وجّهوه ضد هذه المشكلة قالوا: إنّه لمن المستحيل على جعفر أن يلمّ هذا الإمام العظيم بالعلوم والفنون التي ذكرها جابر في المخطوطات التي وصلت الينا، والتي يوجد منها عدد كبير في القاهرة، والتي لم تدرس الدراسة الكافية بعد. ويعتقد (دروسكا) أنّه لمن المستحيل على جعفر أن يكون كيميائياً، فليس من الممكن أن يتعاطى تلك الصنعة سواء كان ذلك نظرياً أو عملياً وهو في المدينة. ولقد أعجب كلّ من (برتلو الافرنسي) و (هو لميارد الانجليزي) بالمعلومات التي تسند الى جابر - الى آخر ما ذكره - في تصحيح نسبة اتصال جابر

(٣٠٤) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٠٥.

(٣٠٥) مرآة الجنان ج ١ ص ٢٣٨.

(٣٠٦) تاريخ ابن الوردي ج ١ ص ٢٦٦.

(٣٠٧) كشف الظنون ج ٢ ص ١٥٣١.

(٣٠٨) دائرة المعارف ج ٦ ص ٤٦٨.

بالإمام جعفر (عليه السلام) ولا نتعرض لأكثر من هذا فلسنا من أهل الاختصاص فيما اختص به جابر بن حيان ، وإنما تعرضنا له على سبيل الإشارة والاستطراد .
وإذا تأملنا أغراض المستشرقين فلا نستغرب منهم هذه المحاولات للتشكيك وهي لا تنال من الحقيقة، وإنّ من أوّل الشخصيات التي اشتغلت بالكيمياء في الإسلام هو جابر، وقد أثر في الكيمياء الأوروبية، وكان انتسابه الى جامعة الإمام الصادق هو الأساس في هذه المكانة.

الفرق

لما كانت مدرسة الإمام (عليه السلام) جامعة للعلوم ، ولم يكن هناك منهج خاص للمسائل التي يسأل فيها ، بل كان تارة يسأل عن مختلف العلوم والمسائل المشكلة فيحلّها ، ويبتدئ تارة فيهدي قلوباً متنگبة عن جدد الطريق ، وتارة يجتمعون حواليه فيحدّثهم عن آبائهم عن جدّه فيما يصلح لمعادهم ومعاشهم وربّما يملي ويكتب الكتاب في أهمّ مسائل علم الكلام والحديث ، لذلك كانت مدرسته موضع عناية المفكرين يقصدها زعماء الفرق ، فكان الإمام يناظرهم ، وقد اجتمع بكثير منهم في العراق ومكة ، فكانوا يخضعون لعذوبة منطقته ، وحسن بيانه وقوّة حجته، وقدرته الفائقة في التوجيه ، لاتساع علمه ، وساطع برهانه . وقد حضر عنده كثير من أهل الآراء والمعتقدات المنحرفة عن طريق الصواب ، فهدى الله به بعضاً منهم وتعتت آخرون . وسنشير الى ذكر الفرق في عصره ومناظراته معهم واهتمامه العظيم في اعتدال اعوجاج طرقهم ، وإن كان ذكرهم هنا أجدر ، ولكن ضيق المجال ارغما على تأخير ، لذلك أشرنا إليه .

بقيت أمور كثيرة تتعلّق بمدرسة الإمام الصادق (عليه السلام) ، وتعاليمه وحديثه وتلامذته ، والعلوم التي كان يتلقاها الناس عنه . وقد التزمنا في جميع الأجزاء أن يكون بحثنا عن الإمام الصادق (عليه السلام) بدءاً وختاماً وإلى اللقاء في الأجزاء القادمة ومن الله التوفيق .

كما أننا لم نتعرّض في بحثنا عن حياة الإمام الصادق (عليه السلام) ، لسلسلة الآباء والأمهات ، لأننا في غنى عن ذلك فنسبه أجلى من الشمس ، والتعرّض له يستدعي الخروج عن الموضوع ، لما يتعلّق بحياة آبائه الطاهرين ، وبيان مآثرهم ، ولم يكن هناك شيء من الغموض والخفاء ، لنحاول إيضاحه وبيانه . على أنّ بقية من إلّزمتنا

بالبحث عنهم في هذا الكتاب من رؤساء المذاهب قد كثر الاختلاف في آبائهم وولادتهم بالزمان والمكان ، والتاريخ لم يحتفظ لآبائهم إلا بالاسم فقط ، وقد مرّت الإشارة الى الاختلاف في نسب أبي حنيفة ، وسيأتي البيان عند ذكر الباقرين . وعلى أيّ حال فإنّا لا نتعرّض لذكر نسب الإمام الصادق (عليه السلام) هنا ، ونعترف بالعجز عن اعطاء البحث عنهم حقّه ، لاتساع دائرته وألّه يستدعي الإطالة في هذا الكتاب^(٣٠٩) ولهذا فقد اقتصرنا على الإشارة والبيان الموجز عن حياة أبيه الإمام الباقر (عليه السلام) إذ البحث عن حياته من صميم الموضوع . لأنّه قد تربّى في ظلّه، وغذاه بعلومه ، واختصّ بتربيته وتعليمه ، فلننتقل الى البحث عن حياة الإمام الباقر (عليه السلام) موجزين في القول مهما ساعدنا الإيجاز ورافقنا الاختصار .

(٣٠٩) أفردنا ترجمة الإمام الصادق (عليه السلام) مع ذكر سلسلة الآباء والأبناء في كتاب منفرد يختص بحياته وهو مخطوط .

الإمام الصادق

في ظلّ أبيه الباقر (عليهما السلام)

الإمام الصادق في ظل أبيه الباقر (عليهما السلام)

تمهيد

ذكرنا فيما مضى أنّ الإمام الصادق قد تلقى علومه عن جده زين العابدين وأبيه الباقر (عليهما السلام) ، وقضى شطراً من حياته في ظلّهما وتحت عنايتهما، وهو وصي أبيه والقائم بأعباء الإمامة من بعده .

ولا نستطيع هنا أن نعطي موضوع البحث عن حياة الإمام الباقر (عليه السلام) حقّه، بل نقتصر على الإشارة فيما يتعلّق بمكانته، وقيامه بالاصلاح وتوجيه الأمة، وذكر بعض تلامذته ورواة حديثه من كبار التابعين وغيرهم.

فإنّ حياته حافلة بأعمال جليلة ومآثر عظيمة ، فقد فتحت في عصره معاهد العلم ، وعقدت فيه مجالس البحث عن العرفان والأدب وسائر العلوم ، وكانت حلقة درسه في المدينة تضمّ كبار التابعين وأعيان الفقهاء ، ولا تعدّ أيّ حلقة هناك إلا بعد انتهاء حلقة درسه ، وأقبلت الوفود تحجّ الى مغناه وتهتدي بهديه، يستبقون الى انتحال تعاليم جدّه، فهو ينطق بلسانه ويحكم بشريعته وينزه الدين الإسلامي عن فتاوى علماء السوء المتزلفين للسلطة ، الناعمين بخيراتها والنافخين ببوقها .

وقد أوجد في عصره حركة ونشاطاً للعلم ، ومركزاً للحياة الفكرية والاجتماعية ، والتفّ حوله طلاب العلم ورواد الحقيقة ، رغم تلك العقبات التي يواجهها المتصل بأهل البيت ، وقد اجتازوا مراحل الخطر بقوة الإيمان ورسوخ العقيدة .

الإمام الباقر (عليه السلام)

أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام) . ولد في المدينة سنة (٥٧ هـ) وتوفي سنة (١١٤ هـ) فيكون عمره (٥٧) سنة على رواية الشيخ المفيد في الإرشاد ووافقه ابن كثير في النهاية وابن الأثير في تاريخه^(٣١٠). وقال المسعودي : إنه توفي في أيام الوليد^(٣١١).

(٣١٠) الإرشاد ص ٢٤١ ، وتاريخ ابن كثير ج ٩ ص ٨٤ ، وابن الأثير ج ٥ ص ٨٤ .

(٣١١) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٤٣ .

وعلى أي حال فإن الإمام الباقر (عليه السلام) أدرك جدّه الحسين وشاهد وقعة
الطف المحزنة ، وأقام معه ثلاث سنين أو أربع سنين ، ومع أبيه
زين العابدين أربعاً وثلاثين ، وبعد أبيه تسع عشرة سنة وقيل ثمانين
سنة (٦٠ هـ)، ويزيد بن معاوية ، ومعاوية بن يزيد ، ومروان بن الحكم ،
وعبد الملك بن مروان ، والوليد بن عبد الملك ، وسليمان بن عبد الملك، وعمر بن
عبد العزيز ، ويزيد بن عبد الملك .
وتوفي سنة (١١٤ هـ) كما عليه الأكثر في خلافة هشام بن عبد
الملك مسموماً^(٣١٢).

كنيته ولقبه

يكنى بأبي جعفر الأول، ويلقب بالباقر لأنه تبخر في العلم وأخرج غوامضه.
قال صاحب القاموس : والباقر محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم لتبحره
في العلم^(٣١٣).

وقال محمد بن المكرم : التبقر التوسع في العلم والمال ، وكان يُقال لمحمد بن علي
بن الحسين بن علي، الباقر رضوان الله عليهم ، لأنه بقر العلم وعرف أصله
واستنبط فرعه^(٣١٤).

وقال الدميري : بقر مأخوذ من الشقّ، ومنه قيل لمحمد بن علي : الباقر لأنه بقر
العلم أي شقه ودخل فيه مدخلا عظيماً^(٣١٥).
وقال أبو الفداء : وقيل له الباقر لتبقره في العلم أي توسّعه فيه وولد الباقر سنة
(٥٧ هـ)^(٣١٦).

وقال الذهبي في ترجمة الإمام الباقر : كان سيد بني هاشم ، في زمانه ، اشتهر
بالباقر من قولهم بقر العلم يعني شقه فعلم أصله وخفيه^(٣١٧)، وإنّ أول من لقبه بذلك
هو جدّه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .

(٣١٢) بحار الأنوار ج ٤٦ ص ٢١٧ .

(٣١٣) القاموس المحيط ج ١ ص ٣٧٦ .

(٣١٤) لسان العرب ج ٥ ص ١٤٠ .

(٣١٥) حياة الحيوان ج ١ ص ١٤٧ .

(٣١٦) تاريخ أبو الفداء ج ١ ص ٢١٥ .

(٣١٧) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١١٧ .

كما ورد عن جابر بن عبد الله الأنصاري المتوفى سنة (٧٨ هـ): أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال له : يوشك أن تبقى حتى تلقى ولداً لي من الحسين يُقال له محمد يبقّر العلم بقرّاً فإذا لقّيته فاقرأه مني السلام^(٣١٨) .

وفي رواية اليعقوبي قال جابر بن عبد الله الأنصاري : قال لي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : «إنك ستبقى حتى ترى رجلاً من ولدي أشبه الناس بي اسمه اسمي إذا رأيته فاقرأه مني السلام». فلما كبر سن جابر وخاف الموت فجعل يقول يا باقر يا باقر! ...^(٣١٩) .

وقال أبو المظفر سبط ابن الجوزي : ذكر المدائني عن جابر بن عبد الله أنه قال: كنت جالساً عند رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والحسين في حجره وهو يداعبه فقال يا جابر: يولد مولود اسمه عليّ إذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقيم سيد العابدين ، فيقوم ولده ثم يولد له ولد اسمه محمد» فإن أدركته فاقرأه مني السلام^(٣٢٠) .

وبهذا رواه الشبلنجي عن الزبير بن محمد بن مسلم^(٣٢١) . وفي عيون الأخبار لابن قتيبة : أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال له : يا جابر انك مستعمر بعدي حتى يولد مولود اسمه كاسمي يبقّر العلم بقرّاً فإذا لقّيته فاقرأه مني السلام^(٣٢٢) .

وعلى كلّ حال فقد كان هو المتفرّد في علوم الإسلام في عصره ، كما اتضح ذلك من سيرته عند دراسة حياته ، فإنّ له الأثر العظيم في توجيه الفكر رغم ما هنالك من عوارض وموانع تقف أمام أداء رسالته . وقد تكتم التاريخ عن اظهار أكثر الحقائق التي كان الأجدر اظهارها وحفظها للأجيال .

واستمرّت سياسة التضييق على فكر أئمة أهل البيت (عليهم السلام) يتبعها الحكام الظلمة ويسيروا عليها، فإنّ بني أمية الذين ذاق الإمام الباقر (عليه السلام) على أيديهم المرارة وحاول ملوكهم الأشرار الذين عاصروه الإساءة إليه وتطويق دائرة تأثيره لم ينته نهجهم بانتهاك حكمهم وسقوط عرشهم بل استأنف من جاء بعدهم ذات السياسة؛ لأنّ أئمة أهل البيت أصحاب رسالة ما وهنوا في أدائها ولا استكانوا أمام ضغوط أصحاب السلطان الزماني الذين رأوا أيضاً في مواقف أهل البيت تهديداً لجورهم وخطراً عليهم.

(٣١٨) القاموس المحيط في هامش ٣٧٦ ج ١ ، والفصول المهمة لابن الصباغ ص ١٩٣ .

(٣١٩) تاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ٦١ .

(٣٢٠) تذكرة الخواص ص ٣٤٧ وأحسن القصص للسيد علي فكري ج ٤ ص ٣٨٠ .

(٣٢١) نور الأبصار ص ١٤٣ .

(٣٢٢) عيون الأخبار ج ١ ص ٢١٢ .

أقوال العلماء فيه

« ما كنت أرى أن مثل علي بن الحسين يدع خلفاً يقارنه في الفضل حتى رأيت ابنه محمد الباقر » . (٣٢٣) محمد بن المنكدر

«ما رأيت العلماء عند أحد من العلماء أصغر علماً منهم عند محمد بن علي الباقر » (٣٢٤) . عبد الله بن عطا

«محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) القرشي الهاشمي المدني أبو جعفر المعروف بالباقر ، سمي بذلك لأنه بقر العلم أي شقه فعرف أصله وعرف خفيه . وأمّه أم عبد الله بنت الحسن بن علي بن أبي طالب وهو تابعي جليل ، إمام بارع مجمع على جلالته ، معدود في فقهاء المدينة وأئمتهم ، سمع جابراً وأنساً وسمع جماعات من كبار التابعين كأبي المسيب وابن الحنفية وغيرهما ، روى عنه أبو إسحاق السبيعي وعطاء بن أبي رباح وعمر بن دينار الأعرج وهو أسنّ منه والزهري وربيعه وخلائق آخرون من التابعين وكبار الأئمة ، وروى له البخاري ومسلم » (٣٢٥) .

محيي الدين بن شرف النووي المتوفى سنة (٦٧٦ هـ)

«أبو جعفر الباقر محمد بن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم ، أحد الأئمة الاثني عشر في اعتقاد الإمامية وهو والد جعفر الصادق ، لقب بالباقر لأنه بقر العلم أي شقه وتوسع فيه، ويقول الشاعر :

يا باقر العلم لأهل التقى *** وخير من حج على الأجل

وقال عبد الله بن عطاء: ما رأيت العلماء عند أحد أصغر علماً منهم عند محمد بن علي. عاش رضي الله عنه ستاً وخمسين سنة ، ودفن في البقيع مع أبيه» (٣٢٦) .

عفيف الدين اليافعي المتوفى سنة (٧٦٨ هـ)

« أبو جعفر محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ولد سنة (٥٦ هـ) كان من فقهاء أهل المدينة ، وقيل له الباقر ، لأنه بقر العلم أي شقه وعرف أصله وتوسع فيه، وهو أحد الأئمة الاثني عشر على اعتقاد الإمامية .

(٣٢٣) تهذيب التهذيب ج ٩ ص ٣٠٤ / ٦٤٤١ .

(٣٢٤) مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ٢٢٠ .

(٣٢٥) تهذيب الأسماء واللغات لشرف الدين النووي ج ١ ص ٨٧ / ١٨ .

(٣٢٦) مرآة الجنان ج ١ ص ٢٤٨ .

قال عبد الله بن عطاء : ما رأيت العلماء أصغر منهم علماً عنده ، وله كلام نافع في الحكم والمواعظ . مات (رضي الله عنه) سنة (١١٤ هـ) ودفن بالبقيع^(٣٢٧) .

أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي المتوفى سنة (١٠٨٩ هـ) « محمد بن علي الباقر (عليه السلام) ، هو باقر العلم وجامعه وشاهر علمه ورافعه ومتفوق دره وراضعه ومنمّق درره وراضعه ، صفا قلبه وزكا عمله وطهرت نفسه وشرفت أخلاقه ، وعمرت بطاعة الله أوقاته ، ورسخت في مقام التقوى قدمه ، وظهرت عليه سمات الازدلاف وطهارة الاجتباء ، فالمناقب تسبق إليه ، والصفات تشرف به ، فأماً ولادته فبالمدينة في ثالث صفر من سنة سبع وخمسين للهجرة ، قبل قتل جدّه الحسين بثلاث سنين ، وله القاب ثلاث : باقر العلم والشاكر ، والهادي ، وأشهرها الباقر وسمّي بذلك لتبقره في العلم وهو توسّعه فيه »^(٣٢٨) .

محمد بن طلحة القرشي العدوي الشافعي

« أبو جعفر الباقر محمد بن علي بن الحسين الإمام الثبت الهاشمي العلوي روى عن أبيه وجابر بن عبد الله وأبي سعيد وابن عمر وعبد الله بن جعفر وعدة ، وأرسل عن عائشة وأم سلمة وابن عباس . حدث عنه ابنه جعفر بن محمد وعمر بن دينار والأعمش والأوزاعي وابن جريح وقرة بن خالد وخلق ، وكان سيد بني هاشم في زمانه اشتهر في زمانه بالباقر من قولهم بقر العلم شقّه فعلم أصله وخفيه ، وعدّه النسائي وغيره في فقهاء المدينة ، مات سنة (١١٤ هـ) وقيل (١١٧ هـ)^(٣٢٩) .

شمس الدين الذهبي المتوفى سنة (٧٤٨ هـ)

« أبو جعفر الباقر هو محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب القرشيّ الهاشميّ أبو جعفر الباقر ، وأمّه أم عبد الله بنت الحسن بن علي ، وهو تابعي جليل ، كبير القدر ، أحد أعلام هذه الأمة علماً وعملاً وسيادة وشرفاً ...

وسمّي الباقر لبقره العلوم واستنباطه الحكم ، كان ذاكرةً خاشعاً صابراً وكان من سلالة النبوة ، رفيع النسب عالي الحسب ، وكان عارفاً بالخطرات ، وكثير البكاء والعبرات ، معرضاً عن الجدال والخصومات »^(٣٣٠) .

عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير

(٣٢٧) شذرات الذهب ج ٢ ص ٧٢ .

(٣٢٨) مطالب السؤل ج ٢ ص ٥٠ .

(٣٢٩) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١١٧ .

(٣٣٠) البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٠٩ .

« محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي أبو جعفر الباقر أمّه بنت الحسن بن علي بن أبي طالب ، روى عن أبيه وجدّيه الحسن والحسين وجدّ أبيه علي بن أبي طالب مرسلًا ... روى عنه ابنه جعفر وإسحاق السبيعي والأعرج والزهري وعمر بن دينار ، وأبو جهضم موسى بن سالم ، والقاسم بن الفضل والأوزاعي ، وابن جريح ، وشيبة بن نصاح ، وعبد الله بن أبي بكر بن عمر بن حزم ، وعبد الله بن عطاء ، وبسام الصيرفي ، وحرب بن سريح ، وحجاج بن أرطاة ، ومحمد بن سوقة ومكحول بن راشد ، ومعمار بن يحيى بن بسام وآخرون » (٣٣١) .

شهاب الدين بن حجر

« محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وهو والد جعفر الصادق ويقال له الباقر ، سمّي باقراً لتبحّره في العلم وهو الشقّ والتوسعة ، تابعي عدل ثقة ، وإمام مشهور ، توفي سنة (١١٤ هـ) على الأصح ودفن مع أبيه في البقيع » (٣٣٢) .

التلمساني

« محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضوان الله عنهم ، ولد بالمدينة المنورة ثالث صفر سنة سبع وخمسين من الهجرة النبوية قبل قتل جدّه الحسين بثلاث سنين ، وكُنّي أبو جعفر ولقب بالباقر لبقره العلم ، يقال: بقر الشيء فجرّه ، سارت بذكر علومه الأخبار وانشد في مدائحه الأشعار ، فمن ذلك قول مالك الجهني :

إذا طلب الناس علم القرآن *** كانت قریش عليه عيالا

وإن فاه فيه ابن بنت النبي *** تلقت يداه فروعاً طوالا

نجوم تهلل للمدلجين *** فتهدى بأنوائهن الرجالا

وتوفي الباقر في المدينة المنورة سنة (١١٧ هـ) وله من العمر ثمان وخمسون سنة ، وقيل ستون ، أقام منها مع جدّه الحسين ثلاث سنين ، ومع أبيه زين العابدين ٣٣ سنة ، وبقي بعد موت أبيه ١٩ سنة » (٣٣٣) .

عبد الله بن محمد بن عامر

(٣٣١) تهذيب التهذيب ج ٩ ص ٢١٠ .

(٣٣٢) شرح الشفاء للخفاجي ج ١ ص ٢٩٢ .

(٣٣٣) الإتحاف ص ٥٢ .

« محمد بن علي (عليه السلام) : هو الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين ، سمّي بالباقر من بقر الأرض أي شقّها وأنار مخبّاتها ومكامنها ، فكَذلك هو أظهر من مخبّات كنوز المعارف وحقائق الأحكام والحكمة واللطائف ما لا يخفى إلا على منطمس البصيرة ، ومن ثم قيل هو باقر العلم وجامعه ورافعه ، صفا قلبه وزكا علمه وعمله وطهرت نفسه وشرف خلقه، وعمرت أوقاته بطاعة مولاه ، وكنيته أبو جعفر لا غير ، والقابله ثلاثة : الباقر ، والشاكر ، والهادي ، وأشهرها الأول ، ويكفيه ما رواه ابن المديني عن جابر (رضي الله عنه) أنّه قال له - وهو صغير - رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : يسلم عليك ، فقيل له وكيف ذلك؟ قال : كنت جالسا عند الحسين (عليه السلام) في حجره يداعبه فقال : يا جابر، يولد له مولود اسمه علي ، إذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقيم سيّد العابدين ، فيقوم ولده ، ثم يولد له ولد اسمه محمد فإن أدركته فاقرأه مني السلام»^(٣٣٤).

محمد بن عبد الفتاح الحنفي

«الباقر محمد بن علي زين العابدين بن الحسين الطالبي الهاشمي القرشيّ أبو جعفر الباقر خامس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية : كان ناسكا عابداً، له في العلم والتفسير آراء وأقوال ، ولد في المدينة وتوفي بالحميمة»^(٣٣٥). الزركلي

«محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين (عليه السلام) ، سمّي به لأنّه بقر العلم أي شقّه فعرف أصله وخفيه ، وله من الرسوخ في مقام العارفين ما تكل عنه ألسن الواصفين ، وله كلمات كثيرة في السلوك والمعارف يعجز عن حكايتها الواصف . فمن كلامه : الصواعق تصيب المؤمن وغيره ولا تصيب ذاكر الله عزّ وجلّ . وقال : ما دخل قلب امرء شيء من الكبر إلا نقص من عقله مثل ما دخله منه أو أكثر . وقال : ما من عبادة أفضل من عفة بطن وفرج . وقال : ليس في الدنيا شيء أعون من الإحسان للإخوان . وقال : بنس الأخ يركاك غنياً ويقطعك فقيراً . وقال : اعرف المودة في قلب أخيك بما له في قلبك . وكلامه من هذا المهيع كثير»^(٣٣٦).

المناوي

« أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب ، وأمّه أم عبد الله بنت الحسن بن علي بن أبي طالب ، فولد أبو جعفر : جعفر بن محمد

(٣٣٤) جوهرة الكلام ص ١٣٢ - ١٣٥ .

(٣٣٥) الأعلام ج ٣ ص ٩٣٢ .

(٣٣٦) الكواكب الدرية ج ١ ص ١٦٤ .

وعبد الله بن محمد ، وأمهما أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ، وإبراهيم بن محمد ، وأمهما أم حكم بنت أسيد بن المغيرة بن الأحنس الثقفي ، وعلي بن محمد وزينب بنت محمد ، وأمهما أم ولد ، وأم سلمة بنت محمد ، وأمها أم ولد ... مات سنة (١١٧ هـ) وهو ابن ثلاث وسبعين سنة . وقيل توفي سنة (١١٨ هـ) ، وقال أبو نعيم الفضل بن دكين : توفي بالمدينة سنة (١١٤ هـ) ، وكان ثقة كثير العلم والحديث وليس يروي عنه من يحتج به » (٣٣٧) .

وحيث أخذنا على أنفسنا الإيجاز في البيان ، فلنترك بقية الأقوال ونكتفي بما ذكرنا لنأخذ صورة من صور حياته ، ولسنا من المغالين إن قلنا إنه فريد عصره ، ولا يدانيه أحد فيما اختص به من مميزات تؤهله لأن يكون هو المرجع الوحيد ، وباستطاعتنا أن نضع بين يدي القارئ أدلة كافية على ذلك . ولعلّ بهذه الإشارة ما يكفي عن التوسع في الموضوع .

والشيء الذي يلفت النظر هو قول ابن سعد في آخر كلمته عن الإمام الباقر: وليس يروي عنه من يحتج به (٣٣٨) . وهنا يجب أن نحاسب ابن سعد ونسائله عن هذا القول ، فهو أمر يبعث على الاستغراب ، وبعيد كل البعد عن الواقع ، وتهجم على الحقيقة . فهل كان يقصد ابن سعد أنّ جميع من روي عن الإمام الباقر لا يحتج به ؟ كيف وقد روى عنه ثقات التابعين وعلماء المسلمين، وقد احتج أصحاب الصحاح بتلك الروايات ، ولم يتوقف أحد عن قولها . وليس من البعيد أنّ ابن سعد يقصد بكلمته هذه رواته من الشيعة ، فهم في نظره غير ثقات، نظراً لنفسيته وارتكازاته الذهنية التي علقت به من إحياء الأوهام ، وعوامل السياسة ، وتدبير السلطة ضد شيعة أهل البيت (عليهم السلام) ، أو مجارة للظرف الذي نشأ فيه .

وإذا أردنا أن ندرس نفسية ابن سعد وجدنا انطباعات الانحراف جلية لا مجال للتشكيك فيها ، ولا حاجة إلى إجراء الحساب مع ابن سعد بأكثر من هذا، ولكننا نضع بين يدي القارئ بعضاً من رواة حديث الإمام الباقر (عليه السلام) - من التابعين وغيرهم - ممن يعترف ابن سعد بأنهم ثقات ، كما ينصّ هو على أكثرهم في طبقاته ، وخرج حديثهم أصحاب الصحاح لتظهر الحقيقة ، ونعرف مقدار انحراف ابن سعد عن الحق وابتعاده عن الواقع .

(٣٣٧) الطبقات الكبرى ج ٥ ص ١٣٨ .

(٣٣٨) تهذيب التهذيب ج ٩ / ص ٣١١ - ٣١٢ / ٥٨٢ .

من تلامذته ورواة حديثه

عمر بن دينار

عمر بن دينار الجمحي مولاهم أبو محمد الكوفي الأثرم المتوفى سنة (١١٥ هـ) أحد الأعلام ، ومن رجال الصحاح الستة ، روى عنه قتادة وشعبة والسفيانان والحمدان وخلق .. قال ابن معين : له خمسمائة حديث . قال مسعر: ثقة ثقة ثقة . وقال ابن أبي نجيب: ما كان عندنا أحد أفقه ، ولا أعلم من عمر بن دينار . وزاد غيره ولا عطاء ولا طاووس... (٣٣٩)

عبد الرحمن

عبد الرحمن بن عمر الأوزاعي المتوفى سنة (١٥٧ هـ) ، أحد رؤساء المذاهب البائدة ومن رجال الصحاح الستة (٣٤٠) .

عبد الملك

عبد الملك بن عبد العزيز بن جريح الأموي ، مولاهم أبو الوليد المكي المتوفى سنة (١٥٠ هـ). روى عنه يحيى بن سعيد الأنصاري والسفيانان . وهو أحد الأعلام واحتج بحديثه أصحاب الستة . قال أحمد : كان من أوعية العلم (٣٤١) .

قرة بن خالد

قرة بن خالد السدوسي أبو خالد البصري المتوفى سنة (١٥٤ هـ). له نحو مائة حديث . واحتج به أصحاب الستة . (٣٤٢)

محمد بن المنكدر

محمد بن المنكدر بن عبد الله القرشي التيمي أبو عبد الله المدني المتوفى سنة (١٣٣ هـ) من أعلام التابعين . واحتج به أصحاب الصحاح الستة . قال ابن عيينة : كان من معادن الصدق يجتمع إليه الصالحون . وقال الذهبي : مجمع على تقدمه وثقته . (٣٤٣)

يحيى بن كثير

(٣٣٩) تهذيب التهذيب ج ٨ ص ٢٥ / ٥٢١٤ .

(٣٤٠) تهذيب الأسماء واللغات ج ١ ص ٢٩٨ / ٣٥٥ .

(٣٤١) طبقات الحفاظ ج ١ ص ١٦٠ .

(٣٤٢) تهذيب الكمال ج ٢٣ ص ٥٧٧ / ٤٨٧٠ .

(٣٤٣) سير أعلام النبلاء ج ٦ ص ١٥٥ / ٧٧٧ .

يحيى بن كثير أبو نصر الطائي مولاهم اليمامي المتوفى سنة (١٢٩ هـ). قال
شعبة : هو أحسن من الزهري . وقال أبو حاتم : ثقة لا يروي إلا عن ثقة^(٣٤٤) . وهو
من رجال الصحاح الستة ومن الأعلام المشهورين .

الزهري

أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد بن شهاب الزهري المدني المتوفى سنة (١٢٤ هـ)،
روى عنه مالك بن أنس ، وابن أبي ذئب ، وسفيان بن عيينة ، والليث بن سعد ،
والأوزاعي وغيرهم، وهو من تلامذة الإمام زين العابدين وولده الإمام الباقر (عليهما
السلام)^(٣٤٥) .

والزهري من كبار العلماء وممن احتجّ به أصحاب الصحاح ، وستأتي ترجمته في
هذا الكتاب عند ترجمة أساتذة مالك .

ربيعة الرأي

أبو عثمان ربيعة بن عبد الرحمن فروخ التيمي المتوفى سنة (١٣٦ هـ) ، احتجّ به
أصحاب الصحاح وهو من كبار شيوخ مالك بن أنس ومن تلامذة الإمام الباقر (عليه
السلام)^(٣٤٦) . وروى عنه الأوزاعي ، والثوري ، وسليمان بن بلال وغيرهم .

الأعمش

أبو محمد سليمان بن مهران الأسدي مولاهم الكوفي المتوفى سنة (١٤٨ هـ) ، أحد
الأئمة الاعلام ورؤساء المذاهب البائدة ومن رجال الصحاح الستة ، وهو من تلامذة
الإمام الباقر (عليه السلام)^(٣٤٧) .

عبد الله بن أبي بكر

أبو محمد عبد الله بن أبي بكر بن عمر بن حزم الأنصاري المدني المتوفى سنة
(١٣٥ هـ) من رجال الصحاح الستة ومن شيوخ مالك ، وهشام بن عروة والسفيانان
وغيرهم، قال النسائي: ثقة ثبت، وقال مالك بن أنس : إنه رجل صدق كثير الحديث،
وقال ابن سعد : ثقة كثير الحديث^(٣٤٨) .

زيد بن علي

(٣٤٤) طبقات الحفاظ ج ١ ص ١٣١ .

(٣٤٥) تهذيب الأسماء واللغات للنووي ج ١ ص ٨٧ .

(٣٤٦) أنظر تاريخ الإسلام للذهبي ج ٤ ص ٢٩٩ .

(٣٤٧) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة الجزء الأول ص ٢٢٠، تهذيب الكمال ج ١٢ ص ٧٦ / ٢٥٧٠ .

(٣٤٨) أنظر تهذيب التهذيب ج ٥ ص ١٦٤ وتاريخ الإسلام ج ٥ ص ٣٦٤ .

زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب أبو الحسين المدني المتوفى سنة (١٢٢ هـ) . روى عن أبيه وأخيه محمد الباقر . وعنه الزهري والأعمش وشعبة وسعيد بن خيثم وإسماعيل السدي وزكريا بن أبي زائدة وعبد الرحمن ابن الحارث بن عياش وغيرهم ، قتل سنة (١٢٢ هـ) ، وقال ابن خليفة سنة (١٢١ هـ) ، وقال مصعب الزبيري : قتل وهو ابن (٤٢) سنة وبقي مصلوباً إلى سنة (١٢٦ هـ) . قال ابن أبي الدنيا : حدثني محمد بن إدريس حدثنا العتكي عن جرير بن حازم أنه رأى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) متسانداً إلى جذع زيد بن علي، وزيد مصلوب ، وهو يقول للناس : هكذا تفعلون بولدي^(٣٤٩) .

ولزيد بن علي منزلة عند الأئمة (عليهم السلام) وقد أخذ العلم عن أبيه زين العابدين وأخيه الباقر . وله كتاب في الفقه « وقد اكتشف « جرفيني » بين المخطوطات القيّمة في المكتبة الامبروزية بميلانو - الخاصة ببلاد العرب الجنوبية - مختصراً في الفقه اسمه : (مجموعة زيد) المتوفى سنة (١٢٢ هـ - ٧٤٠م) وهو منسوب إلى مؤسس فرقة الزيدية من الشيعة^(٣٥٠) .

موسى بن سالم

موسى بن سالم أبو جهضم مولى آل العباس . روى عنه عطاء بن السائب وهو من أقرانه ، وليث بن أبي سليم ، والثوري ، والحمادان وغيرهم ، وثقه أحمد وابن معين وأبو زرعة ، وأبو حاتم ، وقال ابن عبد البر : لم يختلفوا في أنه ثقة^(٣٥١) .

موسى الحنّاط

موسى بن أبي عيسى الحنّاط أبو هارون المدني ، روى عنه الليث بن سعد وابن عيينة ، ويحيى القطان وغيرهم ، وثقه النسائي وابن حبان ، وروى له البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه^(٣٥٢) .

القاسم بن الفضل

أبو المغيرة القاسم بن الفضل بن معدان الحداني المتوفى سنة (١٦٧ هـ) خرّج حديثه البخاري في الأدب المفرد ، ومسلم في صحيحه والأربعة ، وثقه القطان وأحمد، وروى عنه ابن مهدي ، ووکیع وآخرون^(٣٥٣) .

القاسم بن محمد

(٣٤٩) تهذيب التهذيب ج ٣ ص ٤٢٠ .

(٣٥٠) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢٠٠ .

(٣٥١) تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٣٤٤ .

(٣٥٢) تهذيب الكمال ج ٢٩ ص ١٣٢ / ٦٢٩٠ .

(٣٥٣) تاريخ الإسلام للذهبي ج ٤ ص ٢٩٩ .

القاسم بن محمد بن أبي بكر التيمي أبو محمد المدني المتوفى سنة (١٠٦هـ) أحد الفقهاء السبعة وأحد الأعلام ، ومن رجال الصحاح الستة ، قال ابن سعد : كان ثقة عالماً فقيهاً إماماً كثير الحديث . (٣٥٤)

محمد بن سوقة

محمد بن سوقة، روى عنه مالك بن مغول ، والثوري وابن المبارك وأبو معاوية وعبد الرحمن بن محمد المحاربي ، وإسماعيل بن زكريا ، ومروان بن معاوية وأبو المغيرة النضر بن إسماعيل ، وعطاء بن مسلم الخفاف وابن عيينة وعلي بن عاصم الواسطي وغيره .

قال محمد بن عبيد : سمعت الثوري يقول : حدثني الرضا محمد بن سوقة، وقال الحسين بن حفص : قال الثوري : أخرج اليكم كتاب خير رجل بالكوفة ، فأخرج كتاب محمد بن سوقة. وقال العجلي : كوفي ثقة . وقال أبو حاتم : صالح الحديث . وقال النسائي: ثقة مرضي ، وذكره ابن حبان في الثقات ، وقال: كان من أهل العبادة والفضل والدين ، وقال الدارقطني : كوفي فاضل ثقة (٣٥٥) . خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة . قال ابن المديني له ثلاثون حديثاً . وقال ابن عيينة : كان لا يحسن أن يعصي الله تعالى .

حجاج

حجاج بن أرطاة بن ثور بن شراحيل النخعي الكوفي القاضي المتوفى سنة (١٤٥هـ). روى عنه شعبة ، وهشيم وابن نمير ، والحمادان والثوري وحفص ابن غياث ، وغندر ، وأبو معاوية ، ويزيد بن هارون وخلق كثير .

وأخرج له مسلم في صحيحه ، والبخاري في الأدب المفرد والأربعة . قال ابن عيينة : سمعت ابن أبي نجيح يقول : ما جاءنا منكم مثله يعني الحجاج . وقال الثوري : عليكم به فإنه ما بقي أحد أعرف بما يخرج من رأسه منه . وقال العجلي : كان فقيهاً ، وكان أحد مفتي الكوفة (٣٥٦) .

معروف

معروف بن خربوذ الكوفي مولى عثمان، روى عن الباقر وهو من خواصه. وعنه وكيع ، وأبو داود الطيالسي، وأبو بكر بن عياش، وعبد الله بن داود، وأبو عاصم

(٣٥٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٥ ص ١٤٨ / ٧٣٧ .

(٣٥٥) تهذيب التهذيب ج ٩ ص ٢١٠ .

(٣٥٦) تهذيب التهذيب ج ٢ ص ١٩٦ .

وغيرهم ، وخرّج له البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، عدّه ابن حاتم في الثقات ، وقال الساجي : صدوق^(٣٥٧) .

وهو غير معروف بن خربوذ المعروف بالكرخي فإنّه كان من أصحاب الإمام الرضا(عليه السلام)وتوفي سنة (٢٠٠ هـ) .

وغير هؤلاء من علماء الأمة الذين حضروا عند الإمام الباقر (عليه السلام) ورووا عنه ممّن لا يمكننا بسط القول في تراجمهم أمثال :

أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي المتوفى سنة (١٥٠ هـ) وقد جاءت رواياته عن الإمام الباقر (عليه السلام) وولده الإمام الصادق في كتب مناقبه وجامع مسانيدهِ وغيرها .^(٣٥٨)

ومنهم شيبه بن نصاح القارئ المدني القاضي المتوفى سنة (١٣٠ هـ)^(٣٥٩) .
وأسلم المنقري أبو سعيد الكوفي المتوفى سنة (١٤٢ هـ)^(٣٦٠) .
ومحمد بن إسحاق بن يسار أبو بكر المطلبي مولاهم المدني المتوفى سنة (١٥١ هـ) وصاحب المغازي^(٣٦١) .

وعبد الله بن عطاء المدني الطائفي من رجال الصحاح ومن شيوخ إسحاق ، وشعبة ، والثوري وغيرهم .^(٣٦٢)

وعروة بن عبد الله بن قشير أبو مهل الجعفي ، روى عنه الثوري ، وزهير ابن معاوية وغيرهما ، وخرّج حديثه أبو داود ، وابن ماجه ، والترمذي في الشمائل^(٣٦٣)

وعبد الله بن حبيب بن أبي ثابت قيس بن دينار الأسدي مولاهم الكوفي . خرّج حديثه مسلم والنسائي في الخصائص ، وروى عنه الثوري ، ووكيع ، وابن المبارك وغيرهم^(٣٦٤) .

(٣٥٧) راجع رجال الشيعة في أسانيد السنّة للطبسي ص ٣٨٢ ، رقم ١١٤ .

(٣٥٨) جامع المسانيد ج ١ ص ٣٦١ .

(٣٥٩) التقريب لابن حجر ج ١ ص ٢٥٧ .

(٣٦٠) تهذيب التهذيب ج ١ ص ٢٤٢ / ٤٤٦ .

(٣٦١) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٦٣ .

(٣٦٢) تهذيب التهذيب ج ٥ ص ٢٨٥ / ٣٥٩٢ .

(٣٦٣) الجرح والتعديل ج ٦ ص ٣٩٧ .

(٣٦٤) الجرح والتعديل ج ٣ ص ١٠٧ .

وقد ذكر ابن أبي حاتم الرازي في كتابه الجرح والتعديل وابن حجر في التهذيب ،
والخزرجي في الخلاصة وغيرهم عدداً وافراً من تلامذة الإمام الباقر (عليه السلام) ،
تركنا ذكرهم لضيق المجال .

أما أصحابه ورواة حديثه من الشيعة فكثيرون منهم :

أبان بن تغلب

أبان بن تغلب الربعي أبو سعد الكوفي المتوفى سنة (١٤١ هـ) كان من تلامذة
السجاد والباقر والصادق (عليهم السلام) ، وأمره أبو جعفر الباقر أن يجلس في مسجد
المدينة ويفتي الناس ، وقد خرّج حديثه مسلم في صحيحه والترمذي والنسائي وأبو
داود وابن ماجه ، وثقه احمد وابن معين والنسائي وأبو حاتم ، وقال ابن عدي : له
نسخ عامتها مستقيمة إذا روى عنه ثقة وهو من أهل الصدق وفي الرواية صالح
لابأس به ، وإن كان مذهبه مذهب الشيعة ، وقال ابن سعد : كان ثقة . وقال الذهبي ثقة
ثقة ... إلى آخر ما هو موجود في مدحه والثناء عليه^(٣٦٥) . وله كتب في التفسير وعلم
القراءة والفرائض ، وكان يحفظ ثلاثين ألف حديث عن الصادق (عليه السلام) فقط .

بريد العجلي

بريد بن معاوية أبو القاسم العجلي المتوفى سنة (١٤٨ هـ) ، كان من حوارى
الإمام الباقر والصادق (عليهما السلام) وروى عنهما .

قال الكشي : هو ممّن اتفقت العصابة على تصديقه ، وقال العلامة الحلي : هو
وجه من أصحابنا ثقة فقيه ممّن اتفقوا على تصديقه وانقادوا له بالفقه . وقد ورد مدحه
عن الأئمة (عليهم السلام) ، وقد بلغ عندهم حدّاً فوق الوثاقة ، لجلالة قدره وعظيم شأنه .
روى داود بن سرحان ، قال سمعت الصادق (عليه السلام) يقول : إنّ أصحاب أبي كانوا
زيناً أحياء وامواتاً ، اعني : زرارة بن أعين ، ومحمد بن مسلم ، ومنهم ليث المرادي
، وبريد العجلي ...^(٣٦٦)

إلى غير ذلك من أقواله في خواص أصحابه وأصحاب أبيه .

بكير بن أعين

بكير بن أعين الشيباني ، أخو زرارة بن أعين ، من أصحاب الباقر والصادق ،
ومات في حياة الصادق (عليه السلام) . ولمّا بلغه خبر موته قال : أما والله لقد أنزله الله

(٣٦٥) تهذيب التهذيب ج ١ ص ٨٥ / ١٤٥ ، لم يذكره في لسان الميزان ، وميزان الاعتدال ج ١ ص ١١٨ / ١٢٥٢

والخلاصة ص ٧٣ / ١١٩ والفهرست ص ٣٠٨ ، والإمام الصادق والمذاهب الأربعة الجزء الأول ص ٩٧ .

(٣٦٦) رجال الكشي ص ٢٣٨ - ٢٣٩ ح ٤٣٣ .

بين رسوله وأمير المؤمنين ، وذكره يوماً فقال : رحم الله بكيراً ، وهو من ثقات أولاد أعين وصلحائهم .

أبو حمزة الثمالي

أبو حمزة الثمالي ثابت بن دينار. روى عن علي بن الحسين والباقر والصادق(عليهم السلام)، وبقي إلى أيام الكاظم(عليه السلام) . وكان عظيم المنزلة ، جليل القدر. روى عنه سفیان الثوري ، وشريك ، وحفص بن غياث ، وأبو أسامة ، وعبد الملك بن أبي سليمان ، وأبو نعيم ، ووکیع، وعبيد الله بن موسى . وخرّج حديثه الترمذي، وابن ماجه ، والنسائي في خصائص علي. وقد ورد مدحه عن الأئمة ، وهو راوي دعاء علي بن الحسين الذي يقرأ سحر شهر رمضان المعروف بدعاء أبي حمزة الثمالي (٣٦٧).

جابر الجعفي

جابر بن يزيد بن الحارث بن عبد يغوث الجعفي ، أبو يزيد الكوفي المتوفى سنة (١٢٨ هـ). روى عنه شعبة ، والثوري ، واسرائيل ، والحسن بن حي ، وشريك ، ومسعر ، ومعمّر ، وأبو عوانة. وخرّج حديثه أبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه . قال ابن مهدي : ما رأيت في الحديث أروع منه . وقال ابن علية : جابر صدوق في الحديث . وقال يحيى بن أبي بكير عن شعبة : كان جابر إذا قال حدثنا وسمعت ، فهو من أوثق الناس .

وقال وكيع : مهما شككتم في شيء فلا تشكوا في أن جابراً ثقة ، وقال ابن عبد الحكم : سمعت الشافعي يقول : قال سفیان الثوري لشعبة : لئن تكلمت في جابر الجعفي ، لأتكلمنّ فيك . وكان جابر يحفظ مائة ألف حديث(٣٦٨).

هكذا وصفه معاصروه ، وهكذا نقلوا عنه . وقد كانت له منزلة في الكوفة ، وانتشر حديثه ، وأخذ عنه العلماء . وبعد أن تطور الزمن وظهرت الآراء ، وهبت زوبعة الخلاف ، واشتد النزاع بين العرب والموالي ، أو بين أهل الحديث وأهل الرأي، وبدأ في أفق السياسة عامل التفرقة ، أصبح جابر لا يؤخذ بقوله، ورماه غير واحد بالكذب وكانت كلماتهم مشوشة ، وادّلتهم على تكذيبه واهية ولم يدعموها بحجة ، ولقد ظهر من أبي حنيفة القول بتكذيب جابر ، لأنّ جابراً عارض أهل الرأي، وانتصر لأهل الحديث ، وبالطبع أن ذلك يصعب عليهم . يقول أبو يحيى الحماني :

(٣٦٧) تنقيح المقال ج ١ ص ١٨٩ / ١٤٩٤ .

(٣٦٨) تهذيب التهذيب ج ٢ ص ٤٣ / ٩٣١ .

قال أبو حنيفة : ما لقيت في من لقيت أكذب من جابر ما أتيت به شيء من رأيي إلا جاءني فيه بأثر، هذا هو استدلال أبي حنيفة على تكذيب جابر ، وهو كما ترى ، لأنّ أبا حنيفة قليل الحديث ، ولم يكن من أهله حتى قيل : إنّه لم يحفظ أكثر من سبعة أحاديث . وبالطبع إنّه يستغرب كثرة أحاديث جابر ، لأنّه يحفظ مائة ألف حديث ، على أنّ ذلك العصر قد تطلّعت به رؤوس الموالي ، وبدأت عوامل الفرقة، وأنصار أبي حنيفة يأخذون قوله بعين الاعتبار ، فوسّعوا تلك الدائرة ، فكثرت كلمات الذم له جرياً للظروف وخضوعاً لعوامل الخلاف.

وروي أنّ بعضهم رأى أحمد بن حنبل معه كتاب (زهير عن جابر) وهو يكتبه، فقال: يا أبا عبد الله، تنهوننا عن حديث جابر (الجعفي) وتكتبونه؟! فقال الإمام أحمد: نعرفه^(٣٦٩) . وأدنى ما يفهم من كلمة أحمد أن يطلع على ما لدى جابر لشهرته. وقد قال الإمام الصادق(عليه السلام) في مدحه : رحم الله جابراً كان يصدق علينا ، ولعن الله المغيرة ، كان يكذب علينا^(٣٧٠) .

وروى الكشي في رجاله روايات كثيرة دالة على مدحه ، وله أصل يرويه الشيخ الطوسي عن ابن أبي جيد عن ابن الوليد ، كما انه يذكر له كتاباً في التفسير^(٣٧١) . وعلى أيّ حال فإنّ الأمر لا يحتاج الى مزيد بيان لتلك العوامل التي أدّت الى تكذيبه من قبل بعض رجال عصره وبعد عصره . وقد كان يكثر روايته عن أهل البيت (عليهم السلام) ، ويقول عندما يحدث عن الإمام الباقر(عليه السلام) : حدثني وصيّ الأوصياء^(٣٧٢) . وهو أمر يعظم تحمّله في عصر تقربّ الناس لولاتهم بالابتعاد عن أهل البيت ، لذلك رأينا كثيراً من رجال الحديث تركوا الرواية عنهم : إمّا خوفاً على أنفسهم ، أو تقرباً لسلطانهم .

محمد بن مسلم

محمد بن مسلم بن رياح أبو جعفر الكوفي الثقي ، مولا هم المتوفى سنة (١٥٠ هـ) عن سبعين سنة . روى عن الإمام الباقر وابنه الصادق (عليه السلام) ، وقد أجمعت العصابة على تصحيح ما يصحّ عنه .

(٣٦٩) المجروحين لابن حبان ج ١ ص ٢٠٣ .

(٣٧٠) رجال الكشي ص ١٩١ - ١٩٢ / ٣٣٦ .

(٣٧١) الفهرست للشيخ الطوسي ص ٤٥ .

(٣٧٢) مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ج ٣ ص ٣١٥ ، باب إمامة أبي جعفر الباقر .

وكان المثل الأعلى في الصلاح والطاعة والعلم ، وقد حفظ عن الإمام الباقر ثلاثين ألف حديث ، وعن الإمام الصادق ستة عشر ألف حديث . وله كتاب يسمى الأربعمئة مسألة في أبواب الحلال والحرام .

قال عبد الله بن أبي يعفور : قلت لأبي عبد الله : إنه ليس كل ساعة ألقاك ، ولا يمكن القدوم إليك ، ويجيء الرجل من أصحابنا فيسألني ، وليس عندي كل ما يسألني عنه . قال فما يمنعك عن محمد بن مسلم الثقفي ؟ فإنه قد سمع من أبي ، وكان عنده وجبها .

ودعي لأداء شهادة عند شريك القاضي هو وأبو كريمة الأزدي ، فقال ابن أبي ليلى : جعفران فاطميان . وردّ شهادتهما ، فقال محمد بن مسلم لشريك : نسبتنا لأقوام لا يرضون بأمثالنا ، ولرجل لا يرضى بأمثالنا أن نكون من شيعته، فإن تفضل وقبلنا فله المنّ علينا والفضل. فتبسّم شريك ثم قال : إذا كانت الرجال فلتكن أمثالكم . وسئل أبو حنيفة صاحب الرأي عن مسألة الحامل التي تموت والولد يتحرك في بطنها، ويذهب ويجيء ، فقال للسائل : عليك بمحمد بن مسلم الثقفي ، فإنه يخبرك فيها .

ودخل عليه شريك القاضي وعنده امرأة تسأله عن امرأة ضربها الطلق ، فما زالت تطلق حتى ماتت ، والولد يتحرك في بطنها ويذهب ويجيء فما أصنع ؟ فقال محمد بن مسلم : يا أمة الله سئل محمد بن علي بن الحسين الباقر عن مثل ذلك ، فقال : يشقّ بطن الميت ، ويستخرج الولد . فقالت : رحمك الله جئت الى أبي حنيفة صاحب الرأي أسأله ، فقال : انتي محمد بن مسلم ...

ولما ردّ ابن أبي ليلى شهادة محمد بن مسلم ، أرسل الإمام الصادق من يسأل ابن أبي ليلى عن مسائل يعجز عن حلّها ، وقال قل له : إذا عجز عن ذلك ، يقول لك جعفر بن محمد: ما حملك على أن رددت شهادة رجل أعرف منك بأحكام الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ فلما صار الرجل إليه وسأله فلم يجب وبلغه قول الإمام الصادق ، قال ابن أبي ليلى : من هو ؟ قال هو محمد بن مسلم الثقفي، فلم يرد شهادته بعدها .

وكان محمد بن مسلم رجلاً موسراً جليلاً في قومه ، وله منزلة عظيمة . وأقام بالمدينة أربع سنين يتعلم العلم من الإمام الباقر. (٣٧٣)

حمران بن أعين

حمران بن أعين الشيباني مولا هم الكوفي. روى عن الباقر والصادق (عليهما السلام) وكان الإمام الباقر يقول فيه : حمران من المؤمنين حقاً لا يرجع أبداً . وكانت له منزلة عندهم ، وكان فقيهاً عالماً بعلوم القرآن واللغة والنحو وعلم الكلام.(٣٧٤)

زرارة

زرارة بن أعين الشيباني أبو الحسن المتوفى سنة (١٥٠ هـ) من مشاهير رجال الشيعة ، فقيهاً وحديثاً ومعرفة بالكلام ، اجتمعت فيه خلال الفضل والدين ، وهو من أصحاب الباقر والصادق (عليهما السلام) . قال النجاشي : شيخ أصحابنا في زمانه ومتقدمهم، وكان قارئاً فقيهاً متكلماً شاعراً أديباً ، قد اجتمعت فيه خلال الفضل والدين. وقال أبو غالب كما حكى عنه : إنّ زرارة كان وسيماً جسيماً أبيض ، فكان يخرج الى الجمعة وعلى رأسه برنس أسود وبين عينيه سجادة ، وفي يده عصى فيقوم الناس سماطين ينظرون إليه لحسن هيئته فربما رجع من طريقه ، وكان خصماً جدلاً لا يقوم بحجته ، صاحب إلزام وحجة قاطعة إلا أنّ العبادة اشغلته عن الكلام ، والمتكلمون من الشيعة تلاميذه .

وقيل لجميل بن دراج : ما أحسن محضرك وأزين مجلسك ! فقال : أي والله ما كنّا حول زرارة بن أعين إلا بمنزلة الصبيان حول المعلم . ودخل الفيض بن المختار على الإمام الصادق (عليه السلام) فسأله عن الاختلاف في الحديث فأجابه الإمام بعد كلام طويل : إذا أردت حديثنا فعليك بهذا الجالس، وأشار الى زرارة ابن أعين .

وقال سليمان بن خالد الأقطع : سمعت أبا عبد الله يقول : ما أجد أحداً أحيا ذكرنا وأحاديث أبي إلا زرارة وأبا بصير المرادي ، ومحمد بن مسلم، وبريد ابن معاوية العجلي .

وفي الفصول المهمة للحرّ العاملي بإسناده، أنّ الإمام الصادق، قال: بشرّ المختين بالجنة، برید بن معاوية العجلي، وأبو بصير ليث بن البختری المرادي، ومحمد بن مسلم، وزرارة، أربعة نجباء أمناء الله على حلاله وحرامه، لولا هؤلاء انقطعت آثار النبوة واندرست، وقوله (عليه السلام): رحم الله زرارة، لولا زرارة ونظراؤه لاندرست أحاديث أبي(عليه السلام)(٣٧٥) .

وقد تحمّل زرارة في سبيل دفاعه عن أهل البيت ونشر أحاديثهم ما يتحمّله أمثاله من حملة العلم والمخلصين في الدعوة الى آل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وقد تقوّل عليه خصومه أقوالاً وانتحلوا له آراء حتى بلغ ذلك الإمام جعفر بن محمد (عليه السلام)

(٣٧٤) تنقيح المقال ج ١ ص ٣٧٠ / ٣٣٥١ ، رجال الكشي ص ١٨٠ / ٣١٤ .

(٣٧٥) اختيار معرفة الرجال للطوسي ج ١ ص ٣٤٨ واختصاص الشيخ المفيد ص ٦٦ .

فقال : أنا أبرأ ممّن يقول ذلك ، فأظهر خصومه تلك المقالة واشاعوها عليه ليحطوا من مقامه ، فالتجأ آل زرارة الى كشف الحال من الإمام الصادق .

دخل حمزة بن حمران على الإمام الصادق (عليه السلام) فقال : يا أبا عبد الله، بلغني أنّك برئت من عمي « يعني زرارة » فقال (عليه السلام) : أنا لم أبرأ من زرارة ولكنهم يجيئون ويذكرون ويروون عنه فلو سكت ألزموه فاقول : من قال هذا أنا بريء منه .

وقال الحسين بن زرارة : يا أبا عبد الله، إنّ أبي يقرأ عليك السلام ويقول لك: جعلت فداك لا يزال الرجل والرجلان يقدمان فيذكران أنّك قلت فيّ . فقال أبو عبد الله : اقرأ أباك السلام وقل له : أنا والله أحبّ لك الخير في الدنيا وأحبّ لك الخير في الآخرة ، وأنا والله عنك راضٍ. الى كثير من الأقوال في مدحه الدالة على جلالته قدره وعظيم منزلته (٣٧٦).

قال الشيخ الطوسي : ولزرارة مصنفات منها كتاب الاستطاعة والجبر (٣٧٧).
وقال ابن النديم : وزرارة من أكبر رجالات الشيعة فقهاً وحديثاً ومعرفة بالكلام والتشيع ، ومن ولده الحسين بن زرارة، والحسن بن زرارة من أصحاب جعفر بن محمد (٣٧٨).

ومن تتبّع كتب الحديث، يقف على حقيقة أمره وعلو منزلته في العلم وحرصه الشديد على أخذ الأحكام من أهل بيت الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) .

عبد الملك بن أعين

عبد الملك بن أعين الشيباني مولاهم الكوفي ، روى عنه السفينان وغيرهما وخرّج حديثه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه والنسائي. روى عن الإمام الباقر والصادق (عليهما السلام)، وكان له عند الإمام الصادق درجة ، ولمّا بلغه خبر وفاته ترحّم عليه ودعا له ، وكان من التابعين وحفاظ الحديث . قال أبو حاتم: محله الصدق ومن عتق الشيعة يكتب حديثه . وقال ابن حجر : عبد الملك بن أعين مولى بني شيبان صدوق شيعي (٣٧٩).

* * *

وحيث قد أخذنا على أنفسنا الاختصار، فلا يمكننا أن نتوسع بأكثر ممّا ذكر من رواية حديثه (عليه السلام) وقد جمعنا منهم أكثر من ثلاثمائة رجل . وعسانا نوفق لإبراز كتاب خاص في حياة الإمام الباقر فنذكرهم هناك ، كما وإنّا لم نتعرض لذكر المؤلفين

(٣٧٦) رجال الكشي ص ١٤١ ح ٢٢٢ .

(٣٧٧) الفهرست ص ١٣٤ ح ٣١٢ .

(٣٧٨) الفهرست لابن النديم ص ٢٧٦ .

(٣٧٩) التقريب لابن حجر ص ٢٤٩ .

من أصحابه وعددهم ينوف على المائة . أما التفسير المنسوب الى الإمام الباقر (عليه السلام) والذي يرويه عنه زياد بن المنذر أبو الجارود فقد ذكره الشيخ الطوسي في الفهرست ورواه عنه بطريقين ، كما ذكره صاحب الذريعة^(٣٨٠)، وابن النديم في الفهرست^(٣٨١)، وغيرهم^(٣٨٢) .

مدرسة الإمام الباقر

رأينا كيف انهال رجال العلم من التابعين وغيرهم على مدرسة الإمام الباقر (عليه السلام) مع وجود تلك الخطط التي ضربها الأمويون ليصرفوا الناس عن أهل البيت ، وتقدموا بالتهديد والتوعيد وحذروا من خالف ذلك ، وأظهروا كوامن الحقد وقديم الخصومة، ولا يروق لهم أن يذكرهم أحد بخير ، وقاموا الى جانب ذلك بالمغريات الخداعة من بذل المال واسناد الوظائف لمن عرفوا منه الانحراف عن آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .

ولكن تلك الخطط التي ساروا عليها لم تنجح النجاح المطلوب؛ فاجتاز اكثر المسلمين تلك العقبات ، وحفظوا لأهل البيت منزلتهم وعرفوا مقامهم وما وهبهم الله من علوم، هم أحوج ما يكونوا اليها ، فتحملوا في سبيل أخذ العلم ونشر الأحكام في جميع الأقطار مصاعب وواجهوا محناً ، ولكّنها تهون عليهم في سبيل نصره الحق وإظهار الحقيقة .

وقد نشأ الإمام الباقر (عليه السلام) في عصر قوّة الدولة وامتداد سلطانها وشدة نفوذها، ومع ذلك فقد قام بما يجب عليه من الدعوة لله ونشر تعاليم الإسلام وإلقاء دروس الأخلاق والعلوم الدينية ، والحثّ على التمسك بالدين والابتعاد عن الظلمة الذين اتخذوا مال الله دولا، فازدحم العلماء على أبواب مدرسته وانتشروا في أقطار المملكة الإسلامية يحملون للناس أصدق الحديث ، وظهروا الحقائق التي حاول الأمويون إخفاءها بأبراد الترمويه والخداع .

وقد كان يؤلمهم موقف الإمام الباقر (عليه السلام) ، وتقض مضاجعهم شهرته في الآفاق، ولكن ماذا يصنعون والحجاز يخلص له بالولاء ، والمدينة المنورة ترعى جانبه وتقدّر منزلته. ولا يستطيعون أن يحركوا جانب المدينة مرة أخرى وهي

(٣٨٠) الذريعة ج٤ ص ٢٥١ / ١٢٠٢ .

(٣٨١) الفهرست لابن النديم ص ٣٦ .

(٣٨٢) وقد حققه الأستاذ المحامي شاکر الغرباوي في كتابه حياة الباقر الجاهز للطبع واثبت ذلك من عدة وأ طرق كما أنه وقف على معلومات كافية حول التفسير واستحصل جملا منه .

المركز الإسلامي ، وإليها تقصد وفودهم في أخذ الأحكام . فكان هو وحيد عصره في إرشاد الناس وتحذيرهم من الزيغ والضلال ، وإليه يرجعون في معضلات المسائل ، فيحلّ لهم عقالها ويوضح لهم ما أشكل عليهم فهمه من أحكام الدين ، فكان قوله الفصل وحكمه العدل .

روى مكحول بن إبراهيم عن قيس بن الربيع قال : سألت أبا إسحاق عن المسح على الخفين فقال : أدركت الناس يمسحون حتى لقيت رجلاً من بني هاشم لم أر مثله قط وهو محمد بن علي بن الحسين، فسألته عن المسح على الخفين، فنهاني عنه ، وقال : لم يكن أمير المؤمنين يمسح عليهما وكان يقول: سبق الكتاب المسح على الخفين . قال أبو إسحاق : فما مسحت منذ نهاني عنه ، وقال قيس بن الربيع : وما مسحت أنا منذ سمعت أبا إسحاق . (٣٨٣)

وقال زرارة : كنت جالساً الى جنب أبي جعفر (عليه السلام) وهو مستقبل القبلة فقال : أما أن النظر اليها عبادة، فجاءه رجل من بجيلة فقال لأبي جعفر : إنّ كعب الأحبار (٣٨٤) كان يقول : إنّ الكعبة تسجد لبيت المقدس في كلّ غداة ، فقال أبو جعفر . فما تقول فيما قال كعب ؟ فقال الرجل : صدق كعب ، فقال له أبو جعفر: كذبت وكذب كعب الأحبار معك ، وغضب . قال زرارة : ما رأيته استقبل أحداً بقوله «كذبت» غيره . (٣٨٥)

وكان (عليه السلام) إذا دخل مكة انثال عليه الناس يستفتون عن أهمّ مسائل الحلال والحرام ، ويستفتحون أبواب مشاكلّ العلوم ويغتنمون فرصة الاجتماع به ليزودهم بتعاليمه ، وإذا أقام بمكة عقدت له حلقة ينضمّ فيها طلاب العلم بل علماء الأمة ، وحجّ هشام بن عبد الملك فنظر الى اجتماع الناس حوله وحضور العلماء عنده فثقل عليه ذلك ، فأرسل رجلاً من أصحابه وقال له : قل له يقول لك أمير المؤمنين ما الذي يأكله الناس ويشربونه في المحشر الى أن يفصل بينهم يوم القيامة ؟ فلما سألته

(٣٨٣) الإرشاد للمفيد ج ٢ ص ١٦١ ، فضائل الإمام الباقر .

(٣٨٤) هو كعب بن ماتع الحميري أبو إسحاق المعروف بكعب الاحبار المتوفى سنة (١٣٤ هـ) بحمص وكان يهودياً أسلم في أيام أبي بكر وقيل في أيام عمر ، وكان عنده تنبؤات عن طريق جميع الاحاديث التي وضعها اليهود أو المسيحيون ، وأشتهر كعب بذلك ومثله وهب بن منبه وتميم الداري وكان لهذه الاحاديث أثر في المجتمع إذ أدخلوا أشياء من التكهّن بوقوع الحوادث أو مصير العالم، وقد استمدّ منهم معاوية أشياء يستعين بها على تقوية مركزه لذلك نوه باسم كعب : انه كان من أصدق هؤلاء المحدثين . إلا أن كعباً أحد العلماء، وقد روى عنه أبوهريرة ومعاوية . وأنكر المسلمون على كعب وأصحابه وكذبوهم لرجعهم بالغيب .

(٣٨٥) البحار ج ٤٦ ص ٣٥٣ ، ح ٦ .

الرجل، قال له الإمام الباقر : يحشر الناس مثل قرص النقي^(٣٨٦) فيها أشجار وأنهار يأكلون ويشربون منها حتى يفرغوا من الحساب . فقال هشام للرسول : اذهب إليه فقل له يقول : ما أشغلهم عن الأكل والشرب يومئذ؟ فقال أبو جعفر : هم في النار اشغل ولم يشتغلوا عن أن قالوا : أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، فسكت هشام ولم يظفر بما أراد من سؤاله للإمام فإنه سؤال امتحان لا استفادة .^(٣٨٧)

ودخل عليه رجل من الخوارج فقال له : يا أبا جعفر أي شيء تعبد ؟ فقال (عليه السلام) : الله .

قال الرجل : رأيتك ؟

قال : بلى ، لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان ، لا يعرف بالقياس ، ولا يدرك بالحواس ، ولا يشبه بالناس ، موصوف بالآيات ، معروف بالدلالات ، لا يجور في حكمه ، ذلك الله لا إله إلا هو . فخرج الرجل وهو يقول : الله أعلم حيث يجعل رسالته .^(٣٨٨)

ودخل عليه عثمان الأعمى من أهل البصرة وقال له : يا ابن رسول الله، إن الحسن البصري زعم أن الذين يكتمون العلم يؤذي ربح بطونهم النار ، فقال أبو جعفر : إذا هلك مؤمن آل فرعون والله مدحه بذلك .^(٣٨٩)

وقصده العلماء للسؤال وكشف الحقائق كعمرو بن عبيد ، وطاووس اليماني، والحسن البصري ، ونافع مولى ابن عمر ، وغيرهم ممن يطول ذكرهم. وقد ناظر أهل الفرق وخاصمهم وبيّن لهم فساد آرائهم وسوء معتقداتهم الى كثير ممّا هو مذكور في محله .

وكان (عليه السلام) يزود الوافدين بتعاليم قيّمة ، ويدعو الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة . ونرى من الأجدر أن نذكر بعضاً من كلماته ومختارات من مواعظه .

حكمه

- * كفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما يعنى عليه من نفسه .
- * أشد الأعمال ثلاثة : ذكر الله على كلّ حال ، وانصافك من نفسك ، ومواساة الأخ في المال .
- * إذا رأيت القارئ يحبّ الأغنياء فهو صاحب دنيا، وإذا رأيتموه يلزم السلطان فهو لص.

(٣٨٦) النقي كغنى . قال في النهاية الحديث يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء كقرصة النقي يعني الخبز الحواري

(٣٨٧) نور الأبصار ص ٢١٩ .

(٣٨٨) التوحيد للصدوق ص ١٠٨ ح ٥ .

(٣٨٩) الاحتجاج للطبرسي ج ٢ ص ٣٣١ .

- * ما شيب شيء بشيء أحسن من علم بحلم .
- * إن استطعت أن لا تعامل أحداً إلاّ ولك الفضل عليه فافعل .
- * من كان ظاهره أرجح من باطنه خفّ ميزانه .
- * إياك والكسل والضجر فإنهما مفتاح كلّ شرّ، فإنّ من كسل لم يؤدّ حقاً ، ومن ضجر لم يصبر على حقّ.
- * التواضع : الرضا بالمجلس دون شرفه ، وأن تسلّم على من لقيت ، وأن تترك المراء وإن كنت محقاً .
- * إنّ لله عقوبات في القلوب والأبدان : ضنك في المعيشة ، ووهن في العبادة ، وما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب .
- * الحياء والإيمان مقرونان ، فإذا ذهب أحدهما ذهب صاحبه .
- * إنّ هذا اللسان مفتاح كلّ خير وشر ، فينبغي للمؤمن أن يختم على لسانه كما يختم على ذنبه وفضته ، فإن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : رحم الله مؤمناً أمسك لسانه من كلّ شر ، فإنّ ذلك صدقة منه على نفسه .
- * عليكم بالورع والاجتهاد وصدق الحديث وأداء الأمانة الى من ائتمنكم عليها برأ كان أو فاجراً ، فلو أن قاتل علي بن أبي طالب ائتمني على أمانة لأديتها إليه .
- * اعلم أنّ طالب الحاجة لم يكرم وجهه عن مسألتك فأكرم وجهك عن ردّه .
- * الكسل يضرّ بالدين والدنيا .
- * لا يقبل عمل إلا بمعرفة ، ولا معرفة إلا بعمل ، ومن عرف دلتة معرفته على العمل ، ومن لم يعرف فلا عمل له .
- * من صدق لسانه زكا عمله ، ومن حسنت نيته زيد في رزقه ، ومن حسن بره في أهله زيد في عمره .
- * ثلاثة من مكارم الدنيا والآخرة : أن تغفو عمّن ظلمك ، وتصل من قطعك ، وتحلم إذا جهل عليك .
- * سلاح اللئام قبيح الكلام .
- وقد نظمه بعضهم :
- لقد صدق الباقر المرتضى *** سليل الإمام عليه السلام
- بما قال في بعض ألفاظه *** سلاح اللئام قبيح الكلام^(٣٩٠)
- * قم بالحقّ واعتزل ما لا يعينك ، وتجنّب عدوك ، واحذر صديقك ولا تصحب الفاجر ولا تطلعه على سرك ، واستشر في أمرك الذين يخشون الله .

* إنما مثل الحاجة الى من أصابه ماله حديثاً كمثل الدرهم في فم الأفعى أنت إليه محتاج وأنت منها على خطر .

* قولوا للناس أحسن ما تحبون أن يقال لكم ، فإن الله يبغض اللعان السباب الطعان على المؤمنين ، ويحب الحي الحليم العفيف المتعفف .
* إن المؤمن أخو المؤمن لا يشتمه ولا يحزنه ولا يسيء به الظن . (٣٩١)

وصيته لعمر بن عبد العزيز

لما ولي عمر بن عبد العزيز طلب من الإمام الباقر أن يوصيه بما ينفعه في آخرته ودنياه فقال (عليه السلام) : أوصيك أن تتخذ صغير المسلمين ولداً ، وأوسطهم أخاً ، وأكبرهم أباً ، فأرحم ولدك وصل أخاك وبر والدك ، وإذا صنعت معروفاً فربه - أي أدمه - . (٣٩٢)

ودخل عمر بن عبد العزيز المدينة واجتمع بالإمام الباقر (عليه السلام) فأوصاه الإمام بقوله :

إنما الدنيا سوق من الأسواق بيتاع فيها الناس ما ينفعهم وما يضرهم ، وكم قوم ابتاعوا ما ضرهم فلم يصبحوا حتى أتاهم الموت فخرجوا من الدنيا ملومين ، لما لم يأخذوا ما ينفعهم في الآخرة ، فقسّم ما جمعوا لمن لم يحمدهم وصاروا الى من لم يعذرهم ، فنحن والله حقيقون أن ننظر إلى تلك الأعمال التي نتخوف عليهم منها ، فكف عنها واتق في نفسك اثنتين : إلى ما تحب أن يكون معك إذا قدمت على ربك فقدمه بين يديك .

وانظر إلى ما تكره أن يكون معك إذا قدمت على ربك فارمه وراعه ولا ترغب في سلعة بارت على من كان قبلك فترجو أن يجوز عنك .

وافتح الأبواب وسهل الحجاب وانصف المظلوم ورد المظالم .

ثلاثة من كن فيه استكمل الإيمان بالله : من إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل ، ومن إذا غضب لم يخرج غضبه من الحق ، ومن إذا قدر لم يتناول مالم يمس له . (٣٩٣)

وصيته لجابر الجعفي

(٣٩١) تحف العقول ص ٣٠٦ ح ٣٥ .

(٣٩٢) عوالم العلوم للبحراني ج ١٩ ص ٢٦٧ .

(٣٩٣) بحار الأنوار ج ٧٥ ص ١٨١ - ١٨٢ .

من وصيته لجابر بن يزيد الجعفي : فَرَّ فيما قيل فيك ، فإن عرفت من نفسك ما قيل فيك ، فسقوطك من عين الله جل وعزَّ عند غضبك من الحقّ ، أعظم عليك مصيبة مما خفت من سقوطك من أعين الناس ، وإن كنت على خلاف ما قيل فيك ، فتواب اكتسبته من غير أن يتعب بدنك .

واعلم أنّك لا تكون لنا ولياً حتى لو اجتمع عليك أهل مصرك وقالوا : إنّك رجل سوء لم يحزنك ذلك ، ولو قالوا إنّك رجل صالح لم يسرك ذلك ، ولكن اعرض نفسك على كتاب الله ، فإن كنت سالكاً سبيله زاهداً في تزهيده راغباً في ترغيبه ، خائفاً من تخويفه ، فاثبت وابشر ، فإنّه لا يضرّك ما قيل فيك .

وإن كنت مبائناً للقرآن فماذا الذي يغرّك من نفسك؟ إنّ المؤمن معني بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها ، فمرة يقيم أودها ويخالف هواها في محبة الله . الى أن يقول :

وتوق مجازفة الهوى بدلالة العقل ، وقف عند الهوى باسترشاد العلم ، واستيق خالص الأعمال ليوم الجزاء ، واقطع أسباب الطمع ببرد اليأس ، وسد سبيل العجب بمعرفة النفس ، وتحرّز من إبليس بالخوف الصادق ، وإيّاك والرجاء الكاذب ، فإنّه يوقعك في الخوف الصادق ...

واطلب بقاء العزّ بإماتة الطمع ، وادفع ذلّ الطمع بعزّ اليأس ، واستجلب عزّ اليأس ببعد الهمة ، وتزوّد من الدنيا بقصر الأمل ، وبادر بانتهاز البغية عند إمكان الفرصة .

واعلم أنّه لا علم كطلب السلامة ، ولا سلامة كسلامة القلب ، ولا عقل كمخالفة الهوى ، ولا خوف كخوف حاجز ، ولا رجاء كرجاء معين ، ولا فقر كفقر القلب ، ولا غنى كغنى النفس ، ولا قوة كغلبة الهوى ، ولا معرفة كمعرفتك بنفسك ، ولا نعمة كالعافية ، ولا عافية كمساعدة التوفيق ، ولا شرف كبعد الهمة ... الى آخر وصيته وهي طويلة أخذنا منها اليسير^(٣٩٤) .

من تعاليمه

الى كثير من وصاياه وتعاليمه^(٣٩٥) . وقد احتفظ التاريخ بكثير من تراثه الفكري بما فيه الكفاية للعقل اليقظان والبصيرة الواعية ، فقد كان يفيض على سامعيه من الخواطر والحكم ، متوجهاً الى النصيح والإرشاد ، منقطعاً لتوجيه المجتمع ، فكان يغتنم فرصة استعداد سامعيه لتلقي ما يدلي به من النصائح التي تصل لقلب السامع ، فلا يسعه إلا التسليم .

وقد كان يؤدّب أصحابه بآداب الإسلام ، ويحثهم على الطاعة ومكارم الأخلاق ، ويدعوهم الى العمل في اصلاح معائشهم بما يصلح به حالهم ، فكان (عليه السلام) يقول:

(٣٩٤) تحف العقول ص ٦٩ .

(٣٩٥) المذكورة في تاريخ ابن كثير واليعقوبي ، والصواعق لابن حجر ، وكشف الغمة للإربلي والفصول المهمة لابن الصباغ ، وتحف العقول ، ومطالب السؤل ، وتذكرة الخواص وغيرها .

من طلب الدنيا استعفافاً عن الناس، وسعيّاً على أهله، وتعطفاً على جاره ، لقي الله عزّ وجلّ يوم القيامة، ووجهه مثل القمر ليلة البدر .

وكان يقول : نعم العون الدنيا على الآخرة، وكان (عليه السلام) يحثهم على حسن العشرة وملازمة الآداب لئلا يتكدر صفو المودة وتفسد الأخوة . وليس وراء ذلك إلا العناء . فتراهم (عليه السلام) يكثر من قوله :

عظموا أصحابكم ووقروهم ، ولا يتهجم بعضهم على بعض ، ولا تضاروا ولا تحاسدوا، وإياكم والبخل ، كونوا عباد الله المخلصين .^(٣٩٦)

وكان ينهى عن كثرة المزاح بقوله :

كثرة المزاح تذهب بماء الوجه ، وكثرة الضحك تمجّ الإيمان مجاً .

وكان يوصيهم بحسن الجوار وتحمل الأذى من الجار ، ويقول : قرأت في كتاب علي(عليه السلام) أن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) كتب بين المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من يثرب : أن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وحرمة الجار على الجار كحرمة أمه ... الحديث .

ليس حسن الجوار كفّ الأذى وإنما حسن الجوار صبرك على الأذى . وقال(عليه السلام) : من القواصم التي تقصم الظهر ، جار السوء إن رأى حسنة أخفاها وإن رأى سيئة أفضاها.^(٣٩٧)

الى غير ذلك مما لا يمكننا عرضه ولا نستطيع احصاء تعاليمه القيّمة وحثه على محاسن الأخلاق وحسن الآداب ، فقد كان يحبّ الخير ويدعو إليه وهو في عصره المثل الأعلى في مكارم الأخلاق وجميل الصفات .

وهكذا قضى حياته(عليه السلام) متوجهاً لله باذلاً نصحه للأمة متحملاً من ولاة عصره ضروب الأذى والتضييق والأهوال، ولكنه ثبت أمام تيّار ظلمهم غير حافل بما يوجهونه إليه ، مستعيناً بالله متوكلاً عليه ، فاحتمل تلك الملمات في سبيل نصره الحقّ واحراز النصر ، وتمّ له أعظم النجاح على خصومه الذين وجّهوا إليه كلّ أذى ، وحاولوا صرف الناس عنه بكلّ وسيلة ، ولقد جلبه هشام الى الشام مرتين يحاول الفتك به ، ولكنّ الله برعايته رد عنه كيده وصرف عنه أذاه .

الإمام الباقر (عليه السلام) وعبد الملك

(٣٩٦) بحار الأنوار ج ٧١ ص ٢٥٤ ، ح ٥٠ .

(٣٩٧) بحار الأنوار ج ٧٥ ص ٣٧٢ ، ح ١١ .

وكان عبد الملك بن مروان يبتعد عن التعرّض للإمام الباقر (عليه السلام) وأهل بيته وكتب الى عامله في الحجاز : جنبني دماء آل أبي طالب فإنّي رأيت آل حرب لما تهاجموا بها لم ينصروا^(٣٩٨) .

فهو لا يجهل منزلتهم ويعرف مكانتهم ، ولكنّ حرصه على ملكه وطمعه في دنياه يدعو الى نصب العداء لهم ، لأنّهم أوقع منه في نفوس الأمة وإليهم تهوي أفئدة المسلمين . وكان يلجأ إليهم في أكثر الأمور التي تهّمّه ، ولا يجد المخرج منها إلا بهم لعلمه بمكانتهم مع تكتمه وعدم اظهار ذلك^(٣٩٩) .

ولمّا كتب إليه ملك الروم يتوعده فضاق عليه الجواب ، فكتب الى الحجاج وهو إذ ذاك على الحجاز : أن ابعث الى عليّ بن الحسين زين العابدين فتوعده وتهده واغظ له ، ثم انظر ماذا يجيبك ؟ فكتب به إليّ .

ف فعل الحجاج ذلك . فقال له علي بن الحسين (عليه السلام) : إنّ الله في كلّ يوم ثلاثمائة وستين لحظة ، وارجو أن يكفينك في أوّل لحظة من لحظاته . فكتب الحجاج الى عبد الملك بذلك . ولما كتب ملك الروم لعبد الملك بن مروان يتهدّده أن يذكر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الدنانير بما يكرهون ، فعظم ذلك على عبد الملك واستشار الناس فلم يجد عند أحد منهم رأياً^(٤٠٠) .

فقال له روح بن زنباع : إنّك لتعلم المخرج من هذا الأمر ، ولكنك تتعمّد تركه ، فقال : ويحك من ؟ فقال : عليك بالباقر من أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : صدقت ولكنه ارتج الرأي فيه .

فكتب الى عامله بالمدينة : أن أشخص اليّ محمد بن علي بن الحسين مكرماً ، ومثّعه بمائة ألف درهم لجهازه وبثلاثمائة ألف لنفقته ، وأرح عليه في جهازه وجهاز من يخرج معه من أصحابه ، وحبس عبد الملك رسول ملك الروم الى موافاة محمد بن علي الباقر ، فلمّا وافاه أخبره الخبر ، فقال له محمد الباقر : لا يعظم عليك فإنّه ليس بشيء من جهتين : إحداهما أنّ الله عزّ وجلّ لم يكن ليطلق ما تهدّد به صاحب الروم في رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، والثاني وجود الحيلة فيه قال : وماهي ؟ قال : تدعو بصاغة

(٣٩٨) تاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ٤٧ .

(٣٩٩) سنذكر ذلك في الجزء الثامن من الكتاب إن شاء الله .

(٤٠٠) شذور العقود للمقرئ ص ٧ .

فيضربون بين يديك سككاً للدرهم والدنانير وتجعل النقش عليها سورة التوحيد - الى آخر القصة (٤٠١).

وعلى أيّ حال فالإمام أبو جعفر الباقر أعلم أهل زمانه وسيّد الهاشميين وأفضلهم في عصره ، ولم يكن ليحيا حياة العزلة أو ينضمّ في زاوية الخمول ، بل كانت له شهرة ، ولمدرسته أثر في توجيه الفكر، تخرّج منها علماء الأمة الذين هم مفخرة الزمن .

وقد نظر إليه رجال السلطة نظر تهيبّ وتحفظ ، ووقفوا أمام نشر تعاليمه وانتشار ذكره موقف المعارضة ، لأنّ ذلك يهدّد مناصبهم التي أحاطت بها هالة من الجهل ، والتف حولها أعداء الفضيلة وخصوم الحقّ ، وقد تحمّل صلوات الله عليه ضروب الأذى ، وثبت أمام تلك المصاعب مجاهداً لإحياء الدين وتأييد الشريعة وخدمة الإنسانية ، ودعا المسلمين لما فيه صلاح دينهم ودنياهم ليصبحوا أمة ابراراً ، يتعاونون على البرّ والتقوى والعدل والإحسان، حتى قضى صابراً محتسباً ، سنة (١١٤ هـ) مسموماً ودفن بالبقيع مع أبيه زين العابدين (عليه السلام) والحسن السبط (عليه السلام) .

فسلام عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حياً . وقد أوصى لولده الإمام جعفر بن محمد الصادق بما أوصاه به أبوه زين العابدين عند ما حضرته الوفاة بقوله :

يا بنيّ إنّ العقل راند الروح ، والعلم راند العقل ، والعقل ترجمان العلم ، واعلم أنّ العلم أبقي واللسان أكثر هزراً ، الى أن قال له : إنّ الساعات تذهب عمرك وإنّك لا تنال نعمة إلا بفراق أخرى ، فإياك والأمل الطويل فكم من مؤمل أملاً لا يبلغه ، وجامع مال لا يأكله ، ومانع ما سوف يتركه - الى آخر وصيته - ثم قال : أوصيك بما أوصاني به أبي حين حضرته الوفاة :

إياك وظلم من لا يجد عليك ناصراً إلا الله . (٤٠٢)

وكان له من الأولاد خمسة من الذكور : الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) وكان يكتى به ، وعبد الله الأفطح وأمّهما أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر ، وعبد الله وإبراهيم أمّهما أم حكيم بنت أسد الثقفية ، وعليّ وأمّه أم ولد .

وعلى كلّ حال فالإمام أبو عبد الله جعفر الصادق وارث أبيه وخليفته من بعده ، وقد نشأ في ظلّه وتغذى من علومه واستمدّ مواهبه منه ، وقد دبّ ودرج في حجور

(٤٠١) الديميري ج ٢ ص ٥٥ ، والمحاسن والمساوي للبيهقي ، والعقد المنير ص ١٨ وهامش شذور العقود ص ٧ وقد نسب ابن الأثير هذه الفكرة لخالد بن يزيد وهي خطأ .

(٤٠٢) البحار ج ٧٢ ص ٣٠٨ ، ح ١ .

طابت وطهرت ونشأ في ربوع الوحي وترعرع في مهد الرسالة ، وهو من أهل بيت النبوة ومعدن العلم ومهبط الوحي ، وهم كما يقول القائل :

إذا ولد المولود منهم تهللت *** له الأرض واهتزت إليه المنابر
فهم حكام الإسلام وأعلام الأنام .

لو كان يوجد عرف مجد قبلهم *** لوجدته منهم على أميال
إن جنّتهم أبصرت بين بيوتهم *** كرمًا يقيك مواقف التسأل
نور النبوة والمكارم فيهم *** متوقد في الشيب والأطفال^(٤٠٣)
ولهم في كتاب الله غنى عن مدح المادحين ووصف الواصفين :
(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)^(٤٠٤) .

وقد ختم الإمام الباقر (عليه السلام) حياته بالإيصاء بأصحابه ورعايتهم، لأنه يعلم ما سيواجهون من مصاعب وويلات، فقال للقائم بالأمر من بعده، ووصيه جعفر الصادق لما حضرته الوفاة: يا جعفر، أوصيك بأصحابي خيراً^(٤٠٥).

(٤٠٣) زهر الآداب ج ١ ص ٥٨ .

(٤٠٤) الأحزاب : ٣٣ .

(٤٠٥) الكافي للكليني ج ١ ص ٣٠٦ .

الإمام الصادق (عليه السلام)
في عهد المنصور

الإمام الصادق (عليه السلام) في عهد المنصور

تمهيد

انتقل الأمر بعد السفاح إلى أخيه أبي جعفر المنصور سنة (١٣٦ هـ) وكان السفاح ليّن الجانب مع أبناء عمّه، يصلهم ويتظاهر بالعطف عليهم ، ويتحمّس لما نالهم من الأذى وما حلّ بهم من نكبات في العهد الأموي ، ويعلن بأخذ ثأرهم والانتقام من عدوّهم .

وكان العلويون والعباسيون على وئام ولم تنقطع بينهم الصلات ، ولم يحدث بينهم ما يثير الأحقاد ويفرّق الكلمة ، وإن كان العبّاسيون قد استأثروا بالأمر ونقضوا بيعتهم التي عقدها بالأبواء لآل علي (عليهم السلام) .

ولكن المنصور الدوانيقي عندما ولي الحكم ومهدّ له الأمر غدر بأبناء علي(عليه السلام) وتعرّضوا في عهده لخطر شديد ، ونالهم من الأذى ما لم يكن بالحسبان. يقول السيوطي^(٤٠٦) : والمنصور أول من أوقع الفتنة بين العبّاسيين والعلويين، وكانوا شيئاً واحداً .

وإنّ سيرة حياته مليئة بتلك الحوادث المحزنة التي لقيها آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في عهده من قتل وسجن وتشريد كما أشرنا له من قبل .

لقد كان المنصور قويّ النزعة الى انتهاز الفرصة للإيقاع بمن يظنّ به نشاطاً سياسياً أو علمياً ، فهو يتوصل بكلّ وسيلة إلى نيل مقصده ولا يتوقف بأن يسيء إلى من أحسنوا إليه، ويتنكر لمن قدّموا له المعروف وغمروه بفضلهم .

يقول المقدسي^(٤٠٧): كان رجلاً أسمر نحيفاً طويل القامة قبيح الوجه دميم الصورة ذميم الخلق، أشحّ خلق الله وأشدّ حبّاً للدينار والدرهم سقاًكاً للدماء ختاراً بالعهود غداراً بالمواثيق كفوراً بالنعم قليل الرحمة، وكان جال في الأرض وتعرّض للناس وكتب الحديث وحّدث في المساجد وتصرّف في الأعمال الدنية والحرف الشائنة وقاد القود لأهلها، وضربه سليمان بن حبيب بالسياط في الجملة والتفصيل، كان رجلاً دنياً

(٤٠٦) تاريخ الخلفاء ص ١٠٢ .

(٤٠٧) البدء والتاريخ ج ٦ ص ٩٠ - ٩١ .

خسيساً كريهاً شريراً، فلما أفضى الأمر إليه أمر بتغيير الزي وتطويل القلانس، فجعلوا يحتالون لها بالقصب من داخل، فقال أبو دلالة في هجوه: وكنا نرجي من إمام زياد *** فزاد الإمام المصطفى بالقلانس تراها على هام الرجال كأنها *** ديار يهود جللت بالبرانس وعلى أيّ حال فقد تقدّم في الأبحاث السابقة من الجزء الأول بعض أخباره مع الإمام الصادق (عليه السلام) ومحاولته الفتك به مراراً ولكن الله بالغ أمره قد جعل لكلّ شيء قدراً، فقد عصمه الله منه ودفع شره عنه .

محاولة المنصور قتل الإمام (عليه السلام)

وهنا نعود لذكر بعض مآلقيه الإمام الصادق (عليه السلام) في عهد المنصور لنأخذ صورة عن الحياة التي كان يحياها الإمام (عليه السلام) في عهده . وما من شك أنّ المنصور قد حاول عدّة مرات أن يفتك بالإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام)، وأرسل إليه من يحضره عنده عدّة مرات .

وقد عزم على الحج في سنة (١٤٧ هـ) لأجل القبض على الإمام الصادق (عليه السلام)، فلم يتمّ له ذلك^(٤٠٨) .

ولكن هل أنّ المنصور سجن الإمام الصادق (عليه السلام) ثم أطلقه، أم أنّه كان يعزم على ذلك ويحضره أمامه ويترك عمّا عزم عليه ؟ .

وإنّ بعض المؤرخين قد ذكر أنّ المنصور قد حبس الإمام الصادق (عليه السلام)^(٤٠٩)، وبعضهم لم يتعرّض لذلك كما أنّ أكثرهم قد أهمل كثيراً من الحوادث التي جرت في عهد المنصور على أهل البيت (عليهم السلام) ، وبالأخص أخبار الإمام الصادق (عليه السلام) .

ونحن بعد ذكرنا لبعض أخبار الإمام (عليه السلام) مع المنصور نستطيع أن نقف على كثير من الحقائق :

حدّث الربيع حاجب المنصور قال : لما استقرّت الخلافة لأبي جعفر المنصور قال لي : يا ربيع، ابعث إلى جعفر بن محمد .

(٤٠٨) النجوم الزاهرة لجمال الدين الأتباكي ج ٢ ص ٦ .

(٤٠٩) سبط النجوم الغوالي للعصامي المكي ج ٣ ص ٢٣٩ .

قال الربيع : فذهبت إليه وقلت : يا أبا عبد الله، أجب أمير المؤمنين، فقام معي ، فلما دنونا من الباب قام الإمام الصادق فحرك شفتيه ثم دخل فسلم، فلم يرد المنصور السلام ، ثم رفع رأسه إليه فقال :

يا جعفر أنت الذي أثبت عليّ ؟

فاعتذر إليه الإمام حتى سكن غضبه ، فقال : اجلس أبا عبد الله ، ثم دعا بمدھن غالية، فجعل يطيبه بيده والغالية تقطر من بين أنامل المنصور ، ثم قال : انصرف أبا عبد الله ، وقال : يا ربيع اتبع أبا عبد الله جائزته وضاعفها .

قال الربيع : فخرجت فقلت : يا أبا عبد الله شهدت ما لم تشهد وسمعت ما لم تسمع ، وقد دخلت ورأيتك تحرك شفتيك عند دخولك إليه ، شيء تؤثره عن آبائك الصالحين ؟

فقال الصادق : حدثني أبي عن أبيه عن جدّه أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) كان إذا حزنه أمر دعا بهذا الدعاء ، وكان يقول : هو دعاء الفرج :

اللهم احرسني بعينك التي لا تنام ، واكفني بركنك الذي لا يرام ، واحفظني بعزك الذي لا يضام ، واكلائي في الليل والنهار ، وارحمني بقدرتك عليّ ، أنت ثقتي ورجائي ، فكم من نعمة أنعمت بها عليّ قلّ لك بها شكري ، وكم من بلية ابتليتني بها قلّ بها لك صبري ، وكم خطيئة ركبته فلم تفضحني ، فيا من قلّ عند نعمته شكري فلم يحرمني ، ويا من قلّ عند بلائه صبري فلم يخذلني ، ويا من رأي علي الخطايا فلم يعاقبني، يا ذا المعروف الذي لا ينقضي أبداً، ويا ذا الأيادي التي لا تحصى عدداً، ويا ذا الوجه الذي لا يبلى أبداً ، ويا ذا النور الذي لا يطفأ سرمداً ! أسألك أن تصلي علي محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت وترحمت علي إبراهيم ، وأن تكفيني شرّ كلّ ذي شر ، بك أدرا في نحره وأعوذ بك من شرّه ، وأستعينك عليه . اللهم أعني على ديني بدنياي ، وعلى آخرتي بالتقوى ، واحفظني فيما غبت عنه ، ولا تكلني إلى نفسي فيما حضرته . يا من لا تضرّه الذنوب ولا تنقصه المغفرة اغفر لي ما لا يضرّك ، وهب لي ما لا ينقصك . يا الهي أسألك فرجاً قريباً وأسألك العافية من كلّ بلية ، وأسألك الشكر على العافية ، وأسألك دوام العافية، وأسألك الغنى عن الناس ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . اللهم بك أستدفع مكروه ما أنا فيه ، وأعوذ بك من شرّه يا أرحم الراحمين^(٤١٠) .

وبهذا فقد رد الله كيد المنصور ودفع عن الإمام شرّه لأتّه(عليه السلام) عليه من الله جنة واقية .

كما حدّث الربيع مرّة أخرى بأنّ المنصور أرسله لاستقدام جعفر الصادق(عليه السلام) لشيء بلغه عنه، فلمّا وافى قال الحاجب :

أعيزك بالله من سطوة هذا الجبار فإنّي رأيت ضرره عليك شديداً .

فقال الإمام الصادق (عليه السلام) : عليّ من الله جنة واقية تعينني إن شاء الله . استأذن لي عليه، فلما دخل الإمام(عليه السلام) دار بينهما حديث طويل وكان الإمام يجيب عمّا يوجه إليه المنصور من تهم حتى هدأ غيظه وتصاغر أمام قوّة الإيمان وسلطان الحقّ ، وقال المنصور : صفحت عنك لعذرك وتجاوزت عنك لصدقك فحدثني بحديث أنتفع به ويكون لي زاجراً عن الموبقات .

فقال الصادق (عليه السلام) : عليك بالحلم فإنه ركن العلم ، واملِك نفسك عند أسباب القدرة فإنك إن تفعل ما تقدّر عليه كنت كمن شفي غيظاً وتداوى حقداً ، ويحب أن يذكر بالصولة ، واعلم بأنك إن عاقبت مستحقاً لم تكن غاية ما توصف به إلا العدل ، والحال التي توجب الشكر أفضل من الحال التي توجب الصبر ، فقال المنصور : وعظت فأحسننت وقلت فأوجزت.

وكان المنصور كلّما دخل المدينة فلا يهتمّ أمر إلا الوقعة بأبي عبد الله ويسلك إلى ذلك مختلف الطرق وشتّى الوسائل ، ولكنّ الإمام (عليه السلام) كان بقوّة إيمانه والتجائه إلى ما وعد الله المؤمنين من الدفاع عنهم ، فهو لا يهتمّ ولا يخشى بطشه . وأرسل إليه مرة أخرى وهو بالمدينة - كما حدّث الربيع - وقال: انطلق في وقتك هذا على أخفض جناح وألين مسير فإن استطعت أن تكون وحدك فافعل، حتى تأتي أبا عبد الله جعفر بن محمد (عليه السلام) وقل له : هذا ابن عمّك يقرئك السلام ويسألك المصير إليه في وقتك هذا ، فإن سمح بالمسير معك ، وإن امتنع بعذر أو غيره فاردد الأمر إليه في ذلك .

قال الربيع : فصرت إلى بابه فوجدته في دار خلوته معفراً خديه ، مبتهلاً بظهر يديه ، قد أثر التراب في وجهه وخديه ، فأكبرت أن أقول له شيئاً حتى فرغ من صلاته ودعائه ، ثم انصرف بوجهه .

فقلت : السلام عليك يا أبا عبد الله، فقال : وعليك السلام ما جاء بك ؟ فأخبرته الخبر . فقال : يا ربيع (ألم يأنّ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحقّ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم...) (٤١١) .

ويحك يا ربيع (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون* أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحىً وهم يلعبون* أفأمنوا مكر الله فلايمان مكر الله إلا لقوم الخاسرون) (٤١٢) ثم قال :

(٤١١) الحديد : ١٦ .

(٤١٢) الاعراف : ٩٧ - ٩٩ .

وعليه السلام ، ثم اقبل على صلاته ، ثم صرف إليّ وجهه، فقلت هل بعد السلام شيء ؟ فقال : قل له : (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى * أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى) (٤١٣) .

ثم قال له : بلغه إنا قد خفناك وخافت لخوفنا النسوة ، فإن كفت وإلا أجرينا اسمك في كلّ يوم خمس مرات ، إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : أربع دعوات لا يحجب عن الله : دعاء الوالد لولده ، والأخ بظهر الغيب لأخيه ، والمظلوم ، والمخلص .

وأرسل إليه محمد بن الربيع ، وأمره أن يأتيه به على الحالة التي هو عليها، وقال : امض الى جعفر بن محمد فتسلّق على حائطه ولا تفتح عليه باباً فيغير بعض ما هو عليه ، ولكن أنزل عليه نزولا فامتثل ما أمره .

قال محمد بن الربيع : فوجدته قائماً يصلي ، فلما سلم من صلاته ، قلت : أجب أمير المؤمنين .

فقال (عليه السلام) : دعني ألبس ثيابي . فقلت : ليس إلى تركك من سبيل ، إلى أن جاء به على حالته وأدخل على المنصور ، فلما نظر إليه قال : يا جعفر ما تدع حسدك وبغيتك على أهل هذا البيت من بني العباس ، وما يزيدك ذلك إلا شدة الحسد وما تبلغ به ما تقدره؟

فقال (عليه السلام) : والله ما فعلت شيئاً من هذا ، ولقد كنت في ولاية بني أمية وأنت تعلم أنّهم أعدى الخلق لنا ولكم ، وأنهم لا حقّ لهم في هذا الأمر ، فوالله ما بغيت عليهم ولا بلغهم عني سوء مع جفاهم الذي كان بي ، وكيف أصنع هذا ؟ وأنت ابن عمّي وأمسّ الخلق بي رحماً . فأطرق المنصور ساعة ثم رفع وسادة إلى جنبه ، فأخرج إضبارة كتب فرمى بها إليه وقال : هذه كتبك إلى خراسان تدعوهم إلى نقض بيعتي وأن يبايعوك دوني.

فقال (عليه السلام) : والله ما فعلت وقد بلغت من السن ما قد أضعفني عن ذلك لو أردته ، فصيرني إلى بعض حبوسك حتى يأتيني الموت فهو مني قريب .

فقال : لا ولا كرامة ، ثم أطرق وضرب يده إلى السيف فسلّ منه مقدار شبر ثم ردّ السيف وقال : يا جعفر أما تستحي مع هذه الشيبة ومع هذا السن أن تنطق بالباطل ، وتشقّ عصا المسلمين ؟ تريد أن تريق الدماء وتطرح الفتنة بين الرعيّة والأولياء ؟ .

فقال (عليه السلام) : لا والله ما فعلت ولا هذه كتبتي ولا خطي ولا خاتمي ، ثم أقبل على جعفر يعاتبه وجعفر يعتذر إليه ، ثم رفع رأسه وقال : أظنك صادقاً^(٤١٤) .

وعن عبد الله بن أبي ليلى قال : كنت بالربذة مع المنصور وكان قد وجّه إلى أبي عبد الله ، فأتني به ، فلما جيء به صاح المنصور : عجلوا به قتلني الله إن لم أقتله . فأدخل عليه مع عدّة جلاوزة ، فلما انتهى إلى الباب ، رأيته قد تحرّكت شفتاه ودخل ، فلما نظر إليه المنصور ، قال : مرحباً يا ابن عم ، مرحباً يا ابن رسول الله ، فما زال يرفعه حتى أجلسه على وسادته ، ثم خرج فسأله ابن أبي ليلى عما قاله عند دخوله على المنصور ، فأجابه الإمام : نعم إنني قلت :

ما شاء الله ما شاء الله لا يأتي بالخير إلا الله ، لا يصرف السوء إلا الله ما شاء الله ما شاء الله كلّ نعمة فمن الله ، ما شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله .^(٤١٥)

وعن صفوان بن مهران الجمال قال : رفع رجل من قریش المدينة من بني مخزوم إلى أبي جعفر المنصور أنّ جعفر بن محمد بعث مولاه المعلّى بن خنيس بجباية الأموال من شيعته ، وأنّه كان يمدّ بها محمد بن عبد الله ، فكاد المنصور أن يأكل كفه على جعفر غيظاً ، وكتب إلى أمير المدينة أن يسير إليه جعفر بن محمد ، ولا يرخص له في التلوم والمقام . فلما بلغه قال لي : تعهد راحلتنا فإنّا غادون في غد إن شاء الله إلى العراق ، فلما أصبح أبو عبد الله رحلت له الناقة ، وسار متوجّهاً إلى العراق حتى قدم مدينة أبي جعفر ، فاستأذن وأذن له ، فلما رآه قرّبه وأدناه ، ثم أسند قصة الرافع على أبي عبد الله فقال الصادق (عليه السلام) : معاذ الله ، قال المنصور : تحلف على براءتك ، إلى أن قال المنصور : إني أجمع الساعة بينك وبين الرجل الذي رفع عنك حتى يواجهك ، فجيء به واعترف أمام جعفر بصحة ما رفعه عنه . فقال أبو عبد الله : تحلف أيّها الرجل ؟ قال : نعم ثم ابتدأ الرجل باليمين ، فقال الصادق : لا تعجل في يمينك . ثم حلفه بما أراد وانتقم الله من الساعي عاجلاً .^(٤١٦)

وعن محمد بن عبد الله الاسكندري قال : كنت من ندماء المنصور وخاصته فدخلت عليه فوجدته مغتماً ، فقلت : ما هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال لي : يا محمد لقد قتلت من أولاد فاطمة مقدار مائة وبقي سيدهم وإمامهم ، فقلت له من ؟ قال : جعفر الصادق ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، إنّه رجل أنحلته العبادة واشتغل بالله عن طلب

(٤١٤) البحار ج ٤٧ ص ١٩٥ - ١٩٧ .

(٤١٥) كشف الغمة ج ٢ ص ٤١٢ .

(٤١٦) البحار ج ٤٧ ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

الملك والخلافة ، فقال : يا محمد ، وقد علمت أنك تقول به وبإمامته ، ولكنّ الملك عقيم ، وقد آليت على نفسي أن لا أمسي عشيتي هذه أو أفرغ منه .

قال محمد : ثم دعا سيفاً وقال له : إذا أنا أحضرت أبا عبد الله وشغلته بالحديث ووضعت قلنسوتي من رأسي ، فهي العلامة بيني وبينك فاضرب عنقه ، ثم أحضر أبا عبد الله فرأيت المنصور يمشي بين يديه واستقبله وأجلسه على سريره . ثم قال : سل حاجتك يا ابن رسول الله ، قال : أسألك أن لا تدعوني ... (٤١٧) .

ونحن نستظهر من هذه الحوادث عدّة أمور :

١ - إنّ حق المنصور على الإمام ومحاولته الفتك به لم يكن لباعث عداً متأصل فهو قد اتصل به أيام المحنة وسمع الحديث وكان من المؤازرين له، إذ المنصور كان من أكبر الدعاة للعلويين ، وقد بايع محمد ذي النفس الزكية، وكان يدعو الناس للثورة على الأمويين باسم العلويين .

ولكن المنصور عندما ولي الحكم وتحول إليه الأمر تنكّر لأبناء عمّه فكان حرصه على ملكه يدعوّه لأن يقضي على أعظم شخصية منهم تتجه إليها أنظار العالم الإسلامي ، فقد كان موقف الإمام في عصر انتشار العلم وشهرته التي ملأت الآفاق تقضّ مضجع المنصور وتنكد عليه عيشه ، فوجود الإمام الصادق كان من أخطر المشاكل التي تواجهها دولة العباسيين ، لأنهم جلبوا قلوب الناس بالغضب على أميّة ، لسوء السيرة التي ارتكبوها مع أبناء عليّ ، فنالوا بذلك السلطان الذي ساعدهم الحظّ على الحصول عليه ، فتظاهروا بالدين مع أنّ أعمالهم لا يمكن التوفيق بينها وبين نظم الإسلام الواقعية .

والإمام الصادق (عليه السلام) لعظيم منزلته كانت تتجه إليه الأنظار ، فبمجرد إنكاره على الدولة يشتدّ جانب المنكرين من العلويين وغيرهم ، فيتسع ميدان المؤاخذات . والدولة في دورها الجديد لا يمكنها أن تقف تجاه حزب العلويين وغيرهم ، لذلك نرى المنصور وقف بين السلب والإيجاب في قضية الإمام الصادق (عليه السلام) ، فهو يعزم على قتله مجازفاً في ذلك، ولكن دهاءه وحذره من سوء العاقبة يدعو إلى التريث ، فكان يتظاهر بالعطف ، حتى حان الزمن وحصلت الفرصة .

٢ - اتضح لنا من حديث إضبارة الكتب المزورة أنّ ذلك العمل يدلّ على وجود قوة متكاتفه من الدخلاء في الإسلام على السعي بكلّ جهد لتفريق الأمة، وإيقاد نار الفتنة

بتزوير الكتب على الإمام الصادق (عليه السلام) وانتحال الأقوال التي يسلب لبّ المنصور سماعها ، ويخرج عن حدود اتزانها فيخاطب الإمام بتلك اللهجة القاسية التي لا تصدر إلا عن جاهل لا يعرف ما يقول .

وإن كنت لا أستبعد التزوير من المنصور نفسه ، أو من رجال بلاطه وعلى أي حال ، فإنّ الدخلاء في صفوف المسلمين يجهدون في إيقاد نار الفتنة لحصول ثورة دموية ، فيقفون موقف المتفرّج وأينما أصابت فتح ، فإنهم يأملون بقتل الإمام الصادق (عليه السلام) حصول اضطراب وحوادث تؤدي إلى ضعف الدولة الفتية وانحلالها ، لأنهم يعلمون ما لأهل البيت في قلوب المسلمين من الولاء ، وأنّ الإمام الصادق هو الذي تجب طاعته ، وتحرم مخالفته ، وهم الذين يسمّيهم المنصور بالأوغاد . وفي الحقيقة هم علماء دار الهجرة ، وفيهم خيرة الشباب النابه ، وكذلك في سائر الأمصار .

والمحصل أنّ مسألة تزوير الكتب لا تخلو من اثنين : إمّا هؤلاء القوم الذين يريدون ضعف الأمة الإسلامية ، وإمّا المنصور ورجالاته أرادوا أن يكون لهم طريقاً لقتل الإمام وعذراً به يعتذرون للمنكرين عليهم ، ولكنّ الله ردّ مكر الجميع ، وخيب سعيهم ، وكان عليه من الله جنة واقية .

٣ - يظهر من رواية صفوان الجمال المتقدّمة أنّ الإمام الصادق (عليه السلام) دخل بغداد ، وأفاد الناس بها من علمه « وإنّ بالجانب الغربي من بغداد على ضفة الفرات شمال جسره الغربي اليوم المعروف بالجسر القديم مكان يعرفه الناس بمدرسة الصادق ، وليس فيه اليوم أثر بيّن ، ولعله أفاد الناس فيه عند مجيئه إلى بغداد على عهد المنصور »^(٤١٨) .

والغريب أن الخطيب البغدادي^(٤١٩) لم يذكره ، ولكن لا يستغرب ذلك ممن نشأ في عصر احتدام التعصّب الطائفي ، ولا تجهل نفسيّة الخطيب .

٤ - إن المنصور مهما بلغت به الحالة من الشذوذ والانحراف عن الإمام الصادق ، ومهما بلغ من عدائه وبغضه لا يجهل منزلة الإمام ، ويعرف له قدره . ولقد حاول أن

(٤١٨) حياة الإمام الصادق لشيخنا المظفر ج ١ ص ١٤٦ .

(٤١٩) هو أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي البغدادي ، أبو بكر الخطيب المتوفى سنة (٤٦٣ هـ) تفقه على مذهب الشافعي ، ورحل إلى نيسابور في سنة (٤١٥ هـ) ، لاضطراب الأحوال ببغداد ، وحدث التعصّب بين المذاهب ، وقد آذاه الحنابلة واستتر في فتنة البساسيري وخرج إلى الشام ، لأنه كان على مذهب أحمد ابن حنبل ، قال ابن الجوزي : فمال عنه أصحابنا لما رأوا من ميله إلى المبتدعة وآذوه ، فانتقل إلى مذهب الشافعي وتعصّب في تصانيفه . كما أن الحنفية حملوا عليه وفسقوه .

يستميله ويجلب وده ، ولكن الإمام ابتعد عنه ، وأعلن سخطه عليه وعلى ولاته ، كما اتضح من سيرته ، فكان اهتمام المنصور بأمره أعظم من كل أحد ، لأن الملك عقيم ، ولا يقف أمام تركيز دعائمه شيء ، فقد أسرف المنصور في سفك الدماء في سبيل ذلك ، حتى قتل أقرب الناس إليه وأمسهم رحماً به ، لقد قتل عمه عبد الله بن علي .

يحدثنا المسعودي : أن المنصور سلم عبد الله بن علي إلى أبي الأزهر المهلب بن أبي عيسى ، فلم يزل عنده محبوساً ، ثم أمره بقتله ، فدخل عليه ومعه جارية له ، فبدأ بعبد الله ، فخنقه حتى مات ، ثم مده على الفراش ، ثم أخذ الجارية ليخنقها ، فقالت : يا عبد الله قتلة غير هذه ، فكان أبو الأزهر يقول : ما رحمت أحداً قتلته غيرها ، فصرفت وجهي عنها ، وأمرت بها فخنقت ، ووضعتها معه على الفراش (٤٢٠) .

كما يتضح لنا أن المنصور كان يخشى دعوة الإمام الصادق (عليه السلام) ، وكان يتهيبه في نفسه ، فهو يشعر بالتصاغر أمام هيبة الإمام ، مهما بلغت هيبة المنصور المصطنعة ، ومهما كانت عظمتة في ملكه .

وقد كان الإمام الصادق (عليه السلام) مجاب الدعوة وعرف الناس عنه ذلك ، فهو يلجأ إلى الله تعالى في كل ما يهيمه ، ويفزع إليه في شدائده ، إذ الدعاء سلاح المؤمن ومخ العبادة .

وقد شاهد المنصور كثيراً من ذلك ، كدعاء الإمام الصادق (عليه السلام) على حكيم ابن عياش الكلبي شاعر الأمويين مفتخراً بقتل زيد بن علي بقوله :

صلبنا لكم زيدا على جذع نخلة *** ولم نر مهدياً على الجذع يصلبُ

وقستم بعثمان علياً سفاهة *** وعثمان أركى من علي وأطيب

قال ابن حجر : فجاء رجل إلى جعفر الصادق فقال : هذا ابن عياش ينشد للناس هجاءكم بالكوفة . فقال : هل علقت بشيء منه ؟ فقال : نعم ، فأنشده الأبيات ، فرفع جعفر يديه ، فقال : اللهم إن كان كاذباً ، فسلط عليه كلبك ، فخرج حكيم ، فافترسه الأسد (٤٢١) .

وقصة رجل السوء الذي سعى بالإمام عند المنصور ، فلما حجَّ المنصور أحضر الساعي وأحضر الإمام وقال للساعي: أتحلف؟ قال: نعم، فحلف. فقال الإمام الصادق

(٤٢٠) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٣٠ .

(٤٢١) الإصابة ج ١ ص ٣٩٥ .

للمنصور: حلفه بما أراه، فقال: حلفه، فقال الإمام قل: برئت من حول الله وقوته والتجأت الى حولي وقوتي، لقد فعل جعفر كذا وكذا. فامتنع الرجل ثم حلف، فما تمّ حتى مات (٤٢٢).

الإمام الصادق وولاية المنصور

وكانت له مواقف مع ولاية المنصور الذين كانوا يتحدون مقامه ، ويحاولون إيقاع الأذى تبعاً لرئيسهم ، وامتنالا لأمره ، منها :

إنّ أحد ولاية المدينة خطب يوم الجمعة ، وكان الإمام حاضراً، فحمد الله، ثم ذكر علياً وتعرض له ، فقام أبو عبد الله الصادق بذاك الحفل وقال له :

ونحن نحمد الله ونصلي على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين . أما ما قلت من خير ، فنحن أهله ، وما قلت من سوء ، فأنت وصاحبك به أولى ، فاختر يا من ركب غير راحلته ، وأكل غير زاده ! إرجع مأزوراً .

ثم أقبل على الناس ، فقال : ألا أنبئكم بأخلى الناس ميزاناً يوم القيامة وأبينهم خسراً، من باع آخرته بدنياه غيره ، وهو هذا الفاسق؟ فسكت الوالي ، ولم ينطق بحرف ، وخرج من المسجد . (٤٢٣)

ومثل هذا لا يتحمّله المنصور ، لأنّه لا يخفى عليه ، فإنّ الرصد والعيون يوصلون إليه كلّ ما يصدر من الإمام الصادق ، فهو يتقد بنار غيظه ، ويتحيّن الفرص لإطفائها عندما يظفر به .

ولما كان داود بن علي والياً على المدينة ، بالغ في إيذاء العلويين ، وتتبع أنصارهم . وفي أيامه قتل المعلّى بن خنيس ، قتله السيرافي صاحب شرطة داود . وكان المعلّى (رحمه الله) من موالى جعفر بن محمد وأتباعه ، وصودرت أمواله ، وتحمل ما تحمل في سبيل نصرة أهل البيت (عليهم السلام) . وقد ذكروا في سبب قتله أقوالاً، منها: أنّ المعلّى طلب منه داود أن يدلّه على المخلصين من شيعة أهل البيت ، فامتنع ، وهدّده بالقتل ، وأصرّ على امتناعه وتفانيه وإخلاصه لأهل البيت (عليهم السلام) ، فأمر داود بقتله .

ومنهم من يرى أنّ قتله كان بسبب القيام بالدعوة لمحمد بن عبد الله ذي النفس الزكية، وكان لهذا الحادث الأثر العظيم في نفس الإمام الصادق « وقد رأى في هذا الاعتداء اعتداءً على حقّه ، وحرباً معلنة عليه ، يدلّ على ذلك عنف الاحتجاج الذي

(٤٢٢) الكواكب الدرية ج ١ ص ٩٤ .

(٤٢٣) البحار ج ٤٧ ص ١٦٥ .

احتجّ به على الأمير ، والتهديد الذي هدّده به ، فقد أجمعت روايات الباحثين في سيرته على أنّه مشى إلى ديوان الأمير ، وهو محنق على خلاف عادته ، وألقى خطاباً موجزاً قال فيه :

«قتلت مولاي ، وأخذت مالي ، أما علمت أنّ الرجل ينام على الثكل ولا ينام على الحرب ؟ وقد جرى إثر الخطاب أخذ ورد بين الإمام والأمير لا يخلوان من العنف ، ولكنّ الأمير حاول التّصلّ وإحالة التّقصير على صاحب شرطته . فكانت الحجة واهية . ولم يكن للأمير مهرب من القود ، فأمر بقتل السيرافي ، ولمّا أخذ ليقّتل ، صرّح القاتل قائلاً : يأمرُونني بقتل الناس فأقتلهم لهم . فيأمرُون بقتلي . وهي كلمة تدلّ على أنّ القاتل كان مأموراً بإزهاق روح المعلى بن خنيس وأنّه امتثل أمر الأمير داود بذلك» (٤٢٤) .

وكما قلنا : إن الإمام الصادق كان يلجأ إلى الله في مهماته ، فقد أهتمّه قتل المعلى ودعا على داود حتى سمعوه يقول : الساعة الساعة ، فما استتمّ دعاؤه حتى سمعت الصيحة في دار داود .

وأنّه قال في دعائه : اللهم إني أسألك بنورك الذي لا يطفى ، وبِعِزائمك التي لا تخفى ، وبِعِزك الذي لا ينقضي ، وبِنعمتك التي لا تحصى ، وبِسلطانك الذي كفت به فرعون عن موسى (٤٢٥) . وهكذا بقي أبو عبد الله يتحمل ضروب الأذى وأنواع المحن وكان الخطر محدقاً به ، ويدلّ على ذلك حديثه المشهور وكلمته الخالدة : « عزت السلامة حتى لقد خفي مطلبها» (٤٢٦) .

وكان سفيان الثوري يكثر الدخول عليه قبل أن يشتدّ الأمر على الإمام ، ولمّا دخل عليه في تلك الأيام يطلب منه أن يحدثه قال : يا سفيان أنت رجل يطلبك السلطان وأنا رجل أتقي السلطان قم فاخرج غير مطرود . (٤٢٧)

وخلاصة القول أنّ الإمام الصادق (عليه السلام) لقي في أيام المنصور محناً وواجه صعوبات لم يلق بعضاً منها في العهد الأموي . كما أنّ المنصور اقتضت سياسته عند اشتداد ملكه أن يقضي على الإمام الصادق ، واتخذ سبباً الوسائل في ذلك . فمرة يحضره للفتك به كما تقدم، وكانت سلامته في تلك المواقف اعجوبة ، لأنّ المنصور

(٤٢٤) بحوث في فقه الرجال للمكي العاملي ص ١٨٩ ، نقلًا عن «اختيار معرفة الرجال ص ٣٧٩ ، حديث ٧١٠ ، مؤرخ العراق لابن الفوطي لفضيلة العلامة الشيباني.

(٤٢٥) الكافي ج ٢ ص ٥٥٧ .

(٤٢٦) البحار ج ٧٥ ص ٢٠٢ ، ح ٣٥٣ .

(٤٢٧) الكافي ج ٢ ص ٥٦١ .

لا يتوقف عن إراقة الدماء ، وليس له وازع يحجزه عن ارتكاب المحارم ، ولكن عناية الله وعينه التي كانت ترعى الإمام دفعت عنه كيده .

يحدثنا علي بن ميسرة ، قال : لما قدم أبو عبد الله على أبي جعفر أقام أبو جعفر مولى له على رأسه ، وقال له : إذا دخل جعفر بن محمد فاضرب عنقه ، فلما دخل أبو عبد الله نظر إلى أبي جعفر وأسرّ شيئاً في نفسه ثم أظهره : «يا من يكفي خلقه كلهم ولا يكفيه أحد ، اكفني شر عبد الله بن علي ...» فسلمه الله من شرّه واستجاب دعاءه^(٤٢٨) .

وكان يعرف كيد المنصور ووسائله التي اتخذها ضده ، فمرة يرسل أموالاً إلى العلويين على يد رجال من أعوانه يتظاهرون بأنهم غرباء من أهل خراسان فإذا دفعوا المال إلى أحد من العلويين يأخذون منه كتاباً بوصول المال .

وجاء أحد هؤلاء الرجال إلى الإمام الصادق ، وقد أرسل معه المنصور مالا جزيلا ليدفعه إليه وإلى عبد الله بن الحسن ، فجاء الرجل إلى المسجد وكان الصادق يصلي فيه فجلس خلفه ينتظره ، فالتفت الإمام إليه وقال : يا هذا اتق الله ، وقل لصاحبك - يعني المنصور - اتق الله ولا تغرن أهل بيت محمد ، فإنهم قريبو العهد بدولة بني مروان ، وكلهم محتاج ...^(٤٢٩) .

وكذلك كان المنصور يكتب رسائل مزورة على لسان بعض شيعة أهل البيت ويرسلها بيد أعوانه ، ويحاول أن ينال غرضه عندما يحصل على جواب من الإمام لتلك الكتب والرسائل ، ولكنه لم يظفر بشيء من ذلك للخطة التي اتخذها الإمام ، ولنظرة الصائب ورأيه السديد .

وكثر السعيات به إلى المنصور ، واجتهد الوشاة بكلّ حيلة أن ينالوا قصدهم وغرضهم بذلك التقرب إلى المنصور بما يرفعونه إليه من أخبار الإمام التي تدور حول اتصاله بأنصاره وأوليائه في الحجاز والعراق وخراسان ، وأنهم كانوا يحملون زكاة أموالهم إليه ، وقد زوروا على لسانه كتباً إلى هؤلاء الأنصار يدعوهم فيها إلى خلع بني العباس .

وعلى أيّ حال فإنّ المنصور كان يهتم بأمر العلويين عامة ، وبجعفر بن محمد خاصة ، لأنّ شبح الثورة يلوح على الدوام في مخيلته ، فهو يقضّ ولا يقرّ له حال ، ويبذل كلّ ما في وسعه لتحصيل غايته .

(٤٢٨) الكافي ج ٢ ص ٥٦١ .

(٤٢٩) مناقب ابن شهر آشوب ج ٢ ص ٣٠٢ .

سياسة المنصور تجاه العلويين

اقتضت سياسة المنصور أن يعامل العلويين معاملة قاسية ، لم يشهد التاريخ مثلاً ، لأنه يعلم ويعلم كلّ أحد أنّ الأمة ترى أهليّة أهل البيت للخلافة ، وهم أولى بالأمر من غيرهم ، لقربهم من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نسباً ، ولما اتصفوا به من المؤهلات لذلك من وفور العلم والتمسك بالدين ، وقد برهنوا على عدلهم في الحكم .

وقد كان العباسيون والعلويون من قبل يجمعهم السخط على أعمال الأمويين كما ملأ سمع الدنيا انتصار العباسيين لأبناء عمّهم ، فقد أظهروا للناس التودد لأهل البيت (عليه السلام) ، وكانوا يتفجعون لما نالهم من الأمويين ، ويمسحون دموعهم المصطنعة بتلك الأيدي التي خضبوها من دمائهم فيما بعد ، وكانوا يظهرون للناس إنكارهم الشديد على الأمويين لأعمالهم السيئة ، وما قابلوا به أهل البيت (عليهم السلام) بقلوب لا عهد لها بالرحمة ، كما أوضحوا ذلك في كثير من مواقفهم وأقوالهم ، وقد قطعوا على أنفسهم عهداً في نصرة آل محمد . ولما تمّ الأمر ونالوا غايتهم ونجحت خططهم التي دبّروها في استغلال تلك الفرصة ، وتمّ لهم ما أرادوا نراهم يذيقون العلويين أنواع الأذى وضروب المحن ، وعاملوهم أعظم ممّا كان الأمويون يعاملونهم به .

فقد كان المنصور يطارد العلويين ويضيّق عليهم الدنيا ، ويذيقهم أنواع العذاب ، ولنا بما فعله مع أسرائهم منهم كفاية على عظيم ما كان يتحمّله من الغيظ والحقد .

فقد جمع منهم جماعة في الربذة وأنقلهم بالحديد ، وضربهم بالسياط ، حتى اختلطت بدمائهم ولحومهم ، ثم حملهم إلى العراق على أخشن مركب وتوجه بهم إلى الكوفة ، فكانت خاتمة مطافهم ذلك السجن الضيق الذي لا يعرفون فيه الليل من النهار ، وسلط عليهم شرطة ابتعدوا على الرقة كابتناعه عن الإنسانية فقد عذبوهم بأمره .

كما أنّه أمر أن تترك أجساد الموتى منهم في السجن . فاشتدت رائحة الجثث على الأحياء ، فكان الواحد منهم يخرّ ميتاً إلى جنب أخيه .

ولما قتل إبراهيم بن عبد الله أرسل برأسه إلى أبيه مع الربيع وهو في السجن ، وكان أبوه عبد الله يصلي فقال له أخوه إدريس ، أسرع في صلاتك يا أبا محمد فالتفت إليه وأخذ رأس ولده ، وقال : أهلاً وسهلاً يا أبا القاسم ، والله لقد كنت من الذين قال الله عز وجل فيه : (الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ لَا يَنْفِضُونَ الْمِيثَاقَ* وَالَّذِينَ يَصِلُونَ

مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ^(٤٣٠) . فقال له الربيع : كيف أبو القاسم في نفسه ؟ . قال : كما قال الشاعر :

فتى كان يحميه من الدل سيفه *** ويكفيه أن يأتي الذنوب اجتنابها
ثم التفت إلى الربيع فقال : قل لصاحبك قد مضى من يومنا أيام والملتقى القيامة .
فمكثوا في ذلك السجن ، لا يعرفون أوقات صلاتهم إلا بأجزاء من القرآن ، حتى
كانت نهاية أمرهم أن أمر المنصور بهدم السجن على الأحياء منهم^(٤٣١) ليذوقوا
الموت من بين ألم القيود وثقل السقوف والجدران ، وكان منهم من سمر يديه في
الحائط .

وهكذا اقتضت سياسة المنصور أن يعامل العلويين بهذه المعاملة القاسية ، وقد أمر
ببعضهم فوضع بالبناء حيًّا .

ولما خشي المنصور عاقبة فعله مع أبناء الحسن خشي الإنكار عليه ، فقام خطيباً
بالحاشمية فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

يا أهل خراسان، أنتم شيعتنا وأنصارنا ، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا خيراً منا، وإنّ
ولد ابن ابي طالب تركناهم والذي لا إله إلا هو فلم نعرض لهم لا بقليل ولا بكثير إلى
أن يقول : ثم وثب بنو أمية علينا فأماتوا شرفنا وأذهبوا عزّنا، والله ما كانوا لهم
عندنا ترة يطلبونها ، وما كان ذلك كلّهُ إلا بسببهم وخروجهم - يعني العلويين - فنّفونا
من البلاد ، فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالسراة ، حتى ابتعثكم الله لنا
شيعة وأنصاراً ، فأحىي الله شرفنا وعزّنا بكم وأظهر حقّنا ، وأصار إلينا ميراثنا من
نبيّنا (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فقرّ الحقّ في قراره ، وأظهر الله مناره وأعزّ أنصاره ،
وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين. فلما استقرّت الأمور فينا على
قرارها من فضل الله وحكمه العدل ، وثبوا علينا حسداً منهم ، وبغياً لهم بما فضلنا
الله به عليهم وأكرمنا من خلافته ميراثنا من نبيّهِ .. إلى آخر خطبته^(٤٣٢) .

ولا يخفى ما في هذه الخطبة من الأمور المخالفة للواقع ، وإنّما استعمل هذه اللهجة
وسيلة لإرضاء أنصاره ، وخشية من إنكارهم عليه ، فهو يحاول أن يحلّ تلك المشكلة
بهذه اللهجة الباردة. والواقع أنّ العلويين لم ينهضوا حبّاً للملك وطمعاً في السيادة ،

(٤٣٠) الرعد: ٢٠ - ٢١ .

(٤٣١) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٩٩ ، الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ٣٧١ .

(٤٣٢) مروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ٣١٢ .

وإنما كانت مواقفهم مشرّفة يدعوهم للنهوض إياؤهم للضيم ورعايتهم لمصلحة الأمة، وهو ما يفرقهم عن غيرهم، وقد أقر المنصور في هذه الخطبة بأنّ ما لحقهم من بني أمية كان بسبب مواقف العلويين.

ويعلّ ابن الساعي نهضة العلويين بقوله : إنّ من يمعن النظر كلّ الإمعان بتاريخ الإسلام يعلم علماً يقيناً أنّ كلّ من خرج من أهل البيت ما كان ذلك إلا عن مصيبة نابتة ، وذل إهانة ، فإنّ الأمويين كانوا يمنون على الموالي وصعاليك العرب بمئات الألوف من الدنانير ، ويعطونهم الاقطاع والضيعات ، ويستعملونهم على الممالك ، ويستوزرونهم ، ويقترون على الفاطميين حتى يصير الفاطمي في ضيق ومحنة شديدة ، ويرى الذين يفرطون لبني أمية ويتمسحرون لهم في مجالسهم ويشاركونهم في شرابهم وفسقهم وفجورهم ، يتقلبون بأنواع الرفاهة . فهناك يهزّ الجماعة الفاطمية شرفهم ونخوتهم ، فيخرجون لا خروجاً عن الطاعة ولا نقضاً لبيعة^(٤٣٣)، ولكن يقولون أرض الله واسعة ، فيهاجر أحدهم إلى ناحية من الأرض فيها قوم من أمة جدّه ، فإذا وصلهم حركتهم نخوة الدين فاحترموه وأكرموا وألفته قلوبهم واجتمعوا عليه، فمتى بلغ خبره الأمويين قالوا: خرج وربّ الكعبة ، وساقوا عليه القواد والجنود ولا يزالون حتى يتركوه شهيداً . وكذلك بنو العباس ...^(٤٣٤) .

ويجب هنا أن نلاحظ الفرق بين خطة الأمويين في معاملة أهل البيت وبين خطة العباسيين فإنّهم يختلفون عن الأمويين . فأولئك قد جاهروا بالعداء لأهل البيت بكلّ ما للجهر بالعداء من طرق، ولم يتكتموا في شيء من سياستهم . وهل بعد قتل الحسين (عليه السلام) وسبي نسائه وإعلان سبّ أمير المؤمنين وجعل ذلك سنة متبعة من شيء يدعو إلى التكتّم؟ ولكنّ العباسيين لم يسلكوا ذلك الطريق بل تظاهروا بالولاء لآل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، طمعاً في السيطرة ، وحبّاً للإمرة .

وقد تحقّق ذلك عندما ولي المنصور ، وتثبتت دعائم الدولة فأوقع بالعلويين، فكانوا أوّل الضحايا ، وفي مقدّمة القوافل التي تساق للسجون وساحات الإعدام . وقد تحدثنا عن بعض أعمال المنصور مع العلويين وتشريدهم وإراقة دمائهم . ولعلّ أفجع حادث وأشجى حديث هو حديث الخزانة، وإليك بيان ذلك :

(٤٣٣) لم تكن للعباسيين بيعة في رقاب العلويين، فإنّهم لم يعترفوا بولايتهم ولم يلزموا بالبيعة لهم وعلى هذا ساروا وتبعهم أنصارهم .

(٤٣٤) تاريخ ابن الساعي ص ٣٦ .

حديث الخزانة

وحديثها شجون ، فقد احتفظ المنصور بخزانة ادخرها ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، ادخرها ليوم الفصل يوم يعرض الظالم على يديه أجل ما هذه الخزانة التي احتفظ بها في حياته ، وأوصى بها المهدي بعد وفاته ودفع مفتاحها إلى ريطة زوجة المهدي ، وأوصاها أن لا تدفعها إلا بيده عندما يصح لها موت المنصور؟ ولما مات المنصور وأن لريطة أن تنفذ وصيته بفتح تلك الخزانة ، ولعلها كانت تأمل أنها تحتوي على نفائس من الجوهر تحلي بها جديدها ، فوق ما وهبتها الكفّ الظالمة ، كما حظت ببغيتها من الخزائن الأخرى.

فجاءت مع المهدي ولا ثالث معهما إلا عين الله الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء . فاستبقا بكل بهجة وسرور لفتح تلك الخزانة العظيمة فوجدوا هناك أشلاء مطرحة ، وجثثاً هامدة ، وإليك حديثها : حدّث الطبري في تاريخه قال : لما عزم المنصور على الحج دعا ريطة بنت أبي العباس امرأة المهدي . وكان المهدي بالريّ قبل شخوص أبي جعفر، فأوصاها بما أراد وعهد اليها ودفع اليها مفاتيح الخزائن ، وتقدّم اليها وأحلفها ووكد الإيمان أن لا تفتح بعض تلك الخزائن ولا تطلع عليها أحداً إلا المهدي، ولا هي إلا أن يصح عندها موته ، فاذا صحّ ذلك اجتمعت هي والمهدي وليس معهما ثالث حتى يفتحا الخزانة .

فلما قدم المهدي من الري إلى مدينة السلام دفعت إليه المفاتيح ، وأخبرته عن المنصور أنه تقدّم اليها فيه ألا يفتحه ولا يطلع عليه أحداً حتى يصح عندها موته ، فلما انتهى إلى المهدي موت المنصور وولي الخلافة فتح الباب ومعه ريطة ، فإذا أزج كبير فيه جماعة من قتلى الطالبيين ، وفي آذانهم رقاع فيها أنسابهم ، وإذا فيهم أطفال ورجال ، شباب ومشايخ عدّة كثيرة ، فلما رأى ذلك المهدي ارتاع لما رأى ، وأمر فحفرت لهم حفيرة فدفنوا فيها ، وعمل عليها دكاناً^(٤٣٥) . ولا حاجة بنا إلى بيان أكثر من هذا ممّا استعمله المنصور مع أهل البيت .

تظاهر المنصور بالعدل

(٤٣٥) تاريخ الطبري ج ٦ ص ٣٤٤ .

والذي يلفت النظر : هو محاولة المنصور تغطية أعماله بأقوال فارغة ، وادعاء كاذب وتظاهر بالزهد .

قيل لجعفر بن محمد (عليه السلام) : إنّ أبا جعفر يعرف بلباس جبة هروية مرقوعة، وإنّه يرقع قميصه .

فقال جعفر (عليه السلام) : الحمد لله الذي ابتلاه بفقر نفسه في ملكه^(٤٣٦) .

وضرب كاتبه محمد بن جميل خمس عشرة درّة، لأنّه لبس سراويل كتان وقال له : إنّ هذا من السرف ، وهو يحاول بذلك أن يفهم الناس بأنّه أمين على أموال الأمة ، ودينه يمنعه بأن يرى كاتبه يسرف في لباسه .

وخطب في يوم عرفة فقال :

أيّها الناس إنّما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده ، وأنا خازنه على فيئه أعمل بمشيئته ، وأقسمه بإرادته وأعطيه بأذنه ، فقد جعلني الله عليه قفلاً إذا شاء أن يفتحني لأعطياتكم وقسم فيكم فتحني ، وإذا شاء أن يقفلي أقفلي ، فارغبوا إلى الله أيّها الناس وسلوه - في هذا اليوم الشريف - أن يوقّني للصواب ويسدّدني للرشاد ، ويلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم ويفتحني لأعطياتكم !^(٤٣٧)

فهو يحاول أن يتبرّأ من عهدة بخله ويدّعي طهارة ثوبه ممّا علق به من الدماء ، وأنّه أمر يعود إلى الله وبأمره ، إذ هو سلطانه فيتبع الحقّ ويخالف الباطل ، ولكن الواقع غير ما يقول .

ثم نراه يصل إلى درجة أخرى من التظاهر بالقداسة بموافقة أعماله لما يرضي الله، ولكنها أمور ادعائية لا صلة لها بالواقع . فهو يقول في خطبة أخرى:

الحمد لله أحمدته وأستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . فاعترضه معترض عن يمينه - وهو أبو الجوزاء - فقال : أيّها الإنسان أذكرك من ذكرت به ؟ .

فقطع الخطبة ، ثم قال : سمعاً سمعاً لمن حفظ عن الله وذكر به ، وأعوذ بالله أن أكون جبّاراً عنيداً، ثم التفت إليه قائلاً له : وإياك وإياكم معشر الناس أختها ، فإنّ

(٤٣٦) الكامل لابن الأثير ج ٦ ص ١٣ .

(٤٣٧) تاريخ الطبري ج ٦ ص ٣٣٠ .

الحكمة علينا نزلت ، ومن عندنا فصلت فرددوا الأمر إلى أهله تورده موارده ،
وتصدروه مصادره ، وعاد إلى خطبته .(٤٣٨)

فهو بهذا الردّ يخيف الناس ويهدد من يردّ عليه أو ينقد عمله ، لأنّه يظهر نفسه
بالمحافظة على الدين ، وأنّه يحكم بأمر الله ، ولا يتبع الهوى ، وأنّه رجل عدل ،
ومثال تقوى ، إذ هو سلطان الله ، يعمل بمشيئته ولا يخالف حكمه؛ وكان ينقد سياسة
الأمويين وأعمالهم؛ مع أنّ عهده كان امتداداً للحكم الأموي وزيادة .

قال المنصور يوماً لعبد الرحمن الأفريقي : كيف سلطاني من سلطان بني أمية ؟ .
فقال عبد الرحمن : ما رأيت في سلطانهم شيئاً من الجور إلا رأيت
في سلطانك(٤٣٩) .

وكان عبد الرحمن هذا من أهل إفريقية يطلب العلم مع المنصور قبل الخلافة، فلما
ولي المنصور وظهر الجور في عهده قدم عبد الرحمن على المنصور فأقام ببابه
شهرًا لا يمكنه الدخول عليه .

فلما أذن له بالدخول، قال له المنصور : ما أقدمك ؟

قال : ظهر الجور ببلادنا فجئت لأعلمك ، فإذا الجور يخرج من دارك، ورأيت
أعمالاً سيئة ، وظلمًا فاشيًا ، ظننته لبعد البلاد منك ، فجعلت كلما دنوت منك كان
الأمر أعظم . فغضب المنصور ، وأمر بإخراجه(٤٤٠) .

ولما حجّ المنصور في السنة التي مات فيها، فبينما هو يطوف بالبيت إذ سمع قائلاً
يقول: اللهمّ إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحقّ
وأهله من الطمع.

فخرج المنصور إلى ناحية من المسجد ودعا بالقائل فسأله عن قوله، فقال : يا أمير
المؤمنين إن أمنتني أنبأتك بالأمور على جليّتها ، فقال : أنت آمن على نفسك ومالك .
فقال : إنّ الذي دخله الطمع حتى حال بين الحقّ وأهله هو أنت .

فقال : ويحك فكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء عندي ؟!

فقال : يا أمير المؤمنين، لأنّ الله استرعاك للمسلمين وأموالهم ، فجعلت بينك
وبينهم حجاباً من الجصّ والآجر ، وأبواباً من الحديد ، وحجاباً معهم من الأسلحة ،

(٤٣٨) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٠٥ .

(٤٣٩) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٠٥ .

(٤٤٠) تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٢١٥ .

وأمرتهم أن لا يدخل عليك إلا فلان وفلان ، ولم تأمر بإيصال المظلوم ، ولا الملهوف ، ولا الضعيف ، ولا الفقير ، ولا الجائع ، ولا العاري ، وما منهم إلا وله في هذا المال حقّ، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وأثرتهم على رعيّتك تجبي الأموال فلا تعطيها ، وتجمعها فلا تقسمها، قالوا : هذا قد خان الله تعالى فمالنا لا نخونه وقد سخر لنا نفسه ، فاتفقوا على أن لا يصل اليك من أخبار الناس إلا ما أرادوا ، ولا يخرج لك عامل إلا أقصوه ونفوه ، حتى تسقط منزلته ، فلما اشتهر هذا عنك وعنهم عظمهم الناس وهابوهم ، فكان أوّل من صانعهم عمالك في الهدايا ، ليقروا بهم على ظلم رعيّتك ، ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة، لينالوا بهم ظلم من دونهم ، فامتلأت بلاد الله بالطمع ظلماً وفساداً ، وصار هؤلاء شركاؤك في سلطانك وأنت غافل ، فإن جاء متظلم حيل بينه وبين الدخول عليك ، فإن أراد رفع قصته إليك وجدك قد منعت من ذلك وجعلت رجلاً للمظالم ، فلا يزال المظلوم يختلف إليه وهو يدافعه خوفاً من بطانتك ، وإذا صرخ بين يديك ضرب ليكون نكالا لغيره ، وأنت تنظر ولا تفكر فما بقاء الإسلام على هذا^(٤٤١) .

وقال له عمّه عبد الصمد بن علي : لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنت لم تسمع بالعفو ؟!! فقال : لأنّ بني مروان لم تبّل رممهم وآل أبي طالب لم تغمد سيوفهم، ونحن بين قوم قد رأونا أمس سوقة ، واليوم خلفاء ، فليس تتمهد هيبتنا في صدورهم إلا بنسيان العفو واستعمال العقوبة^(٤٤٢) .

ووقفت في طريقه - يوم دخل المدينة - ابنة صغيرة لعبد الله بن الحسن وهي تستعطفه وتطلب منه الرحمة والاشفاق ، عندما يقع نظره عليها وهي بتلك الحالة وتخاطبه برقة واستعطاف :

ارحم كبيراً سنّه متهدم *** في السجن بين سلاسل وقيود

إن جدت بالرحم القرية بيننا *** ما جدّكم من جدنا ببعيد

وكانت تأمل إطلاق أسيرها رحمة بحالها ، ولكن المنصور عندما سمع صوتها قال : أذكرتني ثم أمر به فأحدر بالمطبق وضيق عليه سجنه، وكان السجن خاتمة مطاف ذلك الأسير ونهاية حياته .

(٤٤١) تاريخ ابن الساعي ص ١٩ .

(٤٤٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٠٤ .

ورغم هذه الأعمال وما اتضح للناس من سوء السيرة والإجحاف بحقوق الرعية، فقد كان يحاول أن يصبغ الدولة بصبغة دينية ، وأنه الوارث الشرعي لهذا الحق ، وهو القائم بالعدل .

كان المنصور يطارد العلماء الذين يأمرونه بالمعروف وينكرون أعماله ، ويقرب آخرين ممن خضع لغير الحق .

وكان يريق دماء أبناء رسول الله ويملاً السجون منهم ، بينما نراه يحتفظ بحصيرة بالية قد مرت عليها السنون ، يدعي : بأنها كانت لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فيتبرك بها أمام الناس ، وجعل لها موضعاً خاصاً ، وخادماً يحتفظ بها يحملها أوقات الصلاة أمام الناس ليظهر لهم أنه محافظ على آثار النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تمويهاً وخداعاً .

وكان يطلب من الزهاد والوعاظ أن يعظوه بمجلسه ، فيرقّ عند سماع الوعظ ويبكي ، ولكنه بدون التعاط ، وتجري دموعه ولكن بدون خشوع وإنما هو من باب : كف تذبذب وأخرى تسبح ، إلى غير ذلك من الأمور التي كان يفعلها إغراءً للناس ليغطي أعماله التي ارتكبها .

وسار على ذلك أحفاده ووضعت في دولتهم بشائر عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ليكون لهم في قلوب الناس اعتقاد راسخ وسلطة دينية ، فمن الأحاديث التي وضعت لإعلاء شأنهم : اللهم اغفر للعباس ولولد العباس ولمن أحبهم .^(٤٤٣)

وبصورة أخرى : « اللهم اغفر للعباس وولد العباس ولمن أحبهم ، اللهم اغفر للعباس ما أسرّ وما أعلن وما أبدى وما أخفى ، وما كان وما يكون منه ومن ذريته إلى يوم القيامة »^(٤٤٤). وهذه أحاديث مكذوبة كما حققها الحقاظ من علماء الحديث .

وبهذا يريدون أن يكونوا في سلامة من المؤاخذه وعليهم حصانة من العقاب ، كما حاولوا أن تكون دولتهم هي الدولة الصالحة التي يبشّر بها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فرووا عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً : يخرج منا رجل في انقطاع من الزمن

(٤٤٣) تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٣٩ .

(٤٤٤) أنظر شرح الهزيمة لابن حجر ص ٣١٨ .

وظهور من الفتن يُسمى السفاح^(٤٤٥) ، وبلغ آخر عن المهدي بن المنصور عن آبائه مرفوعاً : ليكونن منا السفاح والمنصور والمهدي^(٤٤٦) .

يقول الدكتور أحمد أمين : فوضعت الأساطير حول العباس ، وعبد الله بن العباس، وغيرهما من آل العباس ، من مثل ما يُروى أنّ عمر بن الخطاب استسقى بالعباس عام الرمادة لما اشتدّ القحط ، فسقاهم الله تعالى به ، وأخصبت الأرض ، فقال عمر : هذا والله الوسيلة إلى الله والمكان منه ، ولما سقي الناس طفقوا يتمسّحون بالعباس ويقولون له : ساقى الحرمين^(٤٤٧) .

وتصوير بعض المؤرخين بأنّه - أي عبد الله بن العباس - سياسي محنك قدير ، كان يرسم الخطط لعلي بن أبي طالب ، مع أنّ أكبر مزية له في الواقع هي سعة علمه إلى غير ذلك^(٤٤٨) .

وقد حقّق الحفاظ هذه الأحاديث وغيرها الواردة في حقّ بني العباس، وقد نصّوا على أنّها موضوعة^(٤٤٩) من قبل أناس تقرّبوا إليهم بالكذب على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما لمسوا رغبتهم في تأييد سلطانهم ، وأنّهم خلفاء الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأولياء الأمر . وإن ارتكبوا الجرائم وخالفوا الإسلام .

* * *

وعلى أيّ حال فإنّ المنصور الدوانيقي كان سيء السيرة مع أبناء علي (عليه السلام) وقد قابل الإمام الصادق (عليه السلام) بكلّ جفاء وغلظة ، وتشدّد في أمره وحاول الفتك به مراراً حتى حان الوقت ، وحلّ الأجل فدرس إليه السم ، وقضى عليه في سنة (١٤٨ هـ) .

وقد تحمّل الإمام الصادق (عليه السلام) من طاغية زمانه أكثر ممّا تحمله من خصومه الأمويين ، ولكنه (عليه السلام) لم تهن عزيمته ، وسار في نهجه الذي نهجه لنفسه ، من الدعوة إلى الله ، ومناصرة المظلومين ، وإعلان الغضب على المنصور ووجوب مقاطعته ، وعدم المؤازرة له والمعاونة معه ، لأنّ حكومته غير شرعية فهو ظالم غاشم وحاكم مستبد .

(٤٤٥) تاريخ بغداد ج ١ ص ٤٨ .

(٤٤٦) تاريخ بغداد ج ١ ص ٤٨ .

(٤٤٧) أسد الغابة ج ٣ ص ١١١ .

(٤٤٨) ضحى الإسلام ج ٢ ص ٢٩ .

(٤٤٩) الموضوعات لابن الجوزي ج ٢ ص ٣٠ - ٣٧ .

ولم تلن قناته يوماً ما ، أو يخدع بحيل المنصور فيتحول عن رأيه ، أو يتنازل عن أحقيته للإمرة دونه، ولكن الوقت لم يأت ، والزمان ليس بزمانه ولا يريد أن يزج الأمة في حرب طاحنة ، تكون نتائجها غير مرضية . فسلك (عليه السلام) طريق التريث والنظر إلى العواقب ونهض إلى إصلاح المجتمع ليصلح وضع الدولة، وحاول تطهير القلوب من رواسب الخلافات التي خلفها العهد الأموي ، ووسّع دائرتها العهد العباسي .

الشيعية وأهل البيت

ومن حقنا هنا أن نشير إلى عظيم المحنة والخطر الجسيم الذي حلّ بأتباعه (عليه السلام) من بعده ، وما اتخذته السلطات الغاشمة في إنزال العقوبة بهم .

لقد ارتبط اسم الشيعة باسم أهل البيت فهم أنصارهم من عهد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ عرف المحبّ لعليّ بأنّه شيعي له ، ثم شمل المناصر له وهكذا أهل بيته فإنّ أنصارهم وأتباعهم شيعة لهم .

وبطبيعة الحال أن ينالوا من الأذى مالم ينل غيرهم؛ لأنّ أهل البيت (عليهم السلام) في جميع الأدوار هم المعارضون لتيار الظلم ، وهم دعاة الحقّ والعدل ، فأريقّت دماؤهم ، ونالهم من طغاة زمانهم ما يقف القلم عند بيان بعض تلك المآسي، فكيف الاحاطة بها وسردها جميعاً.

وإذا كان أهل البيت أنفسهم لم يسلموا من نقمة الظالمين وسخط الجبارين، فالشيعة أولى بأن تشتدّ عليهم المحن ، وتتوجه إليهم سهام الانتقام .

وقد خاض الشيعة عدّة معارك وبذلوا أنفسهم في سبيل مناصرة دعاة الحقّ والعدل ولم يثنهم الخوف ، أو تحوّلهم الأطماع عن منهجهم الذي ساروا عليه ، فكانوا في معارضتهم يثقلون كاهل الدولة، واسم التشييع يدخل الرعب في قلوب الحكام ، ولهذا فقد سلكوا في معارضة الشيعة كلّ الطرق .

وقد أدخل أولئك الحكام - بمعاونة علماء السوء - في روع أتباعهم أنّ الشيعة إنّما يناصرون آل محمد لا رعاية لحقّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ووصاياه فيهم وأنهم عدل القرآن ، بل إنّهم اعتقدوا أنّهم آلهة وهم بهذا يحاولون تكفير الشيعة .

كما أنَّهم حرموهم من كلّ ما يتمتع به غيرهم من سعة العيش وحرية الفكر وإظهار العقائد وإقامة الشعائر الدينية .

فكان الزنديق يعيش في سعة من العيش ، وإن أنكر الخالق ، والحدّ في عقيدته فلا يؤاخذ بشيء ما دام مسالماً للدولة .

والشيعة مضايق من كلّ جهاته ، ويرمى بسوء العقيدة ، مع اقراره الله بالوحدانية ولمحمد بالرسالة ، ولا يسلم من الطعن لأنّه معارض للسلطة . فمنعوهم من الحديث ، ومن يأخذ الحديث عنهم يناله سوء الاتهام ووسموهم بالخروج عن الدين واتهموهم بالزندقة والإلحاد ليتوصّلوا إلى حلية دمائهم وردّ رواياتهم .

هذا إجمال سنفضله فيما بعد وقد أشرنا لبعضه من قبل ، وذكرنا ما بذل الولاة في محاربة الشيعة ودعايتهم ضد أهل البيت وأتباعهم ، ما خرجوا عن الواقع المحسوس ، واستعملوا الخرافات والأباطيل ليضلّوا الناس عن طريق الحقّ ونهج الرشاد .

ونحن نأمل كما يأمل كثير من الناس أن تهزم خرافات الأجيال الماضية بقوة العلم ، وتخضع تلك الأشباح الهائلة على التقهقر ، فقد وقفت في طريق وحدة المسلمين واتفاقهم لتعود لواقعها من حيث هي ، وتكشف الحقائق ويظهر لجيلنا المثقف خطأ الوضع؛ فإنّه لا يكاد يخضع لتلك الخرافات التي هيمنت على عقول الأجيال زمنًا طويلاً .

ولنتنقل الآن إلى البحث عن حياة الإمام مالك بن أنس الأصبحي الإمام الثاني من الأئمة الأربعة ، ونتعرّف عليه ملتزمين البحث التاريخي بدون تعصّب له أو عليه .

الإمام مالك بن أنس

الإمام مالك بن أنس

تمهيد

تقدّمت الإشارة في الجزء الأول لمعركة أهل الحديث وأهل الرأي وما أحدثه ذلك النزاع في صفوف الأمة من تصدّع وخلافات أدت إلى الهجاء والقول بما لا تحمد عقباه ، وكان من نتائجه أن تظهر شخصية مالك في الحجاز وشخصية أبي حنيفة في العراق . كما أنه لم تخف أغراض السياسة من وراء انتصارها لأهل الرأي وسخطها على أهل الحديث .

وقد افترق المسلمون إلى فرقتين : أهل الحديث وأهل الرأي ، وزعيم الفرقة الأولى مالك ، والثانية أبو حنيفة ، واتسع بينهما الخلاف حتى أدى إلى الخروج عن حدود العلم، وتجاوزها إلى الهجاء والقذف والسباب ، ولكن تلك المعركة لم تطل أيامها ، فقد رأينا بعد قليل إلتقاء أطراف ذلك الافتراق ، واجتماع أهل الحديث وأهل الرأي ، وكأنّ القضية كانت لتحقيق أمر، وقد حصل ذلك .

وكان مالك بن أنس عرضة لسخط الدولة ، حتى منعه من الحديث ، وضربوه بالسياط لأجل فتوى أفتاها لم توافق غرض الدولة ، ولكنّه بعد قليل من الزمن أصبح مقدّمًا في الدولة ملحوظًا بالعناية ، محفوظًا بالكرامة ، وكانت بابه تزدهم عليها الناس كأنّها باب الأمير ، بل كان الأمراء يتهيبون شخصه ، وتقصر خطاهم عن الوصول إليه، فشملته مظاهرهم.

وهذا التحول الغريب يحملنا على التساؤل : هل أنّ الدولة كانت تبغضه لشيء فتركه تقيّة أو تبدّل رأيه عن ذلك ؟ أم أنّه ثبت على ما يراه وتحملت الدولة له ذلك ، ووجدت نفسها مضطرة إلى مجاراته ؟ أم أنّ هناك شيئاً آخر .

ويمكننا أن نستحصل الإجابة عن هذه الأسئلة عند دراستنا لحياته، ووقوفنا على عوامل شخصيّته وبواعث انتشار ذكره؛ إذّا لتتعرف على الإمام مالك وندرس شخصيته دراسة تاريخية ، ونستعرض حوادث عصره وسياسته لنكون على بينة من الأمر ومعرفة من الواقع .

من هو الإمام مالك ؟

هو أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمر بن الحارث بن عثمان بن خثيل بن عمر بن الحارث ، وهو ذو أصبح من حمير بن سباء ، وهي قبيلة يمنية ، وأمه أزدية وهي العالية بنت شريك الأزدية . فعلى هذا فإن أمّه وأباه عربيان .

وهنا تقف أمامنا مشكلتان لا يمكن أن نتخطاهما بدون إشارة لهما ، ليتجلى لنا الأمر ويوضح القول الصحيح .

الأولى : إنّ البعض من كتاب السير ذهبوا إلى عدم صحة هذا النسب ، وإنّ مالكا لم يكن عربياً وإنّما هو من موالي بني تيم ، فهو على هذا من موالي قريش وليس بعربي ، وقد روي عن ابن شهاب أنّه قال : حدثني نافع بن مالك - وهو عم مالك بن أنس - مولى التيميين^(٤٥٠) أنّ أباه حدّثه عن أبي هريرة ... وابن شهاب الزهري هو أستاذ مالك وأعرف بحاله ، فهو يعتبر مالكا من الموالي، لأنّه اعتبر عمّه نافعا كذلك .

وقال ابن عبد البر : إنّ محمد بن إسحاق الواقدي زعم أنّ مالكا وأباه وجدّه وأعمامه موالي لبني تيم بن مرة ، وهذا هو السبب في تكذيب مالك لمحمد بن إسحاق وطعنه عليه.

فبهذا يصبح مالك هو من الموالي لا من العرب ، وقد كان شائعاً في عصر مالك ، لذلك وقف تجاه هذه الدعوى مكذباً لها وأنكرها أشدّ الإنكار ، وكذب من يدّعيها عليه ، وكذلك أبو سهيل عم مالك قام في إنكارها وقال : نحن قوم من ذي أصبح ، قدم جدنا المدينة فتزوج في التيميين ، فكان معهم ونسبنا إليهم.^(٤٥١)

وهذا يدلّ على خمول ذكرهم وعدم اشتهاار عشيرتهم ، وقد أصرّ ابن اسحق على عدم صحة هذه الدعوى وتكذيب إنتسابهم إلى العرب .

وقد ادعى أنّ حصول هذه الشبهة في نسب مالك وعدم كونه عربياً: أنّ مالك بن أبي عامر قدم المدينة متظلماً من بعض ولاة اليمن ، فمال إلى بعض بني تيم بن مرة فعاقده ، وصار معهم .

وهذا يختلف مع ما يقوله نافع بن مالك فإنّه يدعي أنّ الحلف كان مع أبي عامر جدّهم لا مع ابنه مالك جدّ مالك بن أنس .

(٤٥٠) الانتقاء ص ١١ .

(٤٥١) الديباج المذهب ص ٥٧ .

ويروي ابن عبد البر عن البخاري بسند عن نافع بن مالك بن أبي عامر، قال: قال لي عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي وهو ابن أخي طلحة: هل لك إلى ما دعانا إليه غيرك ، فأبينا عليه أن يكون هدمنا هدمك ودمنا دمك ترثنا ونرثك^(٤٥٢) ؟ وينسب هذا إلى الربيع بن مالك أيضاً^(٤٥٣) .

ومهما يكن فإن نسب مالك للعرب لم يخل من طاعن فيه، وأنه من الموالي، فهو بين مثبت وناق .

وكما طعن في أب مالك وعدم صحة عروبتة ، فكذلك الحال في أمه العالية فقيل : إنها أزدية يمنية وهي بنت شريك بن عبد الرحمن بن شريك الأزدية ، وقيل : إنها طليحة مولاة عبيد الله بن معمر، حكاه القاضي عياض^(٤٥٤)، وعلى هذا يكون نسب مالك من الطرفين إلى الموالي ، ولا علة له بالعرب .

الثانية : قضية بقائه في بطن أمه . قيل : سنتين، وقيل : ثلاث سنين، وقيل : أربع سنين ، وقال ابن سعد في الطبقة السادسة من تابعي أهل المدينة : أخبرنا الواقدي قال : سمعت مالك بن أنس يقول: قد يكون الحمل ثلاث سنين، وقد حمل ببعض الناس ثلاث سنين يعني نفسه .

وقال ابن عبد البر : وقد ذكر غير الواقدي أن أم مالك حملت به ثلاث سنين^(٤٥٥) . وهذا بعيد كل البعد عن الصحة؛ لأن الطب يقرر أن الحمل لا يمكن أن يمكث في بطن أمه أكثر من سنة ، على أن الاستقراء مع المراقبة الدقيقة يجعلنا نؤمن بأن الحمل لا يمكن أن يمكث في بطن أمه أكثر من تسعة أشهر ، مع أنا لم نقف على تاريخ وفاة أبيه ، فنقارن النسبة بين الولادة والوفاة ، وهذه الدعوى من شذوذ الطبيعة، ولا نتعرض إلى إقامة البرهان على عدم بقاء الطفل في بطن أمه أكثر مما هو المتعارف .

ويذهب بعضهم إلى أن هذه الرواية وضعها المعجبون بمالك ، لأنهم يريدون أن يقرنوا حياته بالعجائب والغرائب ، لبيان أنه صنف من الناس ممتاز اقترنت مميزاته

(٤٥٢) الانتقاء ص ١١ .

(٤٥٣) تزيين الممالك للسيوطي ص ٣ .

(٤٥٤) مناقب مالك للسيوطي ص ٥ .

(٤٥٥) الانتقاء ص ١٢ ومناقب مالك للسيوطي ص ٦ .

بمولده ، إذ أنه حمل به ثلاث سنين على حين يحمل بكلّ مولود تسعة أشهر ، فكانت هذه منقبة^(٤٥٦) اقترنت بميلاده ، كما كانت حياته كلها مناقب ، كما سيأتي بعضها .
وليس من البعيد أن يتقبل المعجب بشيء كلّ ما له علاقة فيه، وإن خالف الحقّ ولم يؤيده العلم وشدّ عن العقل وعن مجرى العادة ، على أنّ مثل هذا لا يرتفع به مقام مالك، وكان الأجدر رفضها دون قبولها .

ولادته

اختلفت الروايات في سنة ولادة مالك كالاختلاف في مدّة حمله ، فقليل : إنه ولد سنة (٩٠ هـ) وقيل : سنة (٩٣ هـ) وقيل : سنة (٩٤ هـ) وقيل : سنة (٩٥ هـ) وقيل : سنة (٩٦ هـ) في المدينة المنورة ، وتختلف الروايات في أول من نزل المدينة من أسرة مالك ، فقليل : إنّ أول من نزل هو أبو عامر وأمه صحابي وشهد المغازي مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ما عدا بدرأ ولم يذكره أحد في عداد الصحابة . قال الذهبي في التجريد : لم أر من ذكره في الصحابة .^(٤٥٧)

والصحيح أنّ أول من انتقل إلى المدينة هو مالك بن أبي عامر جدّ مالك بن أنس ، وهو من التابعين كما رواه ابن عبد البر^(٤٥٨)، وتدلّ عليه رواية أبي سهيل عم مالك المتقدمة في بيان نسبهم ، ولكن المالكية ذهبوا إلى إثبات الصحبة لأبي عامر وليس لهم على ذلك دليل ، لذلك لم يقبله المحققون ولم يثبتوا له صحبة . فابن حجر في الإصابة لم ينقل عنه شيئاً إلا أنّه نقل عبارة الذهبي ، وابن عبد البر في الاستيعاب لم يتعرض لذكره . وهذه الدعوى وليدة ظروف متأخرة أثبتتها كتب مناقب مالك ، كما أنّ أنس بن مالك والد مالك - صاحب المذهب - لم يكن له ذكر في كتب الرجال ولم يعرف عنه أنّه اشتغل بالعلم ، وليست له معرفة فيه ، ولو كان يؤثر عنه شيء ؛ لكان مالك أولى بروايته . نعم ورد في بعض الكتب رواية مالك عن أبيه عن جدّه عن عمر بن الخطاب عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال : ثلاث يفرح لهنّ الجسد فيربو عليهن : الطيب ، والثوب اللين ، وشرب العسل ، ولكن المحققين من علماء الحديث قالوا : إنّ هذا الخبر لا يصحّ عن مالك^(٤٥٩) .

(٤٥٦) وكيف تكون هذه منقبة له، ووجهها غير صحيح !؟

(٤٥٧) تجريد أسماء الصحابة ج ٢ ص ١٨١ - ١٨٢ / ٢١٠٧ .

(٤٥٨) تنوير الحوالك لجلال الدين السيوطي ص ٣، ذكر أسماء التابعين للدارقطني ج ١ ص ٣٥٣ رقم ١٠٨٠ .

(٤٥٩) تزيين الممالك ص ٥ .

وبهذا لم يكن لأنس رواية في الحديث ولا رواية واحدة .

قال الخطيب في المتفق بعد ذكر الحديث المتقدم : لا أعلم . روي عن مالك من هذا الوجه^(٤٦٠) وفيه نظر ، فهو يطعن بصحته ، وقال أيضاً : لم يروه عن مالك غير يوسف بن هارون تفرّد به القشيري ، وأخرجه ابن حبان في الضعفاء ، وقال : هذا لم يأت به عن مالك غير يونس - وهو أحد رواة الحديث المتقدم - وقد روى عجائب لا تحلّ الرواية عنه ، وأخرجه الدارقطني في غرائب مالك وقال : هذا لا يصحّ عن مالك ، ويونس ضعيف . وربّما يتوهم أنّ والد مالك بن أنس هو أنس بن مالك الصحابي الشهير ، لأنّ المتسمّين بأنس بن مالك هم خمسة :

١ - أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام الأنصاري أبو حمزة المدني المتوفى سنة (٩٣ هـ) وهو خادم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .

٢ - أنس بن مالك الكعبي القشيري أبو أمية ، نزل البصرة ، وروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حديثاً واحداً .

٣ - أنس بن مالك شيخ حمصي ، ذكره أبو بكر أحمد بن محمد بن عيسى البغدادي في تاريخ الحمصيين ، وليس له من الحديث شيء .

٤ - أنس بن مالك أبو القاسم الكوفي ، حدّث عن عبد الرحمن بن الأسود ، وحماد بن أبي سليمان وغيره ، وأحاديثه قليلة .

٥ - أنس بن مالك والد الإمام مالك هذا ، ولم يكن له ذكر في كتب الحديث ، ولم يفصح التاريخ عن شيء من حياته ولا تاريخ وفاته ، بل هو مجهول ، كما إنّنا لم نقف على شيء من حياته لنتحقق نشأة مالك تحت رعايته وتربيته ، ولعله مات قبل أن يولد مالك بمدة ، ويقال : إنّ مالك نشأ تحت رعاية غيره من أسرته ، ويدعى أنّها مشهورة بالعلم ، ولا نعرف منهم إلا نافع بن مالك بن أبي عامر الأصبحي أبا سهيل المتوفى في سنة (٣٤ - ٣٥ هـ) .

روى عن ابن عمر وأنس ، وعنه ابن أخيه مالك بن أنس والزهري ، ولم يكن له كثير حديث .

وأما أخوه النضر بن أنس أخو مالك ، فقد روى عن أبيه وابن عباس وعنه بكر المزني ، ويقال : إنّ مالكاً كان ملازماً له ، ولا يُعرف إلا بأخيه ، فيقال عند تعريفه :

أخو النضر لشهرة أخيه دونه ، ولم يكن غير هؤلاء في أسرة مالك من عرف عنه الحديث ، ولا يصح أن توصف هذه الأسرة من الأسر العلمية في المدينة ، فيكون لها الأثر في توجيه مالك إلى طلب الحديث والفتيا ، لأنّ الناشئ تتغذى مواهبه ومنازعه من منزع بيته وما يتّجه إليه ، فتزعزع تحت ظلّها المواهب وتتّجه المنازع ، على أنّهما لم يكونا بتلك المنزلة من الشهرة العلمية ، ولم تكن لهما كثير رواية .

المناقب

من الأمور التي تستدعي النظر والإهتمام هو الغلوّ في المناقب ، وذلك لقوّة نزعة التعصّب ، وبالأخص عند احتدام النزاع والتخاصم بين الفرق ، فكلّ يحاول تأييد مذهبه وتعزيز رأيه ، ويتّخذ شتى الوسائل لتكون له الغلبة على غيره ، حتى كان الحقّ في جانب والمغالون في جانب آخر، ممّا أدّى إلى حصول عقبات دون الباحث الذي يريد أن يتعرّف على شخصية من شخصيات التاريخ . وقد تقدّم بعض تلك المناقب التي انتحلوها لأبي حنيفة تعزيزاً لمركزه وتقويماً لشخصيته حتى ذهبوا إلى أبعد حدّ من ثبوت العبقرية الادعائية من وفور علمه ، وعلوّ منزلته ، وشرف بيته حتى قالوا : إنّ أهل الكوفة كلّهم موالى لأبي حنيفة - أي عبيد فأعتقهم^(٤٦١) .

وهل ينكر أحد أنّ أبا حنيفة كان مولى لبيت من بيوت الكوفة ، ولهم ولاؤه ؟ ولكن المغالطات والادعاءات الفارغة لا حدّ لها ولا نهاية ، فهي واسعة بمقدار اتساع الغرض ، وتسير طيعة للهوى والنزعة التي تقتضيها ، ويعود ذلك إلى المعركة الجدلية التي جرت في القرن الرابع وبالأخص بين الحنفية والشافعية ، فملأت كتب المناقب بالإغراق والمبالغة ، حتى بلغت مغالاة أمة من الحنفية أنّ إمامهم أعلم من رسول الله، وحدث عليّ بن جرير : أنّ رجلين تماريا في مسألة، فقال أحدهما : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فقال الآخر كان أبو حنيفة أعلم بالقضاء^(٤٦٢)، وهذا منتهى الإغراق في الغلوّ، وقد مرّ قسم من ذلك في الجزء الأول .

أمّا المالكية فإنّهم أهون في تقحّم الخطر على مركب الغلوّ من الحنفية في وضع المناقب ، وقد خلت كتبهم من التحامل والطعن على غيرهم ، على أنّهم لم يخلوا من شائبة الغلوّ والمدح والإطراء المؤدي الى الاضطراب ، كما أنّهم أكثروا من الأطياف

(٤٦١) مناقب أبي حنيفة للمكي ج ١ ص ١٧٤ .

(٤٦٢) تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٤١٣ - ٤١٤ .

والرؤيا بما يعود لمالك وعلو منزلته ويحصل فيه لشخصيته امتياز عن غيره ، وتلك مبالغات مصدرها الغلو وحب الغلبة والشهرة . وإليك بعضاً من مناقبه :

عالم المدينة

لما كانت المدينة المنورة مهذاً للعلم ومصدراً للتشريع ؛ فلا بد أن يكون لعلمائها منزلة دون غيرهم من علماء الأقطار ، وقد ورد حديث عالم المدينة فجعلوه ينطبق على مالك وحده ، وكأنّ المدينة لم ينبغ بها عالم حتى يكون مصداقاً للحديث غير مالك بن أنس .

فلا بدّ لنا أن نتكلّم عن صحة الحديث وانطباقه على مالك دون غيره . أخرج الترمذي بطريق عن أبي هريرة مرفوعاً : « يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة »^(٤٦٣) . وجعلوا المراد به مالك بن أنس دون غيره . قال ابن أبي الحوت في أسنى المطالب: خبر «أبي حنيفة سراج أمتي» موضوع باطل ، ولم يرد في أحد من الأئمة نص لا صحيح ولا ضعيف كخبر : عالم قریش يملأ طباق الأرض علماً ، وحمل على الشافعي ، وكذا خبر : يكاد يضرب الناس أكباد الإبل .. الحديث . سمعته من المالكية ولم أره ، وحمل على مالك ويظهر عليه التكلف^(٤٦٤) .

ولا حاجة بنا إلى نقل الأقوال في تفنيده ، ومع التسليم لصحة الحديث، فمن البعيد حملة على مالك بن أنس . قال الخطيب البغدادي^(٤٦٥) عند ذكر هذا الحديث. قال أبو موسى الأنصاري : قلت لسفيان : إنّ ابن جريح يقول : نرى أنّه مالك ، فقال سفيان : إنّما العالم من يخشى الله . وقد نقل عن ابن عيينة : أنّ المراد به عبد العزيز العمري^(٤٦٦) .

ومع هذا فإنّ الحديث لا يخلو من خدشة في السند إن لم نقل في الوسطة الأولى، فإنّ أبا الزبير وهو أحد رواة هذا الحديث ، قد تكلموا فيه وطعنوا عليه. وإذا أردنا أن نسلم لصحة هذا الحديث فإنّ انطباقه على مالك بعيد جداً ودونه خرق القتاد ، فالمدينة

(٤٦٣) صحيح الترمذي ج ٤ ص ٤١٢ ، ح ٢٦٨٠ .

(٤٦٤) أسنى المطالب ص ٢٤ ح ٣١ .

(٤٦٥) تاريخ بغداد ج ٦ ص ٣٧٤ / ٣٤٠٩ .

(٤٦٦) تاريخ بغداد ج ٦ ص ٣٧٤ / ٣٤٠٩ .

المنورة قد ضمت علماء الإسلام الذين كانوا أعلى درجة من مالك وأرفع منزلة منه ، ولو راق للسلطة غير مالك لحملوه عليه، ولكنهم أرادوا ذلك ، والناس تبعاً لما أرادوا

وإنّ في المدينة من العلماء في ذلك العهد قوماً هم شيوخ مالك ، وهم أعلم منه ، منهم :

عبد العزيز العمري .

وزيد بن أسلم المتوفى سنة (١٣٦ هـ) وعنه أخذ مالك .

وأبو حازم سلمة بن دينار المتوفى سنة (١٤٠ هـ) وهو من شيوخ مالك .

وصفوان بن سليم المتوفى سنة (١٣٢ هـ) وهو من شيوخ مالك .

وعبد الرحمن بن أبي الزناد المتوفى سنة (١٧٤ هـ) وهو من شيوخ مالك .

وعبد الله بن ذكران المتوفى سنة (١٣١ هـ) وهو من شيوخ مالك .

وربيعة الرأي المتوفى سنة (١٣٦ هـ) وهو من شيوخ مالك .

ويحيى بن سعيد بن قيس المتوفى سنة (١٤٣ هـ) وهو من شيوخ مالك .

وأبو الحارث محمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة (١٦٠ هـ) ، كان أفضل من مالك وكان يشبه سعيد بن المسيب .

ومحمد بن مسلم الزهري المتوفى سنة (١٢٤ هـ) ، وهو من شيوخ مالك .

وغيرهم من علماء المدينة ممن لم يتعلّق غرض السلطة في معارضتهم ، ولم تقف أمامهم على ربوة العداة والخصومة ، على أنّ المسألة لم تكن مسألة علم وعدمه ، بل حظوظ ودعاية كما يقول ربعة الرأي وهو أستاذ مالك ومعلمه .

قال أبو بكر عبد الله الصنعاني : أتينا مالك بن أنس فحدثنا عن ربعة الرأي فكنا نستزيده ، فقال لنا ذات يوم : ما تصنعون بربيعه وهو نائم في ذاك الطاق؟ فأتينا ربعة فقلنا : كيف يحظى بك مالك ولم تحظ أنت بنفسك ؟ فقال: أما علمتم أنّ مثقالاً من دولة خير من حملي علم^(٤٦٧). وذلك أنّ الدولة رفعته بعد غضبها عليه ، ولذلك نرى مبادلة العواطف بين المنصور ومالك بن أنس .

فكان المنصور يقول لمالك : أنت والله أعقل الناس وأعلم لئن بقيت لأكتبنّ قولك كما تكتب المصاحف، ولأبعثن به إلى الآفاق فاحملهم عليه . وهذا غاية في التعظيم

والإجلال وأقوى عامل لرفع مالك وعلو منزلته ، وكان مالك يقول : وجدت المنصور أعلم بكتاب الله وسنة رسوله وآثار من مضى. (٤٦٨)

وبالجملة فإنّ هذا الحديث لا ينطبق على مالك ولم يعتن به أكثر من كتب عن مالك ، ولكن المالكية جعلوه دليلاً لهم على لزوم الأخذ عن مالك، وهو كما ترى يبني على الظنون والتكهن ، وهذا لا يجدي ، ولئن صحّ الحديث فلا مصداق له سوى حملة العلم وأعلام الأمة وورثة الرسول الأعظم ، فهم أئمة الهدى ، وإنّ لهم في صحيح الآثار وأصدق الأخبار عن الصادق الأمين كفاية عن التمثل والتكلف بأمثال هذا ونحوه .

أمين زمانه

ليس من الغريب أن تصل يد الوضع والانتحال إلى ارتكاب ما لا يقبله العقل ولا يقرّه الوجدان والتتبع ، ولا يتسق مع الواقع ، وقد ورد ذلك في منقبة لمالك ، هي بعيدة كلّ البعد عن الصحة ، ولا يمكن قبولها بالمرة .

وذلك أنهم ادعوا أنّ الإمام الصادق (عليه السلام) أوصى إلى مالك عند وفاته، وإليك نص هذا الافتعال :

روى الشيخ عيسى بن مسعود الزواوي بلا سند ومستند ، في كتاب مناقب مالك، قال : دخل على الإمام الصادق قوم من أهل الكوفة في مرضه الذي توفي فيه فسألوه أن ينصبّ لهم رجلاً يرجعون إليه في أمر دينهم فقال :

عليكم بقول أهل المدينة فإنها تنفي خبثها، كما ينفي الكير خبث الحديد ، عليكم بآثار من مضى ، فإنّي أعلمكم أنّي متّبع غير مبتدع ، عليكم بفقهاء أهل الحجاز عليكم بالميمون المبارك في الإسلام المتّبع آثار رسول الله ، فقد امتحنته فوجدته فقيهاً فاضلاً ، متّبعاً مريداً لا يميل به الهوى ، ولا تزدرية الحاجة ، ولا يروي إلا عن أهل الفضل من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فإن اتبعتموه أخذتم بحظكم من الإسلام ، وإن خالفتموه ضللتكم وهلكتم، فإنّه قد أخذ عني كلّ ما يحتاج إليه فلا يميل بكم الهوى فتهلكوا ، أي أحذركم عذاب الله يوم القيامة (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ* إِلَّا مَنْ

أتى الله بقلب سليم^(٤٦٩) ، أهدركم فقد أرشدتكم إلى رجل نصبت له لكم فإنه أمين مولود في زمانه . قالوا : من هو بينه لنا؟ قال : « ذلك مالك بن أنس » عليكم بقول مالك^(٤٧٠) .

هكذا قال الزواوي ، وهكذا نقل . ولا أقول أنه هو الذي وضعها أو افتعلها، ولكنه ناقل عن غيره، ونحن لا ننكر أثر الخلافات التي حصلت بين الطوائف، ووجود قوة عاملة على إيجاد الخلاف وإيقاد نار الفرقة ، فأصبح كل يذهب لتأييد مذهبه بشئ الوسائل والاجتهاد في تحصيل ما ينال به الظفر على خصمه، وأي ظفر أعظم من الحصول على شهادة أعظم شخصية علمية كان مالك يسارع لاستماع حديثه ويغتنم فرصة الحضور عنده ، ويتلقى تعاليمه في مدرسته كما مرّ بيانه. تلك هي شخصية الإمام الصادق الذي ترأس أعظم مدرسة إسلامية شهدتها التشريع الإسلامي ، وبقيت آثاره مفخرة الدهر وحديث الأجيال ، فكانت أقواله تؤخذ بيد القبول والاعتبار. فقولته مسموح وحكمه نافذ . لذلك نرى كثيراً من الأقوال تنسب إليه طلباً لتأييد رأي، أو ثبوت حكم ، وقد حققها المنقبون من متبعي آثاره والذين يرجعون إليه في أخذ الأحكام الشرعية .

ومن هذا القبيل تلك الافتعالات التي انتحلها أصحاب المذاهب ، وقد سبق للحنفية مثل ذلك في مدح أبي حنيفة كما مرّ بيانه في رواية أبي البخترى، وهذه المنقبة التي ذكرها الزواوي من ذلك النمط . ويمكنك أن تقف على سيرة الإمام مالك لتعرف ابتعاده عن الصادق في آخر عهده لإنحيازه لجانب السلطة، مما لا يتفق مع آراء الإمام الصادق (عليه السلام) وسيرته التي سار عليها مدة حياته. من مجانبته الحكام والابتعاد عنهم . كما أنه هجر كل من اتصل بالسلطة ، ومنهم مالك بن أنس، فإنه كان عند وفاة الإمام الصادق (عليه السلام) في أول مرحلة من التقرب للسلطان. وأظهر مالك حرصه على الاتصال بالحكام مؤذناً بتغييره.

ولا حاجة لنا في إطالة الوقوف عند مناقب مالك ، وإعطائها مزيداً من البحث كقولهم مكتوب على فخذ مالك بقلم القدرة : مالك حجة الله في أرضه . وقولهم في ورعه : إنه لا يدخل الخلاء إلا في كل ثلاثة أيام مرة ، بينما يقول هو عن نفسه: استحيت من كثرة دخولي للخلاء^(٤٧١) .

(٤٦٩) الشعراء: ٨٨ - ٨٩ .

(٤٧٠) أنظر مناقب مالك ص ١٠ .

(٤٧١) تنوير الحوالك للسيوطي ص ٤ .

وهذا أمر لا دخل له تحت قدرة الإنسان وسلطته فيه، إذ هو من الأمور القهرية على البشر، وقد أرادوا أن يسووه بالملائكة أو من شرفهم الله لحكمة فجعلهم يأكلون الطعام ولا يغوطون. ولو تأتى ذلك لكلّ أحد لفعل ، ولكن شذوذ الآراء يثبت شذوذ الطبيعة ، كما ادعوا أنه ألقى كتابه الموطأ في الماء عندما اتهم نفسه فيه فألقاه في الماء وقال : إن ابتلّ فلا حاجة لي به فلم يبتل منه شيء^(٤٧٢) ، إلى غير ذلك من الخرافات والأقوال الفارغة التي تدل بنفسها على نفسها بالكذب .

أطيف حول مالك

ما أكثر وضع المنامات لتأييد رأي ، أو رفعة شخص ، أو حطّ كرامة من آخر! إنّها دعايات كما قلنا وافتراءات كما ذكرنا ، اتخذها القصاصون ليسيطروا على عقول السذج من الناس ، واستعملها كثير ممن كتب في أكثر الشخصيات ، حتى اتخذوا تلك الخرافات - وهي أكثر من أن تحصى - دليلاً لتأييد المذهب .

وقد وضع المالكية منامات في تأييد مذهب مالك ، وعلوّ شأنه نذكر البعض منها : قال العدوي : لما مات شيخنا شيخ الإسلام اللقاني رآه بعض الصالحين في المنام فقال: ما صنع الله بك ؟ فقال : لما أجلسني الملكان في القبر يسألاني، أتاني الإمام مالك فقال : مثل هذا يحتاج إلى سؤال في إيمانه ؟ تنحيا عنه ، فتنحيا عني^(٤٧٣) . ومنها : أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هو الذي سمّى كتاب مالك بالموطأ، وأنّه سئل (صلى الله عليه وآله وسلم) في المنام : إنّ مالك والليث يختلفان في المسألة فأيهما أعلم ؟ فقال : مالك وارث جدّي يعني إبراهيم (عليه السلام)^(٤٧٤) .

وأنّه سئل (صلى الله عليه وآله وسلم) مرّة أخرى في المنام : من نسأل بعدك يا رسول الله ؟ فقال : مالك بن أنس . كما وضع أهل الأندلس في تأييد مذهبه وتشجيع عالمهم سحنون وهو ناشر مذهب مالك في الأندلس : إنّ القيسي رأى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يمشي في طريق وأبو بكر خلفه ، وعمر خلف أبي بكر ، ومالك بن أنس خلف عمر ، وسحنون خلف مالك . وفي هذا إشارة للاتباع والاقتداء^(٤٧٥) .

(٤٧٢) شرح الزرقاني على الموطأ ج ١ ص ٦ .

(٤٧٣) مشارق الأنوار للعدوي ص ٢٨٨ .

(٤٧٤) مناقب مالك للزواوي ص ١٨ .

(٤٧٥) مناقب مالك للزواوي ص ١٧ - ١٨ .

وكثير من هذا النمط، ولا حاجة إلى ذكره ، ولا اعتبار بإثباته أو نفيه . وإنما
المعتبر معرفة شخصيته من قبل معاصريه ، ومن هم أدرى الناس به ، فإنّ لأقوالهم
تمام الأثر في التعرّف عليه ، فلننظر الواقع في مرآة الماضي ، لأنّ هذه الأمور
المستحدثة إنّما هي وليدة عصور متأخرة لا نستطيع منها استخلاص صورة متناسقة
، لأنها نتيجة جدل وخصام وإثارة فتن وتطاحن بين المذاهب . قال أبو عمر^(٤٧٦) : قد
ألف الناس في فضائل مالك وأكثروا ، وأتوا بما لا فضيلة في بعضه حشّوا بها كتبهم

مالك وأقوال العلماء

وهنا نقف بين طائفتين من الأقوال المأثورة عن علماء عصر مالك ، فبعضها من
نسق ماذكرناه ، وهي كثيرة مثبتة ، والبعض الآخر لم يكن بدرجة من الحطّ بكرامته
وانتقاصه ، وإنما هي مؤاخذات علمية وأقوال صريحة، وآراء حرة . واليك منها :

قال الشافعي : الليث أفقه من مالك ، إلا أنّ أصحابه لم يقوموا به .^(٤٧٧)

وقال سعيد بن أيوب : لو أنّ الليث ومالكاً اجتمعا ، لكان مالك عند الليث أبكم ،
ولباع الليث مالكاً فيمن يريد^(٤٧٨) .

وسأل علي بن المديني يحيى بن سعيد : أيّما أحبّ إليك رأي مالك أو رأي سفيان ؟
قال : رأي سفيان لا يشك في هذا .

وقال : سفيان فوق مالك في كلّ شيء .^(٤٧٩)

وقال يحيى بن معين : سفيان أحبّ إليّ من مالك في كلّ شيء^(٤٨٠) .

وقال سفيان الثوري : ليس له حفظ . يعني مالكا .

وقال ابن عبد البر : تكلم ابن زويب في مالك بن أنس بكلام فيه جفاء وخشونة
كرهت ذكرها^(٤٨١) .

(٤٧٦) انظر فتح الممالك ج ١ ص ٧١ .

(٤٧٧) سير أعلام النبلاء ج ٧ ص ٤٥٢ / ١١٨٢ .

(٤٧٨) الرحمة الغيثية لابن حجر ص ٦ .

(٤٧٩) سير أعلام النبلاء ج ٧ ص ٤٠٠ / ١١٨٠ .

(٤٨٠) تاريخ بغداد ج ١٠ ص ١٦٤ .

(٤٨١) جامع بيان العلم وفضله ج ٢ ص ١٥٨ .

وتكلم في مالك إبراهيم بن سعد وكان يدعو عليه ، وكذلك تكلم فيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وابن أبي يحيى ، ومحمد بن إسحاق الواقدي ، وابن أبي الزناد ، وعابوا أشياء من مذهبه .

وقال سلمة بن سليمان لابن المبارك : وضعت شيئاً في رأي أبي حنيفة ولم تضع في رأي مالك ؟ قال : لم أره علماً^(٤٨٢) .

وقال ابن عبد البر في مالك : إنهم عابوا أشياء من مذهبه . وعن عبد الله بن إدريس قال : قدم علينا محمد بن إسحاق ، فذكرنا له شيئاً عن مالك . فقال : هاتوا علمه ، فأنا بيطاره .

وعابه قوم في إنكاره المسح على الخفين في الحضر والسفر ، وفي كلامه في علي وعثمان .

وقال يحيى بن صالح : قال لي ابن اكثم : قد رأيت مالكا وسمعت منه ورافقت محمد بن الحسن ، فأيهما كان أفقه ؟ فقلت : محمد بن الحسن فيما يأخذه لنفسه أفقه من مالك^(٤٨٣) .

وكان أبو محمد بن أبي حاتم يقول : عن أبي زرعة عن يحيى بن بكير أنه قال : الليث أفقه من مالك ، إلا أنه كانت الخطوة لمالك . وفي رسالة الليث بن سعد التي بعث بها إلى مالك يناقشه فيها في بعض آرائه مناقشة قوية ، ويردّ عليه ، فيقول في بعضها :

ومن ذلك إنك تذكر أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يعط الزبير بن العوام إلا لفرس واحد، والناس كلهم يحدثون أنه أعطاه أربعة أسهم لفرسين ، ومنعه الفرس الثالث . والأمة كلهم على هذا الحديث : أهل الشام ، وأهل مصر ، وأهل العراق ، وأهل أفريقية لا يختلف فيه اثنان ، فلم يكن ينبغي لك وإن كنت سمعته من رجل مرضي أن تخالف الأمة أجمعين .

وقال أحمد بن حنبل : كان ابن أبي ذويب يشبه سعيد بن المسيب ، وكان أفضل من مالك ، إلا أن مالكا أشد تنقية للرجال منه^(٤٨٤) .

(٤٨٢) جامع بيان العلم وفضله ج ٢ ص ١٥٧ .

(٤٨٣) تاريخ بغداد للخطيب ج ٢ ص ١٧٥ .

(٤٨٤) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٧٦ .

وقال أيضاً : هو أروع وأقوم بالحقّ - يعني ابن أبي ذؤيب - من مالك ، دخل على المنصور فلم يهبه أن قال له الحقّ، وقال الظلم ببابك فاش ، وأبو جعفر أبو جعفر^(٤٨٥)، يعني في قوّته وجبروته واشتداد سلطانه وعظمته وبطشه .

ونقف عند هذا الحدّ من استعراض آراء العلماء وأقوالهم في مالك ، ممّا تدلّ على عدم امتيازهم بموهبة يصبح بها أهلاً للمرجعية دون غيره . ولا حاجة بنا إلى غربلة الأقوال الأخر ومناقشتها . وإنّما ذكرنا هذا كإنموذج ومقدّمة لما نريد أن نذكره في الموازنة فيما بعد عند انتهائنا من التعرف على شخصيات أئمة المذاهب .

مع الخلفاء والولاة

أدرك مالك بن أنس من العهد الأموي أربعين سنة ، ومن العهد العباسي ستاً وأربعين سنة ، لأنّ ولادته سنة (٩٣ هـ) ووفاته سنة (١٧٩ هـ) على اختلاف الأقوال في ذلك ، وبهذا فقد أدرك الدولتين الأموية والعباسية ، وقد كانت ولادة مالك في عهد الوليد بن عبد الملك .

ولم نعرف عن نشأته الأولى شيئاً ، حتى نتكلم عن حياته في العهد الأموي، لأنّ مالكا لم يكن من المبرزين في ذلك العصر ، فيسجل التاريخ قضاياها في العهد الأموي ، ولم يكن لبيته نشاط سياسي ولا علمي حتى يكون معرضاً لأخطار الدولة ، وإنّما يأتي الحديث عنه في العهد العباسي الذي يبتدئ من سنة (١٣٣ هـ)، وهو تاريخ سقوط الدولة الأموية وانهيارها ، كما أنّ عهد أبي العباس السفاح خال عن ذكره ، وإنّما يبتدئ حديثه من آخر خلافة المنصور .

ولم يكن لمالك بن أنس شهرة إلا بعد اشتداد الخلاف بين أهل الرأي ، وأهل الحديث ، وبعد وقوعه في المحنة . والشيء المهم الذي يجب أن يلحظ هو تطور حياة مالك وانتقاله من دور الغضب عليه - من قبل الدولة - إلى دور الرضا عنه ، ومن عهد المحنة والشدة إلى عهد التبجيل والرفاهة . وقد اختلفت الأقوال في سبب محنته وضربه بالسياط .

فمن قائل : إنّ مالكا كان يجاهر بمخالفة ابن عباس في جواز نكاح المتعة ، ويقول : إنّّه حرام . ويروون أنّه حمل إلى بغداد وسئل عن نكاح المتعة ، فقال : هو حرام ،

فقليل له في قول ابن عباس فيها ، فقال : كلام غيره فيها أوفق لكتاب الله ، وأصرّ على القول بتحريمها ، فطيف به على ثور مشوّهاً ، فكان يرفع القدر عن وجهه ، ويقول : يا أهل بغداد ! أنا مالك بن أنس فعل بي ما ترون لأقول بجواز المتعة^(٤٨٦) .

وهذا بعيد عن الواقع ، لأنّ ضرب مالك بالسياط أو محنته - كما يقولون - كانت في المدينة لا في بغداد ، ولئن كان سبب محنته قوله بجواز المتعة الأمر الذي أوجب الغضب عليه من الدولة ، فهل أصرّ مالك على رأيه فيما بعد ؟ ووافقه الدولة ، وعرفت خطأها ، فقرّبتّه ؟ أم أنّه وافق رأيها وتنازل عن اصراره وترك ما وافق كتاب الله لما وافق آراءهم ؟ فهذا أمر يبعث على الاستغراب ولعلّهم أرادوا اتساع دائرة ذكره بتعدد صورها .

ومنها، ما يذكره بعضهم : أنّ السبب هو عدم رضا بعض الطالبين عنه ، لتفضيله عثمان على علي (عليه السلام) . وهذا بعيد كالأول وإن كان يذهب مالك لذلك .

والصحيح في ذلك وإن اختلفت الأقوال فيه أنّ سبب ضربه بالسياط هو فتواه بما لا يوافق غرض السلطة بأيّ صورة كان وبأيّ سبب حصل ، وذلك في زمن ولاية جعفر بن سليمان سنة (١٤٦ هـ) ، فإنّه جرّد مالكاً ومدّه وضربه بالسياط حتى انخلعت كتفاه ، وقيل: إنّ المنصور قد نهى مالكاً عن الحديث «ليس على مستكره طلاق» ثمّ دسّ إليه من يسأله عنه ، فحدّث به مالك ، فضربه بالسياط^(٤٨٧) حتى انخلعت كتفه . قال إبراهيم بن حماد : كنت أنظر إلى مالك إذ اقيم من مجلسه حمل يده اليمنى أو يده اليسرى بالأخرى .

كما أنّ مالكاً قد تظاهر بالدعوى لمحمد بن عبد الله ذي النفس الزكية . وبالجملّة فإنّه إلى حدود سنة (١٤٦ هـ) هو في دوره الأول ، ثمّ انتقل بعد ذلك إلى دور الحفاوة والتجلة .

مع المنصور

لمالك مع المنصور أخبار كثيرة ، منها قبل اتصاله الوثيق به، ومنها بعد ذلك . ونأتي بالبعض من الطرفين في ذلك :

(٤٨٦) الشذرات ج ١ ص ٢٩٠ .

(٤٨٧) الانتقاء لابن عبد البر ص ٤٣ - ٤٤ .

دخل عبد الله بن طاووس اليماني^(٤٨٨) على المنصور ، ومعه مالك بن أنس ، فقال المنصور : حدثني عن أبيك . قال حدثني أبي : أن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله في سلطانه ، فأدخل عليه الجور في حكمه . فأمسك المنصور . قال مالك : فضمت ثيابي خوفاً من أن يصيبني دمه . ثم قال المنصور : ناولني الدواء . فلم يفعل ، فقال : لم لا تناولني الدواء ؟ ، فقال : أخاف أن تكتب بها معصية . قال المنصور : قوما عني .

قال عبد الله : ذلك ما كنا نبغيه . قال : مالك فما زلت أعرف فضله^(٤٨٩) . ودخل مالك هو وابن أبي ذؤيب وابن سمعان على المنصور عندما ولي الخلافة ، وكان منظر المجلس يملأ القلب رعباً ، كما يحدث مالك ويصف ما دخله من الخوف عندما نظر إلى الجلاوزة يحملون السلاح .

فألقي المنصور سؤالاً مشتركاً ، فقال بعد كلام طويل : أيّ الرجال أنا عندكم؟ أمن أئمة العدل أم من أئمة الجور ؟ قال مالك بن أنس : فقلت : يا أمير المؤمنين، أنا متوسل إليك بالله تعالى وأتشفع إليك بمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وبقرابتك منه إلا ما أعفيتني من الكلام في هذا .

قال : قد أعفأك أمير المؤمنين من هذا ، ثم التفت إلى ابن سمعان ، فقال له أيها القاضي : ناشدتك الله تعالى أيّ الرجال أنا عندك ؟ فقال ابن سمعان : أنت والله خير الرجال ، والله يا أمير المؤمنين، تحج بيت الله الحرام وتجاهد العدو، وتؤمّن السبل ويأمن الضعيف بك أن يأكله القوي ، وبك قوام الدين ، فأنت خير الرجال ، وأعدل الأئمة .

ثم التفت إلى ابن أبي ذؤيب^(٤٩٠) فقال له : ناشدتك الله أيّ الرجال أنا عندك ؟ قال : أنت والله عندي شرّ الرجال ، استأثرت بمال الله ورسوله ، وسهم ذي القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وأهلكت الضعيف وأتعبت القوي، وأمسكت أموالهم

(٤٨٨) عبد الله بن طاووس اليماني أبو محمد اليماني روى عن أبيه وعكرمة بن خالد ، وروى عنه خلق كثير ، وهو من رجال الصحاح . وقد أخطأوا في تعيين سنة وفاته في سنة (١٣٣ هـ) وبهذا لا تصح هذه الحكاية . والصحيح انه متأخر عن هذا الوقت .

(٤٨٩) الشذرات ج ٢ ص ١٨٨ .

(٤٩٠) هو أبو الحارث محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن أبي ذئب أو ذؤيب العامري المدني المتوفى وأ سنة (١٥٩ هـ) . قال الواقدي ولد سنة (٨٠ هـ) ، وكان من أورع الناس وأفضلهم ، وقيل : إن المهدي حج فدخل مسجد النبي فقام الناس إلا ابن أبي ذئب ، فقيل له : قم فهذا أمير المؤمنين ، فقال : إنما يقوم الناس لرب العالمين ، فقال المهدي : دعوه فقد قامت كل شعرة على بدني .

، فما حَبَّتْكَ غداً بين يدي الله ؟ فقال أبو جعفر: ويحك ما تقول انظر ما أمامك؟! قال : نعم رأيت أسيفاً وإنما هو الموت ، ولا بدّ منه عاجله خير من آجله^(٤٩١)، وخرج آمناً لم ينله شيء .

أما مالك فبقي عند المنصور، ويا ليت مالكا أجاب المنصور بجواب وسط، لا كابن سمعان الذي خالف الحق ولا يستبعد منه ، فهو يعيش على بساط الدولة ويشغل وظيفة القضاء، ويتمنى بقاء المنصور .

وبعد أيام الشهور *** ليوم تعداد النقود

ولا كجواب ابن أبي ذؤيب الذي هو بكامل الصراحة والجرأة الأدبية التي فقدها مالك.

ولم يحدثنا التاريخ بموقف مشهود له تتجلى به شجاعته واقدامه، كغيره من العلماء الذين واجهوا المنصور في أخرج المواقف ، كعبد الله بن مرزوق عندما إلتقى بأبي جعفر في الطواف ، وقد تنحّى الناس عنه، فقال له عبد الله: من جعلك أحقّ بهذا البيت من الناس تحول بينه وبينهم وتنحيهم منه؟ فظهر أبو جعفر في وجهه فعرفه. فقال: يا عبد الله بن مرزوق، من جرأك على هذا، ومن أقدمك عليه؟ فقال عبد الله : و ما تصنع بي؟ أبيدك ضرر أو نفع ؟ والله ما أخاف ضررك ولا أرجو نفعك، حتى يكون الله عزّ وجلّ يأذن لك فيه.

فقال المنصور : إنك أحللت بنفسك ، وأهلكتها.

فقال عبد الله: اللهم إن كان بيد أبي جعفر ضررٌ، فلا تدع من الضر شيئاً إلا أنزلته عليّ، وإن كان بيده منفعتي ، فاقطع عني كلّ منفعة منه، أنت ياربّ بيدك كلّ شيء، وأنت ملِك كلّ شيء ، فأمر به أبو جعفر فحمله إلى بغداد، فسجنه بها ثم أطلقه^(٤٩٢).

هكذا كان موقف ذوي الصراحة والجرأة الأدبية. أمّا مالك فلم يحدثنا التاريخ أنّه أقدم على شيء من ذلك مع المنصور وغيره، لكن يقال عنه: بأنّه كان يدخل على الأمراء والخلفاء ويعظهم ويرشدهم ويدعوهم إلى الخير، وأنّه كان يحثّ العلماء على إرشاد الخلفاء والأمراء، وقول الحقّ لهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

(٤٩١) الإمامة والسياسة ج ٢ ص ١٥٣ .

(٤٩٢) الإمامة والسياسة ج ٢ ص ١٥٦ .

نعم يمكن أن ذلك كان يصدر منه مع أمراء المدينة بعد ما حظي بإقبال المنصور عليه وقربه منه، فقد نقل أنه كان يطلب من مالك أن يبدي رأيه في ولايته على الحجاز، وقال له في ذلك:

إن رابك ريب من عامل المدينة، أو عامل مكة، أو أحد من عمال الحجاز في ذاتك أو ذات غيرك أو سوء أو شر في الرعية؛ فاكتب إليّ بذلك أنزل بهم ما يستحقون^(٤٩٣).

ولذلك نرى أن الولاة كانوا يحترمونهم غاية الاحترام، ويخشونه كخشيتهم من المنصور، فعظمت بذلك منزلة مالك، وتقرب الناس إليه، وازدحموا على بابه كازدحامهم على أبواب الأمراء.

(٤٩٣) مالك بن أنس إمام دار الهجرة لعبدالحليم الجندي: ٢٥٤ .

وهذا هو السبب في هيبة مالك في النفوس، لأنّ الحكام كانوا يهابونه حتى أنّهم يحسون بالصغر في حضرته، كما حدّث الشافعي عندما قدم المدينة يحمل كتاباً لواليتها من والي مكة، ويطلب منه أن يوصله إلى مالك، فقال الوالي: يافتي، إنّ مشيي من جوف المدينة إلى جوف مكة حافياً راجلاً أهون عليّ من المشي إلى باب مالك، فلست أرى الذلة حتى أقف على باب داره^(٤٩٤)، فإذا كان الولاة هذه حالتهم معه، فالناس أولى بذلك. وكيف لا يهابه الولاة ويده أمرهم من عزل وتعيين؟ هذا هو سر هيبة مالك مرجعها لقوّة المنصور التنفيذية.

اتّصاله بالمنصور

والذي يظهر أن اتّصال مالك بالمنصور وتقريبه إياه كان في السنة التي حجّ فيها المنصور على ما يرويه ابن قتيبة: أنّ المنصور كتب إلى مالك: أن واف الموسم في العام القابل إن شاء الله، فإني خارج إلى الموسم. فلما حجّ المنصور (١٥٣ هـ) ودخل عليه مالك، فاعتذر المنصور إليه ممّا ناله من الضرب والإهانة وقال له - بعد كلام طويل - : ولقد أمرت أن يؤتى بعدوّ الله من المدينة على قتب - يعني جعفر بن سليمان الذي ضرب مالكا - وأمرت بضيق مجلسه، والمبالغة في إمتهانه، ولا بدّ أن أنزل فيه من العقوبة أضعاف ما نالك منه.

فقال مالك: عافى الله أمير المؤمنين ، وأكرم مثواه، قد عفوت عنه لقرايته من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم منك^(٤٩٥).

وبهذا يتّضح أنّ هذا الاجتماع هو أول اجتماع بعد ضرب مالك وإهنته، ثم أمره أن يضع كتاباً يحمل الناس عليه، ويبتّه في الأمصار ويأمر الناس بالعمل به ، وأن لا يقضى بسواه. فقال مالك: إنّ أهل العراق لا يرضون علمنا، ولا يرون في علمهم رأينا.

فقال أبو جعفر: يحملون عليه ونضرب عليه هاماتهم بالسيف وتقطع طي ظهورهم بالسياط، فعجل بذلك وسيأتي المهدي في العام المقبل. وقد فرغت من ذلك. ثم أمر له بألف دينار عيناً ذهباً وكسوة عظيمة، ثم أمر لابنه بألف دينار^(٤٩٦).

(٤٩٤) معجم الأدباء ج ١٧ ص ٢٧٥.

(٤٩٥) الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٢٠٢.

وطلب المنصور من مالك أن يذهب معه إلى مدينة السلام، وقال له: اذهب معي فلا أقدم عليك أحداً، فقال مالك: إن تكن عزيمة من أمير المؤمنين - يعني شيئاً واجباً - فلا سبيل إلى مخالفته ، وإن تكن غير ذلك، فقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، فقال له المنصور : فلا أحمل عليك شيئاً تكرهه، ثم أجازته بثلاث صرر: كل صرة ألف دينار، فلما خرج مالك ، قال ولد المنصور لأبيه: أتدني رجلاً من رعيّتك حتى يجلس منك هذا المجلس؟ ! فقال له المنصور: ما على وجه الأرض اليوم رجل يستحيى منه إلا مالك وسفيان الثوري^(٤٩٧).

وقال المنصور لمالك: يا أبا عبد الله، ذهب الناس ولم يبق غيري وغيرك . ودخل مالك بن أنس على المنصور فقال: يا مالك مالي أراك تعتمد على قول ابن عمر دون أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ؟ فقال مالك: يا أمير المؤمنين، إنّه آخر من بقي عندنا من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فاحتاج الناس إليه، فسألوه وتمسكوا بقوله. فقال : يا مالك، عليك بما تعرف إنه الحق عندك، ولا تقلدني علياً وابن عباس^(٤٩٨).

ويمكن أن تكون كلمة ابن عباس من الزوائد التي ألحقت بالعبارة لتبرير موقف المنصور عن النهي عن تقليد عليّ في الأحكام الشرعية، لأنّه بعد أن كان علم عليّ مفخرة لبني العباس ، ويجاهرون بفضله وبعلمه، أصبح عند اشتداد ملكهم وقوة سلطانهم لا يروقههم أن يروي أحد عن عليّ وأهل بيته، وقد شاركوا الأمويين في هذه النزعة، بل بصورة أشدّ وأعظم في المؤاخدة.

وما من شك في أن المنصور اتجه لمالك بتمام العناية، واشتدت بينهم الروابط والصلات، تلك الروابط التي أوجدت في مالك شخصية له حقّ رعاية حكام الحجاز وولاته؛ مما جعلهم يخشون مخالفته، ويتهيبون مقامه، وبذلك اتجهت الأنظار إليه وتكوّنت شخصيته ، وعلت منزلته دون غيره من علماء دار الهجرة، وغيرهم من علماء المسلمين.

(٤٩٦) الإمامة والسياسة ج ٢ ص ١٩٥ .

(٤٩٧) مناقب مالك للزاوي ص ٢٥ .

(٤٩٨) انظر اوجز المسالك إلى موطأ مالك ج ١ ص ٣٠ - ٣١ .

ونحن لا نريد أن نظلم مالكا إن قلنا: إن من الظلم تقديمه على علماء المدينة، وجعل الفتوى منوطة به دون غيره، فما هي المؤهلات التي جعلته أن يكون كذلك؟ فقد كان مالك لا يعرف عن نفسه ما يقول المنصور بأنه أعلم أهل الأرض. حدث مالك قال: قال لي أبو جعفر يوماً: أعلی ظهرها أحد أعلم منك؟ قلت: بلى. قال: فسمّهم لي. قلت: لا أحفظ أسماءهم، قال أبو جعفر: قد طلبت هذا الشأن - أي العلم - في زمن بني أمية وقد عرفته. وبهذا رأينا مالكا يعترف بوجود من هو أعلم منه، ولكن لا يصرح باسمه، لعلمه بما وراء ذلك.

وقد كان مالك يسأل عن كثير من المسائل الشرعية، فكان أكثر جوابه بلا أدري. وقد قصده رجل من العراق بأربعين مسألة، فأجاب عن خمس وثلاثين بلا أدري، وقد أنكر مالك على أهل مصر بأنهم عرفوا البيوع وهو لا يعرفها، إذا كانوا يرجعون إليه، على أننا نجد في علماء المالكية من يتعجب من قول لا أدري. فهذا محمد بن عبد الحكم المتوفى سنة (٢٦٨ هـ) كان يقول: أتعجب ممن يقول: لا أدري، وله كتاب في الرد على الشافعي فيما خالف الكتاب والسنة. وقال عبد الرحمن بن المهدي: كنا عند مالك، فجاءه رجل فسأله، فقال: لا أحسن، فقال الرجل: وأي شيء أقول إذا رجعت إلى بلادي؟ قال تقول لهم: قال مالك بن أنس: لا أحسن^(٤٩٩).

والغرض أنّ مالكا نال حظاً وافراً في آخر دولة المنصور مما جعله يحاول أن يجمع الناس على علمه، ومن يخالف تضرب عنقه.

وجاء من بعده المهدي، فكانت منزلة مالك في دولته عظيمة، وقد أمره بأن يضع للناس كتباً يحملهم عليها. وكان يحترمه ويجلّه ويوصله بهدايا جزيلة وعطاء وافر، ويقرب مجلسه، ويظهر للناس شأنه وعلو منزلته. وكان المهدي يطلب من مالك أن يزوده بوصاياه لينتفع بها.

فقال له مالك: أوصيك بتقوى الله وحده، والعطف على أهل بلد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وجيرانه، فإنه بلغنا أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «المدينة مهجري، وبها قبري، وبها مبعثي، وأهلها جيرانني، وحقيق على أمّتي حفظي في جيرانني، فمن حفظهم كنت له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة»^(٥٠٠).

(٤٩٩) مالك لمحمد أبو زهرة ص ٤٧.

(٥٠٠) مالك لمحمد أبو زهرة ص ٦٥ - ٦٦.

وعلى أثر هذه الوصية أخرج المهدي عطاء كثيراً، وطاف بنفسه على دور المدينة، ولما أراد الخروج ، دخل عليه مالك فقال له : إني محتفظ بوصيتك التي حدثتني بها.

ولما جاء دور الرشيد، سار على تلك الخطة التي سار عليها آباؤه، فاحتفظ بمكانة مالك، وعظمه غاية التعظيم، ولما قدم المدينة جاء الرشيد إلى منزل مالك بنفسه، فأجلسه مالك على منصته التي كان يجلس عليها للحديث، ثم أراد مالك أن يظهر من الرشيد فيه للملأ أعظم من ذلك، فقال له: يا أمير المؤمنين ما أدركت أهل بلدنا إلا وهم يحبون أن يتواضعوا لله، فنزل الرشيد عن المنصة، وجلس بين يدي مالك، تواضعاً لعلمه وانقياداً لقوله^(٥٠١).

ويطول بنا الحديث إذا حاولنا أن نشبع الموضوع في علاقة مالك بالخلفاء والولاة، وأردنا أن نقيس حياته الأولى التي قضاها في خمول، لبعده عن سلطان عصره، مع حياته الثانية التي خطا بها إلى ميدان الشهرة والتفوق على غيره، حتى أصبح موضع عناية الدولة، وكان المنصور يطلب منه مزاملته للحج، ويسميه بركن الإسلام، وينوط أمر ولاته به، والرشيد يأمر عامله بأن لا يقطع أمراً دون مالك، فوقعت هيئته في النفوس ، وهابته تلامذته، حتى أنه ليدخل عليه الرجل إلى مجلسه فيلقي السلام عليه، فلا يرد عليه أحد إلا همهمة وإشارة، ويشيرون إليه ألا يتكلم مهابة وإجلالاً، ولا يستطيع أحد أن يستفهمه أو يدنو منه، وكان على رأسه سودان يأترون بأمره، فإذا أشار إليهم بإخراج أحد أخرجوه^(٥٠٢).

وكان على بابه حجاب يمنعون الناس من الدخول عليه فإذا أذن لهم ازدحموا على الباب .

قال أبو مصيب: كانوا يزدهمون على باب مالك بن أنس فيقتتلون على الباب من الزحام، وكنا عند مالك فلا يكلم هذا هذا، ولا يلتفت ذا إلى ذا والناس قائلون برؤوسهم هكذا - مبالغة في الانصات - وكان السلاطين تهابه، وهم قائلون ومستمعون، وكان يقول في المسألة لا أو نعم فلا يقال له من أين لك هذا؟

وكان لمالك بن أنس سلطة تنفيذية فهو يضرب ويسجن، وقد ذكرت كتب مناقب مالك كثيراً من ذلك ، فمنها:

(٥٠١) مالك بن أنس لعبد الغني الدقر ص ١٤١ .

(٥٠٢) مناقب مالك للزاوي ص ١٨ و الانتقاء لابن عبد البر ص ١٢ .

أن رجلاً كان عند مالك فقال: أليس قد أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بدفن الشعر والأظفار؟ فغضب مالك وأمر بضربه وسجنه.

فقيل له: إنه جاهل.

فقال: يقول قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من

كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار (٥٠٣).

وقد أعلن مالك غضبه عمّن يروي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيضربه أو يحبسه حتى يصحّ عنده ذلك فيطلقه فما كان يتهياً لأهل المدينة أن يقولوا قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

وكان المشايخ الذين سمعوا الحديث مع مالك قد تركوا الحديث هيبة لمالك أو خشية منه إلى أن مات حدثوا بما عندهم.

وسأله هشام بن القاري عن حديث وهو واقف، فضربه عشرين سوطاً ثم أشفق عليه فحدثه. ودخل عليه رجل فقال: ما تقول فيمن قال: القرآن مخلوق؟ فقال مالك: زنديق اقلّوه. فقال الرجل: يا أبا عبد الله إنّما أحكي كلاماً سمعته. قال مالك: لم اسمعه من أحد إنّما سمعته منك. إلى غير ذلك مما حدثتنا به كتب مناقبه (٥٠٤)، ويجب ألا يغيب من بالنا مقاصد الدولة من وراء هذا الاتجاه.

إذاً فليس من الغريب أن تتسع أقوال المدح فيه، وأن يتقرّب الناس إليه برويا النبي؛ فهذا يأتي إليه ويقول له: كنت راقداً في الروضة فرأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) متوكئاً على أبي بكر وعمر فقلت: يا رسول الله، من أين أقبلت؟ فقال مضيت إلى مالك فأقمت له الصراط المستقيم (٥٠٥).

ويقدم عليه آخر وهو جالس في المسجد، فيقول: أيكم مالك بن أنس؟ فقالوا: هذا . فسلم عليه. فاعتنقه وقبله بين عينيه وضمّه إلى صدره وقال: رأيت البارحة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذا الموضع فقال: هاتوا مالكاً فأتي بك ترعد فرائصك فقال: ليس بك بأس أبا عبد الله وكناك. وقال: اجلس: وقال افتح حجرك فملأه مسكاً منثوراً، وقال: بثه في أمّتي. فبكى مالك طويلاً وقال: الرؤيا تسرّ ولا تضرّ إن صدقت رؤياك، فهو هذا العلم الذي أودعني الله (٥٠٦).

(٥٠٣) كنز العمال ج ١٠ ص ٢٣٧، ح ٢٩٢٥٧.

(٥٠٤) مناقب مالك للزواوي ص ٣٠، وتزيين الممالك للسيوطي ص ١٤.

(٥٠٥) تزيين الممالك للسيوطي ص ٤٤.

(٥٠٦) مناقب مالك للزواوي ص ١٧.

ومن هذا ونحوه مما يتقرب به المتقربون، أو يفتعله المغالون فيه ويجعلونه من دواعي أهليته، بل مؤهلاته.

ولو أردنا استقصاء ما أحيطت به شخصية مالك من الزوائد والمبالغات، فإثنا نخرج عن خطة الاختصار .

شيوخ مالك

ازدهر عصر مالك برجال العلم ولمعت فيه أسماء رجال تحدّث الناس عنهم لشهرتهم العلمية، ومكانتهم في المجتمع الإسلامي وأصبحت المدينة يؤمّها طلاب العلم من مختلف الأقطار الإسلامية، وامتازت بالتمسك بالحديث ومحاربة الرأي والقياس، كما كانت صبغة الكوفة هي الميل إلى الرأي والقياس وعظم بين البلدين انشقاق أدى إلى خصومة وعداء، خرج عن نطاق البحث العلمي إذ تعصّب كلّ لبلده. وكانت المدينة تزدهر بمدرسة الإمام الصادق (عليه السلام)، وقد تهافتت الوفود إليها عندما وجد الناس فرصة الاتصال بأهل البيت (عليهم السلام)، ورفع عراقيل المؤاخذه على ذلك، وكانت مدرسة الإمام الصادق (عليه السلام) متمسكة بالحديث، لا تجعل للرأي والقياس دخلاً في الأحكام الشرعية كما مرّ بيان ذلك.

وكان مالك بن أنس هو أحد المنتمين لمدرسة الإمام الصادق مدة من الزمن، وعنه أخذ الحديث، فالإمام الصادق هو من أكبر شيوخ مالك بن أنس كما مرّ بيانه. وقد أخذ مالك أيضاً عن عدة شيوخ من علماء المدينة وغيرهم: منهم عامر ابن عبد الله بن الزبير بن العوام وزيد بن أسلم، وسعيد المقبري، وأبي حازم، وصفوان بن سليم، وصالح بن كيسان، وإسماعيل بن أبي حكيم، وحמיד بن قيس المكي. واختصّ مالك بالأخذ عن جماعة منهم، ولازمهم ملازمة تامة، وهم: ابن هرمز، ونافع مولى ابن عمر، وابن شهاب الزهري، وربيعة بن عبد الرحمن المعروف بربيعة الرأي، وأبو الزناد، فهؤلاء أخصّ مشايخ مالك، ولا بدّ من الإشارة إلى كل واحد من هؤلاء:

ابن هرمز

وتطلق هذه الكنية - ابن هرمز - على رجلين: أحدهما عبد الرحمن بن هرمز، ولقبه الأعرج وكنيته أبو داود، وكان قارئاً محدثاً توفي سنة (١١٧ هـ). وثانيهما عبد الله بن يزيد بن هرمز وكنيته أبو بكر توفي سنة (١٤٨ هـ).

أما الأول : فهو عبد الرحمن بن هرمز مولى بني هاشم أبو داود توفي سنة (١١٧ هـ) بالإسكندرية، روى عن أبي هريرة ومعاوية وأبي سعيد، وعنه الزهري، وأبو الزبير، وأبو الزناد، وروى له أصحاب الصحاح الستة. وقد اختلف فيمن اختصّ مالكاً من هذين، هل هو ابن هرمز المتقدم أم هذا؟ وقد حقق ذلك بعض الباحثين وانتهى إلى أنّه الأول^(٥٠٧)، ولم يكن هو هذا، ويمكن أن يكون هو الصحيح، لأنّ ولادة مالك سنة (٩٨ هـ) على الاختلاف، فيكون عمره عند وفاة أستاذه ١٩ سنة، وفي هذا الدور لم يتّجه مالك لطلب علم الحديث فلا يمكن أن يوصف بالملازمة له وكسب المواهب التامة منه على أنّه يمكن أن خروج ابن هرمز للإسكندرية متقدّم، فيكون عمر مالك أقل.

نافع

نافع العدوي مولى عبد الله بن عمر المتوفى سنة (١١٧ - ١٢٠ هـ). روى عن مولاه عبد الله بن عمر، وأبي لبابة وأبي هريرة وعائشة، وعنه ابنه وابن جريح ومالك. وهو أحد حلقات السلسلة الذهبية، كما يقولون إن أصحّ الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر فهو شيخ مالك، وعنه أخذ قضايا ابن عمر وفقهه، ونافع من رجال الصحاح الستة.

الزهري

ابن شهاب الزهري هو محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب المتوفى سنة (١٢٤ هـ).

وكانت له منزلة عند خلفاء بني أمية، وولاه يزيد بن عبد الملك القضاء، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق: عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أعلم بالسنة الماضية منه، وقد روى مالك أنّه أوّل من دون أحاديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بأمر من عمر بن عبد العزيز، وهو أحد تلامذة الإمام زين العابدين والإمام الباقر (عليهما السلام)^(٥٠٨)، ولكّنه على انحراف لعلّفته ببني أمية.

وقد كتب إليه الإمام زين العابدين (عليه السلام) رسالة يعظه بها ويحذّره أولئك الحكام الذين استمالوه وقربوه لأغراضهم ، ونرى من المهم ذكر بعض تلك الرسالة الحكيمة الخالدة:

(٥٠٧) مالك بن أنس لعبد الغني الدقر ص ٦٣. مالك بن أنس لمحمد أبو زهرة ص ٨٨ .

(٥٠٨) تنقيح المقال ج ٣ ص ١٨٦/١١٣٧٢.

رسالة الإمام زين العابدين (عليه السلام) للزهري

«كفانا الله وإياك من الفتن، ورحمك من النار، فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يرحمك. فقد أثقلتك نعم الله بما أصح من بدنك، وأطال من عمرك. وقامت عليك حجج الله بما حملك من كتابه، وفقهك فيه من دينه وعرفك فيه من سنة نبيه. فانظر أي رجل تكون غداً إذا وقفت بين يدي الله فسألك عن نعمه عليك كيف رعبتها... ولا تحسبن الله قابلاً منك بالتعذير، ولا راضياً منك بالتقصير، هيهات هيهات ليس كذلك، أخذ على العلماء في كتابه إذ قال : (لتنبيته للناس ولا تكتمنه).

واعلم أن أدنى ما كتمت وأخف ما احتملت أن أنست وحشة الظالم. وسهلت له طريق الغي بدنوك منه حين دنوت. وإجابتك له حين دعيت. فما أخوفني بإثمك غداً مع الخونة! وأن تسأل عما أخذت باعانتك على ظلم الظلمة. إنك أخذت مالبس لك ممن أعطاك. ودنوت ممن لم يرد على أحد حقاً ولم ترد باطلاً حين أدناك، وأحببت من حاد الله. أو ليس بدعائه إياك حين دعاك جعلوك قطباً أداروا بك رحي مظالمهم، وجسراً يعبرون عليك إلى بلاياهم، وسلماً إلى ضلالهم، داعياً إلى غيهم، سالكاً سبيلهم، يدخلون بك الشك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهال إليهم، فما أقل ما أعطوك في قدر ما أخذوا منك، وما أيسر ما عمروا لك فكيف ما خربوا عليك! فانظر لنفسك فإنه لا ينظر إليها غيرك، وحاسبها حساب رجل مسؤول، وانظر كيف شكرك لمن غذاك في نعمه صغيراً أو كبيراً، فما أخوفني عليك أن تكون كما قال الله تعالى في كتابه: (فخلف من بعدهم خلف...) (الآية). إلى آخر الرسالة الخالدة (٥٠٩).

والرسالة تعبر عن اتجاه الإمام زين العابدين إلى إبعاد رجال الدين وأصحاب المنزلة الدينية عن دوائر الحكم ورجال الجور والباطل، فإثما احتل العلماء هذه المنزلة في نفوس الناس لكان العقيدة في النفوس، وتمجيد كل ما يمت إلى الدين بصلة، خاصة حملة العلم وأصحاب الفقه الذين يجب أن يكونوا دعائم للحق لا دعائم للباطل والجور، وقد لمست الأمة بعد الحكم عن العقيدة وإن لم تكن مبادئ الإسلام هي التي قررت مضمون العدالة والمساواة، فإن نوااميس الحياة تؤكد تأثر المجتمع بالعلماء والأمراء، فإذا صلحاً صلح المجتمع، فكيف إذا كان الزهري في غمار الملوك الطغاة البغاة، وصفة الزهري الدينية ومنزلته العلمية يفترض أن تحمله إلى شاطئ الإمامة لا إلى خضم السلطان فاختار الإمام زين العابدين (عليه السلام) أن يتجه بالخطاب إلى الزهري في فترة اختط فيها الإمام نهج الدعوة الدينية لبناء النفوس، وتنزيه الدين من الالتقاء مع الجائرين، وتأكيد سياسة عدم التعاون مع الظلمة التي سار عليها أهل البيت، وحرصوا على إلزام الأمة مقاطعة الظالمين

وهجرهم. وإنّ من أشدّ معوّقات ذلك أن يكون من يفترض فيهم الصلاح جسراً للبلاء وسلماً للضلال.

والجدير بالذكر أنّ الإمام زين العابدين وجّه عنايته الى الزهري كواحد من تلاميذه لما كان الزهري يغشى مجلسه فيقوم الإمام زين العابدين بإسداء النصح والإرشاد. دخل الزهري على الإمام زين العابدين وهو كئيب حزين، فقال له زين العابدين (عليه السلام): ما بالك مغموماً؟ قال يا ابن رسول الله، غموم وهموم تتوالى عليّ لما امتحنت به من جهة حساد نعمي والطامعين فيّ، وممن أرجو، وممن أحسنت إليه فيخلف ظني. فقال له الإمام: اضغط عليك لسانك تملك به إخوانك، قال الزهري: يا ابن رسول الله، إنّني أحسن إليهم بما يبدر من كلامي. قال الإمام زين العابدين: هيهات هيهات، إياك أن تعجب من نفسك بذلك، وإياك أن تتكلم بما يسبق الى القلوب إنكاره، وإن عندك اعتذاره، فليس كلّ من تسمعه شراً يمكنك أن توسعه عذراً. ثم قال: يا زهري، من لم يكن عقله من أكمل ما فيه كان هلاكه من أيسر ما فيه. ثم قال: يا زهري: أما عليك أن تجعل المسلمين بمنزلة أهل بيتك فتجعل كبيرهم بمنزلة والدك، وتجعل صغيرهم بمنزلة ولدك، وتجعل تربك منهم بمنزلة أخيك، فأيّ هؤلاء تحبّ أن تظلم، وأيّ هؤلاء تحبّ أن تدعو عليه، وأيّ هؤلاء تحبّ أن تهتك ستره، وإن عرض لك إبليس لعنه الله بأنّ لك فضلاً على أحد من أهل القبلة فانظر إن كان أكبر منك فقل: قد سبقني بالإيمان والعلم الصالح فهو خير مني. وإن كان أصغر منك فقل: قد سبقني بالإيمان والعمل الصالح فهو خير مني. وإن كان تربك فقل: أنا على يقين من ذنبي في شك من أمره فمالي أدع يقيني لشكي. وإن رأيت المسلمين يعظمونك ويوقرونك ويجلونك فقل: هذا فضل أخذوا به. وإن رأيت منهم جفاءً وانقباضاً فقل: هذا الذنب أحدثته، فإنك إذا فعلت ذلك سهّل الله عليك عيشك وكثر اصدقائك وفرحت بما يكون من برّهم ولم تأسف على ما يكون من جفائهم (٥١٠).

أبو الزناد

عبد الله بن ذكوان مولى بني أمية أبو الزناد المدني المتوفى سنة (١٢٠ هـ)، روى عن ابن عمر مرسلاً، وعن الأعرج فأكثر، قال الليث: رأيت أبا الزناد وخلفه ثلاثمائة طالب، وقد ولي بعض أمور بني أمية، وكان من الموالى الذين رفعت الدولة الأموية شأنهم، وقدمتهم على غيرهم وقد أخذ عنه مالك قليلاً وكان أكثر اتصاله وأخذه عن ابن هرمز والزهري (٥١١).

(٥١٠) الاحتجاج للطبرسي ج ٢ ص ١٥٩ .

(٥١١) تهذيب الكمال ج ١٤ ص ٤٧٦ / ٣٢٥٣ .

ربيعة الرأي

ربيعة بن عبد الرحمن بن فروخ، ويكنى أبا عثمان وهو من موالي آل المنكدر توفي بالأنبار سنة (١٣٦ هـ) في مدينة الهاشمية، تقدّمت ترجمته في الجزء الأول من هذا الكتاب .

وقد أخذ مالك عن ربيعة وحضر عنده وهو صغير السن، عندما وجهته أمّه لطلب العلم، كما أنّ آراء ربيعة واضحة في فقه مالك^(٥١٢).

تلامذة مالك

لقد بالغ كتاب المناقب بالكثرة لتلامذة مالك، وضافوا إليهم من ليسوا منهم، وأخذوا يعدّون من هم أكبر منه سنّاً ومن تقدّم بهم الزمن عليه، ويعدّون أحياناً أخرى من رواته شيوخه الذين تلقى عليهم وروى عنهم. ولا غرابة أن يروي الشيخ عن تلميذه، ولكن إذا كان لذلك حقيقة واقعة فلا غضاضة في قبولها، وإن كان لمجرّد المبالغة في التقدير والتوثيق فليس من العلم قبوله، بل يجب رده^(٥١٣).

ولقد أدعوا أن الزهري قد روى عنه، فيذكر القاضي عياض: أنّ من التابعين الذين روى عنه محمد بن مسلم الزهري، وقد نفى ذلك ابن عبد البر. ولعلّ الذي أوقعهم في هذا الخطأ: هو الاشتباه بين اسم الزهري هذا وبين الزهري أحمد بن أبي بكر قاضي المدينة، فإنّه من رواة الموطأ وتفقه بأصحاب مالك وتوفي سنة (٢٤٢ هـ)، كما قالوا إنّ أبا حنيفة من تلامذته لرواية أشهب أنّه قال: رأيت أبا حنيفة بين يدي مالك كالصبي بين يدي أبيه.

واستدلوا بما أخرجه ابن شاهين والدارقطني في غرائب مالك بسند عن حماد بن أبي حنيفة عن أبي حنيفة عن مالك في حديث: «الأيّم أحقّ بنفسها». وأخرج الخطيب البغدادي بسند عن أبي حنيفة عن مالك في حديث راعية الغنم^(٥١٤).

وقد أجيب عن ذلك بأنّ الرواية الأولى هي عن حماد بن أبي حنيفة دون ذكر أبيه.

(٥١٢) تهذيب الكمال ج ٩ ص ١٢٣ / ١٨٨١.

(٥١٣) محمد أبو زهرة في حياة مالك ص ٢٢٩.

(٥١٤) مالك بن أنس لمحمد أبو زهرة ص ١٩٦.

وأنّ الرواية الثانية هي عن أبي حنيفة عن عبد الملك هو ابن عمير فصّفه بمالك.

وقال ابن حجر لم تثبت رواية أبي حنيفة عن مالك، وهو الصحيح لأنّ أبا حنيفة أكبر من مالك بخمس عشرة سنة ومات قبله بأكثر من ثلاثين ولم تكن لمالك شهرة آنذاك^(٥١٥).

وعلى أيّ حال فإنّهم ذكروا رواية عن مالك تجاوز عددهم الألف، وأكثرهم لم يدرك مالكا، وبعضهم لم يدركه مالك. ولم يصحّ ذلك، ونحن هنا نذكر بعض تلامذته والرواية عنه.

وعلى أيّ حال فنحن نذكر كبار تلامذته وناشري علمه وفقهه.

ابن وهب

عبد الله بن وهب بن مسلم البربري نسباً القرشيّ ولأه، أبو محمد المصري المتوفى سنة (١٩٩ هـ) . روى عن يونس بن يزيد، وأسامة الليثي، ومالك، والثوري ، رحل إلى مالك سنة (١٤٨ هـ) ، ولم يزل في صحبته إلى أن توفي مالك، وكان أعلم أصحاب مالك، إلا أنه يروي عن الضعفاء، وكان مالك يكرمه ويجله وما أحد من تلامذة مالك إلا وزجره مالك، إلا ابن وهب ، وقد رحل لمصر ونشر مذهب مالك هناك، وفي المغرب أيضاً^(٥١٦).

ابن القاسم

عبد الرحمن بن القاسم أبو عبد الله العتكي مولاهم المتوفى سنة (١٩١ هـ) روى عن مالك، والليث وابن الماجشون، ومسلم بن خالد، وغيرهم، رحل إلى مالك بعد ابن وهب، ببضع عشرة سنة وطالت صحبته له ، واختص بعلم مالك دون غيره، حتى كان أثبت أصحابه به، وكانت له آراء يخالف بها شيخه مالكا. قال ابن عبد البر: كان فقيهاً قد غلب عليه الرأي، كما أنّه خالف مالكا في ابتعاده عن السلطان وعدم قبول جوائزهم ، وكان يقول : ليس في قرب الولاة ولا في الدنوّ منهم خير^(٥١٧).

(٥١٥) التعليق المجد على موطأ محمد ج ١ ص ٧٨ - ٧٩.

(٥١٦) الديباج المذهب ص ٢١٥.

(٥١٧) الديباج المذهب ص ٢٣٩.

أشهب

أشهب بن عبد العزيز القيسي أبو عمرو العامري المتوفى سنة (٢٠٤ هـ) انتهت إليه الرئاسة بمصر بعد ابن القاسم، صاحب مالكاً ولازمه وتفقه عليه، وله مدونة تسمى مدونة أشهب أو كتب أشهب، وكان يدعو على الشافعي ويتمنى موته، وتوفي بعد الشافعي بأيام^(٥١٨).

عبد الله بن الحكم

عبد الله بن الحكم بن الليث مولى عثمان بن عفان المتوفى سنة (٢١٠ هـ)، وإليه أفضت الرئاسة بعد أشهب^(٥١٩).

ابن الفرات

أسد بن الفرات بن سنان المتوفى سنة (٢١٣ هـ). أصله من خراسان، وولد بحرّان من ديار بكر، ورحل لمالك وسمع موطأه، ثم رحل إلى العراق فلقى أبا يوسف، ومحمد بن الحسن، وأسد بن عمرو، وأصحاب أبي حنيفة، فتفقه بهم، وسمع أبو يوسف منه موطأ مالك، وتولى قضاء القيروان واقتصر في العمل على مذهب أبي حنيفة، فانتشر بسببه مذهب أبي حنيفة هناك، وله مدونة على مذهب مالك^(٥٢٠).

الليثي

يحيى بن يحيى بن كثير الليثي المتوفى سنة (٢٢٤ هـ)، كان أصله من البربر وأسلم جدهم - وسلاس - على يد يزيد بن عامر الليثي، فهو من موالي الليثيين، وسمع يحيى من مالك بن أنس وهو أحد رواة الموطأ، وسمع من الليث بن سعد وغيره وتفقه بأصحاب مالك كابن وهب، وعبد الرحمن بن القاسم العتكي، وانتهت إليه الرئاسة في الأندلس، وبه اشتهر مذهب مالك، لمكانته من السلطان. قال ابن حزم:

(٥١٨) الديباج المذهب ص ١٦٢.

(٥١٩) مالك لمحمد أبو زهرة ص ٢٠٢.

(٥٢٠) الديباج المذهب ص ١٦١.

مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان: مذهب أبي حنيفة، فإنه لما ولي القضاء أبو يوسف كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق إلى أقصى عمل أفريقية ، فكان لا يولي إلا أصحابه، والمنتسبين لمذهبه، ومذهب مالك عندنا بالاندلس، فإن يحيى بن يحيى كان مكيناً عند السلطان، مقبول القول في القضاة، وكان لا يولي قاض في أقطار الأندلس إلا بمشورته واختياره، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه - والناس سراع إلى الدنيا - فأقبلوا على ما يرجون بلوغ اغراضهم به^(٥٢١).

حتى قيل: إنه لم يعط أحد من أهل الأندلس - منذ دخلها الإسلام - ما أعطي يحيى من الحظوة وعظيم القدر وجلالة الذكر. وقالوا: إنه كان مجاب الدعوة وقبره يستسقى به بقرطبة^(٥٢٢).

ابن الماجشون

عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون مولى بني تميم المتوفى سنة (٢١٢ هـ)، كان أبوه قريناً لمالك، وهو الذي قيل إنه كتب موطأ قبل مالك، ودارت الفتوى على عبد الملك في زمانه، تفقه بأبيه وبمالك ، قال يحيى بن أكثم: عبد الملك بحر لا تكدره الدلاء! وأثنى عليه ابن حبيب كثيراً، وهو من أهل مذهبه، وتفقه به خلق كثير: كأحمد بن المعدل وابن حبيب وسحنون، وكان مولعاً بسماع الغناء. هؤلاء هم عظماء أصحاب مالك وناشرو مذهبه، ونسبتهم إليه نسبة المعلم من المتعلم. وله تلامذة آخرون ليس لهم مزيد أثر في نشر مذهبه. وقد ذكر السيوطي عنهم عدداً كثيراً نسبتهم إليه بالأخذ والرواية فقط.

كتب المذهب المالكي

للفقه المالكي طريقان: أحدهما: كتابه الموطأ الذي رواه عنه الكثيرون ممن تلقوا عنه إلا أن في رواياتهم اختلافاً من زيادة ونقص، وأشهر رواة الموطأ يحيى بن يحيى الليثي، وهي المطبوعة بمصر، وهناك موطأ يرويه محمد بن الحسن،

(٥٢١) نفح الطيب ج ٦ ص ٢٠ .

(٥٢٢) نفح الطيب ج ٦ ص ٢٣ .

وهو مطبوع ببلاد الهند^(٥٢٣)، وقد روى الموطأ بروايات مختلفة عدّها بعضهم ثلاثين^(٥٢٤).

وثانيهما: تلاميذه، فقد كانوا هم المصدر الثاني لفقهه، وكانوا يدوّنون مايفتي به في المسائل ، قال القاضي عياض في المدارك: كان مالك إذا تكلم بمسألة كتبها أصحابه.

وأشهر كتب المذهب أربعة: المدوّنة، والواضحة، والعتيبية ، والموازية.

المدوّنة

فالمدوّنة: هي أصح الكتب المعتبرة في المذهب، وأصل هذه المدوّنة هي الأسدية التي دونها أسد بن الفرات بالتلقي عن ابن القاسم، وذلك أنّ ابن الفرات رحل إلى مالك وتلقّى عليه، ثم رحل إلى محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ، وأخذ عنه كتبه وتعلّم فقه العراقيين، ولما عاد إلى مصر؛ كان مالك قد مات. فأراد أن يجمع بين الفقه المالكي والفقه الحنفي، فأتى بالمسائل إلى أصحاب مالك الذين لازموه، فالتجأ أولاً إلى ابن وهب وقال له: هذه كتب أبي حنيفة، وسأله أن يجيب فيها على مذهب مالك، فتورع ابن وهب وأبى، فالتجأ إلى ابن القاسم، فأجابه إلى ماطلب، فأجابه فيما حفظ عن مالك بقول مالك، وفيما شكّ من حفظه قال: أخال، وأحسب ، وأظن. ومنها ما كان يقول فيه بالقياس على رأي له في مثله، فكان يقول: سمعته يقول في مسألة كذا كذا، ومسألتك مثله، ومنه ما قال فيه باجتهاده على أصل قول مالك. وجمع تلك الأجوبة وسماها الأسدية.

والأسدية هذه هي الأصل لمدوّنة سحنون، لأنّه تلقاها عن أسد بن الفرات. وقد تكلم بعض الناس فيها، لاشتغالها على أخال، وأظن، وأحسب. وقالوا له : جئنا بأخال وأظن وأحسب، وتركنا الآثار وما عليه السلف.

ولما تلقى سحنون الأسدية، ارتحل إلى ابن القاسم وعرضها عليه. وأسقط ما كان ظنياً، فأقبل الناس على كتب سحنون ، وهجروا كتب أسد بن الفرات، ونظر سحنون بعد ذلك في كتبه بعد أن أستوثق برواية ما هو رواية منها، وما هو رأي مخرج على أصل مالك ورتبها وزاد عليها خلاف كبار أصحاب مالك له، وذيل أبوابها بالحديث والآثار، فأصبحت المدوّنة هي الأصل الثاني للفقه المالكي^(٥٢٥).

(٥٢٣) تاريخ التشريع الإسلامي ص ٣٠٥ .

(٥٢٤) شرح الموطأ للزرقاني ج ١ ص ٧.

(٥٢٥) مالك لمحمد أبو زهرة ص ٢١٠ - ٢١١.

وأنت ترى أنّ الفقه المالكي تأثر بالفقه الحنفي، ودخله الرأي من أصحاب أبي حنيفة، كما أنّ مالكا نفسه كان يلجأ إلى الرأي، ويعمل بالقياس، كما يأتي بيانه. ثم جاء علماء المالكية، فشرحوا المدونة ووسّعوها بما علّقوا عليها. فالمدونة هي مجموعة لمسائل عن مالك، واجتهاد من تلاميذه وتلاميذ تلاميذه في وضع أحكام المسائل على قواعد مالك ومبادئه، وقد احتج سحنون لبعض مسائلها بالآثار، من روايته من موطأ ابن وهب وغيره، وبقيت منها بقية لم يتمّ سحنون فيها هذا العمل^(٥٢٦)، واتبع الناس مدونة سحنون على ما كان فيها من اختلاط المسائل في الأبواب، فكانت تسمى المدونة والمختلطة، وعكف أهل القيروان على هذه المدونة، وأهل الأندلس على الواضحة والعتيبية، وكذلك اعتمد أهل الأندلس على العتيبية، وهجروا الواضحة وما سواها^(٥٢٧).

والواضحة:

ألّفها عبد الملك بن حبيب^(٥٢٨) وقد أخذ عن ابن القاسم وطبقته، وبتّ مذهب مالك في الأندلس.

والعتيبية:

ألّفها محمد بن أحمد العتبي القرطبي المتوفى سنة (٢٥٥ هـ)، وقد أكثر فيها من الروايات المطروحة، والمسائل الشاذة، وكان يأتي بالمسائل الغريبة، فإذا أعجبه قال: أدخلوها في المستخرجة. قال ابن وضاح: في المستخرجة خطأ كثير. وقال محمد بن عبد الحكم: رأيت جلّها كذباً ومسائل لا أصل لها. ولكنها مع هذا الطعن وما فيها من الكذب والخطأ؛ فإنّ لها عند أهل العلم بأفريقية القدر العالي والطيران الحثيث، قاله ابن حزم^(٥٢٩).

والموازية:

هي لمحمد بن إبراهيم بن زياد الاسكندري المعروف بابن المواز المتوفى سنة (٢٦٩ هـ). قال القاضي عياض عن كتاب الموازية: هو أجلّ كتاب ألّفه المالكيون،

(٥٢٦) التشريع الإسلامي ص ٣٠٦.

(٥٢٧) تاريخ ابن خلدون ص ٢٤٥.

(٥٢٨) عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون بن جلهمة بن عباس بن مرداس السلمي أبو مروان المتوفى سنة

(٢٣٩ هـ) له تأليف كثيرة غير الواضحة: منها غريب الحديث، وتفسير الموطأ، وطبقات الفقهاء، وغيرها. قال ابن

لبابة: لم يكن له علم بالحديث يعرف به صحيحه من سقيم، ويفرق مستقيم من مختلفه، وكان غرضه الإجازة، وكان

يعرف بعالم الأندلس، ترجمته في نفح الطيب ج ٦ ص ١٥ والديباج المذهب ص ١٥٤.

(٥٢٩) مالك لمحمد أبو زهرة ص ٢٠٧.

وأصحّه مسائل، وأبسّطه كلاماً ، وأوعبه، وذكره أبو الحسن القابسي، ورجحه على سائر الأمّهات (٥٣٠).

هذه هي أمّهات كتب المذهب المالكي، والمعول عليها في العمل. وقد خالف أصحاب مالك في أكثر المسائل ما ذهب إليه مالك، كما خالف أبو يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني أبا حنيفة، وكما خالف المزني والبويطي الشافعي.

فأنت ترى أنّ مجموع ما عليه العمل في المذهب لم يكن من قول صاحب المذهب وحده، وإنّما هو مجموع آراء. وقد كانوا مستقلين في تفكيرهم. ويوضح لنا ابن خلدون حالة هذه الكتب واستعمالها بقوله:

رحل من الأندلس عبد الملك بن حبيب، فأخذ عن ابن القاسم وطبقته، وبثّ مذهب مالك في الأندلس، ودوّن فيه كتاب الواضحة، ثم دوّن العتبي من تلامذته كتاب العتيبية.

ورحل من أفريقية أسد بن الفرات، فكتب عن أصحاب أبي حنيفة أولاً، ثم انتقل إلى مذهب مالك، وكتب عن ابن القاسم في سائر أبواب الفقه، وجاء إلى القيروان بكتابه وسماه الأسدية نسبة إلى أسد بن الفرات، فقرأها سحنون على أسد، ثم ارتحل إلى المشرق، ولقي ابن القاسم وأخذ عنه، وعارضه بمسائل الأسدية ، فرجع عن كثير منها، وكتب سحنون مسائلها، ودوّنها وأثبت ما رجع عنه، وكتب لأسد أن يأخذ بكتاب سحنون فأنف من ذلك، فترك الناس كتابه واتبعوا مدوّنة سحنون على ما كان فيها من اختلاط المسائل في الأبواب، فكانت تسمّى المدونة والمختلطة، وعكف أهل القيروان على هذه المدونة وأهل الأندلس على الواضحة والعتيبية، ثم اختصر ابن أبي زيد المدونة والمختلفة في كتابه المسمى بالمختصر، ولخصه أيضاً أبو سعيد البرادعي من فقهاء القيروان في كتابه المسمّى بالتهذيب، واعتمده المشيخة من أهل أفريقية، وأخذوا به وتركوا ما سواه. وكذلك اعتمد أهل الأندلس كتاب العتيبية، وهجروا الواضحة وما سواها.

ولم يزل علماء المذهب يتعاهدون هذه الأمّهات بالشرح، والإيضاح والجمع، فكتب أهل أفريقية على المدونة ما شاء الله أن يكتبوا مثل ابن يونس، واللخمي، وابن محرز التونسي، وابن بشير وأمثالهم. وكتب أهل الأندلس على العتيبية ما شاء الله أن يكتبوا مثل ابن رشد وأمثاله. وجمع ابن أبي زيد جميع ما في الأمّهات من المسائل والخلاف والأقوال في كتاب النوادر فاشتمل على جميع أقوال المذهب

وفروع الأمّهات كلّها في هذا الكتاب، ونقل ابن يونس معظمه في كتابه على المدوّنة، وزخرت بحار المذهب المالكي في الأفقيين إلى انقراض دولة قرطبة والقيروان ، ثم تمسّك بهما أهل المغرب بعد ذلك إلى أن جاء كتاب أبي عمرو بن الحاجب لخص فيه طرق أهل المذهب في كلّ باب، وتعدد أقوالهم في كل مسألة فجاء كالبرنامج للمذهب^(٥٣١).

ولقد كان أهل الأندلس يغالون في مالك وفقهه: قال البيهقي : إنّ الشافعي إنّما وضع الكتب على مالك: أنّه بلغه أن بالأندلس قلنسوة لمالك يستسقى بها، وكان يقال لهم: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فيقولون: قال مالك، فقال الشافعي: إنّ مالكا بشر يخطئ، فدعاه ذلك إلى تصنيف الكتاب في اختلافه معه^(٥٣٢).

وعلى الجملة فإنّ انتشار مذهب مالك في الأندلس يعود أمره إلى قوّة السلطان، فإنّه قد حمل أهل مملكته عليه^(٥٣٣)، وقد كانوا يعملون بمذهب الأوزاعي. وكان يحيى بن يحيى الليثي مقدّماً مكيّناً عند السلطان فنشر المذهب هناك، إذ جعل إليه تعيين القضاة، فلم يولّ إلا من كان على مذهبه، حتى اضطر القضاة الذين كانوا على غير مذهب مالك أن يلتزموا الفتوى به، نظراً لإلزام السلطة.

فهذا القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الجماعة بقرطبة المتوفى سنة (٣٥٥ هـ) كان يتفقه بمذهب الظاهري، ويقضي بمذهب مالك وأصحابه، لأنّه ألزم بالعمل به من قبل السلطان^(٥٣٤).

ويعود ذلك إلى ثناء مالك على ملك الأندلس عندما سئل عن سيرة الملك، فذكر له عنها ما أعجبه، فقال مالك: نسأل الله أن يزين حرمانا بملككم، فلما بلغ قوله إلى الملك حمل الناس على مذهبه بالقهر^(٥٣٥).

ويقول المقرئزي: لما ولي المعز باديس حمل جميع أهل أفريقيا وأهل الأندلس على التمسك بمذهب مالك وترك ما عداه، فرجع أهل أفريقيا وأهل الأندلس كلهم إلى مذهبه رغبة فيما عند السلطان وحرصاً على طلب الدنيا، إذ كان القضاء والافتاء

(٥٣١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٧٧.

(٥٣٢) توالي التأسيس للحافظ ابن حجر ص ٧٦.

(٥٣٣) نفح الطيب ج ٦ ص ٤٥.

(٥٣٤) نفح الطيب ج ٦ ص ٤٥.

(٥٣٥) أنظر المدوّنة الكبرى ج ١ ص ٥٢ .

في جميع تلك المدن لمن سمّي بمذهب مالك، فاضطرت العامة إلى أحكامهم وفتاواهم ففشى هذا المذهب هناك^(٥٣٦).

فالمذهب المالكي محفوف بعناية السلطة وعوامل السياسة من جميع جوانبه. وقد قام القضاة بنشره، ولما خمل ذكر مذهب مالك في المدينة المنورة وعين إبراهيم بن علي اليعمري قاضياً على المدينة قام بنشر مذهب مالك بقوة سلطانه وسطوته وذلك في القرن السابع.

ولابدّ أن نلاحظ الشبه بين المذهب المالكي والمذهب الحنفي .

١ - إنّ كلاّ منهما انتشر بالقوة والقهر من قبل السلطان على أيدي القضاة.

٢ - وإنّ كلاّ من رئيسي المذهب قد أسعده الحظ بالقبول عند سلطان عصره، فكانت له المنزلة الرفيعة والدرجة العظيمة، فأبو حنيفة انتصر المنصور له وقربه وأدناه لغاية في نفسه، ولكّنه فشل في محاولته فال أمره إلى أن يغضب عليه ويقتله، لمؤثرات في نفس أبي حنيفة وأسباب منعتة من الاستجابة تماماً للسلطان، وبعد، اندفع أصحابه كما يشاؤون.

ومالك قد حظي برضا المنصور والمهدي والهادي والرشيد، ورفعوا من شأنه في حياته كما مرّ بيانه.

٣ - إنّ كلّ واحد منهما تأثر بالآخر، فالمذهب الحنفي دخلت فيه آراء مالك ورواياته أدخلها أبو يوسف ومحمد بن الحسن وطبقوا آراءهم على الموطأ واستخرجوا لها شواهد من الآثار. وكذلك المذهب المالكي تأثر بالرأي الحنفي، أدخله عليه أسد بن الفرات، كما مرّ ذكره.

٤ - إنّ أصول المذهبين ومسائلهما هما مجموعة آراء علماء كلّ من المذهبين التي قام عليها تخريج المسائل، وينسب ذلك إلى رئيس المذهب، فأصبحت تلك المسائل هي الأسس التي يقوم بها وإن كان فيها خلاف لمن نسب المذهب إليه، فإنّ لتلاميذ مالك آراء بجوار آرائه، ومنزلتهم منه كمنزلة المزني من الشافعي، وكمنزلة محمد وأبي يوسف من أبي حنيفة.

وهنا لا بدّ لنا من الإشارة إلى بعض أصول فقه المذهب المالكي.

أصول الفقه المالكي

يختلف المذهب المالكي عن بقية المذاهب بكثرة أصول الفقه، فإنّ الأصول عند الحنيفة الكتاب والسنة والإجماع والقياس والاستحسان والعرف. والأصول عند الشافعية: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس. أمّا الأصول عند المالكية فأقل عدد أحصوه له تسعة: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس، والاستحسان، والعرف، وإجماع أهل المدينة، والمصالح المرسلّة، وسد الذرائع، وقيل أكثر من ذلك.

ولقد ذكر القاضي عياض في المدارك الأصول العامة للفقه الإسلامي: وهي القرآن الكريم نصوصه وظواهره ومفهوماته، والسنة متواترها ومشهورها وآحادها، ويؤخذ أيضاً بنصوصها ثم ظواهرها ثم مفهوماتها ثم الإجماع ثم القياس. وبعد ذلك ذكر أصول مالك، ومقامها من تلك الأصول العامة فقال:

وأنت إذا نظرت لأول وهلة منازع هؤلاء الأمة ومآخذهم في الفقه واجتهادهم في الشرع وجدت مالكا رحمه الله ناهجا في هذه الأصول منهاجها مرتباً لها مراتبها ومدارجها، مقدماً كتاب الله على الآثار، ثم مقدماً لها على القياس والاعتبار، تاركاً منها ما لم يتحمّله الثقة العارفون لما تحمّلوه، أو ما يجهلونه، أو ما وجد الجمهور الجَمّ الغفير من أهل المدينة قد عملوا بغيره وخالفوه، ولا يلتفت إلى من تأول عليه بظنه في هذا الوجه سوء التأويل وقوله ما لا يقوله بل صرح بأنه من الأباطيل^(٥٣٧).

هذا ما ذكره القاضي عياض في أصول مذهب مالك، ذكر الكتاب والسنة، وعمل أهل المدينة والقياس ولم يذكر غيرها، فلم يذكر الإجماع، ولم يذكر القواعد التي امتاز بها مذهب مالك، وهي المصالح المرسلّة وسد الذرائع، والعرف، والعادات، وغيرها وأحصيت إلى ستة عشر أصلاً. ومهما يكن من شيء فإنّ مالكا لم يدوّن أصوله التي بنى عليها مذهبه في منحاه الاجتهادي الذي استخرج فروع مذهبه منها، فهو كأبي حنيفة في ذلك. ولقد صنع فقهاء المذهب المالكي في فقه مالك ما صنعه فقهاء المذهب الحنفي، فجاءوا إلى الفروع وتتبعوها واستخرجوا منها ما يصحّ أن يكون أصولاً قام عليها الاستنباط في ذلك المذهب العظيم، ودوتوا تلك الأصول التي استنبطوها على أنّها أصول مالك، فيقولون مثلاً: مالك يأخذ بمفهوم المخالفة وبفحوى الخطاب وبظاهر القرآن، ويقول في العموم كذا، والحقيقة أنّ هذه ليست أقوالاً له مأثورة قد ذكرها ورويت عنه، بل هي مستخرجة من الفروع التي

(٥٣٧) الديباج المذهب ص ١٦، مالك بن أنس لمحمد أبو زهرة ص ٢١٧.

أثرت عنه، وأدلتها التفصيلية التي ذكرت بجوارها أو ذكرها الفقهاء من بعده لها ولا يمكن الاستدلال بسواها^(٥٣٨).

فأصبح ذلك المجهود الذي بذله علماء المالكية هو مجموع أصول المذهب المالكي، وفي أكثرها مخالفة لرأي مالك، أو تفردهم بما لم يرد من مالك أثر فيه، فقد ظهر بعد وفاته آراء لكبار تلاميذه خالفوه فيها، ودوتوا تلك المخالفة.

والشواهد كثيرة على مخالفة أصحاب مالك له من بعده، فهذا يحيى الأندلسي يخالفه في مسألة الشاهد ويمين صاحب الحق، وهذا أشهب ثروى مخالفته حتى أن أسد بن الفرات لما أراد أن يدون آراء مالك ولجأ إلى أشهب لم يستطع عند التدوين التفرقة بين آراء التلميذ وشيخه مالك فعُدل عنه وعاب مسلكه، ولجأ إلى عبد الرحمن بن القاسم يأخذ منه، فقد جاء في مقدّمات ابن رشد ما نصّه :

قدم أسد يسأل مالكا رحمه الله فألفاه قد توفي، فأتى أشهب ليسأله، فسمعه يقول: أخطأ مالك في مسألة كذا، وأخطأ في مسألة كذا فتقصه بذلك وعابه ولم يرض قوله، والتجأ إلى ابن القاسم ليأخذ عنه آراء مالك وفقهه، فقد كان أيضاً يخالف مالكا، وقد دون ذلك، فقد جاء في مدونة سحنون آراء صريحة في مخالفة مالك^(٥٣٩).

وأهم الأصول التي كان يعتمد عليها مالك في منحاه الاجتهادي كثيرة، منها:

عمل أهل المدينة

كان مالك قد أعطى ما جرى عليه العمل في المدينة أهمية كبرى، وهو يرد الحديث لأنه لم يجر عليه عمل، ويرى أن أهل المدينة أدرى بالسنة وبالناسخ والمنسوخ، كما أشار لذلك في رسالته إلى الليث بن سعد إذ يقول فيها: فإنما الناس تبع لأهل المدينة، إليها كانت الهجرة، وبها نزل القرآن وأحلّ الحلال وحرّم الحرام، إذ رسول الله بين أظهرهم، إلى أن يقول : فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهراً معمولاً به، لم أر لأحد خلافه للذي في أيديهم من تلك الوراثة التي لايجوز انتحالها ولا ادعائها، ولو ذهب أهل الأمصار يقولون: هذا العمل ببلدنا، وهذا الذي مضى عليه من مضى متاً، لم يكونوا فيه من ذلك على ثقة، ولم يكن من ذلك الذي جاز لهم... إلى آخر الرسالة.

(٥٣٨) مالك بن أنس لمحمد أبو زهرة ص ٢٥٥.

(٥٣٩) مالك بن أنس لمحمد أبو زهرة ص ٢٠٨ - ٢١٢.

وقد رد عليه الليث برسالة طويلة ناقشه فيها بمناقشة علمية، ذكرها ابن القيم الجوزية في أعلام الموقعين بكاملها^(٥٤٠).

وقال في بعض فصولها: وكان من خلاف ربيعة لبعض من قد مضى ما قد عرفت وحضرت قولك فيه، وقول ذوي الرأي من أهل المدينة، يحيى بن سعيد، وعبيد الله بن عمر، وكثير بن فرقد، وغيره كثير ممن هو أسن منه حتى اضطررت ما كرهت من ذلك إلى فراق مجلسه، وذاكرتك أنت وعبد العزيز بعض مانعيب على ربيعة من ذلك فكنتما من الموافقين فيما أنكرت.

وكان من ابن شهاب اختلاف كثير إذا لقيناه، وإذا كاتبه بعضنا فربما كتب إليه في الشيء الواحد على فضل رأيه وعلمه بثلاثة أنواع ينقض بعضها بعضاً، ولا يشعر بالذي مضى من رأيه في ذلك... إلى آخر الرسالة، وقد ناقشه فيها بكثير من المسائل العلمية التي نقض بها قول مالك. وكذلك الشافعي ناقش مالكا مناقشة علمية قيمة في كتاب الأم، لأن مالكا لا يفرق في لزوم اتباع أهل المدينة بين العمل النقلي، والعمل الاجتهادي، لذلك وجهوا إليه تلك المواخذات المعقولة.

أما العمل النقلي فلا خلاف في حجّيته عند مفسري مذهب مالك، كنقل أهل المدينة تعيين محل منبر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقبره ومحل وقوفه للصلاة، وتعيينهم مقدار المدّ والصاع والأوقية في عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ونقلهم كيفية الأذان والإقامة. أما المسائل الاجتهادية، فالأمر فيها سواء بين مجتهدي الصحابة، والتابعين من المدنيين والكوفيين والشاميين، والمصريين^(٥٤١).

وقد ردّ ابن حزم على هذه القاعدة بقوله: وأما من قال: إنّ الإجماع إجماع أهل المدينة لفضلها، ولأنّ أهلها شهدوا نزول الوحي فقول خطأ من وجوه، نذكر منها:

١ - إنّ الذين شهدوا الوحي، إنّما هم الصحابة رضي الله عنهم لا من جاء بعدهم من أهل المدينة، وعن الصحابة أخذ التابعون من أهل كلّ مصر.

٢ - إنّ الخلفاء الذين كانوا لا يخلو حالهم من أحد وجهين لا ثالث لهما: إمّا أن يكونوا قد بيّنوا لأهل الأمصار من رعيّتهم حكم الدين أو لم يبينوا. فإن كانوا قد بيّنوا لهم الدين فقد استوى أهل المدينة وغيرهم في ذلك. وإن كانوا لم يبينوا لهم فهذه صفة سوء أعادهم الله تعالى منها، فبطل قول هؤلاء بيقين.

(٥٤٠) أعلام الموقعين ج ٣ ص ٦٩ - ٧٣.

(٥٤١) ضحى الإسلام ج ٢ ص ٢١٢ والتشريع الإسلامي ص ٢٤١.

٣ - إنه إنما قال ذلك قوم من المتأخرين ليتوصلوا بذلك إلى تقليد مالك بن أنس دون علماء المدينة جميعاً ولا سبيل لهم إلى مسألة واحدة أجمع عليها جميع فقهاء أهل المدينة المعروفين من الصحابة والتابعين خالفهم فيها سائر الأمصار^(٥٤٢).

المصالح المرسلة

ومن أصول مذهب مالك: القول بالمصالح المرسلة، كما نسب إلى الحنفية القول بالاستحسان ، وقد تسمى هذه المصالح بالاستصلاح، ومعنى المصالح المرسلة، المصالح التي لم يشهد لها من الشرع بالبطلان ولا بالاعتبار نصّ معين، ومحل النزاع في العمل بها إذا صادت دليلاً آخر من نص أو قياس، ومثال ذلك الضرب بالتهمة للاستنطاق بالسرقة، فقد قال بجوازه مالك ويخالفه غيره. لأنّ هذه المصلحة تعارضها أخرى، وهي مصلحة المضروب ، لأنّه ربّما يكون بريئاً، وترك الضرب في مذنب أهون من ضرب بريء، فإن كان فيه فتح باب يعسر معه انتزاع الأموال، ففي الضرب فتح باب إلى تعذيب البريء.

ومن ذلك المفقود زوجها إذا اندرس خبر موته وحياته وقد انتظرت سنين وتضررت بالعزوبة، والمرأة تباعد حيضها سنين وتعوقت عدتها في النكاح وبقيت ممنوعة منه، أخذ مالك برأي عمر فيهما فقال: تنكح زوجة المفقود بعد أربع سنين من انقطاع الخبر مراعاة لمصلحة الزوجة، وعدم الالتفات إلى مصلحة الغائب، وفي المتباعد حيضها تعتد بثلاثة أشهر بعد أن تمرّ عليها مدة الحمل وهي تسعة أشهر، فالمجموع سنة راعوا مصلحة الزوجة مع المخالفة للنصّ الصريح ، وهو قوله تعالى: (وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ)^(٥٤٣) وهي لم تصل لسن اليأس حتى تعتد بالأشهر.

والخلاصة أنّ المصلحة المرسلة مصلحة ترجع إلى حفظ مقصود شرعي بالكتاب أو السنة أو الإجماع إلا أنّها لا يشهد لها أصل معين بالاعتبار، وإنّما يعلم كونها مقصودة لا بدليل واحد بل بمجموع أدلة وقرائن أحوال وتفاريق الإمارات. ومن أجل ذلك تسمى مصلحة مرسلة، ولا خلاف عندهم في اتباعها إلا عندما تعارضها مصلحة أخرى، وعند ذلك يكون الخلاف في ترجيح أحد المصلحتين^(٥٤٤).

(٥٤٢) النبذ لابن حزم ص ١٦.

(٥٤٣) البقرة : ٢٢٨.

(٥٤٤) تاريخ التشريعي الإسلامي ص ٢٤٢.

الاستحسان

كان مالك بن أنس يأخذ بالاستحسان، وروى ابن القاسم عن مالك أنه قال: الاستحسان تسعة أعشار العلم، وفي رواية أخرى عن مالك أنه قال: تسعة أعشار العلم الاستحسان. وكان القرافي يفتي بالاستحسان ويقول فيه: «قال به مالك رحمه الله في عدة مسائل في تضمين الصناع المؤثرين في الأعيان بصنعهم وتضمين الحمالين للطعام والإدام دون غيرهم»^(٥٤٥).

وقد عرفه ابن العربي: إنّ الاستحسان إثارة ترك مقتضى الدليل على طريق الاستثناء والترخيص لمعارضة ما يعارض به في بعض مقتضياته، وأقسامه أربعة: ١ - ترك الدليل للعرف. ٢ - تركه للإجماع. ٣ - تركه للمصلحة. ٤ - للتيسير ورفع المشقة وإثارة التوسعة^(٥٤٦).

ويقول ابن الأنباري: الذي يظهر من مذهب مالك القول بالاستحسان لا على المعنى السابق - أي تعريف ابن العربي له - بل هو استعمال مصلحة جزئية في مقابل قياس كلي، فهو يقدم الاستدلال المرسل على القياس، ومثاله لو اشترى سلعة بالخيار ثم مات فاختلف ورثته في الإمضاء والرد، قال أشهب: القياس الفسخ، ولكننا نستحسن إذا قبل البعض الممضي نصيب الراد إذا امتنع البائع من قبوله أن نمضيه^(٥٤٧).

وعلى أي حال فإنّ الاستحسان في الفقه المالكي قد استعمل بكثرة، ونقلوا ذلك من مالك، وقد اختلفوا في تعريفه وفي بيان المواضع التي يجيز مالك الأخذ به ويعتمد عليه في بناء الأحكام، وسيأتي بيان ذلك بصورة واسعة عند حديثنا عن أصول الفقه الجعفري ومقارنته مع غيره.

وقد حمل الشافعي على مالك في مسألة الاستحسان وعقد باباً في الأم سماه: كتاب إبطال الاستحسان. ولقد بنى إبطال الاستحسان:

أولاً: على أنّ الشارع ما ترك أمر الإنسان سُدًى، بل جاء في الشريعة بما فيه صلاحه، ونصّ على الأحكام الشرعية الواجبة الاتباع، وما لم ينصّ عليه قد أشير

(٥٤٥) مالك بن أنس لمحمد أبو زهرة ص ٢٩٦.

(٥٤٦) الاعتصام ج ٢ ص ٣٢٠ - ٣٢١ مالك بن أنس لمحمد أبو زهرة ص ٣٠٠.

(٥٤٧) مالك بن أنس لمحمد أبو زهرة ص ٣٠١.

إليه، وحمل على النصوص بالقياس فلا شيء لم يبينه الشارع، وترك بيانه للاستحسان، وإلا كان ثمة نقص في البيان.

ثانياً: لأنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان إذا نزلت به حادثة لم يجد بها نصّاً ولا حملاً على نص سكت حتى ينزل وحي بالبيان، كما فعل عندما جاءه من ينكر نسب ولد جاءت به امرأته فسكت حتى نزلت آية اللعان، لأنّه لم يجد نصّاً، ولا حملاً على نص فانتظر، ولو كان الافتاء بغير النص أو الحمل عليه جائزاً من أحد لجاز من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

ثالثاً: إنّ الله سبحانه أمر باطاعته سبحانه وتعالى واطاعة رسوله، وذلك باتباع ما جاء في كتاب الله تعالى، ثم ما جاء في سنّة رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) وإن لم يكن نص فيهما كان الاتباع بالحمل على النص في أحدهما، والاستحسان ليس واحداً منهما.

رابعاً: إنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد استنكر تصرف من اعتمد على استحسانه من الصحابة؛ لأنّه لم يعتمد على نص.

خامساً: إنّ الاستحسان لا ضابط له ولا مقاييس يقاس بها الحقّ من الباطل. فلو جاز لكلّ مفت أو مجتهد أن يستحسن فيما لا نصّ فيه لكان الأمر فرطاً، ولا ختلفت الأحكام في النازلة الواحدة على حسب استحسان كلّ مفت، فيقال في الشيء ضروب من الفتيا والأحكام، وما هكذا تفهم الشرايع ولا تُفسّر الأحكام الدينية^(٥٤٨).

القياس

وهو أصل من أصول الفقه المالكي، وقد أجمع المالكيون أنّ مالكا كان يقيس بعض المسائل التي تقع على مسائل قد علم فيها أقضية الصحابة كما قاس حال زوجة المفقود إذا حكم بموته فاعتدت عدة الوفاة وتزوجت بغيره ثمّ ظهر حياً ، بحال من طلقها زوجها وأعلمها بالطلاق ثم راجعها ولم تعلم بالرجعة، فتزوجت بعد انتهاء العدة، وذلك لأنّ عمر أفتى في هذه بأنّها لزوجها الثاني دخل أو لم يدخل، لأنّ الحالتين متماثلتان، فلا بدّ أن يكون الحكم متّحداً، وكثيراً ما كان يقيس على القضايا، وأكثر قياسه على قضايا عمر، لأنّه يجعل ذلك نصّاً في الحكم، كما على سائر الأدلة، إذ لم يقتصر قياسهم على الأحكام الثابتة من الكتاب والسنة بل

يقيسون على الفروع المستنبطة، والقياس حجة عند المالكية، كما هو حجة عند الحنفية، ولكن هناك فرقاً بين القياسين وإن كان المدرك واحداً إذ لا يختلفان إلا في اتساع الدائرة وضيقها. فأبو حنيفة كان يتسع في استنباطه فيبحث عن أحكام المسائل التي لم تقع، ويتصور وقوعها، فهو يستنبط العلل الباعثة للأحكام، والغايات المناسبة لشرعيتها، ويبني عليها ويجعل العلل مطردة في كل ما تنطبق عليه، وعلى هذا فأخذه بالرأي لا بد وأن يجعل علة في القياس، لأن قلة حديثه وسعت دائرة الرأي والقياس عنده، كما يأتي بيانه إن شاء الله.

وقد كان أبو حنيفة يقدم القياس على خبر الواحد، فكذا كان مالك بن أنس كما في كثير من فتاواه التي نقلها أصحابه.

الرأي

والشيء الذي يجب الالتفات إليه: أن الذين كتبوا في تاريخ الفقه الإسلامي قد قسموا الفقه إلى فقه أثر، وفقه رأي، ويعدون مالكا فقيه أثر، وأبا حنيفة فقيه رأي.

وقد رأينا ابن قتيبة في معارفه يعدّ مالك بن أنس فقيه رأي كما ذكر منهم: ربيعة الرأي أستاذ مالك، والأوزاعي والثوري وابن أبي ليلى، وزفر، وأبو يوسف، وعدّ مالكا من جملتهم^(٥٤٩)، كما أنه لم يذكره في أصحاب الحديث إذ عدّ منهم: شعبة وجريير بن حازم، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة وغيرهم.

وزيادة على ذلك أن اشتهار مالك بالرأي كان معروفاً في عصره، ويعتبرونه فقيه رأي، حتى ليسأل بعضهم من للرأي في المدينة بعد ربيعة ويحيى بن سعيد؟ فيجاب بأن مالكا من بعدهما.

يقول الأستاذ محمد أبو زهرة: وإنّ مقدار أخذ مالك بالرأي ل يبدو جلياً في أمرين: أحدهما: في مقدار المسائل التي اعتمد فيها على الرأي سواء أكان بالقياس، أم بالاستحسان، أم بالمصالح المرسلّة أم بالاستصحاب، أم بسدّ الذرائع... إلى أن يقول: وإنّ ذلك لكثير وافتح المدوّنة تجد الكثرة بيّنة واضحة بل أنّ تعدد طرائق الرأي عنده أكثر من غيره، ليجعل له القدر المعلى فيه، فإن كثرتها تشير إشارة واضحة إلى كثرة اعتماده على الرأي لا إلى قلته.

ثانيهما: عند تعارض خبر الآحاد مع القياس وهو أحد وجوه الرأي، وهنا نجد أنه يقرر الكثيرون من المالكية أنه يقدم القياس، وأنهم بالاجماع يذكرون أنه أحياناً قد أخذ بالقياس، وردّ خبر الآحاد، ولقد أحصى الشاطبي في الموافقات^(٥٥٠) طائفة من المسائل أخذ فيها مالك بالقياس أو المصلحة أو القاعدة العامة وترك خبر الآحاد، لأنه رأى الأصول التي أخذ بها قطعية، أو تعود إلى أصل قطعي والخبر الذي رده ظني.

ومن ذلك حديث غسل الإناء من ولوغ الكلب سبعة، إحداهن بالتراب، فقد قال فيه مالك: جاء الحديث ولا أدري ما حقيقته وكان يضعفه ويقول: يؤكل صيده فكيف يكره لعبه^{(٥٥١)؟}!

وقد ردّ خيار المجلس الذي يوجب أن يكون لكلا العاقلين الحقّ في فسخ الخيار مادام المجلس لم يتفرّق، فقد قال مالك بعد روايته الحديث ليس لهذا عندنا معروف ولا أمر معمول فيه^(٥٥٢).

ولم يأخذ بخبر من مات وعليه صيام صام عنه وليّه، ولا بالخبر الذي جاء عن ابن عباس: أن امرأة أتت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالت: يا رسول الله إن أمي ماتت وعليها صوم شهر، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): أفرأيت لو كان على أبيك دين فقضيتيه؟ قالت: نعم، قال: فدين الله أحقّ أن يُقضى، وقد ردّ مالك ذلك استناداً لقوله تعالى: (لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) ^(٥٥٣).

ولم يعتبر للرضاع نصاباً مقررّاً عشرّاً ولا خمساً إطلاقاً للقاعدة المستفادة من الآية الكريمة: (وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ)^(٥٥٤) فالرضاع عنده على القليل، والكثير فليس له حدّ أدنى.

(٥٥٠) انظر الموافقات ج ١ ص ١٢ - ١٥. وج ٤ ص ٩٧ و ٢٠٨.

(٥٥١) ومن هذا الباب قضية أكل الكلاب، فقد اشتهر عن المالكية جوازه كما يقول المقدسي في أحسن التقاسيم: إنها تباع في المغرب جهراً وتطرح في عرائس مصر، وقال ابن حزم في المحل بعد ذكر حرمة أكل السباع ومنها الكلب: وأنكر المالكيون تحريم أكل السباع، وموهوا بأن قالوا: قد صحّ عن عائشة أنها سئلت عن أكل لحوم السباع؟ فقرأت: (قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً...) الآية. وقال القرطبي: روى ابن القاسم عن مالك أنها مكروهة، وعلى هذا القول عول جمهور أصحابه وهو الرأي المنصور عندهم، وقد فرق أصحاب مالك بين كلب الماشية والزرع فاتفقوا على أن ما لا يجوز اتخاذه لا يجوز بيعه، أما من أراد للأكل فاختلفوا فيه فمن أجاز أكله أجاز بيعه فهو عندهم طاهر العين غير محرم الأكل. أنظر بداية المجتهد والمحلّي في باب الأطعمة وكتاب الطهارة والبيع تجد هناك الأقيسة المعارضة للآثار الصحيحة.

(٥٥٢) الموطأ ج ٢ ص ٩٤.

(٥٥٣) الأنعام: ١٦٤، وفاطر: ١٨.

(٥٥٤) النساء: ٢٣.

وردّ خبر المصراة وهو ماروي عن أبي هريرة أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: لا تصرّوا الإبل والغنم ومن ابتاعها بخير النظرين بعد أن يحلبها إن شاء أمسك، وإن شاء ردّها، وصاعاً من تمر (٥٥٥).

وبهذا يتّضح أنّ مالكا كان يعمل بالرأي والقياس ولم يكن الاختصاص فيه لأبي حنيفة. فالقول بأنّ مالكا كان متمسكاً بالحديث حتى عرف به غير وجيه. ومن هذا يتّضح أنّ معركة أهل الرأي وأهل الحديث كانت تحوم حول نقطة سياسية لا شرعية وهي معارضة مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) التي انهال الناس عليها في عصر الإمام الصادق (عليه السلام) ، وقد تمسّكت بالحديث ولم تجعل للقياس والرأي دخلاً في الأحكام الشرعية.

إنكار الإمام الصادق (عليه السلام) للقياس
وكان الإمام الصادق (عليه السلام) ينكر أشدّ الإنكار على ذلك، كما مرّ بيانه في أقواله لأبي حنيفة ونهيه له عن القياس والقول بالرأي .
ومن أقواله الماثورة: إنّ أصحاب المقاييس طلبوا العلم بالمقاييس فلم تزدتهم المقاييس من الحقّ إلّا بعداً.
وقال في ردّه على ابن شبرمة: لو علم ابن شبرمة من أين هلك الناس مادان بالمقاييس ولا عمل بها؟

وقال (عليه السلام) لأبي حنيفة : ويحك إن أوّل من قاس إبليس لما أمره الله بالسجود لآدم قال خلقتني من نار وخلقته من طين (٥٥٦).

وقال (عليه السلام) لأبي حنيفة مرّة أخرى: اتق الله ولا تقس ، فإننا نقف غداً بين يدي الله فنقول : قال الله وقال رسوله، ونقول أنت وأصحابك سمعنا ورأينا (٥٥٧).

ودخل عليه أبان بن تغلب فقال: يا أبا عبد الله، رجل قطع أصبع امرأة؟ فقال فيها عشرة من الإبل. فقال أبان: قطع اثنين. قال الصادق: فيهما عشرون من الإبل. قال: قطع ثلاث أصابع. قال الصادق: فيهن ثلاثون من الإبل . قال: قطع أربعاً. قال الصادق: فيهن عشرون. قال أبان: أيقطع ثلاثاً وفيهن ثلاثون من الإبل ، ويقطع أربعاً وفيها عشرون من الإبل؟! قال: نعم إنّ المرأة إذا بلغت الثلث من دية الرجل

(٥٥٥) مالك لمحمد أبو زهرة ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٥٥٦) المحاسن ج ١ ص ٣٣٤ ، ح ٦٧٨ .

(٥٥٧) إبطال القياس لابن حزم ص ٧١ .

سفلت المرأة وارتفع الرجل، إنَّ السنَّة لا تُقاس، ألا ترى أنَّها تؤمر بقضاء صومها، ولا تؤمر بقضاء صلاتها يا أبا ن أخذتني بالقياس وإنَّ السنَّة إذا قيسَت محق الدين^(٥٥٨). إلى كثير ممَّا ورد عنه(عليه السلام) في شدَّة الانكار على العمل بالقياس والأخذ بالرأي، وقد انتشر ذلك في عصره فوجَّه إليهم رسالة ينهاهم عن ذلك، وبيَّن لهم الأخطاء التي يؤدي إليها العمل بالرأي والقياس ، وإليك نص الرسالة:

رسالة الإمام الصادق(عليه السلام) حول القياس

أمَّا بعد فإنَّه من دعا غيره إلى دينه بالارتياح والمقاييس لم ينصف ولم يصب حظه؛ لأنَّ المدعو إلى ذلك لا يخلو من الارتياح والمقاييس ، ومتى ما لم يكن بالداعي قوَّة في دعائه على المدعو لم يؤمن على الداعي أن يحتاج إلى المدعو بعد قليل، لأنَّنا قد رأينا المتعلم الطالب ربَّما كان فائقاً لمعلم ولو بعد حين!

ورأينا المعلم الداعي ربَّما احتاج في رؤية إلى رأي من يدعو، وفي ذلك تحيّر الجاهلون وشكَّ المرتابون، وظنَّ الظانون! ولو كان ذلك عند الله جائزاً؛ لم يبعث الرسل بما فيه الفصل، ولم ينه عن الهزل ولم يعب الجهل، ولكنَّ الناس لمَّا سفهوا الحقَّ وغمطوا النعمة، واستغنوا بجهلهم وتدبيرهم عن علم الله، واكتفوا بذلك دون رسله، والقوامين بأمره قالوا: لا شيء إلا ما أدركته عقولنا وعرفته ألباننا، فولاهم الله ما تولَّوا، وخذلهم حتى صاروا عبدة أنفسهم من حيث لا يعلمون.

ولو كان الله رضي منهم اجتهادهم وارتياحهم فيما ادعوا من ذلك؛ لم يبعث إليه فاصلاً لما بينهم ولا زاجراً عن وصفهم ، وإلَّا استدللنا أنَّ رضى الله غير ذلك، ببعثه الرسل بالأمور القيِّمة الصحيحة والتحذير عن الأمور المشكَّلة المفسدة، ثم جعلهم أبوابه وصراطه والأدلاء عليه بأمور محجوبة عن الرأي والقياس. فمن طلب ما عند الله بقياس ورأي لم يزد من الله إلا بعداً، ولم يبعث رسولا قط وإن طال عمره قابلاً من الناس خلاف ما جاء به حتى يكون متبوعاً مرة ، وتابعاً أخرى، ولم ير أيضاً فيما جاء به استعمل رأياً أو مقياساً حتى يكون واضحاً عنده كالوحي من الله، وفي ذلك لكلَّ ذي لبٍّ وحجى أن أصحاب الرأي والقياس مخطئون مدحزون... الخ الرسالة^(٥٥٩).

والغرض أنَّ مالكا كان يعدُّ من أهل الرأي وقد نهاه أستاذه ابن هرمز عن الأخذ به كما حدَّث مالك عنه. قال مطرف: سمعت مالكا يقول : قال ابن هرمز: لا تستمسك على شيء ممَّا سمعته من هذا الرأي إلَّا افتجرته أنا وربيعه فلا تتمسك. وكما صرَّح مالك بذلك في قوله: إن نظنَّ إلَّا ظناً وما نحن بمستيقنين^(٥٦٠). وكذلك كان تلاميذه وحملته حديثه وناشرو مذهبه يحذرون من الأخذ بأرائهم. قال عبيد الله بن يحيى بن يحيى: كنت آتي ابن القاسم فيقول لي: من أين جئت؟ فأقول

(٥٥٨) المحاسن ج ١ ص ٣٣٩ ، ح ٦٩٤.

(٥٥٩) المحاسن ج ١ ص ٣٣١ - ٣٣٢ ، ح ٦٧٤.

(٥٦٠) جامع بيان العلم : ج ٢ ، ص ٣٣.

من عند وهب فيقول: اتق الله فإن أكثر هذه الأحاديث ليس عليها العلم، ثم أتى ابن وهب فيقول: من أين؟ فأقول: من عند ابن القاسم. فيقول: اتق الله فإن أكثر هذه المسائل رأي (٥٦١).

وقال العقبي: دخلت على مالك في مرضه الذي مات فيه فسلمت عليه فرأيت يبيكي، فقلت: يا أبا عبد الله، ما الذي يبكيك؟ فقال لي: يا ابن قعنب ومالي لا أبكي ومن أحق بالبكاء مني والله لوددت أني ضربت بكل مسألة سوطاً وقد كانت لي السعة فيما سبقت إليه وليتني لم أفت بالرأي (٥٦٢).

وعلى كل حال فإن المذهب المالكي توسع في استعمال القياس كالمذهب الحنفي، كما أنه توسع في اعتبار المصلحة وجعلها أصلاً قائماً بذاته.

وكذلك مذهب أحمد بن حنبل كما يأتي بيانه، فقد قرّر أن نصوص الشارع لم تأت في أحكامها إلا بما هو المصلحة، وما كان بالنص عرف به. بل لقد زاد بعض الحنابلة والمالكية فخصص النصوص القرآنية والنبوية بالمصالح، إذا كان موضوع هذه النصوص من المعاملات الإنسانية، لا من العبادات.

وقال الطوفي (٥٦٣) - وهو أحد علماء الحنابلة - إن رعاية المصلحة إذا أدت إلى مخالفة حكم مجمع عليه أو نص من الكتاب والسنة وجب تقديم رعاية المصلحة بطريق التخصيص لهما بطريق البيان (٥٦٤).

وقد رد الإمام كاشف الغطاء - تغمده الله برحمته - على ذلك بمقال قيم ذكر فيه: أن تقديم المصلحة على إطلاقها ففيها توسع غريب أدهى من توسع بعضهم في القول بالمصالح المرسلة، وربما جرّ ذلك إلى الهرج والمرج والفوضى في أحكام الشريعة الإسلامية، والتلاعب حسب الأهواء فيتسنى للفقهاء على هذا أن يحكم بحلية الربا مثلاً، لأن فيه مصلحة، والفائدة والمصلحة تعارض النص وتقدم عليه في المعاملات، وهل ذلك إلا الفوضى والتلاعب بأحكام الشريعة؟ (٥٦٥) إلى آخر مقاله القيم الذي اقتصرنا منه على هذه الجملة.

(٥٦١) جامع بيان العلم ج ٢ ص ١٥٩.

(٥٦٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٣ ص ٢٤٦.

(٥٦٣) هو نجم الدين أبو الربيع سليمان بن عبد القوي الحنبلي البغدادي المتوفى سنة (٧١٦ هـ). وقد اتهم في التشيع لتأليفه كتاب العذاب الواصب على ارواح النواصب، ولقوله الشعر في مدح علي، فعذب لذلك وعزّر وطرده من وظيفة التدريس. شذرات الذهب ج ٢ ص ٣٩.

(٥٦٤) رسالة الإسلام السنة الثانية العدد الأول ص ٩٤ تحت عنوان «من ذخائر الفكر الإسلامي».

(٥٦٥) رسالة الإسلام، العدد الثاني ص ١٩٣.

هذا ما يتعلق ببيان بعض أصول الفقه المالكي، وسيأتي الكلام على ذكر بعض المسائل الفقهية عند حديثنا عن فقه المذاهب .

ولا بدّ لنا من الإشارة لعصر مالك وما فيه من التطوّر الذي نستطيع أن نعرف موقفه عند تلك الحوادث، فقد كان سابقاً من المنكرين على العباسيين اختصاصهم بالأمر دون بني علي وهو كغيره من المفكرين الذين أنكروا ذلك ونالوا جزاءهم .

عصر مالك وحوادثه

كانت ولادة مالك في عهد الوليد بن عبد الملك في سنة (٩٣ - ٩٩ هـ) ووفاته في عهد الرشيد هارون سنة (١٧٩ هـ) فهو قد أدرك شطراً من العهد الأموي ومثله في العهد العباسي، وقد شاهد الكثير من حوادث العصر الأموي، ممّا لا حاجة إلى بيانه فقد مرت الإشارة إليه.

ولا بدّ أن نشير هنا إلى العهد العباسي إشارة موجزة لحوادث عصره فإنّه قد عاصر منهم: السفاح، والمنصور، والمهدي، والهادي وطرفاً من عصر الرشيد، فهذا هو أهمّ عهد في العصر العباسي الأوّل ، ففيه تمّ انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين بعد اضطراب وحروب طاحنة ذهبت بكثير من النفوس والأرواح ، وقد شاهد مالك أهمّ حوادث ذلك العهد، وعرف نصيب المدينة المنورة من تلك الثورة الماحقة ، وذاك الانقلاب الهائل، كما أنّه طمع كما طمع كثير من الناس أن ينال المجتمع سعادة تحت ظلّ دولة جاءت ساخطة على ظلم الأمويين، وسوء سيرتهم وجور عمّالهم ، وانتهاكهم لحرّمات الإسلام، واعتدائهم على مقدّسات الدين، ومعاملتهم السيئة لأهل بيت الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) ، وشاهد كما شاهد كثير من الناس اتحاد العباسيين والعلويين واتفاقهم على محاربة عدو مشترك، ليعالجوا الوضع الذي عظم على المسلمين تحمله.

وكان العباسيون ينضمّون لجانب أهل البيت(عليهم السلام)، وينظمون حزبهم وسط ذلك الجوّ، وهم أشدّ الناس انتقاداً لوضع الدولة الجائر، ويتألّمون لما نال المسلمين بصورة عامة ولأبناء عمّهم بصورة خاصة وهم موتورون من الأمويين، وناهيك بما في قلب الموتور من وائره، وكانت الهتافات باسم الرضا من آل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) وقد اتّجهت الأنظار لآل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) ، وحامت عليهم الآمال، واتّسع نطاق الثورة باسمهم وتمّت بيعة محمد بن عبد الله بن

الحسن ، وقد بايعه السفاح والمنصور وبقية العباسيين ، وكثير من العلويين ، وكان مالك ممّن يرى لزوم تلك البيعة وصحتها.

وعلي أيّ حال فقد استقر حكم بني العباس بعد ذلك الاضطراب وقامت دولتهم على أساس الانتماء لأهل البيت(عليهم السلام) والانتقام من أمية الظالمة .

وبطبيعة الحال أن يكون ذلك العصر مقروناً بتطورات وحوادث هامة، وقد شاهد مالك أكثرها، ولعلنا نستطيع أن نستكشف رأيه وموقفه عندما ننظر إلى مظاهر الدولة الجديدة التي كانت تنتقد أعمال الأمويين وإقامة عرشها على اطلال دولتهم .

فهل تبدّل ذلك الوضع الذي بعث الاستياء في نفوس العباسيين من الأمويين في معاملتهم القاسية مع أهل بيت النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)؟ وهل وجدوا في ظلّ دولة أبناء عمّهم راحة بعد ذلك العناء الذي شاهده في عهد الأمويين؟ وهل ظفر الناس ببغيتهم في إقامة دولة عادلة تحكم بكتاب الله وسنة نبيّه حتى يصبح مالك بن أنس من مؤازري الدولة وأعوانها؟ ويسعد برضاها لأنّها دولة عادلة تسير على كتاب الله وسنة رسوله، كلّ ذلك لم يكن بل كان الأمر معكوساً. وقد تضاعف الجور وازداد العنف.

كان عهد السفاح عهد حروب ومذابح، ولكّنه يعد في الواقع أحسن العهود، وعصره خير عصر على أهل البيت وأنصارهم ، وذلك واضح بيانه، لأنّ الدولة في عهدها الجديد لا يمكنها ارتكاب ما يكدّر الصفو ويغيّر الوضع، وتكشف عن وجهها فيحدث من ذلك خطر لا يمكن تلافيه، ومع هذا فقد أعطانا أبو مسلم صورة عن سياسة السفاح بكتابه للمنصور:

أما بعد: فقد كنت اتخذت أخاك - يعني السفاح - إماماً وجعلته على الدين دليلاً لقربته، والوصية التي زعم أنّها صارت إليه، فأوطأ بي عشوة الضلالة، وأرهقني في ربة الفتنة، وأمرني أن آخذ بالظنّة، وأقتل على التهمة، ولا أقبل المعذرة، فهتكت بأمره حرّات حتم الله صونها، وسفكت دماء فرض الله حقها وزويت الأمر عن أهله، ووضعته في غير محله^(٥٦٦).

ويقول في كتاب آخر للمنصور أيضاً:

أما بعد: فإنّي اتخذت رجلاً إماماً ودليلاً على ما افترض الله على خلقه، وكان في محلة العلم نازلاً، وفي قرابته من رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قريباً، فاستجهلني

بالقرآن فحرفه عن مواضعه طمعاً في قليل قد تعافاه الله إلى خلقه، وكان كالذي دلى بغرور، وأمرني أن أجرد السيف وأرفع المرحمة، ولا أقبل المذرة، ولا أقبل العثرة، ففعلت توطيداً لسلطانكم، حتى عرفكم الله من كان يجهلكم، وأطاعكم من كان عدوكم، وأظهركم الله بي بعد الإخفاء والحقارة والذل، ثم استنقذني الله بالتوبة... (٥٦٧).

والشيء الذي يلفت النظر في هذه المراسلة هو اعتراف أبي مسلم بخطئه في تأويل الآيات التي حاول العباسيون انطباقها عليهم تمويهاً على الناس، كآية التطهير التي نزلت في آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) دون غيرهم، وادّعى العباسيون أنهم أهل البيت الذين تنطبق عليهم هذه الآية، وغيرها كآية المودة، لذلك تنبّه أبو مسلم لهذا الخطأ في التأويل، وحاول أن يتدارك أمره بالتوبة، وإرجاع الأمر لآل علي (عليه السلام)، فراسل الإمام الصادق (عليه السلام) - كما ذكره غير واحد - بأن يدعو له، ويرجع الأمر إليه، ولكن الإمام رفض طلبه للأمر التي مرّ بيانها، فكان ذلك أعظم شيء على المنصور وقامت قيامته حتى استطاع أن يعجل على أبي مسلم قبل اتساع الخرق، وانتشار الأمر. وهذا هو السبب الوحيد في قتله بتلك الصورة كما قتل من قبله أبا سلمة الخلال المعروف بوزير آل محمد، لأنّه حاول إرجاع الأمر لآل علي، فقتله السفاح غيلة.

وجاء المنصور من بعده وهو اليقظ الذي أعطته المشاكل درساً، فكان قويّ السطوة عظيم البطش، يخشى زوال ملكه، وتتصور أمامه أيام محنته وكده ونكده، يوم كان خائفاً متخفياً يسعى في الأرض لإثارة الشعور، وتحريك عواطف الأمة بما نال أهل البيت (عليهم السلام) من الجور الأموي، فسفكوا دماءهم ولم يراعوا بهم حرمة الدين وقرابة النسب من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وكان يتوجّع لمصائب الأمة ومحنتها في عهدهم.

فلما نال غرضه وما يقصده من وراء ذلك فكان مثلاً للظلم والعدوان، وفتح على الأمة أبواب الجور، وأطلق عليهم عقاب الفتنة وخالف بأعماله أقواله حتى انتشر الجور في عهده، وقد أسرف في إراقة الدماء حتى قال له عمّه عبد الصمد:

لقد لججت في العقوبة حتى كأتك لم تسمع بالعفو. فقال المنصور: لأن بني مروان لم تبل رممهم، وآل أبي طالب لم تغمد سيوفهم ، ونحن بين قوم قد رأونا بالأمس سوقة فكيف تتمهد هيبتنا في صدورهم إلا بنسيان العفو^(٥٦٨)؟

فهو يحاول تركيز دعائم ملكه بتلك القسوة الهائلة من جهة، وبالتظاهر بالتدين من جهة أخرى، ليدفع عن نفسه خطر المؤاخذات، وقد كثرت عليه لإسرافه في القتل وسوء معاملته لأهل البيت حتى قال أكثر الناس : ما على هذا بايعنا آل محمد أن نسفك الدماء التي حرّمها الله .

وأنكر جماعة من القواد سياسة المنصور وقسوته فأظهروا الدعوة لآل علي(عليه السلام) فحاربهم عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي عامل خراسان سنة (١٤٠ هـ) فقتلهم وحبس منهم آخرين^(٥٦٩) وعظم الأمر على الأمة وسار العمال في العسف والجور، كما كان في العهد الأموي.

وقال عمرو بن عبيد للمنصور: «إنّه ما عمل وراء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه. قال المنصور: فما أصنع ؟ قد قلت لك: خاتمي بيدك فتعال وأصحابك فاكفني، قال عمرو: ادعنا بعدلك تسخ أنفسنا بعونك، إن بابك ألف مظلمة أردد منها شيئاً نعلم أنك صادق^(٥٧٠).

وعلى أيّ حال فإنّ الإمام مالكاً قد عاصر من خلفاء العباسيين: السفاح والمنصور، والمهدي، وموسى الهادي، وهارون الرشيد، وقد طلع نجمه في عهد المنصور، وكان ذلك العصر الذي عاش فيه مالك هو من أزهر العصور، ولكن لم يجد الناس فيه ما كانوا يأملونه من الأمن والاستقرار والعدل والمساواة، بل كانت هناك أثره واستبداد وتحكم في مقدرات الأمة وكبت للحريات.

الخراج في عهد مالك

أما مسألة الخراج التي عظم أمرها في العهد الأموي، وانتقد العباسيون سياسة الأمويين فيها ووعدوا الناس خيراً، وقطعوا على أنفسهم عهداً في تخفيفها، والعمل فيها بما أمر الله ورسوله، فكانت نتيجة الأمر أن يتضاعف البلاء ويكون

(٥٦٨) سير أعلام النبلاء ج ٧ ص ٦٩/١٠٣٨.

(٥٦٩) تاريخ ابن كثير ج ١٠ ص ٧٥.

(٥٧٠) عيون الأخبار ج ٢ ص ٣٣٧.

الحال فيها أعظم ممّا كان في العهد الأموي، حتى التجأ بعضهم إلى الاحتماء باسم رجال الدولة كالوزير مقابل ذلك مقدار من المال في السنة.

يقول الجهشيارى: إنّ من أهل الخراج من يلجئ أرضه وضياعه إلى خاصة الملك وبطانته لأحد أمرين: إمّا للامتناع من جور العمال وظلم الولاة، وإمّا لدفع ما يلزمهم من الحقّ والكسر له. ويعطي الجهشيارى مثلاً لذلك بقوله: جاء رجل من أهل الأهواز إلى أبي أيوب المورياني وهو وزير المنصور فقال له: إنّ ضيعتي بالأهواز قد حمل عليّ فيها العمال، فإنّ رأى الوزير أن يعيرني اسمه أجعله عليها، وأحمل له كلّ سنة مائة ألف درهم.

فقال له: «قد وهبت لك اسمي فافعل ما بدا لك». وفي العام التالي أحضر الرجل المال ودخل على أبي أيوب وأعلمه أنّه قد انتفع باسمه، وأنّه قد حمل المال فسر أبو أيوب كثيراً^(٥٧١).

وكان أبو أيوب عبداً للمنصور اشتراه صبيّاً قبل الخلافة، وقلّده الوزارة في خلافته، ثم غضب عليه فقتله سنة (١٥٣ هـ) واستصفى أمواله، وقلّد الوزارة من بعده للربيع بن يونس مولى آل عثمان بن عفان، ولم يزال وزيراً إلى أن مات المنصور^(٥٧٢).

وليس في وسعنا أن نتوسّع في قضية الخراج وتلاعب الجباة في ذلك، وما نال أهل الخراج من الشدّة والتعذيب، بالسباع والزنابير والسنانير^(٥٧٣)، وذلك في عهد المهدي العباسي.

واشتدّ الأمر كلّما امتدّ الزمن بالدولة العباسية، فقد كان عمال الخراج يستعملون وسائل الشدّة وأنواع التعذيب، كما وصفوا بأنهم: عتاة ليس في قلوبهم رحمة ولا إيمان، شر من الأفاعي يضربون الناس ويحبسونهم، ويعلقون الرجل البدين من ذراع واحد حتى يموت.

ومن أظرف ماجرى في عهد الوزير ابن الفرات قصة ملخصها: أنّه أراد إجراء الحساب مع محمد بن جعفر بن الحجاج سنة (٢٩٦ هـ) فطلب رجلاً لا يؤمن بالله واليوم الآخر، فانتدب له رجل يكتئ بأبي منصور فأحضر ابن الحجاج بين يديه وشتمه أبو منصور وافترى عليه، ثم أمر بتجريده وإيقاع المكروه به، وابن

(٥٧١) الوزراء والكتاب ص ٨٣.

(٥٧٢) أبو أيوب: اسمه سليمان المورياني من قرية موريان من قرى الأهواز.

(٥٧٣) الجهشيارى ص ١٠٣.

الحجاج يقول: يكفي الله، ثم أمر أبو منصور بنصب دقل وجعل في رأسه بكرة فيها حبل، وأمر برفع ابن الحجاج إلى أعلى الدقل وهو يستغيث ويقول: يكفي الله، فما زال معلقاً وأبو منصور يقول: المال المال، وهو غضبان حتى اختلط من شدة الغضب، وقال لمن يمسك الحبال: أرسلوا ابن الفاعلة وهو يرى أنهم يتوقفون، وهو يحاول بذلك تهديده فأرسلوا ابن الحجاج وكان بديناً فسقط على عنق أبي المنصور، فدقها وخرّ على وجهه وسقط ابن الحجاج مغشياً عليه، فحمل أبو منصور إلى منزله في محمل فمات في الطريق، ورد ابن الحجاج إلى محبسه وقد تخلص من التلف^(٥٧٤).

وكان أحد عمالهم يشتد في المطالبة بالأموال، فكان يضع على بطون الناس أطسات الجمر، ومنهم من يستعمل الدبابيس يضربون بها رؤوس أهل الخراج، إلى غير ذلك من أعمال القسوة والشدة مما لم يكن أكثره في العهد الأموي. هذه نظرة موجزة لسياسة العباسيين وسيرتهم التي ساروا فيها بالرعية، وهي امتداد لسيرة الأمويين بل فيها ما هو أشد من ذلك.

والغرض أن الأمة لم تحقق أمانيتها في ظل الدولة العباسية، وقد أنكر الناس سوء المعاملة، وكانت ظلمة السجن قد حجبت شعاع الحرية، ولغة السيف أخرست المتظلم، وقد وقف أهل البيت(عليهم السلام) وأتباعهم موقف الحزم والبطولة، ولم يتنازلوا عن المعارضة وشدة الإنكار، فكانت معاملة بني العباس لهم ولأنصارهم بقسوة متجردة عن معاني الرحمة، وراقبهم أشد المراقبة وضيّقوا عليهم سعة الدنيا ليحملوهم على التنازل عن مبادئهم.

فكان نصيب بني العباس وأعوانهم التمتع بمسرّات الحياة ولذائذ الدنيا وجمع الأموال ونشر السلطان، وإزهاق النفوس وحصد الرقاب.

وكان نصيب أهل البيت(عليهم السلام) وأنصارهم ألم الحديد، وثقل القيود، وظلمة السجون، والتحلي بأبراد الشهادة وهي مطرزة بدمائهم الزكية.

رسالة مالك

ولا نحتاج إلى أكثر من هذا البيان لذلك العصر وما فيه من تبدل وتطور.

هذا ولم يؤثر عن مالك بن أنس معارضة للوضع، ولا دعوة إلى إصلاحه؛ نعم هناك رسالة تنسب إلى الإمام مالك تحتوي على جملة من المواعظ والسنن، يقال: أرسلها مالك إلى الرشيد أو إلى يحيى البرمكي، فلما وصلت أمر الرشيد بكتابتها بالذهب^(٥٧٥).

وقد ذكرها القاضي عياض في ضمن ما ذكره من كتب مالك، وأول من حدث عنها بالأندلس ابن حبيب^(٥٧٦).

وينحصر سند هذه الرسالة بأبي بكر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن مالك بن أنس، أنه كتب بهذه الرسالة إلى يحيى البرمكي، ومرة أخرى إلى هارون الرشيد، فالذي عن أبي بكر مختلف في من وجهت إليه. فمرة إلى خالد ومرة إلى هارون، وقد حاولوا الجمع لذلك بتكرارها وأنها وجهت لكل منهما، وهو أمر غير مستساغ من فحوى الرسالة، وبالإعراض عن مناقشة السند، فقد أراحنا كثير من علماء المالكية عن فحصه ونقاشه منهم: القاضي إسماعيل المالكي، والأبهرى، وأبو محمد بن أبي زيد، فقد قالوا: إنها لا تصح وأن طريقها إلى مالك ضعيف، وفيها أحاديث لا نعرفها.

وقال الأبهرى: فيها أحاديث لو سمع مالك من يحدث بها لأدّبه، وأحاديث منكرة تخالف أصوله، وقالوا فيها أشياء أخرى لا تعرف من مذهب مالك، وقد أنكرها أصبغ بن الفرّج أيضاً، وحلف ما هي من وضع مالك^(٥٧٧).

والحقيقة أن الرسالة موضوعة، لأنها خالية عما يخص العدل والالتزام به وترك الظلم للذين هما أخص ما يخاطب به الملوك إلا قليلاً، بل الرسالة تذكر المستحبات، كقوله في الصفحة الرابعة: وصل من النهار اثنتي عشر ركعة وقرأ فيهن ما أحببت إن شئت صلهن جميعاً وإن شئت متفرقات، وقوله: وصم ثلاثة أيام من كل شهر، ويتعرض للغسل في الحمام وسائر المستحبات، وقوله في الصفحة السابعة: أقلل طلب الحوائج من الناس فإن في ذلك غضاضة، وبلغني عن النبي أنه قال لرجل: لا تسأل الناس. ومثل هذا كيف يخاطب به الملوك؟ ويقول: لتكن يدك العليا على كل من خالطت، فإنه بلغني عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: اليد

(٥٧٥) طبعت هذه الرسالة في مصر مستقلة في المطبعة الأميرية سنة ١٣١١ هـ وطبعت بالمطبعة المحمودية سنة (١٣٤٣ هـ)

(هـ) وطبعت في خاتمة كتاب سعد الشّمس وهي لا تتجاوز ٢٨ صفحة.

(٥٧٦) مالك بن أنس لمحمد أبو زهرة ص ١٧١ - ١٧٥.

(٥٧٧) مالك بن أنس لمحمد أبو زهرة ص ١٧٢.

العليا خير من اليد السفلى، ثم يتعرض إلى سنن الأكل والشرب واستحباب الجلوس في المسجد، إلى غير ذلك من الأمور التي تدلّ بكلّ وضوح على أنّ الرسالة منتحلة ولا أصل لها، ويقرأها الوعاظ والمرشدون.

ومهما يكن من أمر فإنّ عصر مالك اشتدّ فيه الوضع المؤلم والجور على الرعية، ولم يرد عن مالك - مع عظمته ونفوذه سلطته - ما يدل على إنكاره لتلك الأوضاع .

وكان العباسيون يعتمدون على ما يفتي به مالك، حتى حملوا الناس على الأخذ بأقواله ومناديتهم ينادي: ألا يفتي إلا مالك.

ولما قدم إبراهيم بن سعد الزهري العراق سنة (١٨٤ هـ) فأكرمه الرشيد وأظهر برّه. وقال له الرشيد: من كان من فقهاءكم يكره السماع؟ قال: من ربطه الله. قال: فهل بلغك عن مالك بن أنس في هذا شيء؟ قال: لا والله إلا أن أبي أخبرني أنّهم اجتمعوا في مدعاة كانت في بني يربوع، وهم يومئذ جلة ومالك أقلهم في فقهه وقدره، ومعهم دفوف ومعازف وعيدان يغنون ويلعبون، ومع مالك دف مربع وهو يغنيهم:

سليما أجمعت بينا *** فأين لقاءها أينما

وقد قالت لأتراب *** لها زهر تلاقينا

تعالين فقد طاب لـ *** لنا العيش تعالينا^(٥٧٨)

وكان المنصور يعظمه ويوجه الأنظار إليه، ويعلن بأنّ مالكاً هو أعلم الناس، كما أنّ مالكاً يعلن بأنّ المنصور أعلم الناس بالكتاب والسنة.

وكذلك المهدي، والهادي، والرشيد لحظوه بالعبادة والتقدير، فتوجّهت إليه أنظار الناس، وازدحموا على بابه، وانتشرت أقواله في الحجاز وكثر المنتمون لمدرسته، واستماع الموطأ منه، ولهذا اختلفت روايات الموطأ لكثرة روايته .

وقد حمل مذهب مالك في الحجاز فأظهره القاضي إبراهيم المعروف بابن فرحون^(٥٧٩).

كما أنّ مذهب مالك دخل الأندلس بواسطة زياد بن عبد الرحمن المتوفى سنة (١٩٣ هـ) وتولى الأمويون نشره هناك، وتزلف الناس إليهم بقبوله، وكان قاضي

(٥٧٨) تاريخ بغداد ج ٦ ص ٨٤ .

(٥٧٩) نيل الابتهاج بهامش الديباج المذهب ص ٢٤ .

القضاة يحيى بن يحيى لا يولي قاضياً إلا من كان ينتمي للمذهب المالكي كما كان أبو يوسف بالعراق بالنسبة لمذهب أبي حنيفة.

وقد أشرنا من قبل لعوامل انتشار المذاهب أن القضاة هم الذين يتولون نصرته المذهب وانتشاره.

والخلاصة: أن الإمام مالك بن أنس قد أرتفع شأنه وعلت منزلته عندما اتجهت إليه الدولة بالعباية بعد محنته وتعذيبه وطلبوا وضع كتاب تقرره الدولة ويحملون الناس عليه بالسيف^(٥٨٠) وهو كتاب الموطأ الذي سنتكلم عنه الآن تحت عنوان «تدوين العلم» لنرى هل أن مالكا هو أسبق من دون في العلم أم غيره؟ وما هو نصيب الشيعة في تدوين العلم؟ وما هو أثرهم في نشاط الحركة العلمية؟

ولا بدّ لنا قبل الشروع في ذلك من القول : بأننا قد تركنا التعرّض لآراء مالك وأقواله، فإنّ له آراءً في السياسة وأقوالاً في أمور مختلفة، لأن ذلك يستدعي الإطالة في القول والتوسع في البحث.

ولكننا سنتكلم حول رأيه في التفضيل فإنّ له رأياً يكاد ينفرد به عن علماء الإسلام، وذلك أنّه يذهب إلى تفضيل أبي بكر ثم عمر ثم عثمان، ويسكت، ويقول: هنا يتساوى الناس، وهذا أمر غريب وسنبحث هذه المسألة قريباً تحت عنوان مشكلة التفضيل. ومن الله التوفيق والسداد .

تَدْوِين الْعِلْم

تدوين العلم

أول من دوّن العلم

هذا تمهيد لأبحاث تأتي فيما بعد حول علم الحديث وسائر العلوم، فإنّ لعلم الحديث أهمية كبرى، فهو المدار لتفصيل الأحكام وتبيين الحلال من الحرام. وقد اعتنى رجال الأمة في معرفة الأحاديث النبوية، وسنتعرض لبيان أقسامه وصفاته رواته بما له تمام الصلة بموضوعنا، والكلام هنا يقع حول أمرين:

١ - في أيّ عصر ظهر التدوين، هل هو في الصدر الأول، أم في العهد الأموي، أم في العهد العباسي؟

٢ - في تعيين أول من دوّن في الإسلام.

اختلفت أقوال المؤرخين في ذلك فمن قائل: إنّ التدوين ظهر في عهد الصحابة، ومنهم من يقول: إنّّه في آخر العهد الأموي، وأنّ عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة (١٠١ هـ) أمر بجمع السنن فكتب دفاتر فبعث بها إلى كلّ بلد، أو أنّه أمر ابن شهاب الزهري بالتدوين، إلى غير ذلك من الاختلاف في الأقوال. وها نحن ذا ندرس الموضوع لنقف على حقيقة الأمر والواقع، ولا مشاحة فإنّ حركة التأليف كانت في العصر العباسي قويّة والنزعة إلى ذلك شديدة، لتشجيعهم الحركة العلمية، وانتعاش العلوم في ظلّ سلطانهم، لأنّهم يحاولون أن يصبغوا الدولة صبغة دينية وجعل أمورها على منهاج شرعي، كما اقتضت سياستهم لذلك، وقد مرّ بيانه.

وهنا لا بدّ لنا أن نتعرّض للأقوال في تدوين العلم لاستكشاف الحقائق، ومعرفة السابق إلى التدوين في الإسلام.

قال السيوطي في شرح الموطأ: أخرج الهروي في ذمّ الكلام من طريق الزهري: أنّ عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن واستشار فيه أصحاب رسول الله، فأشار عليه عامتهم في ذلك، فلبث شهراً يستخير الله في ذلك شاكاً فيه، ثمّ أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال: إني ذكرت لكم من كتابة السنن ما قد علمتم، ثمّ تذكرت فإذا

أناس من أهل الكتاب من قبلكم كتبوا مع كتاب الله كتباً، فأكتبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء، فترك كتابة السنن^(٥٨١).

وكان كثير من الصحابة والتابعين يكره كتابة العلم وتخليده في الصحف كعمر، وابن عباس، والشعبي، وقتادة ومن ذهب مذهبهم.

قال ابن عبد البر في جامع بيان العلم: «من كره كتابة العلم إنما كرهه لوجهين: أحدهما أن يتخذ مع القرآن كتاباً يضاهي به، ولئلا يتكل الكاتب على مايكتب، فلا يحفظ فيقلّ الحفظ»^(٥٨٢).

وهذا هو رأي عمر وما أدى إليه اجتهاده في ذلك. وقال ابن عبد البر أيضاً: كان اعتماد الصحابة أولاً على الحفظ والضبط في القلوب غير ملتفتين إلى التدوين، فلما انتشر الإسلام وتفرقت الصحابة ومات معظمهم مست الحاجة إلى تدوين الحديث وتقييده بالكتابة^(٥٨٣).

وبهذا يظهر أن التدوين عندهم متأخر عن الصدر الأول، كما مرّ من رأي عمر في ذلك، ويذهب الغزالي إلى أن حدوث التدوين كان في سنة (١٢٠ هـ)، وبعضهم يرى أنه قبل ذلك في عهد عمر بن عبد العزيز.

جاء في الموطأ أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر بن محمد بن عمر ابن حزم: أن انظر ما كان من حديث رسول الله أو سنته فاكتبه فأني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، وأوصاه أن يكتب له ما عند عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية والقاسم بن محمد بن أبي بكر. وأخرج أبو نعيم في تاريخ أصفهان عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى الأفاق: «أنظروا إلى حديث رسول الله فاجمعوه»^(٥٨٤).

وأبو بكر بن محمد بن عمر هذا كان أنصارياً مدنياً، ولي القضاء على المدينة لسليمان بن عبد الملك ولعمر بن عبد العزيز، وتوفي سنة (١٢٠ هـ)، وكانت ولاية عمر بن عبد العزيز سنة (٩٩ هـ) إلى سنة (١٠١ هـ)، فعلى هذه الرواية قد يكون أمر أبي بكر بالجمع حوالي سنة (١٠٠ هـ).

يقول الدكتور أحمد أمين: ولكن هل نقد هذا الأمر؟ كل ما نعلمه أنه لم تصل إلينا هذه المجموعة ولم يشر إليها - فيما نعلم - جامع الحديث بعد، ومن أجل هذا شكّ بعض الباحثين من المستشرقين في هذا الخبر، إذ لو جمع شيء من هذا القبيل

(٥٨١) تنوير الحوالك شرح موطأ مالك ص ٣٥.

(٥٨٢) جامع بيان العلم ج ١ ص ٢٩٢/ ٣٧٤.

(٥٨٣) جامع بيان العلم ج ٢ ص ٣٤.

(٥٨٤) تنوير الحوالك ص ٩ - ١٠.

لكان من أهمّ المراجع لجامعي الحديث، ولكن لا داعي إلى هذا الشكّ، فالخبر يروي لنا أنّ عمر أمر، ولم يرو لنا أنّ الجمع تمّ. فلعلّ موت عمر سريعاً عدل بأبي بكر عن أن ينفذ ما أمر به^(٥٨٥)، فلمّا جاء العصر العباسي وانتصف القرن الثاني بدأ التأليف في الحديث، كما بدأ في العلوم الأخرى، ووجدت هذه النزعة إلى تدوين الحديث في أمصار مختلفة وفي عصور متقاربة، ففي مكّة جمع الحديث ابن جريح المتوفى سنة (١٥٠ هـ) - الرومي الأصل - ولم يوثقه البخاري، وقال: «إنّه لا يتابع في حديثه»^(٥٨٦) وفي المدينة محمد بن إسحاق المتوفى سنة (١٥١ هـ) ومالك بن أنس المتوفى سنة (١٧٩ هـ)، وبالبصرة الربيع بن صبيح المتوفى سنة (١٦٠ هـ)، وسعيد بن أبي عروبة المتوفى سنة (١٥٦ هـ)، وحمام بن سلمة المتوفى سنة (١٧٦ هـ)، وبالكوفة سفيان الثوري المتوفى سنة (١٦١ هـ)، وبالشام الأوزاعي المتوفى سنة (١٥٦ هـ)، وباليمن معمر المتوفى سنة (١٥٣ هـ)، وبخراسان ابن المبارك المتوفى سنة (١٨١ هـ)، وبمصر الليث بن سعد المتوفى سنة (١٧٥ هـ).

قال في كشف الظنون: واعلم أنّه اختلف في أوّل من صنّف في الإسلام، فقليل الإمام عبد العزيز بن جريح البصري المتوفى سنة (١٥٥ هـ)، وقيل أبو النضر سعيد بن عروبة المتوفى سنة (١٥٦ هـ)، ذكرهما الخطيب البغدادي، وقيل ربيع بن صبيح المتوفى سنة (١٦٠ هـ)، ثم صنّف سفيان بن عيينة المتوفى سنة (١٩٨ هـ)، ومالك بن أنس بالمدينة، وعبد الله بن وهب المتوفى سنة (١٩٨ هـ) بمصر، وعبد الرزاق باليمن، ومحمد بن فضيل بن غزوان بالكوفة، وحمام بن سلمة، وروح بن عباد بالبصرة، وهيثم المتوفى سنة (١٨٣ هـ) بواسط، وعبد الله بن المبارك المتوفى سنة (١٨٢ هـ) بخراسان^(٥٨٧).

قال الغزالي في الإحياء: بل الكتب والتصانيف محدثة لم يكن شيء منها في زمن الصحابة وصدر التابعين، وإنّما حدثت بعد سنة (١٢٠ هـ) من الهجرة وبعد وفاة جميع الصحابة وجلّ التابعين، وبعد وفاة سعيد بن المسيب والحسن وخيار التابعين، بل كان الأولون يكرهون كتب الأحاديث وتصنيف الكتب لئلا يشتغل الناس بها عن الحفظ وعن القرآن وعن التدبّر والتذكّر وقالوا: احفظوا كما كنّا نحفظ... وكان أحمد بن حنبل ينكر على مالك تصنيف الموطأ، ويقول: ابتدع ما لم تفعله الصحابة، وقيل أوّل كتاب صنّف في الإسلام كتاب ابن جريح في الآثار، وحروف

(٥٨٥) ضحى الإسلام ج ٣ ص ٦٠٦ - ٦٠٧.

(٥٨٦) كشف الظنون ج ٢ ص ١٠١٢.

(٥٨٧) الطبقات الكبرى ج ٧ ص ٣٧٢.

التفاسير عن مجاهد وعطاء وأصحاب ابن عباس بمكة، ثم كتاب معمر بن راشد الصنعاني المتوفى سنة (١٥٤هـ) باليمن جمع فيه سنناً مأثورة نبوية، ثم كتاب الموطأ بالمدينة لمالك، ثم جامع سفيان الثوري، ثم في القرن الرابع حدثت مصنفات في الكلام، وكثر الخوض في الجدل، والخوض في إبطال المقالات^(٥٨٨).

وقال ابن عبد البر عن عبد العزيز الداروردي قال : أول من دَوّن العلم وكتبه ابن شهاب. وعن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال: كنّا نكتب الحلال والحرام . وكان ابن شهاب يكتب كلّ ما سمع^(٥٨٩).

وقال السيوطي : أول القضاة بمصر سجلّ سجلاً بقضائه سليم بن عز: قضى في ميراث وأشهد فيه، وكتب كتاباً بالقضاء وأشهد فيه شيوخ الجند، فكان أول القضاة تسجيلاً، وكانت ولايته من سنة (٤٠ هـ) إلى موت معاوية، فترى من هذا أنّ الجمع بدأ في أوائل النصف الثاني من القرن الثاني - غالباً - وأنّ الفكرة فشّت في الأمصار المختلفة ، ومن الصعب تحديد أي مصر كان له السبق، إلا إذا اعتبرنا أنّ ابن جريح في مكة كان أسبق هؤلاء العلماء موتاً، فيكون أسبقهم تأليفاً، وربما قلّد في ذلك ، وعمت الفكرة في الأمصار من طريق الحج، فالعلماء الذين رحلوا إلى مكة أخذوا فكرة جمع الحديث منها أثناء حجّهم ، ونشروها في بلادهم ، وجمعوا ما في مصرهم من الحديث كما جمع ابن جريح أحاديث مصره^(٥٩٠).

الشريعة والتدوين

هذا ملخص ما في الباب من الاختلاف وكثرة الأقوال. ومن المؤسف له أنّ أكثرهم أهمل ناحية سبق أهل البيت (عليهم السلام) وأتباعهم إلى التدوين في جميع العلوم الإسلامية. ولا يستغرب هذا فالظروف قد اقتضت ذلك، نظراً لسياسة الوقت، فعدم تعرّضهم لذلك لا لجهة العدم، وإنّما هي أمور لا تخفى على المتتبع . والحقّ الذي لا غبار عليه: أنّ أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هم الحائزون على قصب السبق، وقد وجّهوا عنايتهم التامة في تدوين العلوم، واحتفظ تلامذتهم والمختصّون بهم بذلك . فسجّلوا ما تلقوا عنهم، وحفظوا ما أخذوه منهم.

(٥٨٨) إحياء علوم الدين ج ٢ ص ١٤٣ - ١٤٤.

(٥٨٩) سير أعلام النبلاء ج ٦ ص ١٣٣ / ٧٧٤.

(٥٩٠) سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ١٥٣ / ٤٠٦.

يقول العلامة مصطفى عبد الرزاق عند ذكره لأول من دَوّن الفقه: وعلى كلّ حال فإنّ ذلك لا يخلو من دلالة على أنّ النزوع إلى تدوين الفقه كان أسرع إلى الشيعة، لأنّ اعتقادهم العصمة في أئمتهم أو ما يشبه العصمة كان حريّاً أن يسوقهم إلى الحثّ على تدوين أقضيّتهم وفتاواهم^(٥٩١). وإنّ أسبق كتاب في الفقه هو كتاب قضاء الإمام علي بن أبي طالب الذي كان عند ابن عباس منه نسخة يعتمد عليها.

أهل البيت(عليهم السلام) أول من دَوّن العلم رأينا كيف اختلفت الأقوال في تعيين السابق إلى تدوين العلم في الإسلام، والمحاولة التي تقضي بظاهرها صرف الحقّ في ذلك عن أهله، كغيرها من المحاولات التي اتخذت ضدهم من قبل المناوئين لهم، وخصومهم الذين كان يزعمهم ذكر آل محمد بخير، لأنّ ذلك يدخل على خصومهم القلق، وعدم الاستقرار والتنعم في ملاذ الحياة، ولكنّ أكثر المسلمين احتفظوا بالولاء لهم رغم كلّ محاولة. وإنّ لأهل البيت قدماً راسخاً في العلم، وآثراً خالدة في الإسلام. وفي الواقع أنّ أول من دَوّن العلم هو سيّد الأوصياء وإمام البلغاء عليّ بن أبي طالب(عليه السلام)، وإنّ أسبق كتاب في الفقه هو كتاب الإمام عليّ(عليه السلام) وأحكامه، فقد كانت عند ابن عباس منه نسخة ينظر فيها لأخذ أهمّ القضايا في القضاء عنه، وكان عند الإمام الباقر(عليه السلام) نسخة من كتاب عليّ(عليه السلام) بخطه يرجع إليه وتوارثه أولاده وأحفاده، كما أنّ عندهم صحفاً بمختلف الفنون والعلوم يتوارثونها عنه واحداً بعد واحد. ودوّن تلاميذه في عصره ما سمعوه منه وتلقوه عنه من الأحكام في الدين. كعبد الله بن أبي رافع، والأصبغ بن نباتة، وغيرهم الذين يأتي ذكرهم^(٥٩٢).

عهد الإمام عليّ(عليه السلام) لمالك الأشتر إنّ أعظم أثر خالد دونه الإمام علي بن أبي طالب هو عهده لمالك الأشتر الذي يحتوي على أهمّ القواعد والأصول التي تتعلق بالقضاء والقضاة، وإدارة الحكم في

(٥٩١) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢٠٢.

(٥٩٢) رجال النجاشي ج ١ ص ٦٤ / ١ واسمه عبيدالله، كاتب أمير المؤمنين(عليه السلام) ويأتي في صفحة ٣٠٣.

الإسلام، وقرر فيه قواعد مهمة في التضامن الاجتماعي، بل التعاون الإنساني في إقامة العدل، وحسن الإدارة، والسياسة وبيان صلاح الهيئة الاجتماعية ، وتنظيم الجيش، وبيان الخراج وأهميته ، وكيف يجب أن تكون المعاملة فيه، والنظر في عمارة الأرض وما يتعلق بذلك من أصول العمران، وما فيه صلاح البلاد ومنابع ثروته، وما للتجارة والصناعة من الأثر في حياة الأمة، إلى غير ذلك من القواعد الهامة التي تهدف إلى أسمى هدف في العدل الإسلامي، وهو لا يعدّ في عداد الرسائل أو العهود القصيرة الموجزة، بل هو يعتبر في الواقع كتاباً مستقلاً له أهميته في التشريع الإسلامي، حتى أصبح موضع العناية من رجال الفكر. وأعطوه كبير عناية بالشرح والإفاضة واعتنى به علماء القانون وساسة الأمم، فهو أثر خالد ومفخرة الإسلام على ممر الدهور، إذاً فليس من الصحيح إهماله وجعله جزءاً من كتاب ، بل هو كتاب برأسه، وقانون للتشريع الإداري بذاته.

ولهذا العهد شروح عديدة، منها:

- ١ - شرح العلامة المصلح مفتي الديار المصرية الشيخ محمد عبده المتوفى سنة (١٣٢٣ هـ) الموسوم «مقتبس السياسة» المطبوع سنة (١٣١٧ هـ) .
- ٢ - شرح السيد الماجد البحراني، وسماه «التحفة السليمانية» شرحه في ستين فصلاً، طبع في طهران .
- ٣ - شرح المولى محمد صالح الروغني القزويني من علماء القرن الحادي عشر.
- ٤ - شرح المولى محمد باقر، وقد يظن أنّه المجلسي المتوفى سنة (١١١١ هـ).
- ٥ - شرح سلطان محمد المتوفى سنة (١٣٥٤ هـ) الموسوم أساس السياسة في تأسيس الرئاسة.
- ٦ - شرح العلامة الهادي البرجندي المطبوع سنة (١٣٥٥ هـ) .
- ٧ - شرح الحسين الهمداني الموسوم «هدية الحسام لهداية الحكام».
- ٨ - ترجمة الفاضل محمد جمال الدين لهذا العهد الشريف إلى اللغة التركية منظوماً نظماً لطيفاً .

٩ - شرح العلامة الشيخ عبد الواحد المظفر، أسماه (السياسة العلوية) مخطوط يقع في ثلاثة أجزاء .

١٠ - وشرحه شراح نهج البلاغة بشروح وافية، كابن أبي الحديد، والشيخ ميثم، وغيرهما من العلماء الأعلام، ويزيد عدد شروح نهج البلاغة على المائة شرح باللغة العربية وغيرها .

١١ - شرح القانوني الكبير الأستاذ توفيق الفكيكي الموسوم بـ «الراعي والرعية» وهو شرح يمتاز عن غيره بكثير من النواحي ، أهمها تطبيقه تلك القواعد على نظم العصر الحاضر من القوانين الحديثة، وقد طبع في النجف سنة (١٣٥٨ هـ) ويقع في مجلدين.

كما أنّ لهذا العهد شروحاً كثيرة لا يمكن الإحاطة بها، ذكرها شيخنا الحجة الشيخ محسن الطهراني في كتابه «الذريعة».

فكتاب عهد الإمام علي بن أبي طالب هو المثل الأعلى للحكم في الإسلام لما فيه من أهمّ القواعد السياسية ، والإدارية، والقضائية ، والمالية، والنظريات الدستورية، التي تتضمن السعادة لما فيها من نظام عادل.

فجدير إذا اعتنى به علماء الأمة، ورجال الحكم، وأرباب السياسة والتشريع والقضاء وأعطوه أهمية كبرى وعناية عظيمة .

وسار أولاده وأحفاده في تشجيع حركة التدوين، واحتفظ التاريخ بكثير من تلك الآثار الخالدة.

رسالة الحقوق للإمام زين العابدين

ويجب أن لا يغيب عن بالنا ما لرسالة الحقوق التي كتبها الإمام زين العابدين(عليه السلام)، فهي في الواقع من أعظم الكتب التي دوّنت في القرن الأول، وهي تحتوي على خمسين فصلاً في بيان أهم الحقوق التي يلزم الإنسان القيام بها، لما في ذلك من صلاح الهيئة الاجتماعية في سياسة الإنسان نفسه، وسيرته مع أبناء جنسه، وما يلزم على الحكام في سيرتهم مع الرعية، وما يجب على الرعية للحكام، وما يجب على العبد من العبودية لله وشكره، والقيام بما يجب عليه إلى غير ذلك من بيان أهم الحقوق والواجبات كحقّ الصلاة، وحقّ السلطان، وحقّ الرعية، وحقّ الرحم، وحقّ الوالد، وحقّ الولد، وحقّ الجليس والصاحب ، وحقّ الخصم، وحقّ

الغريب... إلى آخر فصولها القيّمة، وهي كبيرة، وقد طبعت في طهران في ضمن كتاب تحف العقول، وشرحها الخطيب السيد حسن القبانجي شرحاً وافياً في مجلدين طبعا في النجف الأشرف.

مسند زيد بن عليّ ومدونته الفقهية

ولزيد بن عليّ بن الحسين بن أبي طالب (عليه السلام) مسند كبير، جمع فيه الحديث عن آبائه وأخيه الباقر (عليهم السلام)، وهو لا يزال محل اعتماد المحدثين، ونقلوا عنه في كتب الحديث، ويرمزون له: بـ «ز». وعده في كتاب مفاتيح كنوز السنة من الكتب المعتمدة المنقولة عنها، وكذلك لمحمد بن الحنفية مسند في الحديث، له ذكر مشهور.

ولزيد بن عليّ مدونة فقهية اكتشفت بين المخطوطات القديمة في المكتبة الامبروزية بميلانو الخاصة ببلاد العرب الجنوبية.

وهذا المخطوط يعدّ أقدم مجموعة في الفقه الإسلامي. وعلى كلّ حال ينبغي أن يوضع هذا الكتاب موضع الاعتبار فيما يتعلق بتاريخ التأليف في الفقه الإسلامي^(٥٩٣).

ولا مشاحة في أن سبق أهل البيت إلى تدوين الفقه وسائر العلوم الإسلامية أمر لا يمكن إنكاره.

فقد دونوا العلم وأمروا تلامذتهم في ذلك، فكانوا يأمرونهم بالكتابة فدوّنوا ما تلقوه منهم في سائر العلوم، وليس من شكّ أنّ نزعة التدوين عند الشيعة كانت من عهد الإمام عليّ (عليه السلام).

فهذا عليّ بن أبي رافع مولى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان من تلامذة أمير المؤمنين وخواصه، ذكره النجاشي في الطبقة الأولى من مصنّفي الشيعة، وجمع كتاباً في فنون الفقه، تلقى ذلك عن أمير المؤمنين (عليه السلام) وكانوا يعظمون هذا الكتاب. وله كتاب السنن والأحكام.

وأبو سليمان زيد الجهنّي الذي شهد حروب الإمام عليّ (عليه السلام) وألف كتاب الخطب في عصر أمير المؤمنين (عليه السلام).

وعبيد الله بن أبي رافع كاتب أمير المؤمنين(عليه السلام) له كتاب قضايا أمير المؤمنين(عليه السلام)، يرويه الشيخ الطوسي، وله كتاب تسمية من شهد مع أمير المؤمنين(عليه السلام) الجمل وصفين والنهروان، وهو أول مصنف في الرجال ذكره الشيخ محسن الطهراني في مصفى المقال في علم الرجال(٥٩٤).

وسليم بن قيس من أصحاب أمير المؤمنين(عليه السلام) له كتاب يرويه عنه أبان بن عياش، وسيأتي الحديث حول هذا الكتاب .

وغير هؤلاء من أصحاب أمير المؤمنين(عليه السلام) ممن سبقوا إلى التدوين، ولما نشطت الحركة العلمية في عهد الإمام الباقر(عليه السلام) وولده الإمام الصادق(عليه السلام)، كثر تدوين الفقه والحديث وسائر العلوم عنهم، واتجه تلامذتهما إلى التأليف، ولا بد من الإشارة إلى ذلك بموجز من البيان .

عصر الإمام الباقر(عليه السلام)

كان لانتعاش العلم في ذلك العصر أثر في اتجاه الناس إلى الأخذ عن أهل البيت، وقد مرت الإشارة إلى اتساع مدرسة الإمام الباقر(عليه السلام)، فكان(عليه السلام) قد وحد جهوده إلى نشر العلم، فأتجهت إليه طلاب الحقيقة، لأنه خير رائد وأعظم مرشد.

وهو أول من أسس علم الأصول وفتح بابَه وفتح مسائله، ومن بعده ولده الإمام الصادق (عليه السلام) ، وقد أمليا على أصحابهما قواعده وجمعوا من ذلك مسائل دونها المتأخرون حسب ترتيب المصنفين فيه برواية مسندة إليهما من دون دخل لأرائهم فيها. ولا وضع قول إلى جنب قولهما، وتلك الكتب موجودة إلى هذا الوقت.

فالإمام الباقر(عليه السلام) هو واضع علم الأصول وفتح بابَه. وأول من صنف فيه هو هشام بن الحكم: صنف كتاب (الألفاظ ومباحثها)، وهو أهم مباحث علم الأصول ، ثم من بعده يونس بن عبد الرحمن مولى آل يقطين صنف كتاب (اختلاف الحديث ومسائله)، وهو مبحث تعارض الحديثين ومسائل التعادل والتراجيح ، ثم أخذت حركة التأليف في الأصول من بعدهما بالتوسعة، واشتهر منهم أئمة أعلام: منهم أبو سهل النوبختي، والحسن بن موسى النوبختي وهما من علماء القرن الثالث ، ومن بعدهما ابن الجنيد وأبو منصور الصرام، وابن داود والشيخ المفيد والسيد المرتضى وغيرهم عدد كثير(٥٩٥).

(٥٩٤) تقدم ذكره في هذا المجلد ص ٢٩٩ .

(٥٩٥) تأسيس الشيعة ص ٣١٠ - ٣١٤ .

فالقول بأنّ الشافعي هو واضع علم الأصول ظلم للحقيقة وخروج عن حدود الإنصاف، على أنّ هذا القول لا يؤيده بقيّة العلماء من سائر المذاهب، فللحنفية أصول وللمالكية أصول . نعم لا ينكر أنّ الشافعي ألف في الأصول ووسّع دائرة بحثه، ويعتبر عندهم أوّل من صنف فيه، وهو متأخر عن مصنفي الشيعة الذين سبقوا للتصنيف في علم الأصول .

وقد ذكر ابن النديم^(٥٩٦) كتاب مباحث الألفاظ في تعداد مؤلفات هشام بن الحكم. على أنّا نجد في كتاب الفهرست أيضاً في ترجمة محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة ذكر كتاب له يسمى: أصول الفقه ، وتدعي الحنفية أيضاً أنّ أوّل من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة هو أبو يوسف^(٥٩٧).

والغرض أنّ دعوى وضع الشافعي لعلم الأصول غير صحيحة، بل يقول الأكثر : إنّ أوّل من صنف في أصول الفقه صنف كتاب (الرسالة) وكتاب (أحكام القرآن) كما جاء في البحر المحيط للزركشي^(٥٩٨).

ويقول ابن خلدون : أوّل من كتب في علم الأصول الشافعي أملى فيه رسالته المشهورة تكلم فيها في الأوامر والنواهي والبيان والنسخ وحكم العلة المنصوصة من القياس^(٥٩٩).

وقال في (كشف الظنون): أوّل من ألف فيه الشافعي^(٦٠٠).

إذاً فالشافعي مؤلف واضع، ونحن لا ننكر ذلك، ولكن هشام بن الحكم كان أسبق من الشافعي، لأنّه ألف مباحث الألفاظ من الأوامر والنواهي والبيان والنسخ، وغير ذلك الذي تلقى معلوماتها عن استاذه الإمام الصادق (عليه السلام) قبل ولادة الشافعي.

وكانت وفاة هشام سنة (١٧٩ هـ) ووفاة الشافعي سنة (٢٠٤ هـ) فرسالة هشام بن الحكم - في علم الأصول التي ذكرها النجاشي^(٦٠١) والكشي^(٦٠٢) وابن النديم^(٦٠٣) - أقدم من رسالة الشافعي أخذاً وتأليفاً. وقد وصف الشهرستاني صاحب

(٥٩٦) الفهرست لابن النديم ص ٢٢٣ - ٢٢٤.

(٥٩٧) مناقب أبي حنيفة للمكي ج ٢ ص ٢٤٥.

(٥٩٨) البحر المحيط، للزركشي ج ١ ص ٧ و ١٠.

(٥٩٩) مقدمة تاريخ ابن خلدون ج ١ ص ٥٧٦.

(٦٠٠) كشف الظنون ج ١ ص ١١١.

(٦٠١) رجال النجاشي ج ٢ ص ٣٩٨ / ١١٦٥.

(٦٠٢) انظر رجال الكشي ص ٢٥٥ - ٢٨٠ حيث لم يرد ذكر لرسالة هشام بن الحكم في ترجمته.

(٦٠٣) الفهرست لابن النديم ص ٢٢٣ - ٢٢٤.

الملل والنحل هشاماً بأنه صاحب غور في الأصول^(٦٠٤). ورسالة الشافعي نقضها أبو سهل النوبختي من علماء القرن الثالث، وهو من علماء الشيعة. وإن للإمام الباقر(عليه السلام) كتاباً في التفسير يرويه عنه أبو الجارود وقد مرت الإشارة إليه.

أما تلامذته الذين ألفوا في عصره فعددهم كثير: منهم - ثابت بن دينار له كتاب يرويه الشيخ الطوسي بطريق واحد، وله كتاب (النوادر) وكتاب (الزهد)، رواهما حميد بن زياد عن محمد بن عياش، وأبان بن تغلب وهو من المؤلفين بشتى العلوم، وكان من تلامذة الباقر والصادق(عليهما السلام)، ذكره ابن النديم^(٦٠٥).

وحجر بن زائدة الحضرمي له كتاب في الحديث يرويه عنه النجاشي^(٦٠٦) بست وسائط.

وسلام بن أبي عمرة الخراساني له كتاب رواه عنه عبد الله بن جبلة والنجاشي^(٦٠٧) بإسناده إلى ابن جبلة عنه، وهو من الكتب الموجودة الباقية بالهيئة الأصلية.

وكليب بن معاوية بن جبلة الصيداوي الأسدي له كتاب في الحديث يرويه عنه جماعة: منهم عبد الرحمن بن أبي هاشم، ويرويه النجاشي^(٦٠٨) بخمس وسائط عنه. وغيرهم كثير لا يسع المقام ذكرهم.

عصر الإمام الصادق(عليه السلام)

وهو أزهَر العصور في نشاط الحركة العلمية والنزوع إلى التدوين. والإمام الصادق(عليه السلام) هو زعيم تلك الحركة والمعلم الأول في ذلك العهد، فقد انتمى لمدرسته عظماء الأمة، ورجال العلم ورؤساء المذاهب.

وكان بيته كالجامعة يزدان على الدوام بالعلماء الكبار في الحديث والتفسير والحكمة والكلام، فكان يحضر درسه في أغلب الأوقات ألفان، وفي بعض الأحيان أربعة آلاف من العلماء المشهورين، وقد ألف تلاميذه من جمع الأحاديث والدروس

(٦٠٤) الملل والنحل ج ١ ص ١٦٥.

(٦٠٥) الفهرست لابن النديم ص ٢٧٦.

(٦٠٦) رجال النجاشي ج ١ ص ٣٤٧ / ٣٨٢.

(٦٠٧) رجال النجاشي ج ١ ص ٤٢٤ / ٥٠٠.

(٦٠٨) رجال النجاشي ج ٢ ص ١٨٧ / ٨٦٩.

التي كانوا يتلقونها في مجلسه مجموعة من الكتب تعدّ بمثابة دائرة معارف للمذهب الشيعي أو الجعفري، وقد بلغ عددها في أيام الإمام الحسن العسكري أربعمئة كتاب.

فهشام بن الحكم، والطاقي، وزرارة، وأبو بصير، ومحمد بن مسلم من نوابغ تلاميذ الإمام جعفر الصادق(عليه السلام)، وهم في الحقيقة المرجع الأصلي لفقه المذهب الجعفري أو مذهب الشيعة وحكمته، وكان خلفاء الإمام جعفر الصادق يعدّون مورداً فياضاً للاستفادة المذهبية والعلمية للشيعة^(٦٠٩).

وتسابق أعيان تلامذته إلى تدوين الحديث والمسائل الفقهية، فكان مجموع ما أحصى من التأليف في عصره أربعمئة مصنف لأربعمئة مصنف، وذكر الشيخ آغا بزرك^(٦١٠) من مصنفي تلامذة الإمام الصادق(عليه السلام) في الحديث فقط أكثر من مائتي رجل مع تراجمهم عدا المؤلفين من سائر أصحاب الأئمة عليهم السلام، ومجموع ما ذكره سبعمئة وتسعة وثلاثون كتاباً، عدا الكتب التي ذكرها بعنوان الأصول. وقال في خاتمة البحث : «هذا آخر ما ظفرنا به من فهرس كتب قدماء الأصحاب التي لم تسمّ إلا باسم الكتاب وعبرنا عنها بكتب الحديث لاشتغالها على أحاديثهم التي يروونها عن الأئمة(عليهم السلام) قد أودعت تلك الروايات بعين ألفاظها في المجاميع الأربعة التي ألفها المحمّدون الثلاثة القدماء: الكافي، والتهذيب، والاستبصار والفقيه، والمحامدة المتأخرة أي: الوافي، والبحار، والوسائل ومستدركه، وغيرها من المجاميع المخطوطة الموجودة في خزائن الكتب في العالم مثل جامع المعارف والأحكام، وجوامع الكلم، ودرر البحار، والشفاء في أخبار آل المصطفى، ومستدرك الوافي، ومستدرك البحار، وغير ذلك من الكتب...»

حركة التدوين عند الشيعة

وخلاصة القول أنّ أهل بيت الرسول(عليهم السلام) هم أسبق الناس إلى التدوين وتشجيع الحركة العلمية، فهم أهل الفضل في كلّ علم، حفظوا أحكام الرسول وأخبروا عن أنباء التنزيل، فكانوا معدن العلم، وخزان الوحي، وورثة الرسول الأعظم(صلى الله عليه وآله وسلم)، وهم عدل القرآن وتراجمته.

(٦٠٩) رسالة الإسلام العدد ٤ السنة السادسة من مقال للأستاذ السيد صادق نشأت الأستاذ بكلية الآداب بالقاهرة.

(٦١٠) الذريعة ج ٦ ص ٣٠١ - ٣٧٤.

ومن الظلم وعدم إنصاف الحقّ الإعراض عن ذكرهم في السبق إلى تدوين العلم، وتعليم الأمة، ولو فسح المجال وتخلّت السلطة عن التدخل في شؤون العلم لأغراضها لتحررت الأفكار من ذلك الجمود الذي فرضته السلطة، وذكرت الحقيقة التي ترعب الحكام.

ومما لا شكّ فيه أنّ حركة التدوين عند الشيعة كانت أسبق من غيرهم، وإثبات ذلك لا يستدعي كثير مشقة ومزيد عناء، ولكن الشيء الذي أدى إلى أن يتأخر ذكرهم في السبق: هو أنّ فقهم وحديثهم مأخوذ عن أهل البيت الذين أمر الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) باتباعهم، ولا يخفى على المتتبع المنصف معارضة الأمويين والعباسيين لإظهار ذكر آل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) ونشر مآثرهم، فإنهم يرون إظهار ذلك إضعافاً لحكمهم ومعارضاً لسياستهم، وقد منع الأمويون جميع المحدثين أن يذكروا علياً وأهل بيته بخير ولا يروون حديثهم، فكان العلماء إذا أرادوا أن يحدثوا عن علي كئوه بأبي زينب، أو أشاروا إليه بإشارة، متفقّ عليها.

ولما جاء الدور العباسي ونشطت الحركة العلمية وظهرت النزعة إلى التدوين وقاموا في تشجيعها، كانت الشيعة في طليعة السابقين لذلك، ولكن سياسة الدولة وتطور الزمن أدّى إلى أن يصبح المتتبع لآثار آل محمد في الأحكام - بل المعروف بحبهم - متهماً بجرم لا يغفر، حتى امتحن كثير من العلماء.

فهذا الإمام الشافعي على ما هو فيه من اتّصاح الحالة والنزعة إتهم في التشيع، وحوسب على ذلك، لأنّه كان يظهر حبّ عليّ ويعتمد على أحكامه في أحكام البغاة على الإمام .

وكذلك الحاكم صاحب (المستدرک) لأنّه كان يطعن على معاوية وروى في كتابه حديث (الموالاة) وغيره.

والحافظ الدارقطني اتهم في التشيع، لأنّه كان يحفظ ديوان السيد الحميري. والحافظ النسائي عذب بل مات من أثر ذلك ، لأنّه حدّث بفضائل عليّ ولم يحدث بفضائل معاوية، إلى عدد كثير من العلماء المعذّبين باتّهامهم في التشيع، وليسوا كذلك. وإنّما الشيء الذي أوجب اتّهامهم هو : إمّا رواية مناقب أهل البيت(عليهم السلام)، أو استنباط مسألة من الأحكام من طريقهم، وتلك حقيقة ملموسة، أبرزها

التأريخ في مرآته بأجلى صورة وأوضح بيان، فلقى أكثر المحدثين محناً، وواجهوا مصاعب .

أما الذين أرادوا أن يؤكدوا للسلطة القائمة في زمانهم بأنهم منحرفون عن أهل البيت (عليهم السلام)، فتجنبوا الرواية عنهم، ولم يخرجوا فضائلهم ، فكانوا موضع عناية السلطة ومحلاً لثقتها التامة.

هذا ما أردنا بيانه من حركة التأليف عند الشيعة في الصدر الأول بإيجاز، أما نشاط الحركة العلمية فقد بدأ في القرن الثاني، وأشهر الكتب التي ألّفت في ذلك: مصنف شعبة بن الحجاج المتوفى سنة (١٦٠ هـ) ، ومصنف سفيان بن عيينة المتوفى سنة (١٩٨ هـ)، ومصنف الليث بن سعد المتوفى سنة (١٧٥ هـ)، وموطأ مالك بن أنس المتوفى سنة (١٧٩ هـ) ، ومسند الشافعي المتوفى سنة (٢٠٤ هـ)، ومختلف الحديث له، والجامع للإمام عبد الرزاق بن همام الصنعاني ، ومجموعات من عاصرهم من حفاظ الحديث كالأوزاعي والحميدي.

موطأ مالك

لا بدّ وأن نذكر هنا نبذة يسيرة عن موطأ مالك وفاء بالوعد وإتماماً للغرض. وقد تقدّم أنّ المنصور لقي مالكا من قبل في موسم الحج، وفتح في كثير من المسائل، واعتذر إليه عما لقي من عامله على المدينة، وأمره أن يدوّن كتاباً يحمل الناس عليه، ليوحّد بذلك نظام التشريع ويحمل الناس على الجمود على قول مفت واحد، إلى آخر ما هنالك من أقوال حول تأليف الموطأ، وقد اشترط المنصور عليه أن لا يروي عن عليّ، فوفى مالك بالشرط^(٦١١)، إذ لم يرو عن عليّ (عليه السلام) في موطئه^(٦١٢).

(٦١١) كشف المغطى في فصل الموطأ ص ٥٤ - ٥٥.

(٦١٢) إذا أحصينا في الموطأ وجدنا ذكر الإمام (عليه السلام)، ويبدو أن تنفيذ مالك لشرط المنصور - كما هو رأي المالكية - تحاشي الإكثار من فتاوى الإمام (عليه السلام) أدّى الى ذلك. ولذا فإنّ رواية مالك عن أستاذه الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) في طريقها يرد اسم الإمام علي فمن السلسلة الذهبية التي هي سند أحاديث أهل البيت كما جاءت في حديث الإمام الصادق الذي ذكره الشيخ المفيد في الإرشاد والكليني في الكافي وغيرهما من علمائنا: «حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث جدي وحديث جدي حديث الحسين وحديث الحسين حديث الحسن وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله وحديث رسول الله قول الله عزّ وجلّ».

وقد نال موطأ مالك شهرة حتى قالوا: إنه لا مثيل له ولا كتاب فوقه بعد كتاب الله عز وجل^(٦١٣).

ووضعوا عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) منامات في مدحه وأنه قال: ليس بعد

كتاب الله عز وجل ولا سنتي في إجماع المسلمين حديث أصح من الموطأ^(٦١٤).

وقالوا: إن النبي سمى الموطأ بهذا الاسم.. إلى غير ذلك.

وقد روي عن مالك أنه قال: عرضت كتابي هذا على سبعين فقيهاً من فقهاء المدينة فكلهم واطأني عليه فسميته الموطأ.

وكان قد جمع فيه عشرة آلاف حديث ثم هذبه ونقحه فلم يبق من ذلك العدد إلا ألف وسبعمائة حديث، وقيل خمسمائة^(٦١٥)، وقيل أقل وأكثر لاختلاف النسخ زيادة ونقصاً وإسناداً وإرسالاً.

واختلفوا في منزلة الموطأ من كتب السنة، فمنهم من جعله مقدماً على الصحيحين كابن العربي، وابن عبد البر والسيوطي^(٦١٦).

وقال الحافظ ابن حجر: إن كتاب مالك صحيح عنده وعند من يقلده، على ما اقتضاه نظره من الاحتجاج بالمرسل والمنقطع^(٦١٧) وغيرهما^(٦١٨).

وجملة ما في الموطأ ١٧٢٠ حديثاً، المسند منها ٦٠٠ ، والمرسل ٢٢٨ ، والموقوف ٦١٣ ، ومن قول التابعين ٢٨٥ . وقد وصلت مراسيله من طرق أخرى بواسطة أصحابه. قال ابن حزم: في الموطأ سبعون حديثاً قد ترك مالك نفسه العمل بها، وفيه أحاديث ضعيفة قد رواها جمهور العلماء^(٦١٩).

وهكذا نرى العلماء يختلفون في صحة كل ما اشتمل عليه الموطأ، لاختلافهم في قبول المرسل ونحوه، فالمالكية إذ يقبلونه يحكمون بأن كل ما في الموطأ صحيح،

(٦١٣) مقدمة النص لابن عبد البر ص ٩.

(٦١٤) كشف المغطى في فضل الموطأ ص ٢ .

(٦١٥) شرح الزرقاني على الموطأ ج ١ ص ٧.

(٦١٦) تنوير الحوالك ص ١١.

(٦١٧) المرسل من الحديث ما سقط من مسنده الصحابي بأن يرويه التابعي عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مباشرة. والمنقطع ما سقط من اثناء سنده راو أو أكثر مع عدم التوالي، فإن كان مع التوالي فذلك المعضل.

(٦١٨) شرح الزرقاني على الموطأ ج ١ ص ١٣.

(٦١٩) مفتاح السنة للخولي ص ٢٤.

وغيرهم إذ لا يقبل المرسل إلا بقيود لا يقبلون مراسلاته، ولكن بعض المالكية ندب نفسه لوصل ما ليس متصل السند.

وعلى كل حال فكتاب الموطأ يعدّ من أوائل الكتب التي ألّفت في الحديث لا أولها، وقد نشره الآخزون عن مالك في الأمصار: كمحمد بن الحسن الشيباني في العراق، ويحيى بن يحيى الليثي في الأندلس، وعبدالله بن وهب، وعبد الرحمن بن القاسم، وأشهب في مصر، وأسد بن الفرات في القيروان .

هذه هي أهم الكتب المدونة في القرن الثاني عند السنة .

وأما حركة التدوين عند الشيعة في ذلك القرن ، فنشاطها مستمر - كما تقدم - من جميع الوجوه وفي جميع العلوم. وفي القرن الثالث اتجه الناس إلى التدوين بنشاط ملموس ، وحركة قوية. واتجه رواة الحديث في جمعه إلى طريقة الأفراد إذ كان قبل ذلك ممزوجاً بأقوال الصحابة، وفتاوى التابعين ، وأشهر الكتب المولّفة لأهل السنة هي : صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وسنن النسائي، وصحيح الترمذي، وسنن ابن ماجه، وهذه هي التي يطلق عليها الصحاح الست، وأقدمها وأهمها صحيح مسلم والبخاري، ويطلق عليهما الصحيحان، وعلى مؤلفيهما الشيخان، وقد وقع الاختلاف في تفضيل أحدهما على الآخر وأيّهما أصحّ وأشدّ قبولاً. ولناخذ عن كل واحد من أصحاب الصحاح نظرة إجمالية.

صحيح البخاري

البخاري: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة ولد سنة (١٩٤ هـ) ومات سنة (٢٥٦ هـ) .

انحدر من سلالة فارسية تدين بالمجوسية وأول من أسلم من أجداده المغيرة على يد اليمان الجعفي، فهو مولى الجعفيين، لذلك يقال للبخاري: الجعفي لأنّه مولى لهم.

وقد نشأ يتيماً في حجر أمه، ورحل إلى البلدان في طلب الحديث، ووضع كتابه وخطا فيه خطوة جديدة في جمع الحديث، إذ لم يقتصر على رواية بلد واحد كغيره

من علماء الحديث . والذي يظهر أنّ تلك الخطوة أخذها عن علي ابن المديني، وذلك أنّ ابن المديني ألف كتاب العلل، وكان ضنيناً به، فغاب يوماً في بعض ضياعه، فجاء البخاري إلى بعض بني علي بن المديني ، وراغبه بالمال على أن يرى الكتاب يوماً واحداً، فأعطاه له ، فدفعه الى النساخ فكتبوه وردّوه إليه، ولما علم ابن المديني اغتمّ لذلك حتى مات بعد يسير، واستغنى البخاري عنه بذلك الكتاب، وخرج إلى خراسان ، ووضع كتابه الصحيح (٦٢٠).

وبهذا يتّضح أنّه سلك طريقة ابن المديني وأخذ كتابه واستغنى فيه، ولا حاجة إلى إطالة القول حول البخاري وصحيحه، فقد أشرنا لذلك في الجزء الأول، وذكرنا المؤاخذات من قبل المفكرين عليه كانتقادهم عليه ١٢٠ حديثاً، وفي الواقع أنّها أكثر، وفي تقطيع الأحاديث وغير ذلك، وعدّة ما في البخاري من الأحاديث بالمكرر ٧٣٩٧ ، سوى المعلقات والمتابعات والموقوفات (٦٢١) وبغير المكرر من المتون الموصولة ٢٦٠٢ ومن المتون المعلقة المرفوعة التي لم يصلها في موضع آخر سنة (١٥٩ هـ) . وقد تقدّم الكلام حول البخاري في الجزء الأول من هذا الكتاب .

صحيح مسلم

وهو يعدّ في الدرجة كصحيح البخاري. والناس يختلفون في تقديم صحيح البخاري أو مسلم. وكان مسلم من تلامذة البخاري وشاركه في مشايخه. ومسلم هو ابن الحجاج القشيري النيسابوري ولد سنة (٢٠٤ هـ) وتوفي سنة (٢٦١ هـ) ، وكان مخلصاً للبخاري، وحصل بينهما فتور آخر أيامه، دعاه لأن ينتقد من طريقة البخاري في مقدّمة صحيحه.

وقد انتقده الحفاظ بكثرة روايته عن الضعفاء ، وقد طعنوا في مائة وستين رجلاً من رواة مسلم.

ومع ذلك فقد فضّلوا كتاب مسلم على كتاب البخاري من وجوه:

١ - أنّ مسلماً ألف كتابه في بلده بحضور أصوله في حياة شيوخه، وأن يتحرز في الألفاظ ، ويتحرّى في السياق.

(٦٢٠) تهذيب التهذيب ج ٩ ص ٥٤ .

(٦٢١) المعلق من الحديث: ما كان في سنده سقط من أوّله. كأن يقول البخاري عن ابن عمر عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) : كذا. والموقوف: ما انتهى سنده إلى الصحابي فلم يذكر فيه قولاً للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ، ولا فعلاً، ولا وصفاً، ولا تقريراً. والمقطوع: ما انتهى سنده إلى من دون الصحابي كالتابعي، وقد يطلق على المقطوع (موقوف على فلان) أي الذي انتهى إليه السند.

٢ - أن مسلماً لا يقطع الحديث كما يفعل البخاري، لأنه يروي جزءاً من الحديث بسند، وقد يروي جزءاً آخر بسند آخر في مكان آخر، فيصعب على المحدث معرفة الحديث كاملاً بأسانيده المختلفة.

٣ - أن البخاري قد يقع له الغلط في أهل الشام، وذلك أنه أخذ كتبهم ، فربما ذكر الواحد منهم بكنيته، ويذكره في موضع آخر باسمه، ويتوهم أنهما اثنان. أما مسلم فقلماً يقع له الغلط^(٦٢٢) وقال الطبري : كان من شيوخه من يفضل كتاب مسلم على كتاب البخاري^(٦٢٣).

وقال أبو علي النيسابوري: ما تحت أديم السماء أصح من كتاب مسلم بن الحجاج في علم الحديث.

وعدد أحاديثه (٧٣٧٥) بالمكرر، ومن غير المكرر نحو أربعة آلاف، وقد أجمع الحفاظ على أن البخاري ومسلماً لم يستوعبا تخريج الأحاديث الصحاح.

صحيح الترمذي

والترمذي هو أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي المتولد سنة (٢٠٠ هـ) والمتوفى سنة (٢٧١ هـ) في أواخر رجب.

سمع الحديث من البخاري ، وغيره من علماء بخارى، وكان ضريراً وألف الصحيح، وعرضه على علماء الحجاز، والعراق، وخراسان، وسلك طريقة في تأليفه لم يسلكها من قبله، وهو بيانه حول درجة الحديث، وبين الصحيح منه والمعلول، كما ميّز المعمول به من المتروك ، وساق اختلاف العلماء وكتابه جليل القدر كثير الفائدة قليل التكرار. وقد فضّله بعض الحفاظ على صحيح البخاري^(٦٢٤).

والترمذي لم يتجنب الرواية عن النواصب والخوارج ، كغيره من أصحاب الصحاح، وقد أحصينا عليه جملة منهم، كما أن في رجاله كثيراً من الضعفاء والكذابين منهم: سيف بن عمر البرجمي، ويقال السعدي، ويقال الضبيعي صاحب كتاب الردّة والفتوح، كان يروي الموضوعات عن الإثبات، وأنه يضع الحديث واتهم بالزندقة، والشيء الذي يلفت النظر أن هذا الرجل وهو سيف بن عمر قد اعتمد عليه ابن جرير في تاريخه، فروى عنه بواسطة مكاتبات السري عن شعيب عنه في الحوادث الواقعة من سنة (١١ هـ) إلى سنة (٣٧ هـ) . وقد ضبط تلك

(٦٢٢) تاريخ بغداد ج ١٣ ص ١٠٢ .

(٦٢٣) شرح ألفية العراقي ج ١ ص ١٦ .

(٦٢٤) راجع الجامع الصحيح ج ١ ص ٧٧ - ٩١ مقدمة تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، ط إحياء التراث العربي بيروت.

الموضوعات والأكاذيب التي توالى عليها السنون، ولم تتلها يد التنقيب - شيخنا فقيه التاريخ العلامة الأميني^(٦٢٥). فقد ذكر الطبري في ج ٢ من تاريخه في حوادث سنة (١١ هـ)، ٦٧ حديثاً عن سيف بن عمر، وأخرج في ج ٤ في حوادث سنة (١٢ هـ)، ٦٢٧ حديثاً عن سيف بن عمر، وأورد في ج ٤ في حوادث سنة (٢٣ هـ)، ٢٠٧ أحاديث - المجموع ٧٠١ .

وهذه القائمة العظيمة - التي ذكرها الطبري عن هؤلاء المجاهيل والكذابين لها تمام الأثر الفعال في تمويه الحقيقة، ومخالفة الحق، وإثارة نار البغضاء بين المسلمين، ولو وسع المجال لأعطينا انموذجاً منها. وقد سار على ذلك المؤرخون من بعد الطبري، كابن الأثير، وابن كثير، وابن خلدون بدون تحقيق، بل تقليداً للطبري.

كما أنّ أسطورة ابن سبأ كانت من اختراع سيف بن عمر، رواها الطبري^(٦٢٦)، وأخذها عنه المؤرخون، وسنشير لذلك في الجزء السادس إن شاء الله .

صحيح أبي داود

أبو داود هو سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي المتولد سنة (٢٠٢ هـ) والمتوفى سنة (٢٧٥ هـ)، كان من الحفاظ، وعدّه الشيرازي في الطبقات من تلامذة أحمد، وصحيحه المعروف بسنن أبي داود. قال فيه الخطابي: كتاب السنن لأبي داود كتاب شريف، لم يصنف في علم الدين مثله، وقد رزق القبول من كافة الناس، فصار حكماً بين فرق الناس، وعليه معول أهل العراق، وأهل مصر، وبلاد الشام وكثير من أقطار الأرض^(٦٢٧).

صحيح النسائي

النسائي هو أحمد بن شعيب بن علي أبو عبد الرحمن النسائي المتولد سنة (٢١٥ هـ) والمتوفى (٣٠٣ هـ) ، كان من أئمة الحديث، وقد برع في علم الحديث

(٦٢٥) الغدير ج ٨ ص ٣٣٦.

(٦٢٦) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦١٥ و ٦٤٧ - ٦٤٨ .

(٦٢٧) تهذيب التهذيب ج ٤ ص ١٥٣ / ٢٦٢٨ .

وتفرد بالمعرفة وعلو الإسناد، وكان أحفظ من مسلم بن الحجاج، وسننه أقل السنن ضعفاً. قاله الذهبي^(٦٢٨).

ولما دخل دمشق فُسِّل عن معاوية وفضائله، فقال : أما يرضى معاوية أن يخرج رأساً برأس ، حتى يفضَّل؟ وفي رواية: ما أعرف له فضيلة إلا «لا أشبع الله بطنك» - وهو دعاء النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) عليه فصار يأكل ولا يشبع - فما زالوا يدافعونه في خصيتيه ، وداسوه، ثم حمل إلى مكة فتوفي بها، وهو مدفون بين الصفا والمروة. وقال الحافظ أبو نعيم: لما داسوه بدمشق، مات بسبب ذلك الدوس فهو مقتول^(٦٢٩).

وكان قد صنَّف كتاب الخصائص في فضل عليّ بن أبي طالب وأهل البيت(عليهم السلام)، وأكثر روايته فيه عن الإمام أحمد بن حنبل ، وكذلك صنَّف كتاب مسند الإمام علي(عليه السلام)، ويرمزون له في التخرّيج بـ(عس) ولخصائص علي(عليه السلام) بـ(ص).

صحيح ابن ماجة

ابن ماجة هو: محمد بن يزيد بن ماجة أبو عبد الله القزويني المتولد سنة (٢٠٩ هـ) والمتوفى سنة (٢٧٣ هـ) ارتحل إلى العراق، والكوفة، ومكة والشام، وألف كتابه في الحديث، وهو أحد الصحاح الستة . وقدموا كتابه على موطأ مالك. هذه هي الصحاح الستة التي يخصّها أهل السنة بالثقة على اختلاف في درجاتها في الصحة. على أن هناك كتباً توصف بالصحة، لأنّ الصحيحين لم يستوعبا جميع الأخبار الصحيحة، فألفت كتب توصف بالصحاح، كصحيح إسحاق بن خزيمة، وصحيح أبي حاتم المتوفى (٣٥٤ هـ)، وصحيح أبي عوانة، وغيرها . وقد استدرك الحاكم النيسابوري على الصحيحين أحاديث خرّجها على شرطهما^(٦٣٠).

عود على بدء

(٦٢٨) أنظر سير أعلام النبلاء ج ١١ ص ١٩٤ / ٢٥٨٨.

(٦٢٩) الشذرات ج ٢ ص ٢٤٠.

(٦٣٠) اصطلاح الرجاليون على الإشارة لمن خرج له البخاري بـ(خ) ومسلم بـ(م) والترمذي (ت) والنسائي(س) وأبو داود

(د) وابن ماجة (ق) ولمن خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة (ع) وإذا اجتمع الأربعة (هـ) فإذا وجدت العلامة في أول

الترجمة ، عرف أنّه حديث صاحب الترجمة رواه من أشير إليه .

ذكرنا سبق أهل البيت(عليهم السلام) إلى تدوين العلم، واهتمام الشيعة في حفظ آثارهم، والانتهاال من عذب غديرهم، إذ وجدوا سنداً قوياً ومرعى خصيباً تتصل سلسلة أحاديثهم بصاحب الرسالة، وهي السلسلة المعروفة بالذهبية، أو هي الترياق المجرب، فكان الإمام الصادق(عليه السلام) عندما يحدث بإسناده ، يقول: حدثني أبي محمد الباقر عن أبيه زين العابدين عن أبيه الحسين بن علي عن أبيه علي بن أبي طالب(عليه السلام) عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) . وهناك تتصل هذه السلسلة بالوحي الإلهي، وكذا كل واحد من الأئمة(عليهم السلام).

وكان الإمام الصادق(عليه السلام) إذا أرسل حديثه، فهو اتصال بهذه السلسلة، لأنه كان يقول: حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث أبيه، وحديث أبيه حديث أمير المؤمنين(عليه السلام)، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)(٦٣١).

وفي هذا يقول الشاعر:

أوالي أناساً ذكرهم وحديثهم *** روى جدنا عن جبرئيل عن الباري
ولكن بمزيد الأسف أن البخاري قد تحرّج وتضايق عن تخريج حديث الإمام
الصادق(عليه السلام)، وتوسّع وتساهل لقبول رواية عمران بن حطان(٦٣٢) وداود ابن
الحصين(٦٣٣)، وأضربهم من الفسقة الذين عرفوا بالعداء لله ولرسوله، وكذلك
خرّج لرجال دخلوا في الإسلام للفسق والتضليل(٦٣٤)، ولم يخرج حديث الإمام
الصادق(عليه السلام) لأن ظروفه اقتضت ذلك ونزعته ضربت بسلطانها عليه .

(٦٣١) الروضة للحافظ أبي علي النيسابوري ، وروى في ص ١٧٥ عن الإمام الباقر(عليه السلام) كذلك عندما سئل عن إرساله الحديث فقال: حديثي حديث أبي...

(٦٣٢) رجال صحيح البخاري ج ٢ ص ٥٧٤ / ٩٠٤ .

(٦٣٣) رجال صحيح البخاري ج ١ ص ٢٣٩ / ٣١٩ .

(٦٣٤) وأنكى من هذا كله عدم احتجاج البخاري في صحيحه بأئمة أهل البيت النبوي، إذ لم يرو شيئاً عن الصادق والكاظم والرضا والجاد والهادي والزكي العسكري وكان معاصراً له، ولا روى عن الحسن بن الحسن ولا عن زيد بن علي بن الحسين، ولا عن يحيى بن زيد، ولا عن النفس الزكية محمد بن عبدالله الكامل ابن الحسن الرضا ابن الحسن السبط، ولا عن أخيه إبراهيم بن عبدالله، ولا عن الحسين الفخي بن علي بن الحسن بن الحسن، ولا عن يحيى بن عبدالله بن الحسن، ولا عن أخيه إدريس بن عبدالله ولا عن محمد بن جعفر الصادق، ولا عن محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن المعروف بابن طباطبا، ولا عن أخيه القاسم الرسي، ولا عن محمد بن محمد بن زيد بن علي، ولا عن محمد ابن القاسم بن علي بن عمر الأشرف ابن زين العابدين صاحب الطالقان المعاصر للبخاري(*) - ولا عن غيرهم من أعلام العترة الطاهرة وأغصان الشجرة الزاهرة كعبدالله بن الحسن بن جعفر العريضي وغيرهما من ثقل رسول الله، وبقية في أمتهم(صلى الله عليه وآله) حتى أنه لم يرو شيئاً من حديث سبطه الأكبر وريحانته من الدنيا أبي محمد الحسن المجتبي سيد شباب أهل الجنة، مع احتجاجه بداعية الخوارج وأشدهم عداوة لأهل البيت عمران بن حطان القائل في ابن ملجم وضربته لأمر المؤمنين(عليه السلام):

يا ضربة من تقى ما أراد بها *** إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

وقد عظم على خصوم الشيعة اختصاصهم بذلك التراث العظيم. ولم يستطع أحد أن يطعن في حديث أهل البيت (عليهم السلام) فالتجأوا إلى الطعن على حملة آثارهم ورواة حديثهم، كما لا ينكر تدخل عملاء السلطة والدخلاء في الإسلام أن يدخلوا على أهل البيت (عليهم السلام) مما لم يحدثوا به ويتقولوا عليهم ما لم يقولوه، يقصدون بذلك تنفير الناس واشمئزاز النفوس من تلك الروايات المدسوسة، لذلك كانت الشيعة أشد تنقية للرجال وتصحيحاً للأحاديث، فألفوا بذلك كتباً، وتشددوا في قبول الرواية، وهذا بحث واسع لا يمكننا أن نخوضه الآن .

الكتب الأربعة

وخلاصة القول : أن الشيعة احتفظت بآثار أهل البيت: وسبقت جميع الأمة إلى تدوين علومهم، فكانت حركة التدوين عندهم قوية في جميع العلوم والفنون. أما ما يختص بالفقه والحديث، فكانت أصولهم أربعاً أصل، وهي التي سمعها تلامذة الأئمة منهم، وجمعت هذه الأصول في الكتب الأربعة وهي:

١ - الكافي: للشيخ المجدد محمد بن يعقوب الكليني المتوفى سنة (٣٢٩ هـ)، وقد ألفه في عشرين سنة، وقد دخل إلى الأقطار الإسلامية في طلب الحديث، وجمع فيه من الأحاديث ستة عشر ألفاً ومائة وتسعين حديثاً، وهو أكثر من مجموع ما في الصحاح الستة. وليس هذا محل التوسع في البحث عن الكافي ومكانته .

٢ - من لا يحضره الفقيه: للشيخ محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي الشهير بالصدوق المتوفى سنة (٣٨١ هـ) بالري، ورد بغداد سنة (٣٥٥ هـ) وحديث بها، وكان جليلاً حافظاً للأحاديث بصيراً بالرجال ناقداً للأخبار كثير التأليف، وقد أحصيت مؤلفاته فكانت (٣٠٠) كتاب على اختلاف العلوم، وأهمها كتابه الجليل وهو «كتاب من لا يحضره الفقيه» الذي هو من أهم كتب الحديث عند الشيعة وعدد أحاديثه (٥٩٦٣) حديثاً .

٣ - ٤ - التهذيب والاستبصار: لشيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن ابن علي الطوسي المولود سنة (٣٨٥ هـ) والمتوفى سنة (٤٦٠ هـ) في النجف الأشرف. هاجر إلى بغداد سنة (٤٠٨ هـ) في أيام علم الشيعة ورئيسها محمد بن محمد بن النعمان الشهير بالشيخ المفيد، فاتصل به واستفاد منه، ولما توفي سنة (٤١٣ هـ) اتصل من بعده بعلم الهدى السيد المرتضى المتوفى سنة (٤٣٦ هـ)، وبعد وفاة السيد استقل الشيخ بالزعامة، وكان كمدرسة جامعة تأوي إليها طلاب

أتى لذكره يوماً فأحسبه *** أو في البرية عند الله ميزاناً

(*) قتل في العراق سنة (٢٥٠ هـ) قبل وفاة البخاري بست سنوات).

العلوم، فكان عدد تلامذته ثلاثمائة من الشيعة وكثير من سائر المذاهب ، لذلك ترجم له السبكي في طبقات الشافعية^(٦٣٥) وغيره، لأنه كان يملئ على أهل المذاهب ويجيبهم عن مسائلهم لغزارة علمه وسعة اطلاعه، فكان يفيد الأمة بعلمه، وأملى كتابه المعروف بالأمالئ على تلامذته، يقع في مجلدين، وكانت له منزلة علمية عظيمة في بغداد، وقد جعل له خليفة عصره - القائم بأمر الله عبد الله بن القادر - كرسي الكلام والإفادة، لأنه فاق أقرانه فتعين هو لتلك المنزلة، ولما هبت عواصف الطائفية واشتد النزاع بين المذاهب وبين السنة والشيعة بالأخص ، وكان الموقف في هذا الوقت على أشد ما يكون من الخصام، ولم تزل الدولة تنضم لجانب السنة فأحرقت كتب الشيخ بأمر طغرل بك أول ملوك السلاجقة ، قال السبكي: وقد أحرقت كتبه - أي الشيخ الطوسي - عدة نوب بمحضر من الناس^(٦٣٦). وكذلك أمر السلجوقي بإحراق مكتبة الشيعة في محلة الكرخ، وكانت تحتوي على أكثر من عشرة آلاف مجلد من أهم الكتب كلها بخطوط الأئمة المعتبرة وأصولهم المحررة، كما ذكر ذلك ياقوت الحموي^(٦٣٧) وفي سنة (٤٤٨ هـ) نهبت داره وكبست وأخذت كتبه والكرسي الذي كان يجلس عليه للكلام فأحرقت^(٦٣٨). وهاجر الشيخ إلى النجف فقصده طلاب العلم، فأصبحت دار هجرة لانتهاال العلم ولم تزل حركتها بنشاط من ذلك العهد تقصدها وفود العالم الإسلامي لأخذ العلم والانتماء لمعهدا على ممر الدهور.

فالشيخ الطوسي يعدّ في الواقع هو واضع الحجر الأساسي لمعهد النجف الأشرف، وقبره فيها قريب من المرقد المطهر. وله مؤلفات كثيرة تبلغ الخمسين مؤلفاً في شتى العلوم. وأهمها التهذيب والاستبصار في الحديث. والحديث عن حياة شيخ الطائفة واسع، وناحية البحث عنها لا يمكننا الإلمام بها في هذا العرض الموجز. أما التهذيب فهو أحد الكتب الأربعة والمجاميع القديمة المعول عليها، وقد أنهيت أبوابه إلى (٣٩٠) باباً وأحصيت أحاديثه في (١٣٥٩٠)، وتوجد منه نسخة بخط المؤلف.

(٦٣٥) طبقات الشافعية للسبكي ج ٣ ص ٥١ وترجم له في الشذرات وفي البداية والنهاية لابن كثير وابن الجوزي في المنتظم وغيرهم .

(٦٣٦) طبقات الشافعية الكبرى ج ٤ ص ١٢٦ - ١٢٧ / ٣١٥ .

(٦٣٧) أنظر أعيان الشيعة ج ٩ ص ١٥٩، معجم البلدان لليقوت الحموي ج ١ ص ٥٣٤ .

(٦٣٨) المنتظم لابن الجوزي ج ٨ ص ١٧٣ و ١٧٩ .

وأما الاستبصار فيما اختلف فيه من الأخبار فهو أحد الكتب الأربعة التي عليها مدار استنباط الأحكام الشرعية عند فقهاء الشيعة، وقد أحصيت أحاديثه فكانت (٥٥١١) حديثاً.

والغرض أن تلك الأصول والكتب التي ألفت في زمن الأئمة قد جمعت في هذه الكتب الأربعة، وفي غيرها كالوافي للمحقق الكاشاني، والبحار للعلامة المجلسي، والوسائل للمحدث محمد بن الحسن الحر العاملي، ومستدرك الوسائل للشيخ النوري.

وعلى هذا سارت حركة التدوين عند الشيعة باتباع آثار أهل البيت نزولاً على حكم الأدلة والبراهين وتعبداً بسنة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

وقد احتفظت الشيعة باستقلالها الروحي، ولم ترتبط يوماً ما بسلطة لتشجيع حركتها العلمية أو تأييد مبدئها، بل كان ولاية الأمر يحاولون اكتساح ما لهذه الطائفة من أثر، ولكن الشيعة وقفوا أمام ذلك السيل الجارف، واستطاعوا تركيز مبادئهم بقواهم الروحية، ونبغ منهم المحدثون والمفسرون واللغويون والنسابون والشعراء والأدباء مما يطول ذكره، وكان لهم الأثر العظيم في جميع فنون الإسلام وعلومه، وقد أحصينا من علماء الحديث الذين خرج حديثهم أصحاب الصحاح عدداً لا يقل عن مائتين وخمسين رجلاً أكثرهم حفاظ حديث وأعلام في الفقه، وقد اعترف الكلّ لهم بذلك.

إذاً فالتدوين على ما قررناه لم يكن السبق لأحد سوى أهل البيت (عليهم السلام) وشيعتهم، وليس لمالك ولا لغيره.

مسألة التفضيل

مالك ومسألة التفضيل

سبقت الإشارة إلى رأي مالك في التفضيل وأنه يذهب إلى مساواة الإمام علي (عليه السلام) لسائر الناس، وأنّ أفضل الأمة الخلفاء الثلاثة، ثم يقف ويقول: هنا يتساوى الناس. فهو لا يرى لعلي (عليه السلام) ميزة عن سائر الصحابة كما يروى عنه، ومن الغريب ذلك، فهو يكاد ينفرد بهذا الرأي، ويمتاز عن سائر علماء الأمة بهذه النزعة، كما أنه لم يرو عن علي في موطنه (٦٣٩).

ولم تكن مسألة التفضيل من الأمور الاعتيادية التي يمرّ عليها المؤرخ أو الكاتب فلا يعطيها مزيداً من البيان، فهي من أعظم المشاكل التي حلت في المجتمع الإسلامي، ولها تمام الأثر في تطور الأوضاع وإثارة نار البغضاء بين المسلمين ، لتدخل السياسة فيها، وما تدخلت السياسة في أمر إلا وجعلته عرضة للاضطراب والتقلب، ولو انفردت القضية عن ذلك لما كان من ورائها ما كان، ولسارت على ضوء العلم والواقع، وتجرّدت عن الظنون والاتهامات وانتهت بالدليل والإقناع، ولكنها في الواقع كانت بالإرهاب والقهر والعسف، أو الإغراء والخداع السياسي.

وقد حاولنا بقدر الإمكان أن لا نتعرّض للأمور التي أثارها أغراض المتعطشين على السيادة، لتفريق كلمة الأمة، وإيجاد مشاكل يحاولون من وراء إيجادها حلّ مشاكلهم السياسية، لأنهم يريدون أن يرغبوا الأمة على اتباع آرائهم، وتصديق أقوالهم ، ولا يكون هناك رأي إلا ما تراه الدولة، فإذا وقف المفكرون إلى جانب غير جانبها فهناك الخطر العظيم من الاضطهاد والاتهام بالعقائد الفاسدة، لأنّ الاستقلال في الرأي لم يكن من صالح الدولة، وهم يحاولون توجيه الناس إلى حيث اتجهوا، فالمخالف لذلك يتهم بالخروج على الدولة مرة، وعن الدين أخرى .

وإنّ من أهمّ المشاكل في تاريخ الإسلام هي مسألة التفضيل، فقد جعلوا عنوان الرفض هو محبة الإمام عليّ(عليه السلام) وتفضيله على الصحابة. يقول ابن حجر في مقدمة فتح الباري: والتشيع محبة عليّ وتقديمه على الصحابة فمن قدمه على أبي بكر وعمر فهو غال في تشيعه ويطلق عليه رافضي، وإلا فشيوعي^(٦٤٠).

فالشيعي في عرفهم هو محبة عليّ(عليه السلام) . أما إذا فضّله على أبي بكر وعمر فهو الرافضي . وناهيك ما وراء كلمة الرافضي من خطر عظيم، فقد اتخذته السلطة ذريعة للقضاء على كثير من رجال الأمة الذين لم ينحازوا إليها، ولم يتعاونوا معها ويقفوا الى جانبها، واتخذت هناك الخدع والمكائد التي تؤدي إلى سفك الدماء، وقام المتمرغون على أعتاب الظلمة، والمتنعمون في خيرات الدولة بما يجلب قلوب ولاية الأمر إليهم في إصاق العيوب بالشيعية، وذمّهم والطعن في عقائدهم ، حتى قال بعضهم : آكل ذبيحة اليهودي ولا آكل ذبيحة الرافضي^(٦٤١) وقد عرفت أنّ الرافضي هو الذي يفضّل علياً(عليه السلام) على أبي بكر وعمر فقط.

(٦٤٠) هدى الساري ج ١ ص ٦٤١.

(٦٤١) الصارم المسلول لابن تيمية ص ٥٧٥ .

ولم تكن المسألة في حقيقتها مسألة حبّ لأبي بكر وعمر أو تفضيل بموجب الفضائل والمناقب، وإنما كانت قضية أوجدتها في الأصل القبلية التي حقدت على الإمام علي ووجدت فيه واطرها الذي جندل فرسانها، وأهلك شجعانها، فكيف تترك له الأوليّة والصدارة في الدين والقيادة في الدين، ثم توطأ الحكام من الأمويين وغيرهم فأكدوا ذلك المنهج، لأنّ المنزع واحد والغاية لا تختلف، وقد جرّت القضية على الأمة الويلات.

الاختلاف في التفضيل

والغرض أنّ الأمة اختلفت في مسألة التفضيل على ثلاثة أقوال:

١ - تفضيل الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) على جميع الصحابة، وهو رأي أهل البيت (عليهم السلام) وجميع الصحابة والتابعين - إلا القليل النادر - وجميع الهاشميين وأهل الحجاز وأهل الكوفة، ووافقهم كثير من المتأخرين من علماء السنة تصريحاً أو تلميحاً، نظراً للظروف التي قضت على المفكرين من رجال الأمة بمجاراتها.

٢ - إنّ عليّ بن أبي طالب أفضل الأمة بعد الشيخين.

٣ - أنّه أفضلهم بعد الثلاثة، وعليه رأي الجمهور من السنة.

قال القرطبي: والمسألة اجتهادية ومستندها: أنّ هؤلاء الأربعة اختارهم الله لخلافة نبيّه وإقامة دينه، فمنزلتهم عنده بحسب ترتيبهم بالخلافة^(٦٤٢).

ونحن هنا لا نريد أن نتعرض للأقوال ونقضها، ولا نريد أن نتساءل عن صحة الدليل، ولا نناقش رواية ابن عمر التي أصبحت هي دليل الإجماع ومستند التفضيل وهي قاصرة عن الدلالة، فلنترك ابن عمر ورأيه - أو روايته - ولننظر إلى رأي مالك بن أنس في جعل عليّ (عليه السلام) كسائر الناس، لا يمتاز عنهم بصفة ولا بفضيلة، وهو رأي انفرد به ولا يوافقه أحد من علماء الإسلام.

روى مصعب وهو تلميذ مالك أنه سأل مالكا: من أفضل الناس بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ؟ فقال مالك : أبو بكر : قال : ثمّ من ؟ قال: عمر. قال : ثمّ من؟ قال: عثمان. قال : ثمّ من ؟ قال : هنا وقف الناس^(٦٤٣).

(٦٤٢) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ج ٧ ص ٢٧ .

(٦٤٣) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ج ٧ ص ٢٧ .

ودخل مالك على المنصور فسأله المنصور: من أفضل الناس بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)؟ فقال مالك: أبو بكر وعمر. فقال المنصور أصبت وهذا رأي أمير المؤمنين - يعني نفسه - (٦٤٤) .

وفي رواية ابن وهب: أنه قال - أي مالك - : أفضل الناس أبو بكر وعمر، ثم أمسك. فقال له ابن وهب: ثم من ؟ فأمسك فقال له: إني امرئ أقتدي بك في ديني فقال مالك: عثمان. فهو في هذا يتردد في ضمّ عثمان إلى الشيخين ولذلك أمسك ولم يذكر علياً(عليه السلام)بعدهم . وسأله أحد العلويين في مجلس درسه: من خير الناس بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ؟ قال مالك: أبو بكر. قال : ثم من؟ قال : عمر. قال: ثم من؟ قال: عثمان. فقال العلوي: لا جالستك أبداً.

يقول الأستاذ محمد أبو زهرة: إنّ مالكا (رضي الله عنه) يخالف بذلك إمامين آخرين عاصراه: أحدهما أسن منه ومات قبله ، وثانيهما أصغر منه وهو تلميذه الشافعي، فإنّ أبا حنيفة لا يعدّ علياً كسائر الناس بل يرفعه إلى مرتبة الراشدين من الخلفاء ، ويقدمه في الترتيب على عثمان (رضي الله عنه)، والشافعي يعلن محبته لعليّ ويحكم على خصومه بأنهم بغاة، ويعتمد في استنباط أحكام البغاة على ما كان يفعل علي(رضي الله عنه) مع الخارجين عليه والذين بغوا على حكمه، حتى لقد اتهم بأنه شيعي وحوسب على ذلك وتعرض للتلف، ولكنّه كان يذكر مناقب أبي بكر ويفضله على عليّ، ولذلك لم يكن رافضياً(٦٤٥) .

ولماذا رأى مالك عدم ذكر عليّ في مقام المفضلين ، بل كان يقف بعد عثمان ويقول : هنا يتساوى الناس . فما كان عليّ كسائر الناس، فهل جهل ذلك الإمام الجليل مناقبه وسابقته في الإسلام، وجهاده وحسن بلائه ومقامه من النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)؟

لأنظنه أنّه جهل شيئاً من ذلك أو أنكره ، إنّما هو يعرف علياً(رضي الله عنه) ويعرف مقامه، ولكنّه عندما يجيب عن المسألة كان يجيب فيما يتعلق بالخلافة والخلفاء،

(٦٤٤) البداية والنهاية لابن كثير ج ١٠ ص ١٣٠، ترجمة المنصور.

(٦٤٥) هذه نقطة يجب الالتفات إليها وهي: أن حب علي(عليه السلام) والاعتماد على قوله في استنباط الأحكام من علامات التشيع، ويوجب الاتهام وإجراء الحساب، وقد افتخر الشافعي بهذه التهمة.

وقد بسطنا القول في ذلك بكتابنا (الشيعية في ققص الاتهام)، وهناك نقطة أخرى ، وهي: أن من يفضل علياً على أبي بكر فهو رافضي، وناهيك ما للرافضي من صفات أقلها الخروج عن الدين.

ولعل لجوابه بعض المبررات وإن كنا لا نوافقه في جوابه، ثم يذكر المبررات لقول مالك - إلى أن يقول - : وهو في هذا القول يضرب على نعمة معاوية والأمويين . ومهما تكن المبررات التي تدفع إلى ذلك الحكم على سيف الإسلام أخي رسول الله، وزوج ابنته ، ومن كانت منه الذرية الطيبة النبوية (عليها السلام)، فإن ذلك الحكم يدل على نزعة أموية^(٦٤٦).

العباسيون والتفضيل

ونحن نقول: إنها نزعة عباسية أيضاً، وذلك لأنّ العباسيين سرت إليهم نزعة العداء لآل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بصورة أشدّ ممّا كانت عند الأمويين، فإنّهم بعد أن كانوا يتفقون مع العلويين في الرأي ويتحدون معهم في الغضب على أعمال أمية، وينتصرون للعلويين ويخلصون لهم الود، ويذهبون لأحقية عليّ بالخلافة وأفضليته على جميع الأمة، وكان المنصور نفسه يحدث بفضائل عليّ، وهو أحد رواة حديث الغدير^(٦٤٧) ، وكانوا يأمرّون الدعاة بأول ما يظهرونه للناس هو فضل عليّ وأولاده، فلما استجابت الأمصار لهم، وتمّ زوال الدولة الأموية، وتربّعوا على دست الحكم حصل ذلك التبدّل السريع، والتحوّل الغريب، فأظهروا العداء لأهل البيت، وساموهم الخسف والهوان، وأصبح العلويون يُطاردون من قبل الدولة، ولا ذنب لهم إلاّ أنّهم المرشّحون للخلافة وإليهم تتجه الأنظار، وعليهم تحوم الآمال، فهم أهل الزعامة الدينية والحقّ الشرعي، وقد سبق الاعتراف من العباسيين لهم بذلك. حقاً أنّه تحوّل غريب ولكنه الملك، والملك عقيم.

دخل المهدي على أبي عون بن عبد الملك يعبده، وطلب إليه أن يعرض عليه حوائجه، فقال أبو عون: يا أمير المؤمنين، حاجتي أن ترضى عن عبد الله ابن أبي عون، وتدعو به فقد طالت موجدتك عليه، وكان عبد الله يرى رأي الشيعة في الخلافة، وأنّ علياً أفضل الخلق بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فقال المهدي: يا أبا عون، إنّّه على غير الطريق، وعلى خلاف رأينا .

فقال أبو عون: هو والله يا أمير المؤمنين على الأمر الذي خرجنا عليه ودعونا إليه ، فإن كان قد بدا لكم فمرونا حتى نطيعكم.

(٦٤٦) مالك بن أنس لأبي زهرة ص ٦٩ - ٧١ .

(٦٤٧) تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٣٤٤ .

وعرضت على المهدي وصية القاسم بن مجاشع التميمي وقد جعل المهدي وصيّه وكان قد كتب فيها: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ* إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) (٦٤٨). ثم كتب : والقاسم بن مجاشع يشهد بذلك ويشهد أن محمداً عبده ورسوله وأنّ عليّ بن أبي طالب وصيّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ووارث الإمامة من بعده. فلما بلغ المهدي إلى هذا الموضع رمى بالوصية ولم ينظر فيها (٦٤٩) وعظم عليه ذلك ، لأنّه مخالف لرأي الدولة الجديد. ومن هنا نعرف الفرق بين الماضي والحاضر بذلك التحوّل السريع والتطور الغريب ، كلّ ذلك بغضاً للعلويين وكراهة لموافقتهم في الرأي، حتى أصبحوا يعظمون الأمويين ويعاقبون من ينتقصهم.

فقد عذب يحيى بن كثير - وهو أحد الأعلام - وضرب وحلق رأسه، لأنّه انتقص الأمويين (٦٥٠)، وكثير من أمثال ابن كثير، كما عظم على العباسيين ثبوت الخلافة لعليّ بغضاً للعلويين.

قال أبو معاوية: دخلت على هارون الرشيد، فقال لي: لقد هممت أن من يثبت خلافة علي فعلت به وفعلت. قال : فسكتَ فقال لي: تكلم ، قلت: إن أذنت لي تكلمت. قال : تكلم .

فقلت : يا أمير المؤمنين، قالت تيم: منا خليفة رسول الله . وقالت عدي: منا خليفة خليفة رسول الله . وقالت بنو أمية: منا خليفة الخلفاء . فأين حظكم فيها يا بني هاشم ؟ والله ما حظكم فيها إلا ابن أبي طالب (٦٥١).

ثم تطوّرت الحالة واشتد الأمر من قبل العباسيين حتى أدى الأمر إلى قتل من عرف بحبّ علي وأهل بيته ، واتخذوا لذلك شتى الطرق ومختلف الأساليب، وأقرب طريق سلوكه للوصول إلى إيقاع الفتك بمن عرف بحبّ أهل البيت هو مسألة تفضيل عليّ (عليه السلام) على الخلفاء ، وجعلوا قاعدة مطردة عندهم وهي: أنّ من فضّل علياً (عليه السلام) فقد طعن على الصحابة، ومن طعن على الصحابة طعن على رسول الله، ومن طعن على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فهو زنديق.

(٦٤٨) آل عمران: ١٨ - ١٩ .

(٦٤٩) تاريخ الطبري ج ٦ ص ٣٩٧ حوادث سنة (١٦٩ هـ) .

(٦٥٠) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٢١ .

(٦٥١) تاريخ الخطيب ج ٥ ص ٢٤٤ .

وجعلوا مدح عليّ وذكره بما خصّه الله ورسوله من الفضائل التي امتاز بها على غيره طعناً على الصحابة، وموّهوا على السّدج بذلك، وانخدع أكثر الناس واستجاب آخرون تحت الضغط ، ولقي المفكرون من الأمة عناءً، وواجهوا مشاكل عند محاولتهم الوقوف أمام تيار ذلك السيل الجارف ، فساير أكثرهم تلك الأوضاع ، وجارى تلك الظروف دفاعاً عن النفس وطمعاً في الحياة ، فخضعوا لرأي الدولة وتجنّبوا الحديث عن أهل البيت وفضائلهم، ودرج الناس على ذلك، ونظروا إلى الشيعة بعيون مزورة وقلوب تتقد بنار العدا، فكانوا لا يصبرون على سماع منقبة لأهل البيت(عليهم السلام) ، وإذا رأوا أحداً يذكرهم بخير رموه بالرفض، واتّهموه بالزندقة، وقد أعطانا الإمام الشافعي صورة عن تلك الأوضاع بقوله:

إذا في مجلس ذكروا علياً *** وسبطيه وفاطمة الزكية

يقال تجاوزوا يا قوم عنه *** فهذا من حديث الرافضية

برئت إلى المهيمن من أناس *** يرون الرفض حبّ الفاطمية(٦٥٢)

وستلمس عزيزي القارئ أنّ حقيقة تكالب الحكام على مقاومة آثار أهل البيت(عليهم السلام) ومناوأة محبّيهم كانت من أعظم الجنايات التي تركت آثارها على حركة العلم وحالت دون الاستفادة من نتاج الأفكار بحريّة، كما أنّها من أكثر الظواهر إثارة للآلم لتمكن الحكام من توجيه الآراء وانقياد الناس إليهم في ذلك دون وعي، فلذلك سيكون فشل سياسة الحكام تجاه أهل البيت من محاور البحث الأساسية.

تطور الخلاف في مسألة التفضيل

ويصف لنا ابن قتيبة(٦٥٣) أوضاع عصره ونصبهم العدا لأهل البيت(عليهم السلام) وبغضهم للشيعة في تفضيلهم علياً(عليه السلام) على جميع الأمة بقوله: وقد رأيت هؤلاء أيضاً كلما رأوا غلوّ الرافضة في حبّ عليّ وتقديمه؛ قابلوا ذلك أيضاً بالغلو في تأخير علي كرم الله وجهه، وبخسه حقّه، ولحنوا في القول وإن لم يصرّحوا

(٦٥٢) نور الأبصار ص ١٧٦ .

(٦٥٣) هو عبدالله بن مسلم بن قتيبة المروزي المتوفى سنة (٢٧٦ هـ) كان من علماء الحديث في القرن الثالث وله مؤلفات كثيرة، يعرف بالدينوري لأنه أقام بالدينور قاضياً مدة من الزمن فنسب إليها وقد وصفه ابن حجر بالانحراف عن أهل البيت.

إلى ظلمه، ولم يوجبوا له اسم الخلافة لاختلاف الناس عليه، وأوجبوها ليزيد بن معاوية لاجتماع الناس عليه، واتهموا من ذكره بخير، وتحامى كثير من المحدثين أن يحدثوا بفضائله كرم الله وجهه، أو يظهروا ما يجب له، وكلّ تلك الأحاديث لها مخرج صحاح.. وساووا بينه في الفضل وبين أهل الشورى، لأنّ عمر لو تبين له فضله لقدّمه عليهم وأهمّلوا من ذكره أو روى حديثاً من فضائله حتى تحامى كثير من المحدثين أن يتحدثوا بها، وعنوا بجمع فضائل عمرو بن العاص ومعاوية، كأنّهم لا يريدونها وإنّما يريدونه، فإن قال قائل: «أخو رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عليّ وأبو سبطيه الحسن والحسين وأصحاب الكساء عليّ وفاطمة والحسن والحسين» تمعّرت الوجوه، وتنكرت العيون، وظهرت حسائك الصدور. وإن ذكرنا قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «من كنت مولاه فعلي مولاه» و«أنت مني بمنزلة هارون من موسى» وأشباه هذا؛ التمسوا لتلك الأحاديث المخرج لينتقصوه ويبخسوه حقه بغضاً منهم للرافضة وإلزاماً لعليّ (عليه السلام) ما لا يلزمه، وهذا هو الجهل بعينه، والسلامة من ذلك أن لا تهلك بمحبّته ولا تهلك ببغضه وأن لا تحتل ضغناً عليه بجناية غيره، فإن فعلت فأنت جاهل مفرط في بغضه، وأن تعرف مكانه من الرسول بالتربية والأخوة والصهر، والصبر في مجاهدة أعدائه، وبذل مهجته في الحروب بين يديه مع مكانه في العلم، والدين، والبأس، والفضل... إلى أن يقول:

ولو كان إكرامك لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هو الذي دعاك إلى محبة من نازع علياً وحاربه ولغنه إذ صاحب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) - يعني معاوية - لأنت بذلك في عليّ أولى لسابقته وفضله وخاصيته وقرابته والدناوة التي جعلها الله بينه وبين رسوله عند المباهلة حين قال تعالى: (قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم) (٦٥٤) فدعا حسناً وحسيناً (ونسائنا ونساءكم) فدعا فاطمة (عليها السلام) (وأنفسنا وأنفسكم) فدعا علياً (عليه السلام)، ومن أراد الله تبصيره بصّره، ومن أراد به غير ذلك حيّره (٦٥٥).

هكذا تأثر ذلك المجتمع وتكيّف بمزاج الدولة، ولم تجر الأمور طبقاً للحقيقة، ممّا أدى إلى مخالفة الواقع والابتعاد عن الحقّ، كما وصف ذلك ابن قتيبة وغيره، ولا يسع المجال لبسط القول في ذكر تلك الأوضاع السياسية التي سار عليها ولادة الأمر، وحملوا الناس على الخضوع لها، ولا يستغرب أن تكون نزعة الدولة نزعة

(٦٥٤) آل عمران: ٦١.

(٦٥٥) الاختلاف في اللفظ لابن قتيبة ص ٤٧ - ٤٩.

عداء لأهل البيت (عليهم السلام)، ولكنّ الغريب أن يتأثر فيها بعض من عرف بالفهم ، ووسم بالعلم ، ولم يمنح عيناً تدرك الحقائق. ولا نريد أن نرجع إلى الماضي، ونقف عند تلك المحاولات التي اتخذها خصوم أهل البيت في العصر الأموي ليمحوا بذلك ذكرهم ، فقد مرّ كثير من الإشارة إليها، كما أننا لا نريد أن نحاسب ابن عمر (٦٥٦) على روايته في التفضيل التي كانت سبباً لإيجاد تلك المشاكل ، ولا نريد أن ندرس نفسيته لنعرف الأسباب التي حملته على ذلك القول، وادعائه أمراً لم يكن له أهلية الاتصاف به لحدثة سنه وخمول ذكره.

أخرج البخاري من طريق ابن عمر أنّه قال : كنا نخير بين الناس فنخير أبابكر، ثم عمر، ثم عثمان بن عفان، رضي الله عنهم (٦٥٧).

وفيه أيضاً بلفظ : كنّا في زمن النبي لا نعدل بأبي بكر أحداً، ثم عمر ثم عثمان (٦٥٨).

وهذه الرواية هي عمدة ماتمسك به القوم في بحث الإمامة، تقليداً لابن عمر، وجرياً مع الظروف وسياسة الزمن، فنحن لا نريد أن نطيل الوقوف على هذه الرواية ، ولا نريد أن نناقشها سنداً ودلالة ، وقد كفانا البحاث الكبير العلامة الأميني نقاشها في غديره. وبين نفسيّة ابن عمر ومؤهلاته ومقدار تحمّله لذلك، وقيمة مايروى عنه في نظر حفاظ الحديث وعلماء الأمة (٦٥٩).

ولا نعود إلى مسألة مالك بن أنس عن الأسباب التي حملته على رأي المساواة، ولعلها لاتخفى على المتتبع، فهو لا يجهل مكانة عليّ (عليه السلام) في الإسلام من البداية إلى النهاية، كما أنّه لا يجهل اختصاص عليّ (عليه السلام) بمزيد فضل وعظيم شرف لم يشاركه أحد في ذلك، وقد امتاز على غيره من أصحاب محمد (صلى الله عليه

(٦٥٦) كان من رأي عمر في ابنه أنه لا يحسن أن يطلق امرأته، ولم يره أهلاً لشيء، وليس فيما (وقدّته العبادة) شهادة له بل من جملة ما كان يبعد عمر عن ابنه، وقد كان ظن الوالد بابنه صحيحاً حتى أنه بمرور الأيام لم ينصر الحق ولم يميز بين إمام الهدى وقائد البغاة فامتنع عن بيعة الإمام علي وطرق على الحجاج بابه ليلاً ليبياع عبد الملك كيلاً يبيت تلك الليلة بلا إمام فأخرج الحجاج رجله من الفراش وقال لابن عمر: أصفق بيدك عليها!!
ويبدو أنّ الحجاج علم حقيقة ابن عمر ممّا اشتهر عنه بعد موقعة الحرة أو مأساتها ودعوته الى عدم خلع الطاعة ونكت البيعة فيما خلع الناس يزيد بن معاوية. راجع صحيح مسلم ج ٢ ص ١٢١
ومسند أحمد ج ٢ ص ٤٨.

(٦٥٧) البخاري ج ٥ ص ٢٤٢.

(٦٥٨) البخاري ج ٥ ص ٢٦٢.

(٦٥٩) الغدير ج ١٠ ص ٣ - ٧٣.

وآله وسلم)، الذين كانوا على جانب عظيم من الصفات الفاضلة والمزايا الجليلة من الإيمان والصلاح والورع والزهد والجهاد...

فقد كان أسبقهم إلى الإسلام ، وأقربهم من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأشدّهم جهاداً في الحرب، وأعلمهم بالدين، وأعظمهم منزلة، فهو أفضى الأمة، وأعلم الصحابة، وأول من أسلم، وقد أزر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في نشر الدعوة وغير ذلك.

وامتاز عنهم بأنه أخو رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ومنه الذرية الطيبة، وهو نفس محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو مطهر من الرجس، ومنزه عن المعائب، فهو يمثل النبي في زهده وورعه وخلقه وهديه وفعله وعلمه وفضله. وهو ورسول الله ركيضاً رحم، ورضيعاً لبن واحد، إلى غير ذلك من المميزات التي اختصّ بها الإمام عليّ (عليه السلام)، وامتاز بها على غيره، فذاته صيغت من فضيلة، ولا يمكننا أن نعطي صورة واقعية عن شخصية الإمام بدراسة حياته بجميع نواحي عظمتها فليس ذلك بمستطاع.

فضل عليّ وامتيازته وخصاله

رأينا كيف تدخلت السياسة في تشويه الحقائق ، وحمل الناس على مخالفة الواقع بأشكال وألوان مختلفة، ممّا أفسد على المجتمع ما صلح، وقامت بسبب ذلك فتن وحروب، وليس ذلك بعجيب ، ولكنّ الأعجب منه حمل من خالف تلك الأوضاع الشاذة، ووقف لجانب الحقيقة على الشذوذ والانحراف، وأن يصبح غرضاً ترشقه سهام التهم بدون تثبيت في الحكم، وتدبر في الأمر.

وقد كانت مسألة التفضيل من أهمّ الأسباب التي تذرّع بها ولاة الأمر للقضاء على المفكرين من الأمة، وجعلتهم عرضة لخطر غضب الرأي العام من الذين أغواهم شيطان السياسة الفاسدة ليلقوا بأنفسهم في مهاوي الهلكة ، حتى أصبح الأمر بأشدّ ما يكون من الخطر، والتجأ الكثير إلى الدفاع عن النفس بالمجاراة للرأي العام الذي تكيف بسياسة الدولة بدون تدبّر وتفكير.

ولو تجرّدت المسألة عن ذلك التدخل لما كان أيّ شيء من ذلك، لأنّ الحقيقة في جانب ، وما يذهبون إليه في جانب آخر. وإنما هي أقوال يرددونها اتباعاً لقائلها بدون تحقيق من صحتها.

وإذا أردنا أن نسألهم عن التطبيق العملي يصعب عليهم ذلك، ولا يجدون للإجابة عن طريق المنطق الصحيح سبيلاً.

وأقلّ قدر من التجردّ من دواعي التقليد وعوامل التعصّب يساعد في اكتشاف جذور إظهار هذه المسألة ودفع الإمام عن مكانته الدينية والتاريخية، فقريش التي أوصل سيف علي الحزن الى قلوبها وفجعها بصناديد الكفر لا تريد ذلك، والأمويون الذين استخذوا تحت أقدام جند النبي عام الفتح وأظهروا الإسلام، تفاقم حقدّها الجاهلي وعظم شركها ولم تكتف بسنة شتم الإمام بل امتدت أياديها القدرة الى العترة الطاهرة قتلاً وسبياً وتشريداً.

وإذا استكشفنا حقيقة الأمر على ضوء الأحاديث النبوية والآيات القرآنية الواردة في فضل عليّ (عليه السلام) واختصاصه بمزايا لم يشاركه فيها أحد؛ لوجدنا تلك الآراء التي ذهبوا إليها في مسألة التفضيل، بعيدة عن الصواب ، إذ هي تعطينا صورة واضحة لمقام عليّ (عليه السلام) وأنه أفضل الأمة لأنها حقائق ملموسة لا يمكن لأحد أن يحيد عنها، فهي تقضي بأفضليّته على جميع الأمة.

كيف؟ وقد ملأ سمع الدنيا نداء رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم غدیر خم: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» وقد رواه جمع من الصحابة يربو عددهم على المائة (٦٦٠).

وفي حديث (٦٦١) الثقلين كفاية للدلالة على علو شأن علي وفضله واختصاصه دون سائر الصحابة باقترانه مع القرآن في وجوب الاتباع، فهو مع القرآن والقرآن معه (٦٦٢).

إذاً كيف يصحّ لقائل أن يقول بمساواته لسائر الناس، وعدم امتيازهم بمؤهلات الفضل؟ ولا غرابة في ذلك بعد أن وقفنا على الأسباب التي أدت إلى هذا الرأي.

(٦٦٠) الغدير ج ١ ص ٤١ - ١٤٥.

(٦٦١) أنظر الإمام علي بن أبي طالب، لعبدالكريم الخطيب، طبعة بيروت.

(٦٦٢) ارجع المطالب ص ٥٩٧.

أَلْعَلِّيَّ يَقَالُ هَذَا؟ وَهُوَ نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِنَصِّ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) (٦٦٣) وَدَعَا النَّبِيَّ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ وَقَالَ : اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي (٦٦٤).

فَهُوَ بِنَصِّ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ نَفْسُ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) ، وَلَوْ وَجَدَ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) نَظِيرًا لَعَلِّيَّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) لَضَمَّهُ إِلَيْهِ ، كَمَا صَنَعَ فِي الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ. إِذَا لَيْسَ فِي أُمَّتِهِ مَنْ يَكُونُ نَفْسَهُ غَيْرَ عَلِيٍّ ، وَقَدْ احْتَجَّ عَلِيٌّ يَوْمَ الشُّورَى بِذَلِكَ ، فَقَالَ لَهُمْ : أَتَشَدُّكُمْ اللَّهُ هَلْ أَحَدٌ أَقْرَبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) فِي الرَّحِمِ مِنِّي. وَمَنْ جَعَلَهُ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) نَفْسَهُ ، وَإِنَاءَهُ أَبْنَاءَهُ ، وَنِسَاءَهُ نِسَاءَهُ غَيْرِي؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ لَا ، وَقَدْ أَصْبَحَ ذَلِكَ مِنَ الْمَقْرَرِ عِنْدَ النَّاسِ وَالْمَشْهُورِ بَيْنَهُمْ ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ إِنكَارَهُ.

وَلَوْ أَصْغَى إِلَى قَوَاعِدِ الْبَيَانِ وَأَدَلَّةِ اللَّسَانِ لَوُضِحَ الْحَقُّ وَبَانَ الْهُدَى وَلَمْ تَصْرَفْ كَلِمَةٌ فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ وَسَفَرِ الْإِعْجَازِ عَنْ دَلَالَتِهَا وَمَعْنَاهَا كَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : (مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ) (٦٦٥) فَلَوْ كَانَ الْمَقْصُودُ بِنَفْسِهِ هُنَا النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) لَاقْتَضَى الْبَيَانُ تَعْبِيرًا يَتَّسِقُ مَعَ الْإِعْجَازِ وَالبَلَاغَةِ بِضَمِيرٍ دَالٍ عَلَيْهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) ، وَلَكِنْ التَّصْرِيحُ بِالْنَهْيِ عَنِ التَّخَلُّفِ عَنْ وَصِيِّ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) الْإِمَامِ عَلِيٍّ وَهُوَ نَفْسُهُ كَانَ سَبَبَ ذَلِكَ. وَمَنْ حَقَّ كِتَابُ الْيَوْمِ أَنْ يَرَوْا أَنَّ بَعْضَ مُنَاقِبِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْإِمَامِ عَلِيٍّ لَمْ تَأْخُذْ مَكَانَهَا مِنَ الْإِهْتِمَامِ ، أَوْ أَنَّ الشَّيْعَةَ لَمْ يَجْعَلُوا بَعْضَهَا بَدْرَجَةً إِهْتِمَامِهِمْ فِي الْمُنَاقِبِ الْآخَرَى كَقَضِيَّةِ مَبِيتِ الْإِمَامِ فِي فِرَاشِ النَّبِيِّ الْأَعْظَمِ الَّتِي تُعَدُّ مِنْ أَعْظَمِ فُضَائِلِ الْإِمَامِ وَأَقْوَى دَلَائِلِ الْإِهْتِمَامِ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) وَالْقُرْبِ مِنْهُ (٦٦٦). وَلَكِنْ مَا يُوَلِّمُ الشَّيْعَةَ وَيَحْزَنُ فِي نَفُوسِ الْآخَرِينَ مِنْ غَيْرِ الشَّيْعَةِ الَّذِينَ أَبُو الْإِسْتِسْلَامِ وَالتَّقْلِيدِ أَنْ تَكُونَ قَضِيَّةُ إِبْرَازِ فَضْلِ الْإِمَامِ عَلِيٍّ وَإِظْهَارِ مُنَاقِبِهِ مِنْ إِهْتِمَامَاتِ الشَّيْعَةِ فَحَسَبَ ، وَالنَّظَرَةُ الْبَسِيطَةُ تَوْضَحُ بِجَلَاءٍ مَنْ هُوَ الْإِمَامُ عَلِيٌّ وَمَا دَوْرُهُ فِي نَصْرَةِ الْإِسْلَامِ وَحِمَايَةِ نَبِيِّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ).

(٦٦٣) آل عمران : ٦١.

(٦٦٤) صحيح مسلم ج ٥ ص ١٧٦ من شرح النووي ، وتفسير الرازي ج ٢ ص ٤٨٨.

(٦٦٥) التوبة: ١٢٠ .

(٦٦٦) انظر الإمام علي بن أبي طالب لعبدالكريم الخطيب. ط بيروت .

قام رجل في مجلس ابن عائشة ، فقال: يا أبا عبد الرحمن من أفضل أصحاب رسول الله ؟ فقال: أبو بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن وطلحة والزبير .

فقال الرجل: فأين علي بن أبي طالب ؟ فقال ابن عائشة: تستفتيني عن أصحابه أم عن نفسه ؟ فقال الرجل : عن أصحابه . قال : إن الله تبارك وتعالى يقول: (فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم) فكيف يكون أصحابه مثل نفسه؟(٦٦٧)

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : قلت لأبي ماتقول في التفضيل؟ قال : في الخلافة أبو بكر، وعمر ، وعثمان. فقلت: فعلي؟ قال : يابني، علي بن أبي طالب من أهل بيت لا يقاس بهم أحد(٦٦٨).

وكان النبي في مختلف الظروف وشئى المناسبات قد بين للناس أن علياً كنفسه، وهو منه بمنزلة رأسه من بدنه(٦٦٩). كقوله(صلى الله عليه وآله وسلم): لينتهين بنو ربيعة، أو لأبعتن إليهم رجلاً كنفسى(٦٧٠). وكقوله(صلى الله عليه وآله وسلم): علي مني وأنا منه. ويحدث ابن عباس عن أم سلمة أن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)قال: يا أم سلمة علي مني وأنا من علي، لحمه من لحمي ودمه من دمي وهو مني بمنزلة هارون من موسى(٦٧١). وكان(صلى الله عليه وآله وسلم) يظهر للملأ في المواقف العامة فضل علي(عليه السلام) وأنه كنفسه ففي الحج أشركه في نحر البدن: وهي الهدى.

قال عرفة بن الحرث الكندي: شهدت رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وأتى بالبدن فقال: أدعوا لي أبا حسن. فدعي له علي(عليه السلام)فقال(صلى الله عليه وآله وسلم): خذ بأسفل الحربة. وأخذ(صلى الله عليه وآله وسلم)بأعلاها ثم طعنا بها البدن، فلما فرغ ركب وأردف علياً(عليه السلام)(٦٧٢). وكان(صلى الله عليه وآله وسلم) يأمر علياً بأن يقوم على البدن وأن يتولى تقسيم لحومها بنفسه(٦٧٣). وكان(صلى الله عليه وآله وسلم)يخطب الناس في الحج على ناقته الشهباء وعلي(عليه السلام) يعبر عنه - أي يفهمها الناس - . رواه ابن حجر في المواهب(٦٧٤)، وأخرجه أبو داود(٦٧٥)، والنسائي(٦٧٦)، والبغوي(٦٧٧)، والطبراني(٦٧٨).

(٦٦٧) المحاسن للبيهقي ج ١ ص ٤٩ .

(٦٦٨) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ج ٢ ص ١٢٠ .

(٦٦٩) انظر الخطيب البغدادي ج ٧ ص ٤١ .

(٦٧٠) الرياض النضرة ص ٦٤ .

(٦٧١) بحار الأنوار ج ٣٧ ص ٢٥٤ .

(٦٧٢) شرح المواهب ج ٨ ص ١٩٤ .

(٦٧٣) البخاري ج ٢ ص ٢٠١ .

(٦٧٤) شرح المواهب ج ٨ ص ٢٠٥ .

(٦٧٥) سنن أبي داود ج ٢ ص ١٩٨ ح ١٩٥٦ .

والنبيّ الأعظم يرعى علياً كما لو كان يرعى نفسه في جميع الأحوال، أخرج الطبراني عن إبراهيم بن رفاعة بن رافع بن مالك بن عجلان الأنصاري عن أبيه عن جدّه قال: أقبلنا يوم بدر، تفقدنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فنادت الرفاق بعضها بعضاً، أفياكم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فوقفوا حتى جاء رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) معه علي بن أبي طالب، فقالوا: يا رسول الله، فقدناك، فقال: «أن أبا حسن وجد مغصاً في بطنه فتخلّفت عليه» (٦٧٩).

وكثير من هذا الباب الذي يدلّ بالبرهان القاطع أنّه (عليه السلام) نفس محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وشريكه في مميّزاته وصفاته، إلّا ما علم بالضرورة استثناءه . وكان أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يعرفون علياً بتلك المنزلة، ولا يجهلون ذلك الاختصاص.

أخرج الطبري عن ابن عباس : أنّه مرّ بمجلس من مجالس قريش وهم يسبّون علياً، فقال لقائده: أما سمعت هؤلاء ما يقولون؟ قال: سبّوا علياً. قال: فردني إليهم، فردّه. فقال: أيكم الساب لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ قالوا: سبحان الله من سبّ رسول الله فقد كفر، فقال : أيكم الساب لعلي؟ قالوا: أما هذا فقد كان. قال ابن عباس: فأنا أشهد باللّه لسمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: «من سبّ علياً فقد سبّني، ومن سبّني فقد سبّ اللّه، ومن سبّ اللّه عزّ وجلّ أكبّه اللّه على منخره.» (٦٨٠).

وأخرج النسائي عن عبد الله الجدلي. قال: دخلت على أمّ سلمة، فقالت لي: أيسبّ رسول الله فيكم؟ قلت: سبحان الله أو معاذ الله، قالت: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: من سبّ علياً فقد سبّني (٦٨١).

فامتياز شخصيّة علي (عليه السلام) اقتضت أن يختصّ بأمور لا يشاركه فيها أحد، لذلك كان أخصاً للنبي من دون أصحابه يوم آخى النبي بينهم وأخذ بيد عليّ فقال: هذا أخي (٦٨٢) . وقالت عائشة لرجل من بني ضبة - وهو أخذ بخطام جملها - : أين ترى

(٦٧٦) أنظر سنن النسائي ج ٥ ص ١٧٩ ح ٣٠٠٧ و ٣٠٠٨ ، سنن البيهقي ج ٥ ص ٢٢٨ ح ٩٦١٨ .

(٦٧٧) مصابيح السنة ج ٢ ص ٢٧٧ ح ١٩٤١ .

(٦٧٨) المعجم الكبير ج ٥ ص ١٨ - ١٩ ح ٤٤٥٨ .

(٦٧٩) المعجم الكبير ج ٥ ص ٤٦ .

(٦٨٠) الرياض النضرة ج ٢ ص ٢١٩ .

(٦٨١) الخصائص ص ٢٤ ، والرياض النضرة ج ٢ ص ٢١٩ .

(٦٨٢) مصابيح السنة ج ٢ ص ٢٠٣ .

علي بن أبي طالب؟ قال: ها هو ذا واقف رافع يده إلى السماء . قالت: ما أشبهه بأخيه. قال الضبي: ومن أخوه؟ قال: رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) . فقال الضبي: فلا أراني أقاتل رجلاً هو أخو رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فنُبذَ خطام جملها ومال إلى عليّ (عليه السلام) (٦٨٣).

وقد أراد الله إظهار فضل عليّ، وأراد أن يعرف الناس منزلته فخصّصه بتلك المزايا التي لا يمكن حصرها، وكيف تجهل مكانة عليّ وعظيم منزلته فيساوي مع سائر الناس ؟ وقد جعل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حبّ عليّ علامة الإيمان، وبغضه علامة النفاق بقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): «يا عليّ لا يحبك إلا مؤمن ، ولا يبغضك إلا منافق» وقال عليّ (عليه السلام): «إنه لعهد النبي الأمي (صلى الله عليه وآله وسلم) إليّ أنه لا يحبني إلا مؤمن ، ولا يبغضني إلا منافق» (٦٨٤).

وكان أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يعرفون إيمان الإنسان بحبه لعليّ، ونفاقه ببغضه له، متخذين من قوله قاعدة مطردة على الدوام في معرفة الناس، وتمييز الأشخاص. قال أبو سعيد الخدري: كُنا - نحن معشر الأنصار - نعرف المنافقين ببغضهم علي بن أبي طالب (٦٨٥). وقال جابر بن عبد الله الأنصاري: ما كُنا نعرف المنافقين إلا ببغضهم علياً (٦٨٦).

فبنصّ هذا الحديث الشريف أنّ محبّ عليّ مؤمن، ومبغضه منافق. والمنافق هو المؤمن بلسانه والكافر بجنانه و (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار).

قال أحمد بن منصور: كُنا عند أحمد بن حنبل ، فقال رجل : يا أبا عبد الله، ما تقول في هذا الحديث الذي يروي أنّ عليّاً قال: «أنا قسيم النار» ؟ فقال أحمد: وما تنكرون من ذا؟ أليس روينّا أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لعليّ (عليه السلام) : «لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق» قلنا قال: فأين المؤمن؟ قلنا: في الجنة. قال: وأين المنافق؟ قلنا: في النار. قال أحمد : فعليّ قسيم النار (٦٨٧).

(٦٨٣) المحاسن والمساوي للبيهقي ج ١ ص ٣٥ .

(٦٨٤) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١ ص ٦٤، وخصائص أمير المؤمنين للنسائي ص ٢٧، وذخائر العقبى ص ٩١

والاستيعاب بهامش الإصابة ج ٣ ص ٣٧ وشرح الشفاء للخفاجي ج ٣ ص ٤٥٧ .

(٦٨٥) صحيح الترمذي ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٦٨٦) الذخائر ص ٩١ والاستيعاب ج ٣ ص ٤٦ .

(٦٨٧) طبقات الحنابلة ج ١ ص ٣٢٠ .

وقد امتاز عليّ (عليه السلام) على جميع أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنه نظيره في الأداء والتبليغ بقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : لا يؤدي عنيّ إلا أنا أو رجل مني، وذلك لما أرسل أبا بكر ليقرأ براءة على أهل مكة، أوحى الله إليه أن يرجعه، ويرسل عليّاً ليقوم مقام النبي في الأداء، فانصرف أبو بكر كنيباً، فقال لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : أنزل في شيء؟ قال: لا ، إلا أني أمرت أن أبلغه أنا أو رجل من أهل بيتي. وفي رواية سعد: لا يؤدي عنيّ إلا أنا أو رجل مني. وفي رواية أبي هريرة: لا يبلغ غيري أو رجل مني^(٦٨٨). فالإرسال كان بوحي من الله تعالى. وقد رشّحه لمقام التبليغ ، ووسمه النبيّ بذلك الوسام، وميّزه بتلك الصفة . كما ميّزه (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنه باب مدينة علمه لما بينهما من المشاركة والمجانسة بقوله : «أنا مدينة العلم وعليّ بابها»^(٦٨٩). قال الهيثمي^(٦٩٠): رواه جماعة وصحّحه الحاكم^(٦٩١)، وحسنه الحافظان العلاني^(٦٩٢)، وابن حجر^(٦٩٣).

وقال ابن حجر في شرح الهمزية في تعداد فضائل عليّ (عليه السلام): ومنها العلوم التي أشار إليها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله: «أنا مدينة العلم وعليّ بابها» وفي رواية من أراد العلم فليأت الباب. وفي أخرى عند الترمذي: «أنا دار الحكمة وعليّ بابها» وفي أخرى عند ابن عدي: «عليّ باب علمي»^(٦٩٤). وقال أيضاً : ممّا يدل على أنّ الله سبحانه وتعالى اختصّ عليّاً من العلوم ما تقصر عنه العبارات كقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : «أفضاكم علي» وهو حديث لا نزاع فيه. وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : «أنا دار الحكمة وعليّ بابها»، وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : «أنا مدينة العلم وعليّ بابها»^(٦٩٥).

واختصّ عليّ (عليه السلام) بأنه أحبّ الخلق إليه (صلى الله عليه وآله وسلم) وأقربهم منه، ووجوب محبّته ولزوم اتباعه ، وأنه مع الحقّ والحقّ معه، وكان يحلّ له ما يحلّ لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم أمر النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) بسد أبواب

(٦٨٨) الرياض النضرة ج ٢ ص ٢٢٨ والخصائص ص ٢٠.

(٦٨٩) لهذا الحديث طرق معتبرة صحيحة، وقد أفرد له الشيخ أحمد بن محمد بن الصديق المغربي مؤلفاً يقع في ١٠٢ صفحة ذكر فيه طرق الحديث وتعرّض لجميع الأقوال فيه.

(٦٩٠) مجمع الزوائد ج ٩ ص ١١٧.

(٦٩١) المستدرک على الصحيحين ج ٣ ص ١٣٧، ح ٤٦٣٧.

(٦٩٢) المعجم الكبير ج ١١ ص ٦٦.

(٦٩٣) لسان الميزان ج ١ ص ٢٩٧ / ٦٢٧.

(٦٩٤) شرح الهمزية ص ٣٠٢.

(٦٩٥) أنظر شرح الهمزية ص ٣٠٣.

أصحابه إلا باب عليّ. أخرج النسائي من طريق زيد بن أرقم: كان لنفر من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أبواب شائعة في المسجد، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): سدّوا الأبواب إلا باب عليّ فتكلّم بذلك الناس، فقام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أمّا بعد، فإنّي أمرتُ بسدّ هذه الأبواب غير باب عليّ، وقال فيه قائلكم: واللّٰه ما سدّدته ولا فتحتّه ، ولكّني أمرتُ فاتبعته^(٦٩٦). أخرج أحمد والطبراني، وما ذلك إلا لميزة في شخص عليّ اقتضت هذا التخصيص. وقد أكبر عمر بن الخطاب هذه الخصلة، وكانت من أهمّ الخصال التي كان يتمنّاها ، فكان يقول : لقد أوتي ابن أبي طالب ثلاث خصال لنن يكون لي واحدة منهن أحبّ إليّ من حمر النعم. زوّجه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ابنته، وسدّ الأبواب إلا بابّه في المسجد، وأعطاه الراية يوم حنين^(٦٩٧).

وكم تمنّى عمر بن الخطاب بعض ما اختصّ به عليّ (عليه السلام) ، كما يحدثنا عن نفسه في عدة موارد: كيوم خيبر، يوم قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله عليه، يحب الله ورسوله، ويحب الله ورسوله، قال عمر بن الخطاب: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ^(٦٩٨)، وكان عمر يتعوذ من معضلة ليس لها أبو حسن^(٦٩٩).

ولم يشهد المسلمون شخصيّة برزت في ذلك العصر بمؤهلات الفضل والكمال كشخصية الإمام عليّ بن أبي طالب، فلا يستطيع أيّ أحد أن يتناول إليها في الشرف. وقد بذل النبيّ عنايته في تربيته، وكان يغمره بالحبّ ويأمر بحبّه، ويوجه الناس إلى معرفة مميزاته، وصفات الكمال التي اجتمعت فيه، فكان يعلن للملأ بقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): «أنت مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي» «عليّ مني وأنا من علي ولا يؤدّي عني إلا أنا أو عليّ» أخرج الترمذي في صحيحه^(٧٠٠)، والنسائي في خصائصه^(٧٠١) وغيرهما. «ما تريدون من عليّ إنّ عليّاً منّي وأنا من عليّ؟»^(٧٠٢). وأخرج الترمذي بلفظه: «ما تريدون من عليّ، ما تريدون من عليّ، إنّ عليّاً مني وأنا منه، وهو وليّ كلّ مؤمن من

(٦٩٦) الخصائص ص ١٣، وشرح المواهب اللدنية ج ٨ ص ٢٥٣.

(٦٩٧) ذخائر العقبى ص ٧٧، ومسند أبي يعلى ص ٢٥١.

(٦٩٨) أخرج البخاري ومسلم، والترمذي في الصحيح ، والنسائي في الخصائص ، وغيرهم .

(٦٩٩) الإصابة ج ٢ ص ٥٠٩.

(٧٠٠) الترمذي ج ٢ ص ٢٩٩.

(٧٠١) الخصائص ص ٢٠.

(٧٠٢) الإصابة لابن حجر ج ٢ ص ٥٩.

بعدي»^(٧٠٣) «من أحب عليًا فقد أحبني، ومن أبغض عليًا فقد أبغضني ، ومن آذى عليًا فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله»^(٧٠٤) . «يا علي طوبى لمن أحبك وصدق فيك، وويل لمن أبغضك وكذب فيك»^(٧٠٥) .

وروى عمار بن ياسر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : أوصي من آمن بي وصدقني بولاية علي بن أبي طالب، فمن تولاه فقد تولاني، ومن تولاني فقد تولي الله، ومن أحبه فقد أحبني ، ومن أحبني فقد أحب الله، ومن أبغضه فقد أبغضني ، ومن أبغضني فقد أبغض الله عز وجل. أخرجه الطبراني في الكبير وابن عساكر في تاريخه^(٧٠٦).

وأخرج أحمد رواية الإمام علي (عليه السلام) «والله إنه مما عهد إلي رسول الله (صلى الله عليه وآله) إنه لا يبغضني إلا منافق ولا يحبني إلا مؤمن»^(٧٠٧).

ونكتفي بهذا البيان الذي لم نقصد به التوسع والإحاطة لتعذر ذلك، ولكنها إشارة موجزة من حيث الارتباط في الموضوع. كما وأنا لم نتعرض لذكر الآيات الواردة في فضل علي (عليه السلام) مما أجمع المفسرون على أنها نزلت فيه، وقد أفرد علماء الإسلام في فضائله ومناقبه - التي أختص بها وامتاز عن سائر الصحابة - مؤلفات كثيرة، عدا ما أودع في مضامين الكتب التي لا تحصى، وأفرد الحافظ أبو نعيم الأصفهاني كتاباً في بيان منازل من القرآن في علي، وله كتاب الخصائص أيضاً. وألف النسائي والإمام أحمد وعبد الرحمن السكري وغيرهم كتباً في مناقب أمير المؤمنين (عليه السلام) التي اختص بها دون سائر الصحابة، وعسى أن تتاح لي الفرصة إلى العودة في البحث عن حياة الإمام علي بن أبي طالب ، لنقتبس من حياته نظرة واسعة.

ونكتفي هنا بهذه النظرة الخاطفة عن بقية مميزاته وصفاته التي يعجز أي أحد عن الإحاطة بها، وإعطائها حقها من البيان ، فإن لشخصيته منزلة مرموقة، وما رسمت ريشة التاريخ في صفحة الوجود كصورته بعد صاحب الرسالة.

أقوال الصحابة في علي (عليه السلام)

(٧٠٣) صحيح الترمذي ج ١٣ ص ١٦٥ .

(٧٠٤) الاستيعاب بهامش الإصابة ج ٣ ص ٣٧ .

(٧٠٥) الرياض النضرة ج ٢ ص ٢٨٥ .

(٧٠٦) كنز العمال ج ٦ ص ١٤٥ .

(٧٠٧) مسند أحمد ج ١ ص ٨٤ .

ولا بدّ لنا - ونحن في معرض البحث عن مسألة التفضيل أو مشكلته - من الرجوع لأقوال الصحابة ولمعرفة ما لمسوه من الحقائق في شخصيّة الإمام عليّ(عليه السلام) وامتيازهِ بتلك الصفات التي اختصّ بها من بين الأمة، ولنا بذكر أقوال البعض كفاية عن الإحاطة بأقوال الجميع.

لَمَّا بُويعَ عليّ وعادت الخلافة إليه بعد أن تخطّته زماناً ، قام خطباء الصحابة في مجلس البيعة، وتكلّموا بما يحقّ لهم أن يتكلّموا فيه منهم: ثابت بن قيس قال(٧٠٨): واللّه يا أمير المؤمنين، لنن تقدّموك في الولاية فما تقدّموك في الدين، ولنن كانوا سبقوك إليها أمس لقد لحقتهم اليوم، وكنت لا يخفى موضعك، ولا تجهل مكانتك ، يحتاجون إليك فيما لا يعلمون، وما احتجت إلى أحد مع علمك (٧٠٩).

وقام خزيمة ذو الشهادتين فقال: يا أمير المؤمنين، ما أصبنا لأمرنا هذا غيرك، ولا كان المنقلب إلا إليك، ولو صدقنا أنفسنا فيك لأنت أقدم الناس إيماناً، وأعلم الناس باللّه، وأولى المؤمنين برسول اللّه، لك ما لهم وليس لهم مالك (٧١٠).

وقام صعصعة بن صوحان فقال: واللّه يا أمير المؤمنين، لقد زينت الخلافة وما زانتك، ورفعتها وما رفعتك، ولهي إليك أحوج منك إليها(٧١١).

وقام مالك بن الحرث فقال: أيّها الناس هذا وصيّ الأوصياء ، ووارث علم الأنبياء، العظيم البلاء، الحسن الغناء، الذي شهد له كتاب اللّه بالإيمان ، ورسوله بجنته الرضوان، من كملت فيه الفضائل، ولم يشكّ في سابقته وعلمه وفضله الأوائل ولا الأواخر(٧١٢).

وقام عقبة بن عمر فقال: من له يوم كيوم العقبة، وبيعة كبيعة الرضوان والإمام الأهدى الذي لا يخاف جورهِ. والعالم الذي لا يخاف جهله(٧١٣).

وتتابع الخطباء والشعراء في ذلك اليوم، وبما لا يتسع المجال لذكره ولا يمكن الإحاطة بجميع أقوالهم في عليّ بشتى المناسبات ، ومختلف المقامات. وعلى

(٧٠٨) ثابت بن قيس بن الحطيم بن عدي الأنصاري، توفي في خلافة معاوية شهد مع النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وقعة أحد وما بعده من المشاهد، واستعمله عليّ(عليه السلام) على المدائن وشهد معه حروبه، وقد نسب بعض المؤرخين هذه الكلمة لثابت بن شماس الأنصاري خطيب الأنصار، وهو اشتباه ؛ لأنّ الشماس قتل يوم اليمامة سنة اثنتي عشرة في خلافة أبي بكر.

(٧٠٩) أعيان الشيعة ج ٤ ص ١٧ .

(٧١٠) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٧٩.

(٧١١) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٧٩.

(٧١٢) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٧٩.

(٧١٣) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٥٥.

الإجمال ، فإن أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) كانوا يعترفون لعلّي بالفضل الذي لا يتناول إليه أحد، ويرجعون إليه في مهماتهم، ويحدثون بفضله، وعلوّ منزلته. فهذا أبو بكر كان يكثر النظر إلى وجه عليّ، فقالت له عائشة: يا أباه إنك لتديم النظر إلى وجه عليّ، فقال : يابنية سمعت، رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: النظر إلى وجه عليّ عبادة. أخرجه ابن السمان في الموافقة^(٧١٤) . وأخرج أبو الحسن الحربي مثله عن عبد الله بن مسعود ، والأبهرى عن عمر بن العاص مثله. واشتهرت عن أبي بكر أحاديث كثيرة في فضله كما اشتهر عنه رجوعه إليه في أهمّ المسائل .

وهذا الخليفة الثاني كان يعترف بعلم عليّ وأفضليته. وجاءت عنه أقوال كثيرة في ذلك: منها أنّه قال لرجل: لا تذكر عليّاً إلا بخير فإنك إن تنقصه آذيت صاحب هذا القبر في قبره - يعني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) - . أخرجه أحمد في المناقب^(٧١٥)، وابن السمان في الموافقة^(٧١٦). وقال : أقضانا عليّ. أخرجه الحافظ السلفي^(٧١٧) وفي لفظ ابن عبد البر أنّه قال: عليّ أقضانا. أخرجه عن ابن عباس^(٧١٨).

وقال سعيد بن المسيب : كان عمر يتعوذ من معضلة ليس لها أبو الحسن^(٧١٩). وقال في المجنونة التي أمر عمر بـرجمها، وفي التي وضعت لستة أشهر فأراد عمر رجمها، فقال له عليّ (عليه السلام) : إن الله تعالى يقول : (وَحَمَلُهُ وَفَصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا)^(٧٢٠)».

وقال في المجنونة : «رفع القلم عن المجنون... الحديث» فكان عمر يقول : لولا عليّ لهلك عمر^(٧٢١).

(٧١٤) مناقب عليّ بن أبي طالب لابن المغازلي ص ١٩٦ - ١٩٩ .

(٧١٥) فضائل الصحابة ج ٢ ص ٦٤١ ح ١٠٨٩ .

(٧١٦) الرياض النضرة ج ٢ ص ٢٢٠ .

(٧١٧) الذخائر ص ٨٣ .

(٧١٨) الاستيعاب ج ٣ ص ٣٩ .

(٧١٩) تذكرة الخواص ص ١٤٤ .

(٧٢٠) الأحقاف: ١٥ .

(٧٢١) الاستيعاب ج ٢ ص ٤٣ .

وقال أذينة العبدى: أتيت عمر بن الخطاب ، فسألته من أين أعتمر؟ فقال: إئت عليّ بن أبي طالب فاسأله . وقال له : ما أجد لك إلا ما قال عليّ(عليه السلام) وأقواله في علي كثيرة منها^(٧٢٢):

قوله : لايفتينّ أحد في المسجد وعليّ حاضر. وقوله : اللهم لاتبقني لمعضلة ليس لها ابن أبي طالب . وقوله : اللهم لا تنزل بي شديدة، إلا وأبو الحسن إلى جنبي. وقوله: كاد يهلك ابن الخطاب، لولا عليّ بن أبي طالب. وقوله : عجزت النساء أن تلدن مثل عليّ بن أبي طالب. وقوله : ردّوا قول عمر إلى عليّ(عليه السلام) ، لولا على لهلك عمر. وقوله: يا ابن أبي طالب ، فما زلت كاشف كلّ شبهة، وموضع كلّ علم.

قال ابن الأثير في أسد الغابة: ولو ذكرنا ما سألته الصحابة به مثل عمر وغيره رضي الله عنهم لأطلنا^(٧٢٣) .

وجاء رجل إلى معاوية بن أبي سفيان فسأله عن مسألة، فقال: سل عنها علي ابن أبي طالب ، فهو أعلم. قال : يا أمير المؤمنين، جوابك فيها أحبّ إليّ من جواب علي. قال: بنس ما قلت: لقد كرهت رجلاً كان رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يغزره بالعلم غزاراً ولقد قال له : أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، وكان عمر إن أشكل عليه شيء أخذه منه. أخرجه أحمد بن حنبل في المناقب^(٧٢٤).

وقال ابن عباس لعلي: أربع خصال ليس لأحد غيره : هو أوّل عربي وعجمي صلى مع رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ، وهو الذي كان لواؤه معه في كلّ زحف. وهو الذي صبر معه يوم فرّ غيره. وهو الذي غسله وأدخله قبره. أخرجه أبو عمر^(٧٢٥).

ولما حضرته الوفاة، قال: اللهم إني أتقرب إليك بولاية علي بن أبي طالب. خرّجه أحمد في المناقب^(٧٢٦).

(٧٢٢) أنظر البحار ج ٤٠ ص ٢١٨ - ٣١٨ .

(٧٢٣) راجع الاستيعاب لابن عبد البر وشرح الهمزية لابن حجر . والفتح لأحمد بن محمد الصديق . والغدير للأميني تجد هذه الأقوال الواردة عن عمر .

(٧٢٤) الرياض النضرة ج ٢ ص ٢٥٧ .

(٧٢٥) المناقب للخوارزمي ص ٢١ - ٢٢ .

(٧٢٦) الرياض النضرة ج ٢ ص ٢٢٧ .

وقيل له : أين علمك من علم ابن عمك ، فقال: كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط^(٧٢٧).

وقال ابن مسعود : أقضى أهل المدينة علي بن أبي طالب^(٧٢٨).

وقال سعد بن أبي وقاص - عندما طلب منه معاوية أن يسبّ علياً - : أما ما ذكرت ثلاثاً قالهنّ له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فلن أسبّه ، لنن تكون لي واحدة منهنّ أحبّ إليّ من حمر النعم: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول له : «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى...»^(٧٢٩)

وكانت عائشة تقول: علي أعلم الناس بالسنة^(٧٣٠).

ودخل عليها جابر بن عبد الله الأنصاري ، فقال لها: ما تقولين في عليّ فأطرقت رأسها ثم رفعتة فقالت:

إذا ما التبرحك على محك *** تبين غشّه من غير شك

وفينا الغش والذهب المصفى *** عليّ بيننا شبه المحك^(٧٣١)

وقال معاوية بن أبي سفيان : لما بلغه قتل الإمام عليّ (عليه السلام): لقد ذهب العلم والفقه بموت ابن أبي طالب . وسئل عطاء: أكان في أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أحد أعلم من عليّ قال: والله ما أعلمه^(٧٣٢). إلى كثير

مما لا يصعب على المتتبع الوقوف عليه لاستجلاء الحقائق منه. وإظهار ما خفي على كثير من السذج والبسطاء الذين استولت على شعورهم الدعايات الكاذبة والأقوال الفارغة.

وعلى أيّ حال ، فإنّ مسألة التفضيل لم تقم على سند من العلم والبحث أو التفكير السليم ، ولم يكن هناك دليل اقناعي أو برهان قاطع، بل المسألة تعود لآراء ذوي السلطة كما تقدّم بيانه. وإنّ الإجماع المدّعى لم يحصل إلا في زمن أحمد بن حنبل في عهد المتوكل^(٧٣٣)، وقد كانت بشكل حتمي لا ترجع للواقع من حيث هو، وإذا رجعنا لذلك بدون تحيّر وتعصّب ، بل يترك الأمر وحرية الرأي ، ويجري البحث

(٧٢٧) شرح النهج ج ٢ ص ٦ .

(٧٢٨) الاستيعاب ج ٣ ص ٤١ .

(٧٢٩) الخصائص للنسائي ص ٥٤ .

(٧٣٠) الاستيعاب بهامش الإصابة ج ٣ ص ٤٠ .

(٧٣١) الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ص ١٩٣ .

(٧٣٢) كتاب الف باء للبلوي ج ١ ص ٢٢٢ .

(٧٣٣) الاستيعاب ج ٣ ص ٥٤ .

على ضوء الأدلة والدراسات الصحيحة الخالية من نزعة التعصّب والهوى، وتدخل السياسة لما كان أيّ شيء ولم يحصل الاختلاف في أفضيلة عليّ (عليه السلام) على جميع الأمة، كما عليه السلف وأكثر علماء الاسلام ، ولكن التدخل في الآراء والمعتقدات من قبل ولاة الأمر أوجد تلك المشاكل، وسلب الناس حرية الرأي ، لذلك أصبح الكثير منهم يتكتم في إبداء رأيه لما وراء ذلك من الخطر، كما تحامى أكثر المحدثين ذكر فضائل عليّ وأهل بيته ، وتركوا الرواية عنهم. ويذكر ابن حجر القول في ذلك: وكان سبب ذلك بغض بني أمية، فكان كلّ من كان عنده علم من شيء من مناقبه من الصحابة يثبته، وكلّما أرادوا إخماده وهدّدوا من حدّث بمناقبه لا يزداد إلا انتشاراً^(٧٣٤).

ويحدّثنا الخطيب البغدادي: أنّ نصر الجهمي المتوفى سنة (٢٥٠ هـ) حدث عن النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه: أخذ بيد حسن وحسين فقال: من أحبّني وأحبّ هذين وأباهما وأمّهما كان معي في درجتي يوم القيامة، فلما حدّث بهذا الحديث أمر المتوكل بضربه ألف سوط، فكلّمه جعفر بن عبد الواحد وجعل يقول للمتوكل: هذا رجل من أهل السنة ولم يزل به حتى تركه.

قال الخطيب البغدادي: إنّما أمر المتوكل بضربه لأنّه ظنّه رافضياً ، فلما علم أنّه من أهل السنة تركه^(٧٣٥).

ومن هذا نعرف عظيم الخطر الذي تلاقيه الشيعة أو الروافض، كما يقولون، فقد أصبح في عرف أهل ذلك العصر أنّ من روى منقبة لعليّ وأهل بيته يعدّ رافضياً، وكما اتهم بذلك من العلماء فأصبحوا عرضة للبلاء، ومحلاً للنقمة ، وما أكثر الشواهد على تأثر المجتمع بتلك النزعة السياسية، فلا نستغرب تلك الأقوال التي كان يتخذها أصحابها ضد أهل البيت (عليهم السلام) وشيعتهم وسيلة للنجاة وطريقاً لاستمالة قلوب ولاة الأمر إرضاء لهم ، وإنّ غضب الله عليهم بما يفترون .

خلاصة البحث في مسألة التفضيل

هذا ما تعلّق الغرض ببيانه حول مسألة التفضيل. بعد أن وقفنا على رأي مالك بن أنس وانفراده برأي يبعث على الاستغراب ، فلا حاجة لنا في الاستمرار برده

(٧٣٤) الإصابة ج ٢ ص ٥٩ .

(٧٣٥) تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٢٨٧ .

ومناقشته بعد معرفة الأسباب التي دعت لذلك^(٧٣٦)، وإلا كيف يتساوى عليّ مع سائر الناس ؟ بعد اختصاصه بمزيد فضل وعلو منزلة لا يدانيه أحد. فقد رباه النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في حجره ونشأ في ظلّه، وتغذى تعاليمه منه، ونمت مواهبه في تربيته، فتأدّب بآدابه، وتخلّق بأخلاقه، واهتدى بهداه، ولازمه طول حياته وسبق إلى تصديقه في الرسالة قبل كلّ أحد ، ولبيّ دعوته في مؤازرته يوم نزلت : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)^(٧٣٧) وفداه بنفسه يوم أزمع كفار قريش على قتله وأمره الله بالهجرة^(٧٣٨)، واختصّ النبيّ بمؤاخاته من بين أصحابه يوم آخى بينهم، فأخذ بيد عليّ وقال: هذا أخي^(٧٣٩)، وذلك على سبيل المشاكلة والمجانسة. وعليّ نفس محمد بنصّ القرآن الكريم، وهو منه بمنزلة رأسه من بدنه ، وهو أعلم الأمة وأقضاهم وأقربهم وأشدّهم جهاداً .

قال أبان بن عياش : سألت الحسن البصري عن عليّ(عليه السلام) فقال ما أقول فيه؟ كانت له السابقة والفضل والعمل ، والحكمة والفقه، والرأي والصحة والنجدة والبلاء والزهد والقضاء والقربة إلى أن قال : وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لفاطمة(عليها السلام): زوجتك خير أمتي. فلو كان في أمته خيراً منه لاستثناه ، ولقد آخى رسول الله بين أصحابه ، فأخى بين عليّ ونفسه، فرسول الله خير الناس نفساً وخيرهم أخاً^(٧٤٠).

وسأله رجل عن عليّ أيضاً ، وكان يظنّ بالانحراف عنه، فقال: ما أقول في من جمع الخصال الأربع؟ إئتمانه على براءة ، وما قاله له في غزوة تبوك ، فلو كان غير النبوة شيء يفوته لا ستنناه ، وقول النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) : الثقلان كتاب الله وعترتي، وأنه لم يؤمر عليه أمير قط. وقد أمرت الأمراء على غيره^(٧٤١).

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : اجتمعت جماعة عند أبي ، فحاضوا في الخلافة ، فرفع أبي رأسه، وقال: يا هؤلاء قد أكثرتم القول في عليّ والخلافة، إنّ الخلافة لم تزيّن عليّاً ، بل عليّ زانها .

(٧٣٦) سنلّقي في الجزء الثامن مع مالك في تكملة البحث عن رؤساء المذاهب.

(٧٣٧) الشعراء : ٢١٤ .

(٧٣٨) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٩٥ .

(٧٣٩) كنز العمال ج ١٥ ص ١١٥ ح ٣٣٤ ، والرياض النضرة ج ٣ ص ١٢٤ و ١٢٥ ، وتذكرة الخواص ص ٢٢ و ٢٣ ، والسيرة الحلبية ج ١ ص ٣١١ .

(٧٤٠) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ٣٦٩ .

(٧٤١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٤ ص ٩٥ - ٩٦ .

وعن عبد الله أيضاً، قال: سمعت أبي يقول: ماورد لأحد من الصحابة من الفضائل بالأسانيد الصحاح مثل ما ورد لعليّ (عليه السلام) (٧٤٢).

ولسنا بحاجة إلى ذكر أقوال التابعين وغيرهم من العلماء في مدح عليّ وفضله. ونكتفي بهذه النظرة الخاطفة، ولا يمكن التوسع في ذلك.

وقصارى القول في مسألة التفضيل: أنها أهم مسألة وأعظم مشكلة. وقد اتخذها خصوم الشيعة في عصر احتدام النزاع بين الطوائف، ذريعة للوقوع فيهم. والظعن في عقائدهم، وأصبحوا بتقديمهم علياً (عليه السلام) مبتدعة لا تحل الرواية عنهم، وهم - في نظر طائفة من السلف - كفار لا يجوز الأخذ عنهم (٧٤٣).

وقالوا: إنّ من يقدم علياً على عثمان فهو من أهل البدع. وإنه لمّا يثير الأسى والشجون أن يضطر المسلم الى النقاش وإيراد الأدلة والحجج في هذه المسألة التي تتطافر على تأكيدها الحقائق التاريخية والشرعية، ومن المؤلم أن ينساق مسلم الى ما اختلقته الأغراض وادّعته القوى التي هدم الإسلام عزّها في الجاهلية ونالها على يد الإمام عليّ ما نالها من ويلات، وليسأل من استسلم للاختلاقات والادّعاءات ما للغير في أن يحتلّ عليّ ما أراده الله له ورسوله؟ ولو أن قريشاً تخلّت عن أحقادها ولم تخضع للموتورين منها هل ستكون هذه القضية بمثل هذه الخطورة والمشكلة بمثل هذه الصورة وتصبح من المرتكزات. لكنّها الجاهلية التي استسلمت للإسلام لتسلم رؤوسها وكانت أمية تقودها، وبواعث الملك والتسلط لذلك كان قول أحمد بن حنبل وقد سأله ولده عن عليّ ومعاوية: «اعلم أن علياً كان كثير الأعداء ففتش له أعداؤه شيئاً فلم يجدوا فجاءوا الى رجل قد حاربه وقاتله فأطروه كيداً منهم له» (٧٤٤). وفي قوله ما يصف سنة العداء التي اتّبع بها العباسيون أسلافهم من الحكام وجهود زبانيّتهم.

هذا ما أردنا بيانه حول مسألة التفضيل - التي هي من أهم المشاكل كما قدمنا - وبيان رأي مالك بن أنس، وبهذا تنتهي دراستنا لحياة مالك، وبيان آرائه، ولنا عودة للبحث عنه إن شاء الله في الأجزاء القادمة.

وحيث كنّا على موعد مع القراء - في آخر الجزء الأوّل - بأن نتعرّض للبحث عن اتهام الشيعة في الظعن على جميع الصحابة، أو تكفيرهم أجمع - والعياذ بالله - .

(٧٤٢) مناقب أحمد لابن الجوزي ص ١٦٣.

(٧٤٣) الكفاية للخطيب البغدادي ص ٤٨.

(٧٤٤) أنظر شرح الهمزية لابن حجر الهيتمي ص ٢٣٩، تحفة الأحوذى: ٢٣١/١٠.

ولمناسبة الموضوع نتحول لموضوع الشيعة والصحابة وسنتعرّض لما أثير
حول الشيعة من زوابع التّهم وما لفقّه خصومهم من ادعاءات كاذبة وأقوال فارغة،
ومن الله نطلب التسديد، وهو وليّ التوفيق .

الشيعة والصّحابة

الشبيعة والصحابة

تمهيد

إنّ موضوع الحديث عن عقيدة الشيعة في الصحابة هو أهمّ موضوع نريد أن نتحدّث عنه، وكان بوجدنا التجنّب عن ذلك ولكن من شرط هذا الكتاب هو التعرّض لكلّ ما له علاقة بمذهب أهل البيت (عليهم السلام) ، وسائر المذاهب فإنّ هذه المسألة من أهمّ المسائل التي كانت ذريعة لمعارضة مذهب أهل البيت (عليهم السلام) وانتشاره . فقد نسبوا إلى الشيعة ما لا يتفق مع الواقع في اعتقادهم حول الصحابة. وتقولوا عليهم بأنهم - أي الشيعة - يكفرون جميع الصحابة - والعياذ بالله - وإنهم لا يعتمدون على أحاديثهم ، ويطعنون فيهم إلى غير ذلك.

وجعلوا ذلك أساساً لقاعدة بنوا عليها الحكم بالزندقة وحلية إراقة الدماء، فقالوا: من طعن في الصحابة فقد طعن على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ومن طعن على رسول الله فهو زنديق.

وقالوا: إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب محمد فاعلم أنّه زنديق^(٧٤٥)، وجعلوا الخوض فيما جرى بين الصحابة وحرية الرأي في مناقشتهم هو انتقاص لهم .

فلندرس هذا الموضوع بدقّة، ورجاؤنا معقود على إيلاء هذه الدراسة جلّ عنايتها ، وإعطائها وجهة النظر بصورة خاصة، لأنّ اتّهام الشيعة بسبّ الصحابة، وتكفيرهم أمر عظيم ، ومعضلة شديدة اتخذها خصوم أهل البيت (عليهم السلام) وسيلة للقضاء على مبادئهم وانتشار مذهبهم ، عندما بان عجزهم عن اللّحوق بهم. وقد تدخل الدخلاء وأعداء الإسلام في اتساع شقّة الخلاف بين صفوف الأمة ليجدوا طريقهم لبثّ آرائهم الفاسدة، حتى أصبح من المقرر في تلك العصور تكفير الشيعة وإبعادهم عن ذلك المجتمع، كلّ ذلك مبعثه آراء السلطة وأغراضها التي قضت على الأمة بكبت الشعور، وكمّ الأفواه وسلب الأفراد حرية الرأي، لأنّ الجمود الفكري هو الذي يخدم مصالحهم ، عندما حاولوا ربط العقائد بالدولة وإناطة الآراء بما تراه السلطة لا غير ، وفرضوا ربط التعليم بهم، وضربوا سلطانهم على بعض العلماء ، ووجهوهم حيث شاءت إرادتهم ، إلى غير ذلك من المحاولات التي كانوا يقصدون

بها القضاء على أهل البيت ومعارضة مذهبهم، ولكن شاء الله أن تذهب تلك المحاولات أدراج الرياح ، ويبقى ذكر أهل البيت(عليهم السلام) على ممرّ الدهور والأعوام ، ولم تقف تلك الدعايات الكاذبة والتهمة المفتعلة أمام انتشاره، وإنّ اتهام الشيعة بسبّ الصحابة وتكفيرهم أمر عظيم حاول خصومهم فيه تشويه سمعتهم ، لأنّهم خصوم الدولة وأنصار أهل البيت ونحن لا نريد أن نرغم خصوم الشيعة على الاعتراف بالأخطاء التي ارتكبوها في تعبيرهم عنهم بعبارات التهجم التي تشمئز منها النفوس ، وتنفر منها الطباع .

ولا نريد منهم أن يغالطوا أنفسهم في مجاراتهم للأوضاع الحاضرة. ولا نريد منهم أن يتركوا الخطأ الذي وقفوا عليه في زاوية الإهمال، ولا إسدال الستر على العيوب التي عثروا عليها في المجتمع الشيعي، والنقص الذي لمسوه . ولكنّا نريد منهم أن لا يكذبوا أو يتقولوا . ونريد منهم أن يتحرّروا من تقليد أقوام أعمّتهم المادة وأخضعتهم السلطة، فحملتهم على الافتعال والأكاذيب.

ونريد منهم أن يصرّحوا لنا بلغة العلم والمنطق الصحيح عن الأمور التي استوجبت أن يرتكبوها من الشيعة ما ارتكبه ، وليحاسبوا أنفسهم قبل يوم الحساب ، إن أهملوا محاسبة الوجدان والضمير الحر .

ونريد منهم أن يصرّحوا لنا عن نقاط الضعف التي وقفوا عليها فيما تدّعيه الشيعة فأباحت لهم ذلك التهجم، وليقولوا بكلّ صراحة فإنّا نتقبل قول الحقّ، ولا يهمّ الشيعة أقوال أهل التهريج والهوس ، ولا يعابون بأقلام المستأجرين من قبل أعداء الإسلام الذين عظم عليهم انتشاره وأخضعهم بقوة برهانه، وأعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فالتجأوا إلى لغة الدسّ والخيانة.

ونريد منهم أن يتنبهوا رويداً إلى التباين بين ما يدّعون أو يفتعلونه على الشيعة وبين الواقع ، ونريد من الباحث أن يتحرى ببحثه الدقة والتحصيل وأن يتثبت قبل الحكم، وأن يعرف الخطر الذي ينجم من وراء ذلك، فقد بلغ الأمر إلى أشدّ ما يكون من الخطورة .

ومن المؤلم أن تروج هذه الدعايات المغرضة أو الأكذوبة الكبرى فتصبح من الأمور المسلّمة بها لا تحتاج الى نقاش ، والواقع أنّ اتّهام الشيعة كان سياسياً قائماً على مخالفة الواقع وإنكار الحقائق والجهل الفاضح .

نحن أمام مشكلة كبرى، وقف التاريخ أمامها ملجماً، واختفت الحقيقة فيها وراء ركام من الادّعاءات الكاذبة، والأقوال الفارغة فالتوت الطرق الموصلة إليها . كما أثّرت حولها زوابع من المشاكل والملابسات. ولم تعالج القضية بدراسة علمية ليبدو جوهر المسألة واضحاً وتظهر الحقيقة كما هي .

وعلى أيّ حال فقد تولّع كثير من المؤرخين بدمّ الشيعة، ونسبت أشياء إليهم بدون تثبت. فهم يكتبون بدون قيد وشرط، ويتقولون بدون وازع ديني أو حاجز وجداني، وقد اتّسعت صدور الشيعة لتحمل أقوالهم ، بل تقولاتهم كما اتسعت سلة المهملات لقبر شخصياتهم ، وترفعوا عن المقابلة بالمثل، وإنّ أهمّ تلك التّهم هي مسألة الصحابة وتكفيرهم - والعياذ بالله - مما أوجب أن يحكم عليهم بالكفر والخروج عن الإسلام كما يأتي بيانه.

قال السيد شرف الدين : «إنّ من وقف على رأينا في الصحابة علم أنّه أوسط الآراء إذ لم نفرط فيه تفريط الغلاة الذين كفّروهم جميعاً ، ولا أفرطنا إفراط الجمهور الذين وثّقوهم جميعاً ، فإنّ الكاملية ومن كان في الغلوّ على شاكلتهم قالوا: بكفر الصحابة كافة، وقال أهل السنة بعدالة كلّ فرد ممن سمع النبي أو رآه من المسلمين مطلقاً ، واحتجّوا بحديث «كلّ من دبّ أو درج منهم أجمعين أكتعين» (٧٤٦).

أما نحن فإنّ الصحبة بمجردّها وإن كانت عندنا فضيلة جليلة لكنّها بما هي من حيث هي غير عاصمة ، فالصحابة كغيرهم من الرجال ، فيهم العدول وهم عظماءهم وعلماءهم ، وفيهم البغاة وفيهم أهل الجرائم من المنافقين ، وفيهم مجهول الحال، فنحن نحتجّ بعدولهم ونتولاهم في الدنيا والآخرة . أمّا البغاة على الوصي وأخي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وسائر أهل الجرائم كابن هند. وابن النابغة، وابن الزرقاء ، وابن عقبة، وابن أرطاة ، وأمثالهم فلا كرامة لهم ولا وزن لحديثهم ، ومجهول الحال نتوقف فيه حتى نتبيّن أمره .

هذا رأينا في حملة الحديث من الصحابة والكتاب والسنة بنينا على هذا الرأي كما هو مفصّل في مظانه من أصول الفقه. لكن الجمهور بالغوا في تقديس كلّ من يسمّونه صحابياً حتى خرجوا عن الاعتدال ، فاحتجوا بالغث منهم والسمين ، واقتدوا بكلّ مسلم سمع من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أو رآه اقتداءً أعمى، وأنكروا على من يخالفهم في هذا الغلوّ، وخرجوا في الإنكار على كلّ حدّ من الحدود ، وما

أشدّ إنكارهم علينا حين يروننا نردّ حديث كثير من الصحابة مصرّحين بجرّحهم أو بكونهم مجهولي الحال، عملاً بالواجب الشرعي في تمحيص الحقائق الدينية والبحث عن الصحيح من الآثار النبوية.

وبهذا ظنّوا بنا الظنون فاتّهمونا بما اتهمونا رجماً بالغيب وتهافتاً على الجهل . ولو ثابت إليهم أحلامهم ورجعوا إلى قواعد العلم لعلّموا أنّ أصالة العدالة في الصحابة ممّا لا دليل عليها، ولو تدبّروا القرآن الحكيم لوجدوه مشحوناً بذكر المنافقين منهم . وحسبك منه سورة التوبة والأحزاب ...

مسألة الصحابة

وعلى أيّ حال فإنّ فروض المسألة ثلاثة :

الأوّل: إنّ الصحابة كلّهم عدول أجمعين ، وما صدر منهم يحتمل لهم، وهم مجتهدون . وهذا هو رأي الجمهور من السنة.

الثاني: إنّ الصحابة كغيرهم من الرجال وفيهم العدول ، وفيهم الفساق ، فهم يوزنون بأعمالهم ، فالمحسن يجازى لإحسانه ، والمسيء يؤخذ بإساءته . وهذا رأي الشيعة .

الثالث: إنّ جميع الصحابة كفار - والعياذ بالله - وهذا رأي الخارجين عن الإسلام ولا يقوله إلا كافر ، وليس من الإسلام في شيء .

هذه ثلاثة فروض للمسألة، وهنا لا بدّ أن نقف مليّاً لنفحص هذه الأقوال : أمّا القول الثالث فباطل بالإجماع ولم يقل به إلا أعداء الإسلام أو الدخلاء فيه. وأمّا القول الأوّل وهو أشبه شيء بادعاء العصمة للصحابة ، أو سقوط التكاليف عنهم ، وهذا شيء لا يقرّه الإسلام ، ولا تشمله تعاليمه .

بقي القول الوسط وهو ما تذهب إليه الشيعة، من اعتبار منازل الصحابة حسب الأعمال ، ودرجة الإيمان وذلك: إنّ الصحبة شاملة لكلّ من صحب النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أو رآه أو سمع حديثه، فهي تشمل المؤمن والمنافق ، والعاقل والفاقد، والبر والفاجر ، كما يدلّ عليه قول النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في غزوة تبوك عندما أخبره جبرئيل بما قاله المنافقون : إنّ محمداً يخبر بأخبار السماء ولا يعلم الطريق إلى الماء ، فشكا ذلك إلى سعد بن عبادة فقال له سعد: إنّ شئت ضربت أعناقهم .

قال(صلى الله عليه وآله وسلم) : «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ولكن نحسن صحبتهم ما أقاموا معنا» (٧٤٧).

فالصحبة إذن لم تكن بمجردها عاصمة تلبس صاحبها أبراد العدالة ، وإنما تختلف منازلهم وتتفاوت درجاتهم بالأعمال .

ولنا في كتاب الله وأحاديث رسوله(صلى الله عليه وآله وسلم) كفاية عن التمثل في الاستدلال على ما نقوله ، والآثار شاهدة على ما نذهب إليه، من شمول الصحبة وإنّ فيهم العدول من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ورسخت أقدامهم في العقيدة، وجرى الإيمان في عروقهم ، وأخلصوا لله فكانوا بأعلى درجة من الكمال، وقد وصفهم الله تعالى بقوله : (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْنَهُ فَأَزْرَهُ فَاسْتَعْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) (٧٤٨).

وهم المؤمنون : (الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) (٧٤٩).

وقد أمر الله تعالى باتباعهم والافتداء بهم بقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) (٧٥٠)، (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالْأَنْصَارُ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (٧٥١). هؤلاء هم أصحاب محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) ومن يستطع أن يقول فيهم مالا يرضي الله تعالى ويخالف قوله؟

شمول الصحبة ومميزاتها

كما أنّ الصحبة تشمل من مردوا على النفاق، والذين ابتغوا الفتنة من قبل وقلّبوا لرسول الله الأمور ، وأظهروا الغدر، حتى جاء الحقّ وظهر أمر الله وهم كارهون.

(٧٤٧) أنظر دلائل النبوة للبيهقي ج ٥ ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

(٧٤٨) الفتح : ٢٩ .

(٧٤٩) الحجرات : ١٥ .

(٧٥٠) التوبة: ١١٩ .

(٧٥١) التوبة : ١٠٠ .

وفيه من كان يؤذي رسول الله وقد وصفهم الله بقوله: (وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ) (٧٥٢)، (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا) (٧٥٣)، (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (٧٥٤).

وفيه المخادعون والذين يظهرون الإيمان، وقد وصفهم الله تعالى بقوله: (وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ* يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) (٧٥٥)، (وَإِذَا قَالُوا آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ) (٧٥٦). (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ آتِنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّا مِنَ الصَّالِحِينَ* فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ* فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) (٧٥٧).

والحاصل أن الصحبة منزلة عظيمة ، وفضيلة جلية، وهي بعمومها تشمل من امتحن الله قلبه للإيمان ، وأخلص لله، وجاهد وناصر ، ومن رقي درجة الكمال النفساني، فكان مثلاً لمكارم الأخلاق ، وهم يخشون الله ويمتثلون أوامره، كما وصفهم تعالى بقوله : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ* الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ* أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) (٧٥٨).

كما أنها لم تشمل من لم يدخل الإيمان قلبه : (يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ) (٧٥٩). ومن الحقيقة التي تتجلى بسهولة لكل من نزع عن عينيه التعصب وتمرد على تأثير الدعايات وإيحاءات الباطل، أن شروط الصحبة وصفات المؤمن التي نص عليها القرآن وخصائص القرب من الرسول الأعظم لم تكن تشمل كل أفراد عصر الرسالة، فإن المغالاة في التعميم تقوم على غرض لا يختلف في شيء عن الغرض الذي أعيا الحكام الظلمة تحقيقه، وهم يواجهون أهل البيت بمكانتهم وعظيم منزلتهم بين الناس باعتبار الأئمة منهم أهل الولاية الشرعية ونواب صاحب الرسالة والأوصياء المؤتمنين على أمور الدين والرعية، فكانت مسألة تقديس كل من ضمته تسمية الصحبة بعد توسيعها وتعميمها هي مضاهاة منزلة أهل البيت

(٧٥٢) التوبة : ٦١ .

(٧٥٣) الأحزاب: ٥٧ .

(٧٥٤) التوبة: ٦١ .

(٧٥٥) البقرة : ٨ - ٩ .

(٧٥٦) البقرة: ١٤ .

(٧٥٧) التوبة : ٧٥ - ٧٦ - ٧٧ .

(٧٥٨) الانفال : ٢ - ٤ .

(٧٥٩) الفتح : ١١ .

وعدم تمييزهم وإرغام الناس على عدم ذكر الحقائق والأحداث، إذ كانت العملية تنصّ على التقديس بغض النظر عن الأفعال، فكم شملت الصحبة أناساً مازال التاريخ يذكر ما اقترفوه، وما زالت أفعالهم مثلاً للظلم، وماذا نصنع بما نصّ عليه القرآن من ذكر المنافقين؟ وما أثبتته التاريخ من أفعال، كذلك فإنّ الجانب الآخر لعملية التقديس يتفق مع روح الحكام في تحجير الأفهام وتقييد حرية الفكر، إذ فرضت العملية تلقّي ما صدر عن الذين شملتهم عملية توسيع الصحبة بالقبول، وإنّ ما كان منهم ليس لأحد قدرة على أن يرقى إليه فهو في أعلى مستوى من الكمال، مهما كانت مؤاخذات الواقع، وناهيك بما في هذا من استهانة بنعمة العقل التي ركبها الله للإنسان، ثم كان ادعاء العصمة. ليت شعري ما هذه العصمة، أكانت في حياة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أم بعده؟ ! فإن كانت في حياته فما أكثر الشواهد على نفي ذلك:

أخرج البيهقي بسنده عن أبي عبد الله الأشعري عن أبي الدرداء قال، قلت : يارسول الله بلغني أنّك تقول : ليرتدنّ أقوام بعد إيمانهم . قال (صلى الله عليه وآله وسلم) أجل ولست منهم^(٧٦٠).

ومن الغريب أنّ البعض علّل ذلك بأنّ المراد من هؤلاء المرتدّين، هم الذين قتلوا عثمان ، وأنّ أبا الدرداء مات قبل قتل عثمان ، وبهذا التأويل يتوجّه الطعن على أكثر الصحابة ، فإنّهم اشتركوا بقتل عثمان ، والمتخلفون عن ذلك عدد لا يتجاوز أصابع الكف، وبمقتضى هذا التأويل يدخل في قائمة الحساب عدد كثير هو أضعاف ما في قائمة الشيعة من المؤاخذات . ومن الشواهد على نفي العدالة في زمان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) :

١ - كان رجل يكتب للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وقد قرأ البقرة وآل عمران ، فكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يملئ عليه غفوراً رحيماً فيكتب عليمّاً حكيمّاً، فيقول له النبي: أكتب كذا وكذا. فيقول: أكتب كيف شئت، ويملي عليه عليمّاً حكيمّاً فيكتب سميعاً بصيراً وقال: أنا أعلمكم بمحمد . فمات ذلك الرجل فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): الأرض لا تقبله. قال أنس: فحدثني أبو طلحة ، أنّه أتى الأرض التي مات فيها الرجل، فوجده منبوءاً فقال أبو طلحة: ما شأن هذا الرجل ؟ قالوا: دفناه مراراً فلم تقبله الأرض. قال ابن كثير: وهذا على شرط الشيخين ولم يخرجاه^(٧٦١).

(٧٦٠) تاريخ ابن كثير ج ٦ ص ١٧٠.

(٧٦١) تاريخ ابن كثير ج ٦ ص ١٧٠.

٢ - وهذا الوليد بن عقبة بن أبي معيط الذي سمّاه الله فاسقاً حينما أرسله النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) على صدقات بني المصطلق فعاد وأخبر النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أنهم خرجوا لقتاله فأراد أن يجهّز لهم جيشاً، فأنزل الله فيه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ...)(الآية(٧٦٢)). فقد كان في عداد الصحابة فأين العدالة من الفاسق؟! (٧٦٣)

٣ - وهذا الجد بن قيس أحد بني سلمة نزلت فيه : (وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِّي وَلَا تَقْبِئِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)(٧٦٤).

٤ - وهذا مسجد ضرار - وما أدراك ما مسجد ضرار؟! - قد بناه قوم، وسموا بالصحبة يتظاهرون فيه بأداء الصلاة في أوقات لا يسعهم الوصول إلى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، ولكن فضح الله سرهم وأبان أمرهم فهم منافقون .

وأنزل الله فيهم : (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)(٧٦٥) وكانوا اثني عشر رجلاً من المنافقين منهم خدام بن خالد بن عبيد، ومن داره أخرج المسجد، ومعتب بن قشير، وأبو حبيبة بن أبي الأزعر وغيرهم(٧٦٦).

٥ - وهذا ثعلبة بن حاطب بن عمر بن أمية ممن شهد بدرًا وأحدًا ، فقد منع زكاة ماله، فأنزل الله فيه : (وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ أَتَاَنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ* فَلَمَّا آتَاهُمْ مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ)(٧٦٧).

وكان ثعلبة هذا من الصحابة ملازماً لأداء الصلاة في أوقاتها، وكان فقيراً معدماً، فقال لرسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) : ادع الله لي أن يرزقني مالاً فقال(صلى الله عليه وآله وسلم) : ويحك يا ثعلبة قليل تشكره خير من كثير لا تطيقه، فقال ثعلبة: والذي بعثك في الحق نبياً لأن دعوت الله فرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه. فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) : اللهم ارزق ثعلبة مالاً، فزاد وفره وكثر ماله وامتنع من أداء زكاته فأعقبه نفاقاً إلى يوم يلقاه بما أخلف وعده وكان من الكاذبين.

٦ - وهذا ذو الندية كان في عداد الصحابة متنسكاً عابداً، وكان يعجبهم تعبده واجتهاده فأمر النبي بقتله وكان(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : إته لرجل في وجهه

(٧٦٢) الحجرات : ٦.

(٧٦٣) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢١٢.

(٧٦٤) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٢.

(٧٦٥) التوبة : ١٠٧.

(٧٦٦) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٤١ وتفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٨٨.

(٧٦٧) الاستيعاب بهامش الإصابة ج ١ ص ٢٠١.

لسفعة من الشيطان، وأرسل أبا بكر ليقتله فلما رآه يصلي رجع وأرسل عمر فلم يقتله ثم أرسل علياً (عليه السلام) فلم يدركه^(٧٦٨)، وهو الذي ترأس الخوارج وقتله عليّ (عليه السلام) يوم النهروان .

٧ - وهؤلاء قوم وسموا بالصحبة كانوا يجتمعون في بيت سويلم يثبّطون الناس عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فأمر من أحرق عليهم بيت سويلم^(٧٦٩) .

٨ - وهذا قزمان بن الحرث شهد أحداً وقاتل مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قتالاً شديداً، فقال أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ما أجزأ عنا أحد كما أجزأ عنا فلان فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : أما إنّه من أهل النار، ولما أصابته الجراحة وسقط ف قيل له: هنيئاً لك بالجنة يا أبا الغيداق. قال: جنة من حرمل والله ما قاتلنا إلا على الأحساب^(٧٧٠) .

٩ - وهذا الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس طريد رسول الله ولعينه وهو والد مروان وعمّ عثمان .

حدّث الفاكهي بسند عن الزهري وعطاء الخراساني أنّ أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) دخلوا عليه وهو يلعن الحكم فقالوا: يا رسول الله ما باله؟ فقال: دخل عليّ شق الجدار وأنا مع زوجتي فلانة.

ومرّ النبيّ بالحكم فجعل الحكم يغمز النبيّ بإصبعه، فالتفت فرآه فقال: اللهم اجعله وزعاً فرحف مكانه وكان يسمى خيط الباطل وقال (صلى الله عليه وآله وسلم) فيه: ويل لأمتي مما في صلب هذا^(٧٧١) .

ومن حديث عائشة أنّها قالت لمروان بن الحكم: أشهد أن رسول الله لعن أباك وأنت في صلبه^(٧٧٢) .

١٠ - وهذه أم المؤمنين عائشة لم يثبت لها (صلى الله عليه وآله وسلم) الإيمان كما حدّث كثير بن مرة عنها: إنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: أطعمينا يا عائشة قالت: ما عندنا شيء، فقال أبوبكر: إنّ المرأه المؤمنة لا تحلف؛ أنّه ليس عندها شيء وهو عندها. فقال النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم): ما يدريك أنّها مؤمنة؟ إنّ المرأة المؤمنة في النساء كالغراب الأبقع في الغريان^(٧٧٣) .

(٧٦٨) الإصابة ج ١ ص ٤٢٩ .

(٧٦٩) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٣٢ .

(٧٧٠) الإصابة ج ٣ ص ٢٣٥ .

(٧٧١) الإصابة ج ١ ص ٣٤٦ .

(٧٧٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٦ ص ١٥٠ .

(٧٧٣) علل الحديث لابن أبي حاتم ج ٦ ص ٤٣٩ .

وهذا إنكار من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على القطع بالعدالة والإيمان. ولو كان كما يدعى لقال مؤيداً لقول أبي بكر. نعم إنها مؤمنة وزوجة نبي ومن أهل الجنة، ولكنه (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يرض بذلك الاعتقاد وإنما الأمور منوطة بالعمل وحسن الخاتمة.

ويدل على ذلك أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) عاد كعباً في مرضه فقالت أم كعب: هنيئاً لك الجنة يا كعب، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): من هذه المتالية على الله عز وجل. قال كعب: هي أمي يا رسول الله. فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): وما يدريك يا أم كعب؟ لعل كعباً قال مالا يعنيه ومنع مالا يغنيه^(٧٧٤).

١١ - وأخرج النسائي في صحيحه عن ابن عباس في نزول قوله تعالى: (وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ)^(٧٧٥) أنه قال: كانت امرأة تصلي خلف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حسناء من أحسن الناس، وكان بعض القوم يتقدم لئلا يراها ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر، فإذا رجع نظر من تحت إبطه ليراها. فأنزل الله فيهم ذلك^(٧٧٦).

١٢ - وأخرج ابن حنبل من طريق ابن عباس وابن عمر أنهما سمعا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على منبره يقول: لينتهين أقوام عن ودعهم الجماعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكتمن من الغافلين^(٧٧٧).

١٣ - وأخرج أحمد في مسنده: عن عبد الله بن مسعود عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال لأصحابه: أنا فرطكم على الحوض ولأناز عن أقواماً ثم لأغلبن عليهم فأقول: ياربّي أصحابي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك^(٧٧٨). وأخرج عن ابن مسعود أيضاً بلفظ: وإني ممسك بحجورك إن تهافتوا في النار كتهافت الفراش^(٧٧٩).

وأخرج الترمذي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): ويؤخذ من أصحابي برجال ذات اليمين وذات الشمال فأقول: يا ربّي أصحابي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فإنهم لن يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم، فأقول كما قال العبد الصالح: إن تعذبهم فإنهم عبادك^(٧٨٠).

(٧٧٤) تاريخ بغداد ج ٤ ص ٢٧٣.

(٧٧٥) الحجر: ٢٤.

(٧٧٦) صحيح النسائي ج ٢ ص ٨٧ / ٨٧٠.

(٧٧٧) مسند أحمد ج ٥ ص ٤٠.

(٧٧٨) مسند أحمد ج ٥ ص ٢٣١.

(٧٧٩) مسند أحمد ج ٦ ص ٥١.

(٧٨٠) صحيح الترمذي ج ٢ ص ٦٧.

وأخرج مسلم من طريق عائشة بلفظ : إني على الحوض أنتظر من يرد علي منكم، فوالله لينقطعن رجال فلاقولن أي ربي... الحديث . وأخرج مثله من طريق أم سلمة^(٧٨١).

ولعل الاستمرار بذكر الشواهد - وما أكثرها - يوجب الإطالة ، والإطالة توجب الملل ، فهذا نكتفي بالقليل من البيان حول الشواهد على نفي العدالة المزعومة : «لكل من دبّ ودرج».

والحق أن الصحبة بما هي فضيلة جليلة لكنها غير عاصمة، فإن فيهم العدول والأولياء والصديقين ، وهم علماء الأمة وحملة الحديث ، وفيهم مجهول الحال وفيهم المنافقون وأهل الجرائم، كما أخبر تعالى بقوله: (وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَتَعْلَبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ)^(٧٨٢) وفيه من كان يؤدي رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)^(٧٨٣) فالى الله نبأ من هؤلاء وممن (اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ)^(٧٨٤) والذين (يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَآءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا* مُّذَبِّحِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَن يُضِلِلْ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا)^(٧٨٥).

والكتاب العزيز يعلن بصراحة عن وجود طائفة تستمع إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ولكن طبع الله على قلوبهم لأنهم اتبعوا الهوى، فقال تعالى : (وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)^(٧٨٦). كما أعلن تعالى لعن طائفة منهم وهم الذين في قلوبهم مرض والذين يفسدون في الأرض ويقطعون أرحامهم (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ* أَقْلًا يَنْدَرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَفْقَالٍهَا)^(٧٨٧).

أجل أين ذهب أولئك بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ؟ وقد جرّعه الغصص في حياته، ودرجوا الدباب ، فهل انقبلت حالهم بعد موته(صلى الله عليه وآله وسلم) من النفاق إلى الإيمان، ومن الفساد إلى الصلاح ، ومن الشك إلى اليقين؟ فأصبحوا في عداد ذوي العدالة من الصحابة الذين طبعت نفوسهم على التقى والورع وعفة

(٧٨١) صحيح مسلم ج ٤ ص ٦٥ - ٦٧.

(٧٨٢) التوبة : ١٠١ .

(٧٨٣) التوبة : ٦١ .

(٧٨٤) المجادلة : ١٦ .

(٧٨٥) النساء : ١٤٢ - ١٤٣ .

(٧٨٦) محمد : ١٦ .

(٧٨٧) محمد : ٢٣ - ٢٤ .

النفس والعلم والحلم والتضحية في سبيل الله، وهم الذين وصفهم الله تعالى بقوله : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصّٰدِقُونَ) (٧٨٨) .

فنحن لا نرتاب في ديننا ولا نخالف قول الحق في تمييز منازل الصحابة ودرجاتهم فنتبع الصادقين منهم، ونوالي من اتصف بتلك الصفات التي ذكرها الله ورسوله ، كما إننا لا نأتمن أهل الخيانة لله ورسوله ، ففي ذلك جناية على الدين وخيانة لأمانة الإسلام ولا نركن لمن ظلم منهم ، ولا نودّ من حاد الله ورسوله . هذا هو قول الحق. والحق أحقّ أن يتبع .
وقد اختلفوا في تعريف الصحابة ومن هو الصحابي الذي يطلق عليه هذا الاسم، وإليك بيان ذلك :

تعريف الصحابي ونقطة الخلاف

اختلفت الأقوال في حدّ الصحبة ومن هو الصحابي ؟ فقليل: من صحب النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أو رآه من المسلمين ، فهو من الصحابة. وإليه ذهب البخاري في صحيحه وسبقه إليه شيخه علي بن المديني وقال: من صحب النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أو رآه ولو ساعة من نهار فهو من أصحابه(٧٨٩). وهذا التعريف ينطبق على المرتدين في حياة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وبعده، وعلى كلّ راء له وإن لم يعقل، وهذا أمر لا يقرّه العقل والوجدان ، فإنّ الردّة محبّطة للعمل فلا مجال لبقاء سمة الصحبة، وقد ذهب أبو حنيفة إلى الإحباط(٧٩٠)، ونصّ عليه الشافعي في الأم(٧٩١).

وقال الزين العراقي: الصحابي من لقي النبي مسلماً ثم مات على الإسلام. وقال سعيد بن المسيب : من قام مع النبيّ سنة كاملة ، أو غزا معه غزوة واحدة(٧٩٢). وهذا القول لم يعملوا به لأنّه يخرج بعض الصحابة الذين لم تطل مدّتهم مع النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، ولم يغزوا معه . قال ابن حجر : والعلم على غير هذا

(٧٨٨) الحجرات : ١٥ .

(٧٨٩) أضواء على السنة المحمدية ص ٣٤١ .

(٧٩٠) شرح ألفية العراقي ج ٣ ص ٤ .

(٧٩١) كتاب الأم ج ٤ ص ٢١٥ - ٢١٦ ، شرح ألفية العراقي ج ٣ ص ٤ .

(٧٩٢) شرح ألفية العراقي ج ٣ ص ٨ .

القول^(٧٩٣). وحكى ابن الحاجب قولاً لعمر بن يحيى أنه يشترط في الصحابي طول الصحبة والأخذ عنه^(٧٩٤).

كما أنهم جعلوا من الصحابة من لم ير النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وهو مسلم أو له رؤية قصيرة.

ومهما تكن الأقوال والتعاريف فإنّ هذا الاسم يطلق على كلّ من سمع النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أو رآه من المسلمين مطلقاً، وهم كلّهم عدول عندهم وما صدر منهم يحتمل لهم بحجة أنهم مجتهدون.

وهذه هي النقطة الجوهرية التي وقع الاختلاف فيها، إذ الشيعة لا يذهبون لهذا القول فلا يثبتون العدالة إلا لمن اتصف بها، وكانت فيه تلك الملكة، وأصالة العدالة لكلّ صحابي لادليل عليه ، ولا يمكن إثباته .

فالشيعة تناقش أعمال ذوي الشذوذ منهم بحريّة فكر، وتزن كلّ واحد منهم بميزان عمله : فلا يوادّون من حادّ الله ورسوله ويتبرّؤون ممّن اتخذوا إيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله.

والشيعة لا يخالفون كتاب الله وسنة رسوله وعمل السلف الصالح في تمييز الصحابة، ومن هو مصداق هذا الاسم حقيقة... فيكون عمله بحسب قوله، وقوله بحسب إيمانه ويجعل بينه وبين شعائر الجاهلية وأحلاف المشركين حاجزاً ويلوذ بأقياء شهادة لا إله إلا الله، محمد رسول الله، ويتبرّأ ممّا يسيء الى عقيدته أو يمسّ إيمانه لا يلغي الشيعة قوانين الطبيعة البشرية القاضية بتفاوت مدارك الناس واختلاف قابليتهم.

ومن هذا فتحت على الشيعة باب الاتهامات الكاذبة، والتي لفقها خصومهم، ولو كان هناك صباية إنصاف، ومسكة من عقل، وقليل من تتبع وإعطاء الفكر حرّيته؛ لما وقعت تلك الملاحظات ، وحلّت تلك المشاكل.

ومن الغريب أن تتهم الشيعة بسبّ الصحابة والطعن عليهم أجمع ، وبذرة التشيع نشأت في مجتمع الصحابة، ومنهم أبطال التشيع وحاملو دعوته، وهم الذين عرفوا بالولاء لعليّ(عليه السلام) وناصروه في حربه لمن بغى عليه ، وهم خيار الأئمة ، وسيأتي ذكر بعضهم في الأجزاء القادمة، كما أنّ من الغريب أن يطالبوا بمخالفة مقاييس الإيمان والسلوك، ولكن الشيعة يأبون إلا حفظ شرف الصحبه وعدم

(٧٩٣) المواهب شرح الزرقاني ص ٨ - ٢٦.

(٧٩٤) شرح ألفية العراقي ج ٤ ص ٣٢.

الإساءة الى مقام الحظوة عند النبي والإخلاص له والتمسك بهداه، وإذا طرح علماء السوء أردية التعصب والعداء لتبين لهم أنّ الشيعة مثال ما قادت إليه عقول الكثير الكثير من رجال السنة، كابن عيينة الذي قال: نظرت في أمر الصحابة وأمر ابن المبارك فما رأيت لهم عليه فضلاً إلا بصحبتهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وغزاهم معه^(٧٩٥). والشيعة تتحرى التقوى والاستقامة على أمر محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

موالاة الشيعة للصحابة

والشيعة يوالون أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الذين أبلوا البلاء الحسن في نصرة الدين، وجاهدوا بأنفسهم وأموالهم. وإنّ الدعاء الذي تردده الشيعة لأصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فهو دليل قاطع على حسن الولاء وإخلاص المودة.

نعم إنّ الشيعة ليدعون الله لأتباع الرسل عامة ولأصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) خاصة بما ورثوه من أئمتهم الطاهرين، ومن أشهر الأدعية هو دعاء الإمام زين العابدين (عليه السلام) في صحيفته المعروفة بزبور آل محمد الذي يقول فيه: اللهم وأتباع الرسل ومصدقوهم من أهل الأرض بالغيب عند معارضة المعاندين لهم بالكذب والاشتياق إلى المرسلين بحقائق الإيمان في كلّ دهر وزمان، أرسلت فيه رسولا، وأقمت لأهله دليلاً، من لدن آدم إلى محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، من أئمة الهدى وقادة أهل التقى على جميعهم السلام فاذكرهم منك بمغفرة ورضوان.

اللهم وأصحاب محمد خاصة، الذين أحسنوا الصحابة، والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره، وكاتفوه وأسرعوا إلى وفادته، وسابقوا إلى دعوته، واستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالاته، وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته، وقتلوا الأبناء والأبناء في تثبيت نبوته، وانتصروا به... والذين هجرتهم العشائر إذ تعلّقوا بعروته، وانتفت منهم القربات إذ سكنوا في ظلّ قرابته، فلا تنس لهم، اللهم ما تركوا لك وفيك، وأرضهم من رضوانك وبما حاشوا الخلق عليك، وكانوا مع رسولك دعاءً لك إليك، واشكرهم على هجرهم فيك ديار قومهم وخروجهم من سعة المعاش إلى ضيقه...^(٧٩٦)

هؤلاء هم أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الذين تعظمهم شيعة آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، ويدّعون بموالاتهم ويأخذون تعاليم الإسلام فيما صحّ وروده عنهم. ولكن التلاعب السياسي واحتدام النزاع بين الطوائف خلق كثيراً من المشاكل في

(٧٩٥) صفوة الصفوة لابن الجوزي ج ٤ ص ١١٢.

(٧٩٦) الصحيفة السجادية ص ٤٣ - ٤٤.

عصور قامت بها فئات لإثارة الفتن حباً للسيطرة وطمعاً في النفوذ من باب فرق تسد .

وصفوة القول أنّ عصور التلاعب بالمبادئ والتطاحن حول بغية ذوي الأطماع قد ولّت، ونحن في عصرنا الحاضر عصر انطلاق الفكر من عقاله والتقدّم والرقي، أصبح لنا أن نستمر على ضرب وتر العصبية؟ ونطرب لنغمات النزعة الطائفية، ونكرع بكأس الشذوذ عن الواقع ، ونهمل ما يجب علينا من مكافحة خصوم الإسلام وأعدائه، فقد وجّهوا إلينا سيلاً جارفاً من الآراء الهدامة والمبادئ الفاسدة.

أليس من الذوق السليم الترفع عن التعبير بتلك العبارات التي اتخذها ضعفاء العقول ، وأهل الجمود الفكري عندما يكتبون عن الشيعة فينبزونهم بكلّ عظيمة ، أليس من الحقّ أن يتبيّنوا من صحة ما يقولون ؟ وإنّ اتهام الشيعة بسبب الصحابة وتكفيرهم أجمع إنّما هو اتهام بالباطل ورجم بالغيب ، وخضوع للعصبية وتسليم لنزعة الطائفية ، وجري وراء الأوهام والأباطيل .

الصحابة في حدود الكتاب والسنة

وهل تجاوزت الشيعة في نقد أعمال بعض الصحابة حدود الكتاب والسنة؟ إذ وجدوا في أعمالهم مخالفة ظاهرة، لا يمكن لها التأويل والتسامح ، لأنّ عموم الصحبة لا يمنحهم سلطة التصرف بالأحكام، ولا تسوغ لهم مخالفة تلك الحدود ، وإنّ الاجتهاد في مقابلة النص هو في الحقيقة طرح للأحكام ، ونبذ للقرآن وراء الظهور ، وإنّ كثيراً منهم حديثو عهد في الإسلام ، قد ألفت نفوسهم أشياء وطبعت عليها، ومن الصعب عليها أن تتحلل منها بسرعة .

وليس من الإنصاف أن يكونوا هؤلاء بمنزلة أهل السبق، ومن رسخ الإيمان في قلوبهم فنشروا الإسلام وحملوا ألوية العدل، ونشروا العقيدة الإسلامية ، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم عن نيّة صادقة، وهاجروا عن إيمان خالص .

وقد قال النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) : «إنّما الأعمال بالنيات ، وإنّما لكلّ امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»(٧٩٧).

وسأله ناس من أصحابه فقالوا: يا رسول الله! أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ فقال(صلى الله عليه وآله وسلم): «أما من أحسن منكم في الإسلام فلا يؤاخذ به ، ومن أساء أخذ في الجاهلية

والإسلام»^(٧٩٨). وعن صهيب مرفوعاً : « ما آمن بالقرآن من استحلّ محارمه»^(٧٩٩). وعنه(صلى الله عليه وآله وسلم)بلفظ: «من أحسن في الإسلام لم يؤخذ بما عمل في الجاهلية ومن أساء في الإسلام أخذ في الأول والآخر»^(٨٠٠).

وعن ابن عمر قال: **صعد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) المنبر فنادى بصوت رفيع فقال:** «يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه! لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم . من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله»^(٨٠١).

وهكذا يتّضح لنا على ضوء الأحاديث النبوية وآي القرآن الكريم مساواة الناس وشمول الأحكام لهم، وأنّ ثبوت العدالة بالعمل لا أثر لها بدونه، والصحابة هم أولى بتنفيذها ، والقول في اجتهادهم مطلقاً يحتاج إلى مشقّة في الإثبات ، والنتيجة عقيمة لا تثمر كثير فائدة، والتأويل في مقابلة النص معناه طرح للأحكام. فلا يصحّ أن يتأولوها على خلاف ظاهرها ثم يستبيحوا لأنفسهم مخالفة الظاهر منها، بل الأحكام شرعة واحدة بين الناس لتشملهم عدالتها . فلا مجال لأحد عن الخضوع لها وتطبيقها .

ولنا في سياسة الإمام عليّ بن أبي طالب وسيرته في عصر الخلفاء وفي عصره لأكبر دليل على ما نقول؛ فقد كان يقيم الحدّ على من تعدّى حدود الله، ويعامل كلّ واحد بما يقتضيه عمله ، وبقدر منزلته عند الله تعظم منزلته عنده، وكم كان يدعو على أولئك الذين وسموا بالصحبة وخالفوا كتاب الله وسنة رسوله ونصبوا له الحرب . وقد أعلن(عليه السلام) البراءة منهم بل أعلن سبّ بعضهم على منبره، لأنّهم خالفوا كتاب الله وسنة نبيه(صلى الله عليه وآله وسلم).

ومن وقف على عهوده(عليه السلام) لعماله ووصاياه لأمراء جيشه ورسائله لولاة أمره؛ يعرف هناك عدم الالتزام بما ألزموا الأمة به من القيود التي فرضتها ظروف خاصة، وهو القول بعدالة الصحابي وإن ارتكب ما حرّم الله .

والتحدّث عن سيرة عليّ لا يتسع له مجال هذا الموضوع الذي خضناه بهذه العجالة، والغرض أنّ أصحاب محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) لا بدّ أن يلتزموا باجتناب ما حرّم الله تعالى ويهتدوا بهدي رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم يفتحوا المجال

(٧٩٨) صحيح مسلم ج ١ ص ٧٧ .

(٧٩٩) صحيح الترمذي ج ٢ ص ١٥١ .

(٨٠٠) صحيح مسلم ج ١ ص ٧٧ .

(٨٠١) صحيح الترمذي ج ١ ص ٣٦٥ .

لمتأول في مقابلة النص، وللإجتهاد شروط ، ولعلّ في قصة قدامة أكبر دليل على ذلك.

قدامة بن مضعون

قدامة بن مضعون بن حبيب المتوفى سنة (٣٦ هـ) كان من السابقين الأولين وهاجر الهجرتين، واستعمله عمر بن الخطاب على البحرين ، فقدم الجارود سيد عبد القيس على عمر بن الخطاب من البحرين وشهد على قدامة أنّه شرب الخمر فسكر ، فقال: من يشهد معك، فقال الجارود : أبو هريرة ، فقال عمر لأبي هريرة ، بم تشهد؟ قال: لم أره شرب، ولكن رأيته سكران يقيء . فقال عمر : لقد تنطعت في الشهادة، ثم كتب إلى قدامة أن يقدم عليه من البحرين فقدم ، فقال الجارود: أقم على هذا حدّ الله. فقال عمر: أخصم أنت أم شهيد ؟ فقال : شهيد. فقال : قد أديت شهادتك. ثم غدا الجارود على عمر فقال: أقم على هذا حدّ الله، فقال عمر : ما أراك إلا خصماً وما شهد معك إلا رجل واحد، فقال الجارود : أنشدك الله. فقال عمر: لتمسكن لسانك أو لأسوأئك . فقال: يا عمر ما ذلك بالحق أن يشرب ابن عمك الخمر وتسوأي ، فقال أبو هريرة: يا أمير المؤمنين، إن كنت تشكّ في شهادتنا؛ فأرسل إلى ابنة الوليد فاسألها - وهي امرأة قدامة - فأرسل عمر إلى هند بنت الوليد ينشدها، فأقامت الشهادة على زوجها . فقال عمر لقدامة: إني حادّك ، فقال قدامة: لو شربت كما تقول ما كان لكم ان تحدوني. فقال عمر : لم ؟ قال قدامة : قال الله عزّ وجلّ: (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ...) (٨٠٢) فقال عمر: أخطأت التأويل أنت إذا اتقيت الله اجتنبت ما حرّم الله ، ثم أقبل عمر على الناس فقال : ما ترون في جلد قدامة؟ فقالوا: لا نرى أن تجلده ما دام مريضاً. فسكت على ذلك أياماً ثم أصبح وقد عزم على جلده ، فقال: ما ترون في جلد قدامة؟ فقالوا: لا نرى أن تجلده مادام وجعاً. فقال عمر: لأن يلقي الله تحت السياط أحبّ إليّ من أن ألقاه وهو في عنقي، إئتوني بسوط تام. فأمر به فجلد (٨٠٣).

هذه قصة قدامة وإقامة الحدّ عليه وتأويله فيما ارتكبه، ولم نوردها لنحط من كرامته أو نطعن عليه في دينه ، فله شرف الهجرة والسبق، ولكنّا ذكرناها ليبيّن

(٨٠٢) المائدة: ٩٣.

(٨٠٣) الإصابة ج ٣ ص ٢٢٨ .

لنا عدم صحة ما يقولون بعدم مؤاخذه المتأول وإن خالف الإجماع، وما هو معلوم بالضرورة كقضية أبي الغادية وقتله لعمار بن ياسر مع اعترافه بأن ما ارتكبه جريمة توجب دخول النار .

وهناك جماعة من الصحابة تأوّلوا فأخطأوا فلم يدرأ تأويلهم الحدّ لوقوعه في الخطأ. منهم: أبو جندل وضرار بن الخطاب وأبو الأزور، فقد وجدهم أبو عبيدة قد شربوا الخمر فأنكر عليهم فقال أبو جندل: (ليس على الذين آمنوا جناح فيما طعموا...) (٨٠٤) ولم ينفعهم ذلك وأقام عليهم الحدّ (٨٠٥). فأين العدالة من إقامة الحد؟ وكان عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب قد شرب الخمر بمصر فأقام الحدّ عليه عمرو بن العاص (٨٠٦) إلى كثير من ذلك.

سياسة عمر تجاه بعض الصحابة

وهذا عمر بن الخطاب لم يثبت العدالة لأبي هريرة عندما استعمله على البحرين فقدم بعشرة آلاف فقال له عمر: استأثرت بهذه الأموال يا عدوّ الله وعدوّ كتابه ، فقال أبو هريرة: لست بعدو الله ولا عدو كتابه ولكن عدو من عاداهما . فقال عمر: من أين هي لك؟ قال: خيل نتجت، وغلة ورقيق لي وأعطية تتابعت (٨٠٧).

وفي لفظ ابن عبد ربه أنّ عمر دعا أبا هريرة فقال له: علمت أنّي استعملتك على البحرين وأنت بلا نعلين ، ثم بلغني أنّك ابتعت أفراساً بألف دينار وستمائة دينار. قال: كانت لنا أفراس تناتجت وعطايا تلاحقت، قال عمر: قد حسبت لك رزقك ومؤونتك وهذا فضل فأده ، قال أبو هريرة: ليس لك ذلك. قال: بلى والله أوجع ظهرك، ثم قام إليه بالدرة فضربه حتى أدماه ، ثم قال: إئت بها. قال: أحسببتها عند الله. قال : ذلك لو أخذتها من حلال وأديتها طائعاً، أجئت من أقصى البحرين تجبي الناس لك لا لله ولا للمسلمين ؟ ما رجعت بك أميمة إلا لرعية الحمر، وأميمة أم أبي هريرة (٨٠٨).

(٨٠٤) المائدة: ٩٣.

(٨٠٥) تاريخ دمشق ج ٢٥ ص ٣٠٣ / ٣٠٣٠.

(٨٠٦) أسد الغابة ج ٣ ص ٤٧٣ / ٣٣٦٥.

(٨٠٧) تاريخ ابن كثير ج ٨ ص ١١٣ .

(٨٠٨) العقد الفريد ج ١ ص ٢٦.

هكذا رأينا عمر يقابل أبا هريرة بشدة ويتهمه بخيانة أموال المسلمين . وينسبه لعداء الله وعداء كتابه ولا يصدق قوله ولا يصدق كتابه . ولو كان أبو هريرة عادلاً في نظر عمر لصدق قوله. ولقال : أنت عادل أو مجتهد مخطئ ، وكذلك موقف عمر مع خالد بن الوليد في جنايته الكبرى مع مالك بن نويرة. ويحدثنا البلاذري: أن أبا المختار يزيد بن قيس رفع إلى عمر بن الخطاب كلمة يشكو بها عمال الأهواز وغيرهم يقول فيها:

أبلغ أمير المؤمنين رسالة *** فأنت أمين الله في النهي والأمر
وأنت أمين الله فينا ومن يكن *** أميناً لرب العرش يسلم له صدري
فأرسل إلى الحجاج فاعرف حسابه *** وأرسل إلى جزء وأرسل إلى بشر
ولا تنسين النافعين كليهما *** ولا ابن غلاب من سراة بني نصر^(٨٠٩)
إلى آخر الرسالة وذكر فيها جماعة من عماله الذين استأثروا بالأموال وجلبهم من الصحابة فعاقبهم عمر واتهمهم بالخيانة، والخيانة لا تجتمع مع العدالة. ولا نطيل الحديث حول قاعدة أصالة العدالة لكلّ صحابي أو تأويل الأخطاء لهم على وجه يلزم السكوت عليه .

ما ذلك إلا تحدّ لنواميس الدين ومقدّسات الشريعة، ومجادلة بالباطل لحفظ كرامة معاوية وحزبه : (ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً)^(٨١٠).

رواية الصحابي

وواضح ممّا تقدّم أنّ الشيعة لا يذهبون إلى عدالة كلّ من وسم بالصحبة، وتحقيقها لا يكون إلا بالعمل الذي يصحّ أن يتصف الراوي بشروط العدالة المقررة، وأصالة العدالة في حقّ الصحابة لا أصل له وإثبات ذلك يحتاج إلى مشقة، والنتيجة عقيمة لا تثبت أيّ ثمرة هناك.

أمّا السّنة فقد أثبتوا العدالة لكلّ صحابي واستدلّوا بأدلة ذكرت في محلّها، ومع ذلك فقد اختلفوا، فذهب طائفة إلى عدالة الصحابة أجمع بدون استثناء، وآخرون ذهبوا إلى عدالة من لم يلبس الفتنة - أي من حين مقتل عثمان - وذهبت المعتزلة

(٨٠٩) فتوح البلدان ص ٣٧٧.

(٨١٠) النساء : ١٠٩.

إلى فسق من قاتل علياً (عليه السلام) منهم، وحكى ابن الصلاح إجماع الأمة على تعديل من لم يلبس الفتنة. وحكى الآمدي وابن الحاجب قولاً أنهم كغيرهم في لزوم البحث عن عدالتهم إلى غير ذلك من الأقوال^(٨١١).

أما الشيعة فلا يذهبون لعدالة الجميع كما تقدّم. فهم يتثبتون في قبول الرواية فلا يروون إلا عن ثقة، ولهم شروط مقررّة في محلّها، إذ الحديث هو دستور الإسلام، ومنهاج حياة المسلمين الدينية والاجتماعية، لذلك اجتهد المسلمون في دراسته من حيث السند والدلالة.

وقد سمعنا وسمع كلّ أحد تلك التقولات على الشيعة: بأنهم يردون أحاديث الصحابة ولا يأخذون عنهم، وهذا طعن على أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم). وقد ذكر بعضهم أنّ الشيعة لا يعتمدون على شريعة المسلمين؛ لأنهم يردون أخبار الصحابة، إلى غير ذلك من الأقوال بل التقولات.

وواضح أنّ مقتضى تلك الأقوال تهدف لشيء خلاف الواقع؛ اتباعاً لظروف قضت على الأمة بذلك، وليت شعري أمن الإنصاف والواقع أن تؤاخذ الشيعة في التثبت عند قبول الرواية، وهل جاءوا بشيء نكراً إذا لم يقبلوا رواية من اتّضحت حاله لسوء عمله ومجاراة هواه؟ بل تُردّ أقوالهم وعدم الاعتماد على رواياتهم ولا كرامة. هذا من جهة. ومن جهة أخرى أنّ هناك أموراً تقتضي الوقوف عن قبول كثير من الأحاديث من حيث السند والدلالة، فإنّ هناك سيلاً جارفاً يسبق إلى الذهن إنكاره، ويقضي العقل السليم برده.

وعلى أيّ حال فإنّ رواية الصحابي وقبولها عند الشيعة لم يكن كما يذهب إليه غيرهم من عدم الاعتماد عليها مطلقاً.

وليس من الحقّ أن يقال لمن احتاط لدينه وتثبت في أخذ أحكامه أنّه طعن على أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

فإذا أردنا أن نتثبت في قبول رواية أبي هريرة مثلاً ونقف أمام أحاديثه موقف التثبت لاستجلاء الواقع وظهور الحقيقة، يقال هذا طعن على الصحابة.

أليس من الحقّ أن نقف موقف الإنكار على كثرة أحاديثه الهائلة ونتساءل عن اختصاصه بمنزلة لم تكن لأحد من الصحابة قط، وهو حديث عهد في الإسلام. فإنّه أسلم بعد خيبر في السنة السابعة، وذهب إلى البحرين مع العلاء في السنة الثامنة،

وبقي فيها إلى أن توفي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فتكون صحبته أقلّ من سنتين . فكيف يختصّ بما لم يختص به من هو أسبق إسلاماً، وأكثر ملازمة منه للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأفرغ بالاً لقبول ما يسمع؟

فقد كان أبو هريرة مشغولاً بسدّ رمقه، ويصرع من الجوع مرة بعد أخرى، وكان يتعرّض للناس يسألهم عن مسائل، وما كان يقصد إلا أن يتعطفوا عليه بشيء يسدّ رمقه ، لماذا كانت هذه الكثرة الهائلة عند أبي هريرة دون غيره من أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ؟ ! فقد كانت كثرة أحاديثه تبعث على الاستنكار والتساؤل ، فقد روى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) (٥٣٧٤) حديثاً^(٨١٢)، وقد أنكر الصحابة عليه ذلك وكذبوه ، وكان يعتذر بأن غيره من الصحابة تشغلهم التجارة^(٨١٣).

روى الأعرج عن أبي هريرة أنّه قال: إنكم تقولون ما بال المهاجرين لا يتحدثون عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بهذه الأحاديث؟ وإنّ أصحابي من المهاجرين كانت تشغلهم صفقاتهم في الأسواق ، وإنّ أصحابي من الأنصار كانت تشغلهم أراضيتهم والقيام عليها، وإنّي كنت امرأ معتكفاً أكثر من مجالسة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا غابوا وأحفظ إذا نسوا^(٨١٤).

وهذا الاعتذار لا يمكن قبوله إذ لم يقبله أصحاب النبي، وقد أنكرت عليه عائشة وابن عمر، ونهاه عمر بن الخطاب عن الحديث.

إنّ أبا هريرة يدّعي أنّه كان معتكفاً لا يشغله شيء عن حفظ الحديث، لأنّه من أهل الصفة، وبالإعراض عن شغله بسدّ رمقه وكثرة صرعه من الجوع، كما يحدث هو عن نفسه، فإنّا نسائله عن اختصاصه بذلك ولمّ لم يشاركه المعتكفون معه وهم أسبق وأقدم إسلاماً؟ فلم تكن لهم هذه الخصوصية. وإليك انموذجاً عن حديث أهل الصفة. بذكر البعض منهم :

حديث أهل الصفة

حجاج بن عمر المازني الأنصاري شهد صفين مع عليّ (عليه السلام)، له في الصحاح حديث واحد. حازم بن حرمة الأسلمي له حديث واحد رواه ابن ماجه عن مولاه أبي زينب. زيد بن الخطاب العدوي قتل يوم اليمامة له حديث واحد يرويه عنه ابن عمر . سفينة مولى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) له أربعة عشر حديثاً

(٨١٢) راجع في ذلك: مع الدكتور ناصر القفاري «السنة ورواياتها» ص ٣٢٣ .

(٨١٣) المصدر السابق ص ٣٣٣ .

(٨١٤) الفتوحات الوهية ص ١٣٦ .

انفرد له مسلم بحديث واحد. شقران مولى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، له عند الترمذي حديث واحد. طنخفة - بكسر أوله وإسكان المعجمة - ابن قيس الغفاري مختلف في اسمه، له حديث واحد أخرجه أصحاب الصحاح . عبد الله بن أنيس أبو يحيى المتوفى سنة (٨٠ هـ) بالشام له أربع وعشرون حديثاً انفرد له مسلم بحديث واحد. عبد الله بن الحرث بن جزع - بفتح الجيم - الزبيدي المتوفى سنة (٨٠ هـ) بمصر، وهو آخر من مات بها من الصحابة، له أحاديث قليلة خرجها أبو داود والترمذي وابن ماجه. عبد الله بن قرط الثمالي المتوفى سنة (٥٦ هـ) له عند أبي داود النسائي حديث واحد، ولعله حديث المعراج. عقبة بن عامر الجهني المتوفى سنة (٥٨ هـ) له خمسة وخمسون حديثاً، انفرد البخاري بواحد ومسلم بتسعة ، وهو ممن حضر صفين مع معاوية. عمر بن تغلب العبدي له حديثان رواهما عنه البخاري. عمر بن عنبسة السلمي له ثمانية وأربعون حديثاً انفرد مسلم بحديث واحد . عتبة بن عبد السلمي المتوفى سنة (٨٧ هـ) له ثمانية وعشرون حديثاً . عتبة بن الندر - بضم النون وفتح الدال المشددة - له حديثان عند ابن ماجه. عياض بن حماد المجاشعي البصري له ثلاثون حديثاً انفرد له مسلم بحديث واحد. فضالة بن عبيد الأنصاري المتوفى سنة (٥٣ هـ) شهد أحداً وبيعة الرضوان، له خمسون حديثاً انفرد له مسلم بحديثين . فرات بن حيان العجلي له عند أبي داود حديث واحد. وهو الذي كان عيناً لأبي سفيان وحليفه، فأمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بقتله، فمّر على حلقة من الأنصار وقال : إني مسلم. فقال رجل منهم : يارسول الله يقول : إني مسلم ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : «إن منكم رجالاً نكلهم إلى إيمانهم منهم الفرّات بن حيان». السائب ابن خلاد بن سويد بن ثعلبة بن عمر الخزرجي المتوفى سنة (٧١ هـ)، له خمسة أحاديث ، وغير هؤلاء من أهل الصفة^(٨١٥).

حديث أبي هريرة

فهؤلاء كانوا يشاركون أبا هريرة فيما ادّعاه من تلك الخصوصية التي امتاز بها على جميع أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وقد ضرب الرقم القياسي في الكثرة وهو في الدرجة الأولى من الصحابة في ذلك، مع أنّه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وقد اعتذر عن ذلك بقوله كما أخرجه أحمد في مسنده: حضرت يوماً من رسول

(٨١٥) أسد الغابة ج ٢ ص ٣٩١ / ١٩٠٩، راجع: أسماء الصحابة الرواة ص ٣١٠ - ٣١١، رقم ٤٧٢.

اللّٰه (صلى الله عليه وآله وسلم) مجلساً فقال: من بسط رداءه حتى أقضي مقالتي ثم يقبضه إليه فلن ينسى شيئاً سمعه مني، فبسطت بردة عليّ حتى قضى مقالته ثم قبضتها إليّ فوالذي نفسي بيده ما نسيت شيئاً سمعته منه^(٨١٦).

ولنا أن نسأله عن إعراض من كان في المجلس عن هذه المكرمة ، ولأيّ شيء لم يتسابقوا لهذه الفضيلة؟ أكانوا يشكّون بما قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، حاشا وكلا، أم أنهم لم يملكوا رداءً يبسطونه كما بسط أبو هريرة رداءه! فهل يصحّ لنا أن نتساءل عن ذلك، أم لا يسوغ ونرجع إلى العصور الماضية فنسكت خوفاً من الوقوع في الزندقة وليس وراءها إلا السيف والنطع ؟

كما حدّث الخطيب البغدادي: ذكر عند الرشيد حديث أبي هريرة: أن موسى لقي آدم فقال: أنت آدم الذي أخرجتنا من الجنة؟ فقال رجل من قريش : أين لقي آدم موسى ؟ فغضب الرشيد وقال : النطع والسيف زنديق يطعن في حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)^(٨١٧).

ومن هذا نعرف شدّة الأمر وخطر الموقف ، فهذا رجل يسأل عن المكان الذي لقي موسى آدم ليتضح له أمر لعله كان يجهله فلقي ما لقي وطبقت عليه مادة الفناء وهي الاتهام بالزندقة ، لأنّه يستفسر عن غموض حصل له في حديث أبي هريرة ، فأدّت الحالة أن اتهم بالطعن على حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .

فكيف إذا أراد الاستفسار عن حديث أبي هريرة الذي أخرجه مسلم والبخاري : إنّ جهنم لا تمتلئ حتى يضع الله رجله فتقول قط قط. الحديث^(٨١٨). إذاً لا يصحّ للمسلم الذي ينزه الله تعالى عن تلك الصفة أن يسأل، لأنّ في السؤال وتنزيه الله طعناً على أبي هريرة ، والطعن على أبي هريرة طعن على النبيّ.

وكيف إذا أراد أن يستفسر عن المحلّ الذي ينزل إليه الله جل وعلا في سماء الدنيا حين يبقى الثلث الأخير من الليل ، فقد روى ذلك أبو هريرة كما أخرجه الشيخان^(٨١٩). إلى غير ذلك من أحاديثه التي يطول الحديث بالتحدّث عنها^(٨٢٠).

(٨١٦) تاريخ ابن كثير ج ٨ ص ١٠٥ .

(٨١٧) تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٧.

(٨١٨) وأخرجه أحمد في ج ٣ ص ٣١٤ .

(٨١٩) أخرجه البخاري في باب الدعاء، ومسلم في باب الترغيب في الدعاء.

(٨٢٠) وقد جمع قسماً منها سيدنا الحجة شرف الدين في كتابه (أبو هريرة) وأعطى صورة صادقة عنه ببحث علمي يتركز على حرية الفكر، فكان موضع عناية المفكرين، ونال القبول لما فيه من إظهار للحقائق الضائعة.

وغيرنا من هذا العرض أنّ أحاديث أبي هريرة تحوط بها أشواك من التشكيك لحصول تلك الكثرة الهائلة، ولأنّه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وهو حديث عهد في الاسلام ، وأقل الصحابة صحبة لرسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ، فهو يحدث عن وقائع لم يحضرها ، ومشاهد لم يشهدها إجماعاً .

فمن ذلك ما حدّث به عن سهو النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في الصلاة وهو منزّه عن ذلك.

قال أبو هريرة: صلى بنا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) الظهر أو العصر فسلم في ركعتين، فقال له ذو اليمين : أنقصت الصلاة أم نسيت؟ ! وفي لفظ كما أخرجه مسلم: بينا أنا أصلي مع رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ... الحديث .

مما يدل على حضوره الواقعة، ومما لا شك فيه أنّ إسلام أبي هريرة كان بعد خبير سنة (٧ هـ) ، و وفاة ذو اليمين في بدر في السنة الثانية. وقد حاولوا التوجيه لذلك ولم يتوجه جواب شاف كما يقول ابن عابدين^(٨٢١).

ويحدّث عن رقية بنت رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه دخل عليها وسألها عن فضيلة لعثمان .

ورقية ماتت قبل إسلام أبي هريرة في السنة الثالثة من الهجرة. كما أنّه لم يكن حاضراً في المدينة ويحدث عن أشياء يدّعي أنّه اشترك بها كقوله : كنت مع عليّ(عليه السلام) حينما بعثه النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ببراءة^(٨٢٢) .

ومرة يقول: كنت مع أبي بكر، مع أنّ التاريخ يشهد بأنّه لم يكن حاضراً في المدينة ، لأنّه كان مؤذناً في البحرين .

نسوق هذا من باب المثال للتناقض الذي حصل في روايات أبي هريرة . ونحن إذ نتثبت ونرد الرواية التي ليس لها نصيب من الصحة، فإنّ ذلك ممّا يوجب الإسلام ويقرّه العقل .

وعلى أيّ حال فأبو هريرة هو في الدرجة الأولى من المكثرين^(٨٢٣). فالوقوف عند تلك الكثرة للتثبت لا يوجب طعناً في حديث رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وذلك لا يستوجب أن يقال إنّ الشيعة لا يعتمدون على أحاديث الصحابة .

(٨٢١) حاشية ابن عابدين على الدر المختار ص ١ - ٦٤٣ .

(٨٢٢) السنن الكبرى للنسائي ج ٢ ص ٤٠٧ .

(٨٢٣) راجع في ذلك كتاب: مع الدكتور ناصر القفاري: السّنة وروايتها ص ٣٢٣ .

* * *

ولا نريد هنا أن نتحدث عن حديث عبد الله بن عمر واختصاصه بما لا يكون لأحد من الصحابة ، فهو في الدرجة الثانية بعد أبي هريرة ، فقد روى (٢٦٣٠) حديثاً^(٨٢٤)، وهذا لم يكن عند من هو أكبر منه سناً وأشد منه ملازمة، فقد كان حدث السن، لأن عمره يوم توفي النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) لم يتجاوز العشرين سنة ، فهذه الكثرة تبعث على الاستغراب ، كما أن هناك أموراً لا تسيع لنا قبول كثير من رواياته، والتوقف في ذلك لا يدعو إلى الطعن في الصحابة. ولا نريد أن نعتذر عن رد أحاديثه عند التثبت لمعرفة حاله؛ فإضارة عمله كافية لكشف الحقيقة. فلنطو صحيفة البحث عن ذلك طلباً للاختصار هنا ونتركه لمحل آخر.

أما أم المؤمنين عائشة فلا نريد أن نساير موكب حياتها من البداية إلى النهاية، فاستقصاء البحث يقصينا عن الموضوع^(٨٢٥) . ولكنا نريد أن نتحدث عن حديثها بصورة موجزة، فإن لشخصيتها مكانة في المجتمع وأثراً في التشريع الإسلامي، وقد اختصت دون سائر أزواج النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بكثرة الرواية عنه(صلى الله عليه وآله وسلم) بما لا نسبة له بين مجموع رواياتهن ورواياتها، وإليك مايلي:

حديث أمهات المؤمنين^(٨٢٦)

زينب بنت جحش المتوفاة سنة (٢٠ هـ)، لها (١٩) حديثاً. صفية بنت حيي ابن أخطب المتوفاة سنة (٥٠ هـ) اتفق مسلم والبخاري على حديث واحد. سودة بنت زمعة المتوفاة في خلافة عمر، انفرد البخاري لها بحديث . هند بنت أمية المخزومية وهي آخر أزواج النبي وفاءً، لها (٣٧٨) حديثاً. حفصة بنت عمر بن الخطاب المتوفاة سنة (٤١ هـ) لها (٦٠) حديثاً. جويرية بنت الحرث المتوفاة سنة (٥٦ هـ) لها أحاديث انفرد لها البخاري بحديثين. رملة بنت أبي سفيان المتوفاة سنة (٤٤ هـ) لها (٦٥) حديثاً . ميمونة بنت الحرث الهلالية المتوفاة سنة (٥١ هـ) لها (٤٠) حديثاً. عائشة بنت أبي بكر الصديق المتوفاة سنة (٥٧ هـ) لها (٢٢١٠) أحاديث، فارتفاع هذا الرقم وحصول تلك الطفرة في الكثرة يستوجب

(٨٢٤) راجع: أسماء الصحابة الرواة ص ٣٨، رقم ٢.

(٨٢٥) ذكرنا أطوار حياتها ومنزلتها في التشريع الإسلامي في كتابنا (عائشة والتشريع الإسلامي) مخطوط.

(٨٢٦) راجع في ذلك: أسماء الصحابة الرواة ص ٣٩، رقم ٤ .

التريث والتثبت وعدم الإسراع في قبول ذلك ، ولا حرج على المفكر لو أعطى النظر حريته مع حصول أشياء تؤيد هذا التفكير من شغلها وشواغلها ، وصغر سنها ولعبها باللعب ومنادمة صويحباتها^(٨٢٧) والقيام بخدمة البيت إلى كثير من ذلك .

فالوقوف هنا لاستجلاء الحقيقة لا يوجب الطعن على أمهات المؤمنين ليستوجب الكفر والخروج عن الدين على أن هناك شيئاً يدعو إلى التثبت وهو أمر رواة أحاديثها ، فإنهم اتخذوا الرواية عنها سبباً للتقرب إلى بني أمية، وقد طعن على هشام بن عروة وغيره. ممن تقربوا للأمويين بوضع الأحاديث عن عائشة خدمة لمصالحهم.

ولا نطيل نقاشنا للأحاديث الواردة عنها التي فيها من الدخل الشائن لروح الإسلام والمنافية لمقام النبي الأعظم ، كما يروي البخاري عنها في الأدب المفرد، أنها قالت: كنت أكل حيساً مع النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) فمرّ عمر فدعاه فأكل فأصابته يده إصبعي فقال عمر: خس لو أطاع فيكن ما رأته عينا^(٨٢٨) .

أليس في ذلك حظ لمقام النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ونقصه ؟ وهو الإنسان الكامل والمثل الأعلى لمكارم الأخلاق، أكانت داره أطروقة للذاهب والجاني؟! أم كان يأكل هو وزوجته على قارعة الطرق؟ أم أن عمر كان لا يحترم النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) فيدخل عليه دخول عابر سبيل؟ كلّ هذا نسكت عنه لا خوفاً من القول بأنه طعن على ما يروى عن عائشة، والطعن عليه خروج عن ملة المسلمين، كما يقولون ! ولكن ضيق المجال يحول دون بسط القول في ذلك.

أليس لنا حقّ التثبت بما يروى عن عائشة أن رجلاً سأل رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) عن الرجل يجمع أهله ثم يكسل هل عليهما الغسل؟ وعائشة جالسة، فقال(صلى الله عليه وآله وسلم): إني لأفعل ذلك أنا وهذه ثم نغتسل^(٨٢٩) .

كيف يصح هذا ورسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) مثال الغيرة ومجمع الفضائل والإنسان الكامل؟ فالعقل يمتنع عن قبوله احتراماً لمقام الرسول الأعظم(صلى الله عليه وآله وسلم) ، لذاته وخلته الشخصية، فما بالك إذا كان رسول الله وأمينه على وحيه وخير خلقه؟ وليكن من وراء عدم قبول ذلك اتهام بالكفر ورمي بالزندقة.

(٨٢٧) البخاري في الأدب المفرد ص ٥٤ .

(٨٢٨) الأدب المفرد ص ١٥٢ .

(٨٢٩) البخاري ج ١ ص ١٦١ وصحيح مسلم ج ١ ص ١٨٧ ، وسنن البيهقي ج ١ ص ١٦٤ .

كما يحقّ لنا أن نناقش ما يرويه مسلم في صحيحه عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة : إنّ النبي كان مسحوراً يخيّل إليه أنّه يفعل الشيء وما يفعله^(٨٣٠). فسل صحيح مسلم عن صحّة ذلك، وسل عروة وابنه إن كنت رجلاً لاتخاف الاتهام بالزندقة ، وإلاّ فاترك مسؤولية البحث لمن لا يتقيد بالأوهام ولا يخضع لسلطان العاطفة العمياء، ولا يبالي بتوجيه التهم ما دمنّا محافظين على كرامة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ، وإن طعنّا بألف صحابي وصحابي وكذبنا ألف صحيح وصحيح، حاشا للنبي الأعظم ومنقذ الإنسانية وهو الإنسان الكامل في كلّ صفاته، وهو المثل الأعلى لكلّ مكرمة، كيف يعتريه النقص ويخيّل إليه أنّه يفعل الشيء ولا يفعله ؟ ! ليت شعري أيتّم نظام العالم وهو مصلحه مع اتصافه بهذه الصفة؟ كلا إنّه: (ما ينطق عن الهوى* إن هو إلاّ وحيّ يوحى)(٨٣١).

فلنترك مناقشة كثير من الأحاديث، ولا نمضي في هذا الموضوع بأكثر ممّا ذكرناه، ونكتفي بذكر ما دعت الحاجة إلى عرضه بدون استقصاء في البحث ولا تتبع شامل لنقاط الموضوع ، وغرضنا من ذلك إعطاء صورة عن تلك الاتهامات التي وجّهت للشيعه بأنهم لا يأخذون برواية الصحابة . نعم الشيعة لا يأخذون إلاّ عن الصادقين في القول ، ويتشدّدون في قبول الرواية أكثر من غيرهم .

تهمة سبّ الصحابة

إنّ تهمة سبّ الصحابة قد استأصل داؤها فعزّ علاجه، ونفذ حكمها فعظم نقضه ، وسرت تلك الدعاية في مجتمع تسوده عاطفة عمياء وعصبية هوجاء. وقد وقفت الحقيقة أمام ذلك الوضع المؤلم مكتوفة اليد، وأسدت دونها أبراد التمويه ، وأحيطت بأنواع الحواجز وأقيمت في طريق الوصول إليها آلاف من العقبات وسلاح القوة فوق ذلك، إذ السلطة قرّرت نظام انطباق الكفر والزندقة على المعارضين لسياستها ، ولم يمكنها تحقيقه إلاّ باتّهام سبّ الصحابة أو أبي بكر وعمر بصورة خاصة.

وإذا حاول المفكّرون أن يقفوا على حقيقة الأمر والواقع أخذوا بتلك التهمة وشملهم ذلك النظام الجائر.

(٨٣٠) صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٤ .

(٨٣١) النجم : ٣ - ٤ .

فكانت الحكومة إذا أرادت أن تعاقب شيعياً لمذهبه لم تذكر اسم عليّ بل يجعل سبب العقوبة أنّه شتم أبا بكر وعمر. قاله في المنتظم ، وقال ابن الأثير في حوادث سنة (٤٠٧ هـ): وفي هذه السنة قتلت الشيعة في جميع بلاد أفريقيا وجعل سبب ذلك اتهامهم بسبب الشيخين^(٨٣٢).

وما أكثر تلك الفظائع السود والأعمال الوحشية التي وقعت طبقاً لنظام السياسة ولا علاقة لها بنظام الإسلام الذي يقضي على مرتكبها بالخروج منه. وإنّ المسألة مكشوفة لا تحتاج إلى مزيد بيان لشرح الأسباب التي أدّت إلى حدوث تلك الحوادث المؤلمة ، وارتكاب تلك الجرائم الفادحة ، ومعاملة شيعة أهل البيت بتلك المعاملة القاسية .

وليس هناك من شك بأنّ استقلال الشيعة الروحي وعدم اعترافهم بشرعية سلطان لا يحترم نوااميس الدين، ولا يلتزم بأوامر الشرع جعلهم خصوماً للسلطة . فكانت مشكلة التشيع من أعظم المشاكل التي تواجهها الدولة .

فلقيت الشيعة بسبب خصومتها للدولة ومعارضتها لحكام الجور انتكاسات في سبيل نشر الدعوة، كما لقيت انتصارات إذ لم تكن تلك الانتكاسات لتعود بهم القهقري، أو تلقى بهم في نطاق الفشل الضيق، واليأس من المضي في سبيل إظهار عقيدتهم ، فقد كان لهم من الحيوية ورسوخ العقيدة ما ساعدهم على المضي في استرجاع مكانتهم في التاريخ ، لحمل رسالة يلزمهم أدائها ويجب عليهم مواصلة الكفاح لتحقيقها تلك هي رسالة الإسلام ، تحت ظلال دعوة أهل البيت(عليهم السلام).

فكان لهم الأثر العظيم في نشر الوعي الإسلامي وإطلاق الفكر من عقال الجمود . وعلى أيّ حال فإنّ أعداءهم لم يجدوا حلاً لهذه المشكلة إلّا بأنّ يلصقوا بهم تهماً يتلقاها المجتمع بالقبول ، فتوسعوا في التهم واتخذوا مرتزقة لتحقيق ذلك الغرض، فقالوا: إنّ الشيعة تكفر جميع أصحاب محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) ويطعنون عليهم، وبذلك يتوجه الطعن على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وأنّهم يرمون أمّهات المؤمنين وغير ذلك.

ووضعوا قاعدة قررها علماء السوء وهي : إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) فاعلم أنّه زنديق، وذلك أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) حقّ والقرآن حق ، وإلّا أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول

اللّٰه (صلى الله عليه وآله وسلم)، وإثما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة والجرح بهم أولى وهم زنادقة^(٨٣٣).

وحكموا على من اتهم بسبّ الشيخين بالكفر، فلا يغسل ولا يصلى عليه، ولا تنفعه شهادة أن لا إله إلا الله، ويدفع بالخشب حتى يوارى في حفرة^(٨٣٤). وإنه إذا تاب لا تقبل توبته بل يجب قتله^(٨٣٥). وقال بعضهم بحرمة ذبيحته وحرمة تزويجه^(٨٣٦). ومن هذا وذاك سرت فكرة كفر الشيعة، لأن الدولة قضت بنظامها القضاء عليهم، وأن يسندوا ذلك إلى الشرع - وحاشاه من ذلك - ولكن السياسة عمياء، والحق لا قيمة له عند علماء السوء الذين اندفعوا لموازرة السلطة وإغواء العامة.

ومن الغريب أن بعض أولئك المرتزقة احتاط لدينه واستشكل في تنفيذ ذلك النظام المخالف للشرع، فجاء بحكم جديد فأفتى بوجوب قتل من سبّ الصحابة سياسياً لدفع فسادهم وشرهم، وإن كانوا لا يجوزونه شرعاً للحديث الشريف: لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه^(٨٣٧) خرّجه جميع الحفاظ وصحّوه.. هكذا أفتى هذا المأجور.

وكم حكمت السياسة على نصوص الشريعة ونسخت أحكامها المقررة، لأن السياسة اقتضت ذلك، وعلماء السوء قد فتحوا باب الارتزاق بالدين وأعمتهم المادة واستغواهم شيطان اللذة وحبّ التمتع بالحياة، فلم يقفوا عند حدود الله، وحكموا بغير ما أنزل الله.

وطغاً طوفان الافتعالات وتلاطمت أمواج الأكاذيب على الله ورسوله من أولئك القوم الذين ساروا على غير هدى. ولم يستمعوا لمرشد ولم يقفوا عند حدّ، بل الأمر منوط لرأي السلطة كيف شاءت.

(٨٣٣) الكفاية للخطيب البغدادي ص ٤٩.

(٨٣٤) الصارم المسلول ص ٥٧٥.

(٨٣٥) رسائل ابن عابدين ج ١ ص ٣٦٤.

(٨٣٦) انظر النصب والنواصب ص ٨١.

(٨٣٧) رسائل ابن عابدين ج ١ ص ٣٦٧.

ونودّ هنا أن نشير لنبذة من بحث للإمام كاشف الغطاء حول ذكر الفروق الجوهرية بين الطائفتين^(٨٣٨) :

قال(رحمه الله) - بعد ذكر الاختلاف في الخلافة - : نعم ونريد أن نكون أشد صراحة من ذلك ، ولا نبقي ما لعله يعتلج أو يختلج في نفس القراء فنقول : لعلّ قائلًا يقول: إنّ سبب العداء بين الطائفتين أنّ الشيعة ترى جواز المس من كرامة الخلفاء أو الطعن فيهم ، وقد يتجاوز البعض إلى السبّ والقبح ممّا يسيء الفريق الآخر طبعاً ويهيج عواطفهم فيشتدّ العداء والخصومة بينهم .

والجواب أنّ هذا لو تبصرنا به قليلاً ورجعنا إلى حكم العقل بل والشرع أيضاً لم نجده مقتضياً للعداء أيضاً .

أما أولاً: فليس هذا من رأي جميع الشيعة وإنّما هو رأي فردي من بعضهم ، وربّما لا يوافق عليه الأكثر، كيف وفي أخبار أئمة الشيعة النهي عن ذلك. فلا يصحّ معاداة الشيعة أجمع لإساءات بعض المتطرفين منهم.

وثانياً : إنّ هذا على فرضه لا يكون موجباً للكفر والخروج عن الإسلام ، بل أقصى ما هناك أن يكون معصية وما أكثر العصاة في الطائفتين . ومعصية المسلمين لا تستوجب قطع رابطة الأخوة الإسلامية معه قطعاً .

وثالثاً : قد لا يدخل هذا في المعصية أيضاً ولا يوجب فسقاً إذا كان ناشئاً عن اجتهاد واعتقاد وإن كان خطأ ، فإنّ من المتسالم عليه عند الجميع في باب الاجتهاد أنّ للمخطئ أجراً وللمصيب أجرين ، وقد صحح علماء السنة الحروب التي وقعت بين الصحابة في الصدر الأوّل ، كحرب الجمل وصفين وغيرهما، بأنّ طلحة والزبير ومعاوية اجتهدوا وإن أخطأوا في اجتهادهم ، ولكن لا يقدح ذلك في عدالتهم وعظيم مكانتهم ، وإذا كان الاجتهاد يبرر ولا يستنكر قتل الآف النفوس وإراقة دمائهم فبالأولى أن يبرر ولا يستنكر معه (أي مع الاجتهاد) تجاوز بعض المتطرفين على تلك المقامات المحترمة، إلى آخر البحث .

وليس في وسعنا نقل كلمات علماء الشيعة حول هذه النقطة المهمة التي لها أثرها العظيم في تكدير صفو الأخوة الإسلامية ، فأصبحت طريقاً لأعداء الدين يدخلون فيه لأغراضهم .

(٨٣٨) أنظر هذا البحث القيم الذي نشرته مجلة رسالة الإسلام تحت عنوان (بيان للمسلمين) ص ٢٢٧ - ٢٢٨ السنة الثانية العدد الثالث .

نهاية البحث

نهاية البحث

إن فكرة اتهام الشيعة بسبّ الصحابة وتكفيرهم كوّنتها السياسة الغاشمة، وتعاهد تركيزها أناس مرتزقة باعوا ضمائرهم بثمن بخس وتمرّغوا على أعتاب الظلمة ، يتقرّبون إليهم بذمّ الشيعة ، وقد استغل أعداء الدين هذه الفرصة فوسّعوا دائرة الانشقاق لينالوا أغراضهم ، ويشفوا صدورهم من الإسلام وأهله ، وراح المهرجون يتحمّسون لإثارة الفتن وإيقاد نار البغضاء بين المسلمين بدون تدبّر وتثبّت ، وقد ملئت قلوبهم غيظاً .

وبفعل السياسة وتحكّمها أصبحت الشيعة وهي ترمى بكلّ عزيمة وتهاجم بهجمات عنيفة ، واندفع ذوو الأطماع يعرضون ولاءهم للدولة في تأييد ذلك النظام والاعتراف به، وأتته قد أصبح جزءاً من حياة الأمة العقلية وهم يخادعون أنفسهم . ولم يفتحوا باب النقاش العلميّ وحرّموا الناس حرّية القول ، وأرغموهم على الاعتراف بكفر الشيعة والإبتعاد عن مذهب أهل البيت(عليهم السلام)، ولو سألهم سائل عن الحقيقة وطلب منهم أن يوضّحوا لهم ذلك ، فليس له جواب إلاّ شمول ذلك النظام له ، ونحن نسألهم :

- ١ - أين هذه الأمة التي تكفر جميع الصحابة ويتبرّأون منهم ؟
- ٢ - أين هذه الأمة التي تدّعي لأئمة أهل البيت(عليهم السلام) منزلة الربوبية؟
- ٣ - أين هذه الأمة التي أخذت تعاليمها من المجوس فمزجتها في عقائدها؟
- ٤ - أين هذه الأمة التي حرّفت القرآن وادّعت نقصه ؟
- ٥ - أين هذه الأمة التي ابتدعت مذاهب خارجة عن الإسلام ؟

إنهم لا يستطيعون الجواب على ذلك، لأنّ الدولة قرّرت هذه الاتهامات فلا يمكنهم مخالفتها. ولا يمكن إقناعهم بلغة العلم، وما أقرب الطريق إلى معرفة الحقيقة لو كان هناك صباغة من تفكير وبقايا من حبّ الاستطلاع وخوف من الله وحماية للدين!

أليس التشييع مبدأ يشمل عدداً وافراً من أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وهم من البدرين وأهل بيعة الرضوان؟ ممّن والى علياً (عليه السلام) ويرى أحقيته بالخلافة. أليس من الشيعة علماء اعترف الكلّ بعلوّ منزلتهم وغزارة علمهم، واحتاج الناس إليهم، وهم من شيوخ كبار العلماء ورجال الصحاح كأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد، والبخاري وغيرهم، وقد خرّج أصحاب الصحاح لعدد وافر من رجال الشيعة، يربو عددهم على ثلاثمائة رجل؟ ولا يسع المقام لنشر أسمائهم فنتركهم لفرصة أخرى^(٨٣٩).

أليس من الشيعة رجال حملوا رسالة الإسلام وتحملوا المصاعب في أدائها ومنهم حملة فقه لولاهم لضاع الفقه وذهبت تعاليم الإسلام؟ وإن للشيعة يداً في المحافظة على التراث الإسلامي وصيانتها عن تلاعب السياسة.

التثبت قبل الحكم

لم نسهب في بيان الموضوع عبثاً واستطراداً، ولم نقصد به خوض بحث لا علاقة له بموضوع الكتاب، بل الواقع أنّ هذا الموضوع من أهمّ المواضيع التي يجب أن نتطرّق إليها في هذا الكتاب الذي أقدمنا عليه لبيان مذهب أهل البيت (عليهم السلام).

فمّا لا شك فيه أنّ أهمّ مشكلة تقف أمام الباحث هي مسألة اتّهام الشيعة بسبب الصحابة أو تكفيرهم، وقد بيّنا مراراً أنّ ذلك يعود إلى عوامل سياسية لا صلة لها بالواقع، لأنّ اسم الشيعة ارتبط بآل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وهم أنصارهم وآل محمد هم الشجى المعارض في حلق أولئك الحكام الذين استبدّوا بالحكم وجاروا على الأمة، فكان من دواعي السياسة أن تطبع في قلوب الناس طابع البغض للجانب الذي ينافسهم ويعارضهم، أو من لا يؤازرهم، وهو يقف موقف المعارضة لأعمالهم.

وهل من شكّ في معارضة الشيعة وعدم مؤازرتهم الدولة، وإنهم لا يعترفون بشرعيّتها في تلك العصور؟ لأنهم لا يتنازلون عن الاعتقاد بأحقّية أهل البيت للخلافة، لما طبعوا عليه من صفاء النفس والتضحية في سبيل المصلحة العامة،

(٨٣٩) ذكر منهم سيدنا شرف الدين في كتاب المراجعات مائة رجل. وذكر العلامة الأميني في كتاب الغدير في ج ٣، عدداً وافراً منهم، وبأبيدنا قائمة تقارب ثلاثمائة رجل قد اعتمد رجال الصحاح عليهم.

وهم أولى الناس بالأمر وأعدلهم بالحكم، لذلك نرى أن تشريع نظام الحكم على من اتهم بسب الصحابة يهدف إلى عقاب الشيعة فقط . أما غيرهم فلا يشملهم هذا الحكم ولو كان ملحقاً كما مرّ بيانه.

وقد تسرّع المخدوعون بالظواهر إلى الاعتراف به ، وقاموا بتنفيذه ، فحكموا على الشيعة بالفسق مرّةً وبالكفر أخرى ، وليتهم حدّوا لذلك حدّاً حتى يعرف الناس كيفية المؤاخذه ، ولكّثهم وسعوا الدائرة واختلفت الصور، كما وأنّهم قرروا عدم قبول توبة المتّهم بسبّ الصحابة أو الشيخين بصورة خاصة، وقرروا انطباق الآراء الفردية على مجموع الأمة، من دون تثبّت في الحكم وتورع في الموضوع . ولهذا فإنّ المرتزقة من العلماء - الذين أصبحوا مصدراً للفتوى وحكاماً للسلطة التشريعية - قد أخذوا على عاتقهم مسؤولية إغواء العامة وحملهم على خلاف الحقّ، فكانوا دعاة فرقة وأئمّة ضلال ، فحكموا على الشيعة بالأخصّ من دون بيان لمستند الحكم ودليل للفتوى بأنّ قتالهم - أي الشيعة - جهاد أكبر، ومن قتل في حربهم فهو شهيد . ويقول في خاتمة الفتوى : ومن شكّ في كفرهم - أي الشيعة - كان كافراً . وآخر يقول كما في الخلاصة : الرفض إذا كان يسبّ الشيخين ويلعنهما ، فهو كافر ، وإن كان يفضّل عليّاً عليهما، فهو مبتدع^(٨٤٠).

وهكذا زيّنوا للناس حبّ الواقعة بعضهم ببعض، وأباحوا قتل المسلم بيد أخيه المسلم بدون تثبّت في الحكم ووقوف أمام حرمة ذلك ، وليس غرضهم إلا إرضاء السلطة وإن غضب الله عليهم .

ولا حاجة بنا إلى نقل عبارات تعبر عن عقلية قائلها ومقدار إدراكهم للواقع، فلا تطيل الوقوف على تلك الخرافات والأباطيل ، فلنسدل الستار عنها، ولا بدّ لنا أن نلاحظ نقطتين :

الأولى : هل الطعن على مجموع الصحابة موجب لهذه الأحكام القاسية، أم أن هناك فرقاً وتمييزاً ؟ فإن كان هذا الحكم على كلّ من طعن صحابياً أو وصفه بصفة لا تليق به، فلماذا لم يحكموا على من طعن على عدد كثير من الصحابة ووصفهم بما لا يليق بهم؟ وهم من كبار الصحابة وأعيانهم ، لأنّهم أنكروا على عثمان أوضاع بني أبيه الشاذة ومسايرته لهم ، أو خالفوا معاوية ابن أبي سفيان .

أليس من الطعن والتنقيص وصفهم للصحابة : بأنهم أجلاف أخلاط من الناس؟ لا شك أنهم مفسدون في الأرض بغاة على الإمام^(٨٤١).

ويقول ابن تيمية: بأنهم خوارج مفسدون في الأرض - إلى أن يقول - : ولم يقتله - أي عثمان - إلا طائفة قليلة باغية ظالمة. وأما الساعون في قتله فكلهم مخطئون بل ظالمون باغون معتدون^(٨٤٢).

ويقول ابن حجر في وصف المعترضين عليه: إن المجتهد لا يعترض عليه في الأمور الاجتهادية، لكن أولئك الملاعين المعترضين لا فهم لهم ولا عقل^(٨٤٣).

وقد قرروا في بحث العدالة أن الصحابة عدول إلى وقوع الفتن. أما بعد ذلك فلا بد من البحث عن ليس ظاهر العدالة ، هذا هو أحد الأقوال^(٨٤٤).

ولا نريد التعرض لجميع الأقوال التي وصفوا بها الصحابة الذين اشتركوا في معارضة عثمان، وحرّضوا الناس عليه .

ولا نريد التعرض لجميع الأقوال التي وصفوا بها الصحابة الذين اشتركوا في معارضة عثمان، وحرّضوا الناس عليه، ولكننا نورد بعضاً من الرأي المعاصر في هذه القضية ونأخذ قول رفيق بك العظم إذ يقول: «... فإن أولئك الثائرين على عماله (عثمان) الناقمين منه مهما كان الدافع لهم الى ذلك العمل فإن غايتهم التي يقصدون إليها بحسب الظاهر هي العدل بين الناس بعدم الاستئثار بمصالح ومنافع الأمة».

ويستطرد فيقول: «.. فوقوف الناس على أخبارهم (الصحابة) والأخذ والرد فيما حدث بينهم يحيي في القلوب روح الحرية ويبعث على استظهار عامة الناس للحجة التي يصادمون بها الآن الاستبداد من الخلفاء والملوك الذين حولوا الخلافة الى الملك العضوض وأمعنوا في التمكن من رقاب المسلمين، ولهذا ولما كثر خوض الناس في أخبار الصحابة أرادوا إلهاءهم عنها بحجة حرمة الخوض فيها، فأوعزوا الى الوضّاع والقصاصين بوضع أخبار المغازي وقصة عنتره وأشباهها في أعصر مختلفة لا تعلم بالتحقيق^(٨٤٥).

(٨٤١) تاريخ ابن كثير ج ١ ص ١٧٦.

(٨٤٢) منهاج السنة ج ٣ ص ١٩١ - ٢٠٦ .

(٨٤٣) الصواعق المحرقة لابن حجر ص ٦٨.

(٨٤٤) شرح ألفية العراقي ج ٤ ص ٣٦.

(٨٤٥) أنظر عثمان، لمحمد رضا ص ٢١٤ - ٢١٥ .

وكان من السهل على الأستاذ رفيق بك أن يعلم أعصر وأزمان حركات الوضع والقصص التي لجأ إليها من ذكرهم من المتسلطين والتي انصبّت على الإساءة إلى رموز العدل وأهل الإيمان الى جانب الأخبار والمغازي.

الثانية: إنّ الشيعة لا تتكتم في بغض من عادي علياً ، فإنّ مبغض عليّ منافق بنص الحديث الشريف : «يا عليّ لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق»^(٨٤٦).

وإنّ المنافقين لفي الدرك الأسفل من النار . وقد ثبت أنّ بعض من وسموا بالصحبة كانوا يبغضون علياً (عليه السلام) ويسبّونه . وقد اشتهر ذلك عنهم :

فألله يشهد إنا لا نحبههم *** لله لا نخشي في ذاك من غضبا^(٨٤٧)

وبدون شك أنّ معاوية وحزبه كانت تتجلى بهم صفة البغض لعليّ وأهل البيت أجمع ، وقد قابلوه بالعداء وأعلنوا الحرب عليه .

كما أعلن معاوية شتم عليّ وجعله سُنّة ، وتتبع أنصاره من الصحابة والتابعين ، فأذاقهم أنواع الأذى والمحن، وجرّعهم الغصص وقتلهم تحت كلّ حجر ومدر بما لا حاجة إلى بيانه.

على أنّ أعماله لا يمكن السكوت عنها، ولا طريق إلى حملها على وجه صحيح . وليس من الإنصاف أن يقال: إنّ معاوية مجتهد متأول ، وقد عطل الحدود، وأبطل الشهود، وقتل النفس المحرّمة، وسبى نساء المسلمين، وعرضهن في الأسواق ، فيكشف عن سوقهن، فأيتهن كانت أعظم ساقاً اشترت على عظم ساقها^(٨٤٨)، إلى كثير من تلك الفظائع والفجائع.

وهذا أبو الغادية الجهني ، كان من الصحابة ، وممّن سمع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وروى عنه ، وهو أحد رواة حديث: «يا عمار تقتلك الفئة الباغية»^(٨٤٩). وهو الذي قتل عمار بن ياسر رضوان الله عليه، وقد أنكر الناس عليه ارتكابه لهذه الجريمة ، واعترف هو على نفسه بأنّه من أهل النار ، وكان يقول : والله لو أنّ عماراً قتله أهل الارض لدخلوا النار^(٨٥٠).

(٨٤٦) الرياض النضرة ج ٢ ص ١٦٣ .

(٨٤٧) أسد الغابة ج ٥ ص ٢٦٧ .

(٨٤٨) الاستيعاب ج ١ ص ١٥٧ ، الإصابة ج ٤ ص ١٥١ .

(٨٤٩) الإصابة ج ١ ص ١٥١ .

(٨٥٠) أسد الغابة ج ٥ ص ٢٦٧ .

فكيف يتّهم بالخروج عن الدين من تبرأ من هذا المجرم الذي اعترف على نفسه بأنه عدوّ الله ، ولكن بعض المحدثين تأولوا له ذلك ، وأنه مجتهد أخطأ ويلزم حسن الظنّ بالصحابه^(٨٥١).

ونحن لا نعرف هذا المنطق الذي يقضي بطرح الأحكام ، وهجر الكتاب في جانب حسن الظنّ بالصحابه والسكوت عما ارتكبه . وهل يسوغ لنا السكوت عن أعمال بسر وموبقاته ؟ إذ وسم بالصحبه أيضاً، وهو قائد جيش معاوية، وقد ارتكب جرائم لم يشهد التاريخ مثلها فظاعة، حتى أنكرت النساء عليه عندما دخل اليمن ، وقتل الشيوخ والأطفال وسبى النساء ، فقالت له امرأة من كندة: يا ابن أرطاة إنّ سلطاناً لا يقوم إلّا بقتل الصبي الصغير والشيخ الكبير ونزع الرحمة وعقوق الأرحام إنّه لسلطان سوء^(٨٥٢).

فكيف يسوغ لنا السكوت عن أعمال بسر، ونصمّ أسماعنا عن صوت ثكلى تردّد نغماتها موجات الحقّ، وترفع ظلامتها إلى رجال العدل ، وتدعو هائمة مذهولة ؟
يا من أحسنّ بابنيّ اللذين هما *** كالدرتين تشظى عنهما الصدفُ
يا من أحسنّ بابنيّ اللذين هما *** سمعي وعقلي فعقلي اليوم مختطفُ
من دل والدّة حيرى مدلهة *** على صبيين ذلاً إذ غدا السلفُ
نبئت بسرّاً وما صدقت مازعموا *** من إفكهم ومن الإثم الذي اقترفوا
أحنى على ودجي ابني مرهفة *** مشحوذة وكذاك الإثم يقترفُ
فهذا صوت يبعث في القلب شجى ، وفي العين قذى، يصدر من أم والهة - وهي زوجة عبيد الله بن العباس - فقدت وليها وهما قثم وعبد الرحمن. أخذهما بسر بن أرطاة وهما صغيران ، فذبّحهما بين يدي أمّهما، فهامت على وجهها مذهولة، فكانت تأتي الموسم وتنشد هذا الشعر وتهيم على وجهها^(٨٥٣). إذاً فليس من أنصاف الحقّ أن يواخذ المسلم عندما يغضب لسماع صوتها، وينسب الظلم لمن قتل وليها فيرمى بالزندقة والإلحاد لأنّه طعن على معاوية، إذ القتل بأمره وهو صحابي ، وله في ذلك اجتهاد مقبول أو تأويل صحيح ، إذاً ليجر معاوية في ميدان الحياة وليفعل ما شاءت له نفسه، فقد ضربت الصحبة عليه حصانة لا يمكن مؤاخذته فليأمن من كلّ خطر وليسفك الدماء ، وليقتل على الظنة والتهمة، فقد انهارت الحواجز كلها في وجهه واندكت العقبات أمامه ، فلا تشمل تلك النظم والأحكام التي

(٨٥١) الإصابة ج ٤ ص ١٥١.

(٨٥٢) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٩٥ .

(٨٥٣) الاستيعاب : ١٥٦ / ١ والكامل لابن الأثير : ١٩٥ / ٣ .

قررها الشارع المقدس ، وفيها سعادة البشر ونظام الحياة ، لأنه صحابي وله حرية التصرف في الأحكام.

ولو كان له ذلك لما أنكر الصحابة عمله ، وفي ظليعتهم الصحابي الجليل أبوذر الغفاري، فقد أعلن للملأ انحراف سيرة معاوية ومخالفته لنظم الدين . وقد أنكرت عائشة على معاوية قتله لحجر وأصحابه وغضبت عليه ومنعته من الدخول عليها، ولم تقبل بأعذاره إذ قال: إن في قتلهم صلاحاً للأمة، وفي مقامهم فساداً للأمة فقالت: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: سيقتل بعذراء أناس يغضب الله لهم وأهل السماء^(٨٥٤).

وكثر الإنكار على معاوية لما ارتكبه من الأعمال، ولا يتسع المجال للإسهاب في هذا الموضوع .

وخلاصة القول أن الصحبة بشروطها في الإخلاص في الدين والولاء في الإسلام وليست منزلة توجب العصمة وتلزم الاعتراف بالتفرد دون نظر وتدقيق، قال سفيان بن عيينة: نظرت في أمر الصحابة وأمر ابن المبارك فما رأيت لهم عليه فضلاً إلا بصحبتهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وغزوهم معه^(٨٥٥). فليست مقرونة بمواهب خارقة وخصال خاصة وقد تكون اصطحاباً بلا أثر وغزواً في الظاهر، وفي السريرة أغراض نفع ورياء، فعن معاذ بن جبل أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: الغزو غزوان، فأما من ابتغى وجه الله وأطاع الإمام وأنفق الكريمة واجتنب الفساد فإن نومه ونبيهته أجر كله، وأما من غزا رياءً وسمعة وعصى الإمام وأفسد في الأرض فإنه لا يرجع بالكفاف^(٨٥٦). فإذا كان ذلك في حياته عليه أفضل الصلاة والسلام فما ظنك بعد أن قبض (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولقد أخبر (صلى الله عليه وآله وسلم) أولئك - كما روي عن ابن مسعود وأنس - وآخرين: «يرفع إلي أقوام فيقولون: يا محمد يا محمد، فأقول: يا رب أصحابي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: بُعداً وسحقاً»^(٨٥٧).

وسنعود إن شاء الله تعالى للبحث عنه مرة أخرى في الأجزاء القادمة.

وها نحن أولاء نعيد تأكيد الطلب من الكتاب الذين يهتمهم خدمة الحق وإظهار الحقيقة، أن يتثبتوا قبل الحكم حول تلك الاتهامات الموجهة إلى الشيعة^(٨٥٨) ، وأن يستعملوا لغة المنطق ولا يخضعوا للتقاليد واستعمال الأقيسة المعكوسة ومواخذة الأمة بالفرد.

(٨٥٤) تاريخ ابن كثير ج ٨ ص ٥٥.

(٨٥٥) صفة الصفوة لابن الجوزي ج ١ ص ١١١ .

(٨٥٦) السنن الكبرى للنسائي ج ٧ ص ١٥٥ .

(٨٥٧) عيون أخبار الرضا ج ١ ص ٩٣، كتاب الغيبة للقاضي النعماني ص ٢٤٧، مسند أحمد ج ٥ ص ٣٣٩، ٤٠٠، ٤١٢ .

(٨٥٨) استقصينا البحث عن التهم الموجهة إلى الشيعة في كتابنا (الشيعة في قفص الاتهام) وقد حالت الظروف بيننا وبين طبعه.

نقول هذا ولنا كبير أمل فيما نلمسه من وعي في المجتمع الإسلامي لنبذ الحزازات ، وقبر تلك الآراء التي أوجدت الخلافات. ومن الله نسأل تحقيق الآمال فهو الموفق وعليه الاتكال . ونسأله تعالى أن ينصر المسلمين ويوحد كلمتهم (ولو كره الكافرون).

والحمد لله (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) (٨٥٩)

والصلاة على محمد وآله الطيبين وأصحابه المنتجبين

«تم الجزء الثاني»

الفهرس التفصيلي

وبلية الجزء الثالث إن شاء الله تعالى

الفهرس التفصيلي

الإمام الصادق(عليه السلام) ... ٧

تمهيد... ٩

عصره ومشاكله ... ١١

مشكلة الخراج ... ١٥

سيرة الجبابة ... ١٧

الموالي والثورة ... ١٩

الموالي ووظائف الدولة ... ٢٠

أسباب انهيار الدولة ... ٢٣

عِظَات وعبر ... ٢٧

قيام الدولة العباسية... ٣٠

مواقف الإمام الصادق(عليه السلام)

مواقف الإمام في الحكم الأموي ... ٣٧

موقف الإمام في دعوة الخلال لبيعته ... ٣٩

إخباره بصيرورة الأمر لبني العباس ... ٤٠

موقفه من الحركات الفكرية ... ٤٢

موقفه من حركة الغلاة ... ٤٣

الإمام الصادق (عليه السلام) تلامذته ورواة حديثه

توجيهه الأمة الى الشعور بالمسؤولية ... ٤٩

حثه على التجارة وطلب الرزق ... ٥٣

دعوته الى العمل ... ٥٤

دعوته للألفة والأخوة الإسلامية ... ٥٨

سياسته تجاه الظلم والظالمين ... ٦١

عِزَّة النفس ... ٦٦

قوَّة الإرادة ... ٦٨

مراسلاته ... ٧٠

رسالة لعبدالله النجاشي ... ٧١

رسائلته في الصفات ... ٧٣

رسائلته الى جماعة من أصحابه ... ٧٤

وصاياه ... ٧٥

وصيته لحفص بن غياث ... ٧٦

وصيته لسفيان الثوري ... ٧٦

وصيته لعبدالله بن جندب ... ٧٨

جوامع الكلم ... ٨٠

الأمويون وحديث أهل البيت ... ٨٧

بعض المؤلفين من تلامذته ... ٩٢

تلامذته ورواة حديثه ... ٩٥

الإمام الصادق في ظل أبيه الباقر (عليهما السلام)

تمهيد ... ١٣٩

الإمام الباقر (عليه السلام) ... ١٤٠

كنيته ولقبه ... ١٤٠

- أقوال العلماء فيه... ١٤٣
من تلامذته ورواة حديثه ... ١٥٠
مدرسة الإمام الباقر(عليه السلام) ... ١٦٥
حكمه... ١٦٨
وصيته لعمر بن عبدالعزيز ... ١٧٠
وصيته لجابر الجعفي ... ١٧١
من تعاليمه... ١٧٢
الإمام الباقر(عليه السلام) وعبدالمك ... ١٧٤

الإمام الصادق(عليه السلام) في عهد المنصور

- تمهيد... ١٨١
الإمام الصادق وولاية المنصور ... ١٩٣
سياسة المنصور تجاه العلويين ... ١٩٧
حديث الخزانة... ٢٠٢
تظاهر المنصور بالعدل ... ٢٠٣
الشيعية وأهل البيت ... ٢١٠

الإمام مالك بن أنس

- من هو الإمام مالك ... ٢١٦
ولادته ... ٢١٩
المناقب ... ٢٢٢
عالم المدينة ... ٢٢٣
أمين زمانه... ٢٢٦
أطراف حول مالك ... ٢٢٩
مالك وأقوال العلماء... ٢٣٠
مع الخلفاء والولاة ... ٢٣٣
مع المنصور ... ٢٣٥
اتصاله بالمنصور ... ٢٣٩

- شيوخ مالك ... ٢٤٦
تلامذة مالك ... ٢٥٢
كتب المذهب المالكي ... ٢٥٦
أصول الفقه المالكي... ٢٦٣
رسالة الإمام الصادق(عليه السلام) حول القياس ... ٢٧٦
عصر مالك وحوادثه ... ٢٧٩

تدوين العلم

- أول من دوّن العلم ... ٢٩٣
الشيعة والتدوين ... ٢٩٨
أهل البيت(عليهم السلام) أول من دوّن العلم ... ٢٩٨
عهد الإمام علي(عليه السلام) لمالك الأشتري ... ٢٩٩
رسالة الحقوق للإمام زين العابدين ... ٣٠٢
مسند زيد بن علي ومدوّنته الفقهية ... ٣٠٢
عصر الإمام الباقر(عليه السلام) ... ٣٠٤
عصر الإمام الصادق(عليه السلام) ... ٣٠٧
حركة التدوين عند الشيعة ... ٣٠٩
موطأ مالك ... ٣١١
صحيح البخاري ... ٣١٤
صحيح مسلم ... ٣١٥
صحيح الترمذي ... ٣١٦
صحيح أبي داود ... ٣١٨
صحيح النسائي ... ٣١٨
صحيح ابن ماجه ... ٣١٩
الكتب الأربعة ... ٣٢٢
مسألة التفضيل ... ٣٢٥
الاختلاف في التفضيل ... ٣٢٧
العباسيون والتفضيل ... ٣٣٠
تطور الخلاف في مسألة التفضيل ... ٣٣٣
فضل عليّ وامتيازهِ وخصاله ... ٣٣٧

أقوال الصحابة في عليّ (عليه السلام) ... ٣٤٨
خلاصة البحث في مسألة التفضيل ... ٣٥٥

الشيعة والصحابة

تمهيد... ٣٦١
الشيعة والصحابة ... ٣٦٣
مسألة الصحابة ... ٣٦٥
شمول الصحبة ومميزاتها ... ٣٦٧
تعريف الصحابي ونقطة الخلاف ... ٣٧٦
موالات الشيعة للصحابة ... ٣٧٨
الصحابة في حدود الكتاب والسنة ... ٣٨٠
قدامة بن مضعون ... ٣٨٢
سياسة عمر تجاه بعض الصحابة ... ٣٨٤
حديث أهل الصفة ... ٣٨٩
حديث أبي هريرة... ٣٩٠
حديث أمهات المؤمنين... ٣٩٤
تهمة سب الصحابة ... ٣٩٧
نهاية البحث ... ٤٠٣
التثبت قبل الحكم ... ٤٠٥
الفهرس التفصيلي ... ٤١٣

الإمام الصادق والمذاهب الأربعة

الشيعة والصّحابة

الشعبة والصحابة

تمهيد

إنّ موضوع الحديث عن عقيدة الشيعة في الصحابة هو أهم موضوع نريد أن نتحدّث عنه، وكان بوجدنا التجنّب عن ذلك ولكن من شرط هذا الكتاب هو التعرّض لكل ما له علاقة بمذهب أهل البيت (عليهم السلام) ، وسائر المذاهب فإن هذه المسألة من أهمّ المسائل التي كانت ذريعة لمعارضة مذهب أهل البيت (عليهم السلام) وانتشاره . فقد نسبوا إلى الشيعة ما لا يتفق مع الواقع في اعتقادهم حول الصحابة. وتقولوا عليهم بأنهم - أي الشيعة - يكفرون جميع الصحابة - والعياذ باللّٰه - وإنهم لا يعتمدون على أحاديثهم ، ويطعنون فيهم إلى غير ذلك.

وجعلوا ذلك أساساً لقاعدة بنوا عليها الحكم بالزندقة وحلية إراقة الدماء فقالوا: من طعن في الصحابة فقد طعن على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ومن طعن على رسول الله فهو زنديق.

وقالوا: إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب محمد فاعلم أنه زنديق، وجعلوا الخوض فيما جرى بين الصحابة وحرية الرأي في مناقشتهم هو انتقاصاً لهم .

فلندرس هذا الموضوع بدقّة، ورجاؤنا معقود على إيلاء هذه الدراسة جلّ عنايتها ، وإعطائها وجهة النظر بصورة خاصة، لأنّ اتّهام الشيعة بسبّ الصحابة، وتكفيرهم أمر عظيم ، ومعضلة شديدة اتخذها خصوم أهل البيت (عليهم السلام) وسيلة للقضاء على مبادئهم وانتشار مذهبهم ، عندما بان عجزهم عن اللّٰحق بهم. وقد تدخل الدخلاء وأعداء الإسلام في اتساع شقّة الخلاف بين صفوف الأُمّة ليجدوا طريقهم لبث آرائهم الفاسدة، حتى أصبح من المقرر في تلك العصور تكفير الشيعة وإبعادهم عن ذلك المجتمع كل ذلك مبعثه آراء السلطة وأغراضها التي قضت على الأُمّة بكبت الشعور، وكم الأفواه وسلب الأفراد حرية الرأي لأنّ الجمود الفكري هو الذي يخدم مصالحهم ، عندما حاولوا ربط العقائد بالدولة وإناطة الآراء بما تراه السلطة لا غير ، وفرضوا ربط التعليم بهم، وضربوا سلطانهم على بعض العلماء ، ووجهوهم حيث شاءت إرادتهم ، إلى غير ذلك من المحاولات التي كانوا يقصدون بها القضاء على أهل البيت ومعارضة مذهبهم ولكن شاء الله أن تذهب تلك المحاولات أدراج الرياح ، ويبقى ذكر أهل البيت (عليهم السلام) على ممرّ الدهور

والأعوام ، ولم تقف تلك الدعايات الكاذبة والتهم المفتعلة أمام انتشاره، وإن اتهم الشيعة بسبب الصحابة وتكفيرهم أمر عظيم حاول خصومهم فيه تشويه سمعتهم ، لأنهم خصوم الدولة وأنصار أهل البيت ونحن لا نريد أن نرغم خصوم الشيعة على الاعتراف بالأخطاء التي ارتكبوها في تعبيرهم عنهم بعبارات التهجم التي تشمئز منها النفوس ، وتنفر منها الطباع .

ولا نريد منهم أن يغالطوا أنفسهم في مجاراتهم للأوضاع الحاضرة. ولا نريد منهم أن يتركوا الخطأ الذي وقفوا عليه في زاوية الإهمال، ولا إسدال الستر على العيوب التي عثروا عليها في المجتمع الشيعي . والنقص الذي لمسوه . ولكننا نريد منهم أن لا يكذبوا أو يتقوّلوا . ونريد منهم أن يتحرّروا من تقليد أقوام أعمتهم المادة وأخضعتهم السلطة. فحملتهم على الافتعال والأكاذيب.

ونريد منهم أن يصرّحوا لنا بلغة العلم والمنطق الصحيح عن الأمور التي استوجبت أن يرتكبوا من الشيعة ما ارتكبوه ، وليحاسبوا أنفسهم قبل يوم الحساب ، إن أهملوا محاسبة الوجدان والضمير الحر .

ونريد منهم أن يصرّحوا لنا عن نقاط الضعف التي وقفوا عليها فيما تدّعيه الشيعة فأباحت لهم ذلك التهجم، وليقولوا بكل صراحة فإننا نتقبل قول الحق، ولا يهم الشيعة أقوال أهل التهريج والهوس ، ولا يعباون بأقلام المستأجرين من قبل أعداء الإسلام الذين عظم عليهم انتشاره وأخضعهم بقوة برهانة، وأعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فالتجأوا إلى لغة الدس والخيانة.

ونريد منهم أن يتنبهوا رويداً إلى التباين بين ما يدعونه أو يفتعلونه على الشيعة وبين الواقع ، ونريد من الباحث أن يتحرى ببحثه الدقة والتمحيص وأن يتثبت قبل الحكم، وأن يعرف الخطر الذي ينجم من وراء ذلك، فقد بلغ الأمر إلى أشد ما يكون من الخطورة .

ومن المؤلم أن تروج هذه الدعايات المغرضة أو الأكذوبة الكبرى فتصبح من الأمور المسلمة بها لا تحتاج إلى نقاش ، والواقع أن اتّهام الشيعة كان سياسياً قائماً على مخالفة الواقع وإنكار الحقائق والجهل الفاضح .

الشيعة والصحابة

نحن أمام مشكلة كبرى، وقف التاريخ أمامها ملجماً واختفت الحقيقة فيها وراء ركام من الادعاءات الكاذبة، والأقوال الفارغة فالتوت الطرق الموصلة إليها . كما

أثيرت حولها زوابع من المشاكل والملابسات. ولم تعالج القضية بدراسة علمية ليبدو جوهر المسألة واضحاً وتظهر الحقيقة كما هي .

وعلى أيّ حال فقد تولع كثير من المؤرخين بدمّ الشيعة. ونسبت أشياء إليهم بدون تثبت. فهم يكتبون بدون قيد وشرط . ويتقولون بدون وازع ديني أو حاجز وجداني، وقد اتسعت صدور الشيعة لتحمل أقوالهم ، بل تقولاتهم كما اتسعت سلة المهملات لقبر شخصياتهم ، وترفعوا عن المقابلة بالمثل، وإن أهم تلك التهم هي مسألة الصحابة وتكفيرهم - والعياذ بالله - مما أوجب أن يحكم عليهم بالكفر والخروج عن الإسلام كما يأتي بيانه.

قال السيد شرف الدين^(٨٦٠) : «إنّ من وقف على رأينا في الصحابة علم أنه أوسط الآراء إذ لم نفرط فيه تفريط الغلاة الذين كفروهم جميعاً ، ولا أفرطنا إفراط الجمهور الذين وثقوهم جميعاً ، فإن الكاملية ومن كان في الغلو على شاكلتهم قالوا: بكفر الصحابة كافة، وقال أهل السنة بعدالة كل فرد ممن سمع النبي أو رآه من المسلمين مطلقاً ، واحتجوا بحديث «كل من دب أو درج منهم أجمعين أكتعين» .»

أما نحن فإنّ الصحبة بمجرد ما وإن كانت عندنا فضيلة جليلة لكنها بما هي من حيث هي غير عاصمة ، فالصحابة كغيرهم من الرجال ، فيهم العدول وهم عظماءهم وعلماءهم ، وفيهم البغاة وفيهم أهل الجرائم من المنافقين ، وفيهم مجهول الحال، فنحن نحتجّ بعدولهم ونتولاهم في الدنيا والآخرة . أما البغاة على الوصي وأخي النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وسائر أهل الجرائم كان هند. وابن النابغة، وابن الزرقاء ، وابن عقبة، وابن اربطة ، وأمثالهم فلا كرامة لهم ولا وزن لحديثهم ، ومجهول الحال نتوقف فيه حتى نتبين أمره .

هذا رأينا في حملة الحديث من الصحابة والكتاب والسنة بنينا على هذا الرأي كما هو مفصل في مظانه من أصول الفقه. لكن الجمهور بالغوا في تقديس كل من يسمونه صحابياً حتى خرجوا عن الاعتدال ، فاحتجوا بالغث منهم والسمين ، واقتدوا بكل مسلم سمع من النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أو رآه اقتداءً أعمى، وأنكروا على من يخالفهم في هذا الغلو، وخرجوا في الإنكار على كل حد من الحدود ، وما أشد إنكارهم علينا حين يروننا نرد حديث كثير من الصحابة مصرحين بجرهم أو

بكونهم مجهولي الحال عملاً بالواجب الشرعي في تمحيص الحقائق الدينية والبحث عن الصحيح من الآثار النبوية.

وبهذا ظنوا بنا الظنون فاتهمونا بما اتهمونا رجماً بالغيب وتهافتاً على الجهل . ولو ثابت إليهم أحلامهم ورجعوا إلى قواعد العلم لعلموا أن أصالة العدالة في الصحابة مما لا دليل عليها، ولو تدبروا القرآن الحكيم لوجدوه مشحوناً بذكر المنافقين منهم . وحسبك منه سورة التوبة والأحزاب ...

مسألة الصحابة

وعلى أيّ حال فإن فروض المسألة ثلاثة :

الأول: إنّ الصحابة كلهم عدول أجمعين ، وما صدر منهم يحتمل لهم، وهم مجتهدون . وهذا هو رأي الجمهور من السنة.

الثاني: إنّ الصحابة كغيرهم من الرجال وفيهم العدول ، وفيهم الفساق ، فهم يوزنون بأعمالهم ، فالمحسن يجازى لإحسانه ، والمسيء يؤخذ بإساءته . وهذا رأي الشيعة .

الثالث: إنّ جميع الصحابة كفار - والعياذ بالله - وهذا رأي الخارجين عن الإسلام ولا يقوله إلا كافر ، وليس من الإسلام في شيء .

هذه ثلاثة فروض للمسألة، وهنا لا بدّ أن نقف ملياً لنفحص هذه الأقوال : أما القول الثالث فباطل بالإجماع ولم يقل به إلا أعداء الإسلام أو الدخلاء فيه. وأما القول الأوّل وهو أشبه شيء بادعاء العصمة للصحابة ، أو سقوط التكاليف عنهم ، وهذا شيء لا يقره الإسلام ، ولا تشمله تعاليمه .

بقي القول الوسط وهو ما تذهب إليه الشيعة، من اعتبار منازل الصحابة حسب الأعمال ، ودرجة الإيمان وذلك: إنّ الصحبة شاملة لكل من صحب النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أو رآه أو سمع حديثه، فهي تشمل المؤمن والمنافق ، والعاقل والفاقد، والبر والفاجر ، كما يدلّ عليه قول النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في غزوة تبوك عندما أخبره جبرئيل بما قاله المنافقون : إنّ محمداً يخبر بأخبار السماء ولا يعلم الطريق إلى الماء ، فشكا ذلك إلى سعد بن عباد فقال له سعد: إنّ شئت ضربت أعناقهم .

قال(صلى الله عليه وآله وسلم) : «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ولكن نحسن صحبتهم ما أقاموا معنا» (٨٦١)

فالصحبة إذن لم تكن بمجرد لها عاصمة تلبس صاحبها أبراد العدالة ، وإنما تختلف منازلهم وتتفاوت درجاتهم بالأعمال .

ولنا في كتاب الله وأحاديث رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) كفاية عن التمثل في الاستدلال على ما نقوله ، والآثار شاهدة على ما نذهب إليه، من شمول الصحبة وإن فيهم العدول من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ورسخت أقدامهم في العقيدة، وجرى الإيمان في عروقهم ، وأخلصوا لله فكانوا بأعلى درجة من الكمال، وقد وصفهم الله تعالى بقوله : (أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذي آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا) (٨٦٢).

وهم المؤمنون : (الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) (٨٦٣).

وقد أمر الله تعالى باتباعهم والاقتداء بهم بقوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) (٨٦٤)، (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم) (٨٦٥). هؤلاء هم أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن يستطع أن يقول فيهم مالا يرضي الله تعالى ويخالف قوله؟

شمول الصحبة ومميزاتها

كما أن الصحبة تشمل من مردوا على النفاق، والذين ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لرسول الله الأمور ، وأظهروا الغدر، حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون. وفيهم من كان يؤذي رسول الله وقد وصفهم الله بقوله: (ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن) (٨٦٦)، (إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيباً) (٨٦٧)، (ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن... والذين يؤذون رسول الله لهم عذابٌ أليم) (٨٦٨).

(٨٦٢) الفتح : ٢٩ .

(٨٦٣) الحجرات : ١٥ .

(٨٦٤) التوبة: ١١٩ .

(٨٦٥) سورة التوبة : ١٠٠ .

(٨٦٦) سورة التوبة : ٦١ .

(٨٦٧) الأحزاب: ٥٧ .

(٨٦٨) التوبة: ٦١ .

وفيه المخذعون والذين يظهرون الإيمان وقد وصفهم الله تعالى بقوله: (ومن

الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين* يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون)^(٨٦٩)، (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون)^(٨٧٠). (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين* فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون* فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون)^(٨٧١).

والحاصل أن الصحبة منزلة عظيمة ، وفضيلة جلية، وهي بعمومها تشمل من امتحن الله قلبه للإيمان ، وأخلص لله، وجاهد وناصر ، ومن رقى درجة الكمال النفساني، فكان مثلاً لمكارم الأخلاق ، وهم يخشون الله ويمتثلون أوامره، كما وصفهم تعالى بقوله : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون* الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون* أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم)^(٨٧٢).

كما أنها لم تشمل من لم يدخل الإيمان قلبه : (يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم)^(٨٧٣).

ومن الحقيقة، التي تتجلى بسهولة لكل من نزع عن عينيه التعصب وتمرد على تأثير الدعايات وإيحاءات الباطل، أن شروط الصحبة وصفات المؤمن التي نص عليها القرآن وخصائص القرب من الرسول الأعظم لم تكن تشمل كل أفراد عصر الرسالة، فإن المغالاة في التعميم تقوم على غرض لا يختلف في شيء عن الغرض الذي أعيى الحكام الظلمة تحقيقه وهم يواجهون أهل البيت بمكانتهم وعظيم منزلتهم بين الناس باعتبار الأئمة منهم أهل الولاية الشرعية ونواب صاحب الرسالة والأوصياء المؤتمنين على أمور الدين والرعية فكانت مسألة تقديس كل من ضمته تسميه الصحبة بعد توسيعها وتعميمها هي مضاهاة منزلة أهل البيت وعدم تمييزهم وإرغام الناس على عدم ذكر الحقائق والأحداث إذ كانت العملية تنص على التقديس بغض النظر عن الأفعال، فكم شملت الصحبة أناساً مازال التاريخ يذكر ما اقترفوه، وما زالت أفعالهم مثلاً للظلم، وماذا نصنع بما نص عليه القرآن من ذكر المنافقين؟ وما أثبتته التاريخ من أفعال، كذلك فإن الجانب الآخر لعملية التقديس يتفق مع روح الحكام في تحجير الأفهام وتقييد حرية الفكر، إذ فرضت العملية تلقي ما صدر عن

(٨٦٩) سورة البقرة : ٨ - ٩ .

(٨٧٠) سورة البقرة : ١٤ .

(٨٧١) سورة التوبة : ٧٥ - ٧٦ - ٧٧ .

(٨٧٢) سورة الانفال : ٢ - ٤ .

(٨٧٣) سورة الفتح : ١١ .

الذين شملتهم عملية توسيع الصلابة بالقبول، وإن ما كان منهم ليس لأحد قدرة على أن يرقى إليه فهو في أعلى مستوى من الكمال، مهما كانت مؤاخذات الواقع، وناهيك بما في هذا من استهانة بنعمة العقل التي ركبها الله للإنسان، ثم كان ادعاء العصمة. ليت شعري ما هذه العصمة، أكانت في حياة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أم بعده؟ ! فإن كانت في حياته فما أكثر الشواهد على نفي ذلك:

أخرج البيهقي بسنده عن أبي عبد الله الأشعري عن أبي الدرداء قال، قلت : يارسول الله بلغني أنك تقول : ليرتدن أقوام بعد إيمانهم . قال (صلى الله عليه وآله وسلم) أجل ولست منهم (٨٧٤).

ومن الغريب أن البعض علّل ذلك بأن المراد من هؤلاء المرتدين، هم الذين قتلوا عثمان ، وأنّ أبا الدرداء مات قبل قتل عثمان ، وبهذا التأويل يتوجّه الطعن على أكثر الصحابة ، فإنهم اشتركوا بقتل عثمان ، والمتخلفون عن ذلك عدد لا يتجاوز أصابع الكف، وبمقتضى هذا التأويل يدخل في قائمة الحساب عدد كثير هو أضعاف ما في قائمة الشيعة من المؤاخذات . ومن الشواهد على نفي العدالة في زمان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) :

١ - كان رجل يكتب للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وقد قرأ البقرة وآل عمران ، فكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يملئ عليه غفوراً رحيماً فيكتب عليمًا حكيمًا فيقول له النبي: أكتب كذا وكذا. فيقول: أكتب كيف شئت، ويملي عليه عليمًا حكيمًا فيكتب سميعاً بصيراً وقال: أنا أعلمكم بمحمد . فمات ذلك الرجل فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): الأرض لا تقبله. قال أنس: فحدثني أبو طلحة ، أنه أتى الأرض التي مات فيها الرجل، فوجده منبوزاً فقال أبو طلحة: ما شأن هذا الرجل ؟ قالوا: دفناه مراراً فلم تقبله الأرض. قال ابن كثير: وهذا على شرط الشيخين ولم يخرجاه (٨٧٥).

٢ - وهذا الوليد بن عقبة بن أبي معيط الذي سمّاه الله فاسقاً حينما أرسله النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على صدقات بني المصطلق فعاد وأخبر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنهم خرجوا لقتاله فأراد أن يجهز لهم جيشاً فأنزل الله فيه: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة ...) الآية (٨٧٦) . فقد كان في عداد الصحابة فأين العدالة من الفاسق؟! (٨٧٧)

(٨٧٤) تاريخ ابن كثير ج ٦ ص ١٧٠.

(٨٧٥) تاريخ ابن كثير ج ٦ ص ١٧٠.

(٨٧٦) الحجرات : ٦.

(٨٧٧) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢١٢.

٣ - وهذا الجد بن قيس أحد بني سلمة نزلت فيه : (ومنهم من يقول إنني لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) (٨٧٨).

٤ - وهذا مسجد ضرار وما أدراك ما مسجد ضرار قد بناه قوم، وسموا بالصحبة يتظاهرون فيه بأداء الصلاة في أوقات لا يسعهم الوصول إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولكن فضح الله سرهم وأبان أمرهم فهم منافقون .

وأنزل الله فيهم : (والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون) (٨٧٩) وكانوا اثني عشر رجلاً من المنافقين منهم خدام بن خالد بن عبيد، ومن داره أخرج المسجد، ومعتب بن قشير، وأبو حبيبة بن أبي الأزعر وغيرهم (٨٨٠).

٥ - وهذا ثعلبة بن حاطب بن عمر بن أمية ممن شهد بدرأً وأحدأً ، فقد منع زكاة ماله، فأنزل الله فيه : (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين* فلما آتاهم الله من فضله بذلوا به وتولوا وهم معرضون) (٨٨١).

وكان ثعلبة هذا من الصحابة ملازماً لأداء الصلاة في أوقاتها، وكان فقيراً معدماً، فقال لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ادع الله لي أن يرزقني مالا فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : ويحك يا ثعلبة قليل تشكره خير من كثير لا تطيقه فقال ثعلبة: والذي بعثك في الحق نبياً لأن دعوت الله فرزقني مالا لأعطين كل ذي حق حقه. فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : اللهم ارزق ثعلبة مالا، فزاد وفره وكثر ماله وامتنع من أداء زكاته فأعقبه نفاقاً إلى يوم يلقاه بما أخلف وعده وكان من الكاذبين.

٦ - وهذا ذو النديّة كان في عداد الصحابة متنسكاً عابداً، وكان يعجبهم تعبداه واجتهاده فأمر النبي بقتله وكان (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : إنه لرجل في وجهه لسفعة من الشيطان، وأرسل أبا بكر ليقتله فلما رآه يصلي رجع وأرسل عمر فلم يقتله ثم أرسل علياً (عليه السلام) فلم يدركه (٨٨٢) وهو الذي ترأس الخوارج وقتله علي (عليه السلام) يوم النهروان .

٧ - وهؤلاء قوم وسموا بالصحبة كانوا يجتمعون في بيت سويلم يثبّطون الناس عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فأمر من أحرق عليهم بيت سويلم (٨٨٣).

(٨٧٨) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٢.

(٨٧٩) التوبة : ١٠٧.

(٨٨٠) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٤١ وتفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٨٨.

(٨٨١) الاستيعاب بهامش الإصابة ج ١ ص ٢٠١.

(٨٨٢) الإصابة ج ١ ص ٤٢٩.

(٨٨٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٣٢.

٩ - وهذا قزمان بن الحرث شهد أحداً وقاتل مع النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) قتالاً شديداً، فقال أصحاب النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ما أجزأ عنا أحد كما أجزأ عنا فلان فقال النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) : أما إنه من أهل النار، ولما أصابته الجراحة وسقط ف قيل له: هنيئاً لك بالجنة يا أبا الغيداق. قال: جنة من حرم الله ما قاتلنا إلا على الأحساب^(٨٨٤).

١٠ - وهذا الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس طريد رسول الله ولعينه وهو والد مروان وعم عثمان .

حدث الفاكهي بسند عن الزهري وعطاء الخراساني أن أصحاب محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)دخلوا عليه وهو يلعن الحكم فقالوا: يا رسول الله ما باله؟ فقال: دخل عليّ شق الجدار وأنا مع زوجتي فلانة.

ومرّ النبيّ بالحكم فجعل الحكم يغمز النبي بإصبعه فالتفت فرآه فقال: اللهم اجعله وزعاً فزحف مكانه وكان يسمى خيط الباطل وقال(صلى الله عليه وآله وسلم) فيه: ويل لأمتي مما في صلب هذا^(٨٨٥).

ومن حديث عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم: أشهد أن رسول الله لعن أباك وأنت في صلبه.

١١ - وهذه أم المؤمنين عائشة لم يثبت لها(صلى الله عليه وآله وسلم) الإيمان كما حدث كثير بن مرة عنها: إن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: أطعمينا يا عائشة قالت: ما عندنا شيء، فقال أبو بكر: إن المرأة المؤمنة لا تحلف أنه ليس عندها شيء وهو عندها. فقال النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) : ما يدريك أنها مؤمنة ؟ إن المرأة المؤمنة في النساء كالغراب الأبقع في الغربان^(٨٨٦).

وهذا إنكار من النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) على القطع بالعدالة والإيمان. ولو كان كما يدعى لقال مؤيداً لقول أبي بكر. نعم إنها مؤمنة وزوجة نبي ومن أهل الجنة ولكنه(صلى الله عليه وآله وسلم) لم يرض بذلك الاعتقاد وإنما الأمور منوطة بالعمل وحسن الخاتمة.

ويدل على ذلك أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) عاد كعباً في مرضه فقالت أم كعب: هنيئاً لك الجنة يا كعب، فقال(صلى الله عليه وآله وسلم) : من هذه المتالية على الله عز وجل .

(٨٨٤) الإصابة ج ٣ ص ٢٣٥ .

(٨٨٥) الإصابة ج ١ ص ٣٤٦ .

(٨٨٦) علل الحديث لابن أبي حاتم ج ٦ ص ٤٣٩ .

قال كعب : هي أمي يا رسول الله . فقال(صلى الله عليه وآله وسلم) : وما يدريك يا أم كعب ؟ لعل كعباً قال مالا يعنيه ومنع مالا يعنيه(٨٨٧).

١٢ - وأخرج النسائي في صحيحه عن ابن عباس في نزول قوله تعالى : (ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين)(٨٨٨) أنه قال : كانت امرأة تصلي خلف رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) حسناء من أحسن الناس ، وكان بعض القوم يتقدم لنلها يراها ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر ، فإذا ركع نظر من تحت إبطه ليراها. فأنزل الله فيهم ذلك(٨٨٩).

١٣ - وأخرج ابن حنبل من طريق ابن عباس وابن عمر أنهما سمعا النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) على منبره يقول : لينتهين أقوام عن ودعهم الجماعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين(٨٩٠).

١٤ - وأخرج أحمد في مسنده: عن عبد الله بن مسعود عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال لأصحابه: أنا فرطكم على الحوض ولأناز عن أقواماً ثم لأغلبن عليهم فأقول : ياربى أصحابي، فيقول : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك(٨٩١). وأخرج عن ابن مسعود أيضاً بلفظ: وإني ممسك بحجورك إن تهافتوا في النار كتهافت الفراش(٨٩٢).

وأخرج الترمذي عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) : ويؤخذ من أصحابي برجال ذات اليمين وذات الشمال فأقول : يا ربى أصحابي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فإنهم لن يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم، فأقول كما قال العبد الصالح: إن تعذبهم فإنهم عبادك(٨٩٣).

وأخرج مسلم من طريق عائشة بلفظ : إني على الحوض أنتظر من يرد عليّ منكم، فوالله لينقطعن رجال فلاقولن أي ربي... الحديث . وأخرج مثله من طريق أم سلمة(٨٩٤).

(٨٨٧) تاريخ بغداد ج ٤ ص ٢٧٣.

(٨٨٨) الحجر: ٢٤.

(٨٨٩) صحيح النسائي ج ٢ ص ٨٧ / ٨٧٠.

(٨٩٠) مسند أحمد ج ٥ ص ٤٠.

(٨٩١) مسند أحمد ج ٥ ص ٢٣١.

(٨٩٢) مسند أحمد ج ٦ ص ٥١.

(٨٩٣) صحيح الترمذي ج ٢ ص ٦٧.

(٨٩٤) صحيح مسلم ج ٤ ص ٦٥ - ٦٧.

ولعل الاستمرار بذكر الشواهد - وما أكثرها - يوجب الإطالة ، والإطالة توجب الملل ، فلهذا نكتفي بالقليل من البيان حول الشواهد علي نفي العدالة المزعومة : «لكل من دب ودرج».

والحق أنّ الصحبة بما هي فضيلة جليّة لكنها غير عاصمة، فإن فيهم العدول والأولياء والصديقين ، وهم علماء الأمة وحملّة الحديث ، وفيهم مجهول الحال وفيهم المنافقون وأهل الجرائم، كما أخبر تعالى بقوله: (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم)^(٨٩٥) وفيه من كان يؤذي رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): (والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب عظيم)^(٨٩٦) فالى الله نبراً من هؤلاء وممن (اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين)^(٨٩٧) والذين (يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً مذنبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً)^(٨٩٨).

والكتاب العزيز يعلن بصراحة عن وجود طائفة تستمع إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)ولكن طبع الله على قلوبهم لأنهم اتبعوا الهوى فقال تعالى : (ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم)^(٨٩٩). كما أعلن تعالى لعن طائفة منهم وهم الذين في قلوبهم مرض والذين يفسدون في الأرض ويقطعون أرحامهم (أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)^(٩٠٠).

أجل أين ذهب أولئك بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ؟ وقد جرعه الغصص في حياته، ودرجوا الدباب ، فهل انقبلت حالهم بعد موته(صلى الله عليه وآله وسلم) من النفاق إلى الإيمان، ومن الفساد إلى الصلاح ، ومن الشك إلى اليقين؟ فأصبحوا في عداد ذوي العدالة من الصحابة الذين طبعت نفوسهم على التقى والورع وعفة النفس والعلم والحلم والتضحية في سبيل الله وهم الذين وصفهم الله تعالى بقوله : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون)^(٩٠١).

(٨٩٥) سورة التوبة : ١٠١ .

(٨٩٦) سورة التوبة : ٦١ .

(٨٩٧) سورة المجادلة : ١٦ .

(٨٩٨) النساء : ١٤٢ - ١٤٣ .

(٨٩٩) محمد : ١٦ .

(٩٠٠) محمد : ٢٣ - ٢٤ .

(٩٠١) الحجرات : ١٥ .

فنحن لا نرتاب في ديننا ولا نخالف قول الحق في تمييز منازل الصحابة ودرجاتهم فنتبع الصادقين منهم، ونوالي من اتصف بتلك الصفات التي ذكرها الله ورسوله ، كما إنا لا نأتمن أهل الخيانة لله ورسوله ، ففي ذلك جناية على الدين وخيانة لأمانة الإسلام ولا نركن لمن ظلم منهم ، ولا نود من حاد الله ورسوله . هذا هو قول الحق. والحق أحق أن يتبع .

وقد اختلفوا في تعريف الصحابة ومن هو الصحابي الذي يطلق عليه هذا الاسم، وإليك بيان ذلك :

تعريف الصحابي ونقطة الخلاف

اختلفت الأقوال في حد الصحبة ومن هو الصحابي ؟ فقول: من صحب النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أو رآه من المسلمين ، فهو من الصحابة.

وإليه ذهب البخاري في صحيحه وسبقه إليه شيخه علي بن المديني وقال: من صحب النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أو رآه ولو ساعة من نهار فهو من أصحابه(٩٠٢).

وهذا التعريف ينطبق على المرتدين في حياة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وبعده، وعلى كل راء له وإن لم يعقل، وهذا أمر لا يقره العقل والوجدان ، فإنّ الردة محبطة للعمل فلا مجال لبقاء سمة الصحبة، وقد ذهب أبو حنيفة إلى الإحباط(٩٠٣)، ونص عليه الشافعي في الأم(٩٠٤).

وقال الزين العراقي: الصحابي من لقي النبي مسلماً ثم مات على الإسلام . وقال سعيد بن المسيب : من قام مع النبي سنة كاملة ، أو غزا معه غزوة واحدة(٩٠٥).

وهذا القول لم يعملوا به لأنه يخرج بعض الصحابة الذين لم تطل مدتهم مع النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، ولم يغزوا معه . قال ابن حجر : والعلم على غير هذا القول(٩٠٦). وحكى ابن الحاجب قولاً لعمر بن يحيى انه يشترط في الصحابي طول الصحبة والأخذ عنه(٩٠٧).

كما أتهم جعلوا من الصحابة من لم ير النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وهو مسلم أو له رؤية قصيرة.

(٩٠٢) أضواء على السنة المحمدية ص ٣٤١.

(٩٠٣) شرح ألفية العراقي ج ٣ ص ٤.

(٩٠٤) الأم ج ٤ ص ٢١٥ - ٢١٦ ، شرح ألفية العراقي ج ٣ ص ٤ .

(٩٠٥) شرح ألفية العراقي ج ٣ ص ٨.

(٩٠٦) المواهب شرح الزرقاني ص ٨ - ٢٦.

(٩٠٧) شرح ألفية العراقي ج ٤ ص ٣٢.

ومهما تكن الأقوال والتعاريف فإنّ هذا الإسم يطلق على كل من سمع النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أو رآه من المسلمين مطلقاً، وهم كلهم عدول عندهم وما صدر منهم يحتمل لهم بحجة أنهم مجتهدون.

وهذه هي النقطة الجوهرية التي وقع الاختلاف فيها، إذ الشيعة لا يذهبون لهذا القول فلا يثبتون العدالة إلا لمن اتصف بها، وكانت فيه تلك الملكة، وإصالة العدالة لكل صحابي لادليل عليه ، ولا يمكن إثباته .

فالشيعة تناقش أعمال ذوي الشذوذ منهم بحرية فكر، وتزن كل واحد منهم بميزان عمله : فلا يوادون من حاد الله ورسوله ويتبرؤون ممن اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله.

والشيعة لا يخالفون كتاب الله وسنة رسوله وعمل السلف الصالح في تمييز الصحابة، ومن هو مصداق هذا الإسم حقيقة... فيكون عمله بحسب قوله، وقوله بحسب إيمانه ويجعل بينه وبين شعائر الجاهلية وأحلاف المشركين حاجزاً ويلوذ بأفياء شهادة لا إله إلا الله، محمد رسول الله، ويتبرأ مما يسيء الى عقيدته أو يمسّ إيمانه لا يلغي الشيعة قوانين الطبيعة البشرية القاضية بتفاوت مدارك الناس واختلاف قابليتهم.

ومن هذا فتحت على الشيعة باب الاتهامات الكاذبة، والتي لفقها خصومهم ، ولو كان هناك صباغة إنصاف، ومسكة من عقل، وقليل من تتبع وإعطاء الفكر حريته؛ لما وقعت تلك الملابسات ، وحلت تلك المشاكل.

ومن الغريب أن تتهم الشيعة بسبّ الصحابة والطعن عليهم أجمع ، وبذرة التشيع نشأت في مجتمع الصحابة، ومنهم أبطال التشيع وحاملو دعوته، وهم الذين عرفوا بالولاء لعلي(عليه السلام) وناصروه في حربه لمن بغى عليه ، وهم خيار الأئمة ، وسيأتي ذكر بعضهم في الأجزاء القادمة، كما ان من الغريب أن يطالبوا بمخالفة مقاييس الإيمان والسلوك، ولكن الشيعة يأبون إلا حفظ شرف الصحبه وعدم الإساءة الى مقام الخطوة عند النبي والاخلاص له والتمسك بهداه، وإذا طرح علماء السوء أردية التعصب والعداء لتبين لهم أن الشيعة مثال ما قادت إليه عقول الكثير الكثير من رجال السنة، كابن عيينة الذي قال: نظرت في أمر الصحابة وأمر

ابن المبارك فما رأيت له عليه فضلاً إلا بصحبته النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وغزوهم معه^(٩٠٨).

موالاته الشيعة للصحابه

والشيعة يوالون أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الذين أبلوا البلاء الحسن في نصرة الدين ، وجاهدوا بأنفسهم وأموالهم .

وإن الدعاء الذي تردده الشيعة لأصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) له دليل قاطع على حسن الولاء وإخلاص المودة. نعم إن الشيعة ليدعون الله لأتباع الرسل عامة ولأصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) خاصة بما ورثوه من أئمتهم الطاهرين، ومن أشهر الأدعية هو دعاء الإمام زين العابدين (عليه السلام) في صحيفته المعروفة بزبور آل محمد الذي يقول فيه: اللهم وأتباع الرسل ومصدقوهم من أهل الأرض بالغيب عند معارضة المعاندين لهم بالتكذيب والاشتياق إلى المرسلين ، بحقائق الإيمان في كل دهر وزمان، أرسلت فيه رسولا ، وأقمت لأهله دليلا، من لدن آدم إلى محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، من أئمة الهدى وقادة أهل التقى على جميعهم السلام فاذكرهم منك بمغفرة ورضوان. اللهم وأصحاب محمد خاصة، الذين أحسنوا الصحابة ، والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره، وكانفوه وأسرعوا إلى وفادته، وسابقوا إلى دعوته، واستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالاته، وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته، وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوته، والذين هجرتهم العشائر إذ تعلقوا بعروته ، وانتفت منهم القربابات إذ سكنوا في ظل قرابته، فلا تنس اللهم ما تركوا لك وفيك، وأرضهم من رضوانك وبما حاشوا الحق عليك، وكانوا مع رسولك دعاء لك إليك، واشكرهم على هجرتهم فيك ديار قومهم وخروجهم من سعة المعاش إلى ضيقه...^(٩٠٩)

هؤلاء هم أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الذين تعظمهم شيعة آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) عليه وآله وسلم) ويدينون بموالاتهم ويأخذون تعاليم الإسلام فيما صح وروده عنهم . ولكن التلاعب السياسي واحتدام النزاع بين الطوائف خلق كثيراً من المشاكل في عصور قامت بها فئات لإثارة الفتن حبا للسيطرة وطمعاً في النفوذ من باب فرق تسد .

وصفوة القول أنّ عصور التلاعب بالمبادئ والتطاحن حول بغية ذوي الأطماع قد ولت، ونحن في عصرنا الحاضر عصر انطلاق الفكر من عقاله والتقدم والرقى، أصبح لنا أن نستمر على ضرب وتر العصبية؟ ونطرب لنغمات النزعة الطائفية،

(٩٠٨) صفوة الصفوة لابن الجوزي ص ١١٢، والشيعة تتحرى التقوى والاستقامة على أمر محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .

(٩٠٩) الصحيفة السجادية ص ٤٣ - ٤٤ .

ونكرع بكأس الشذوذ عن الواقع ، ونهمل ما يجب علينا من مكافحة خصوم الإسلام وأعدائه؟ فقد وجهوا إلينا سيلاً جارفاً من الآراء الهدامة والمبادئ الفاسدة. أليس من الذوق السليم الترفع عن التعبير بتلك العبارات التي اتخذها ضعفاء العقول ، وأهل الجمود الفكري عندما يكتبون عن الشيعة فينبزونهم بكل عظمة ، أليس من الحق أن يتبينوا من صحة ما يقولون ؟ وإن اتهام الشيعة بسبب الصحابة وتكفيرهم أجمع إنما هو اتهام بالباطل ورجم بالغيب ، وخضوع للعصبية وتسليم لنزعة الطائفية ، وجري وراء الأوهام والأباطيل .

الصحابة في حدود الكتاب والسنة

وهل تجاوزت الشيعة في نقد أعمال بعض الصحابة حدود الكتاب والسنة؟ إذ وجدوا في أعمالهم مخالفة ظاهرة، لا يمكن لها التأويل والتسامح ، لأن عموم الصحبة لا يمنحهم سلطة التصرف بالأحكام، ولا تسوغ لهم مخالفة تلك الحدود ، وإن الاجتهاد في مقابلة النص هو في الحقيقة طرح للأحكام ، ونبذ للقرآن وراء الظهور ، وإن كثيراً منهم حديثو عهد في الإسلام ، قد ألقت نفوسهم أشياء وطبعت عليها، ومن الصعب عليها أن تتحلل منها بسرعة .

وليس من الإنصاف أن يكون هؤلاء بمنزلة أهل السبق، ومن رسخ الإيمان في قلوبهم فنشروا الإسلام وحملوا ألوية العدل، ونشروا العقيدة الإسلامية ، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم عن نية صادقة، وهاجروا عن إيمان خالص .

وقد قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(٩١٠).

وسأله ناس من أصحابه فقالوا : يا رسول الله، أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية: فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): «أما من أحسن منكم في الإسلام فلا يؤاخذ به ، ومن أساء أخذ في الجاهلية والإسلام»^(٩١١). وعن صهيب مرفوعاً : « ما آمن بالقرآن من استحل محارمه»^(٩١٢) وعنه (صلى الله عليه وآله وسلم) بلفظ: «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ومن أساء في الإسلام أخذ في الأول والآخر»^(٩١٣).

(٩١٠) صحيح مسلم ج ٦ ص ٤٨.

(٩١١) صحيح مسلم ج ١ ص ٧٧.

(٩١٢) صحيح الترمذي: ١٥١ / ٢ .

(٩١٣) صحيح مسلم ج ١ ص ٧٧.

وعن ابن عمر قال: **صعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) المنبر فنادى بصوت رفيع فقال: «يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفيض الإيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم .**

من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله» (٩١٤).

وهكذا يتّضح لنا على ضوء الأحاديث النبوية وآي القرآن الكريم مساواة الناس وشمول الأحكام لهم، وأن ثبوت العدالة بالعمل لا أثر لها بدونه والصحابة هم أولى بتنفيذها ، والقول في اجتهدهم مطلقاً يحتاج إلى مشقة في الإثبات ، والنتيجة عقيمة لا تثمر كثير فائدة، والتأويل في مقابلة النص معناه طرح للأحكام. فلا يصح أن يتأولوها على خلاف ظاهرها ثم يستبيحوا لأنفسهم مخالفة الظاهر منها، بل الأحكام شرعة واحدة بين الناس لتشملهم عدالتها . فلا مجال لأحد عن الخضوع لها وتطبيقها .

ولنا في سياسة الإمام عليّ بن أبي طالب وسيرته في عصر الخلفاء وفي عصره لأكبر دليل على ما نقول؛ فقد كان يقيم الحد على من تعدى حدود الله، ويعامل كل واحد بما يقتضيه عمله ، وبقدر منزلته عند الله تعظم منزلته عنده، وكم كان يدعو على أولئك الذين وسموا بالصحبة وخالفوا كتاب الله وسنة رسوله ونصبوا له الحرب . وقد أعلن (عليه السلام) البراءة منهم بل أعلن سب بعضهم على منبره لأنهم خالفوا كتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم).

ومن وقف على عهوده (عليه السلام) لعماله ووصاياه لأمرأء جيشه ورسائله لولاة أمره؛ يعرف هناك عدم الالتزام بما ألزموا الأمة به من القيود التي فرضتها ظروف خاصة، وهو القول بعدالة الصحابي وإن ارتكب ما حرم الله .

والتحدث عن سيرة عليّ لا يتسع له مجال هذا الموضوع الذي خضناه بهذه العجالة، والغرض أن أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لابد أن يلتزموا باجتناب ما حرم الله تعالى ويهتدوا بهدي رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم يفتحوا المجال لتأويل في مقابلة النص، وللإجتهد شروط ، ولعلّ في قصة قدامة أكبر دليل على ذلك.

قدامة بن مضعون

قدامة بن مضعون بن حبيب المتوفى سنة (٣٦ هـ) كان من السابقين الأولين وهاجر الهجرتين، واستعمله عمر بن الخطاب على البحرين ، فقدم الجارود سيد

عبد القيس على عمر بن الخطاب من البحرين وشهد على قدامة أنه شرب الخمر فسكر ، فقال: من يشهد معك، فقال الجارود : أبو هريرة ، فقال عمر لأبي هريرة ، بم تشهد؟ قال: لم أره شرب ولكن رأيته سكران يقيء . فقال عمر : لقد تنطعت في الشهادة، ثم كتب إلى قدامة أن يقدم عليه من البحرين فقدم ، فقال الجارود: أقم على هذا حد الله. فقال عمر: أخصم أنت أم شهيد ؟ فقال : شهيد. فقال : قد أديت شهادتك. ثم غدا الجارود على عمر فقال: أقم على هذا حد الله فقال عمر : ما أراك إلا خصماً وما شهد معك إلا رجل واحد، فقال الجارود : أنشدك الله. فقال عمر: لتمسكن لسانك أو لأسوانك . فقال: يا عمر ما ذلك بالحق أن يشرب ابن عمك الخمر وتسواني ، فقال أبو هريرة: يا أمير المؤمنين، إن كنت تشك في شهادتنا؛ فأرسل إلى ابنة الوليد فاسألها - وهي امرأة قدامة - فأرسل عمر إلى هند بنت الوليد ينشدها، فأقامت الشهادة على زوجها . فقال عمر لقدامة: إني حادك ، فقال قدامة: لو شربت كما تقول ما كان لكم ان تحدوني. فقال عمر : لم ؟ قال قدامة : قال الله عز وجل: (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ...) (٩١٥) فقال عمر: أخطأت التأويل أنت إذا اتقيت الله اجتنبت ما حرم الله ، ثم أقبل عمر على الناس فقال : ما ترون في جلد قدامة؟ فقالوا: لا نرى أن تجلده ما دام مريضاً. فسكت على ذلك أياماً ثم أصبح وقد عزم على جلده ، فقال: ما ترون في جلد قدامة؟ فقالوا: لا نرى أن تجلده مادام وجعاً. فقال عمر: لأن يلقي الله تحت الشياطين أحب إليّ من أن ألقاه وهو في عنقي، إئتوني بسوط تام. فأمر به فجلد (٩١٦).

هذه قصة قدامة وإقامة الحد عليه وتأويله فيما ارتكبه ولم نوردها لنحط من كرامته أو نطعن عليه في دينه ، فله شرف الهجرة والسبق، ولكننا ذكرناها ليتّضح لنا عدم صحة ما يقولون بعدم مؤاخذه المتأول وإن خالف الإجماع وما هو معلوم بالضرورة كقضية أبي الغادية وقتله لعمار بن ياسر مع اعترافه بأن ما ارتكبه جريمة توجب دخول النار .

وهناك جماعة من الصحابة تأولوا فأخطأوا فلم يدرأ تأويلهم الحد لوقوعه في الخطأ. منهم: أبو جندل وضرار بن الخطاب وأبو الأزور فقد وجدهم أبو عبيدة قد شربوا الخمر فأنكر عليهم فقال أبو جندل: (ليس على الذين آمنوا جناح فيما طعموا ...) (٩١٧) ولم ينفعهم ذلك وأقام عليهم الحد (٩١٨). فأين العدالة من إقامة الحد؟ وكان عبد الرحمن بن

(٩١٥) المائدة: ٩٣.

(٩١٦) الإصابة ج ٣ ص ٢٢٨ .

(٩١٧) المائدة: ٩٣.

(٩١٨) تاريخ دمشق ج ٢٥ ص ٣٠٣ / ٣٠٣٠.

عمر بن الخطاب قد شرب الخمر بمصر فأقام الحد عليه عمرو بن العاص^(٩١٩) إلى كثير من ذلك.

سياسة عمر تجاه بعض الصحابة

وهذا عمر بن الخطاب لم يثبت العدالة لأبي هريرة عندما استعمله على البحرين فقدم بعشرة آلاف فقال له عمر: استأثرت بهذه الأموال يا عدو الله وعدو كتابه ، فقال أبو هريرة: لست بعدو الله ولا عدو كتابه ولكن عدو من عاداهما . فقال عمر: من أين هي لك؟ قال: خيل نتجت، وغلة ورقيق لي وأعطية تتابعت^(٩٢٠). وفي لفظ ابن عبد ربه ان عمر دعا أبا هريرة فقال له: علمت أني استعملتك على البحرين وأنت بلا نعلين ، ثم بلغني أنك ابتعت أفراساً بألف دينار وستمائة دينار. قال: كانت لنا أفراس تناتجت وعطايا تلاحقت، قال عمر: قد حسبت لك رزقك ومؤونتك وهذا فضل فأده ، قال أبو هريرة: ليس لك ذلك. قال: بلى والله أوجع ظهرك، ثم قام إليه بالدرة فضربه حتى أدماه ، ثم قال: إئت بها. قال: أحسببتها عند الله. قال : ذلك لو أخذتها من حلال وأديتها طائعاً، أجنت من أقصى البحرين تجبي الناس لك لا لله ولا للمسلمين ؟ ما رجعت بك أميمة إلا لرعية الحمر، وأميمة أم أبي هريرة^(٩٢١).

هكذا رأينا عمر يقابل أبا هريرة بشدة ويتهمه بخيانة أموال المسلمين . وينسبه لعداء الله وعداء كتابه ولا يصدق فيه ما يدعيه. ولو كان أبو هريرة عادلاً في نظر عمر لصدق قوله. ولقال : أنت عادل أو مجتهد مخطئ ، وكذلك موقف عمر مع خالد بن الوليد في جنايته الكبرى مع مالك بن نويرة.

ويحدثنا البلاذري: أن أبا المختار يزيد بن قيس رفع إلى عمر بن الخطاب كلمة يشكو بها عمال الأهواز وغيرهم يقول فيها:

أبلغ أمير المؤمنين رسالة *** فأنت أمين الله في النهي والأمر
وأنت أمين الله فينا ومن يكن *** أميناً لرب العرش يسلم له صدري
فأرسل إلى الحجاج فاعرف حسابه *** وأرسل إلى جزء وأرسل إلى بشر
ولا تنسين النافعين كليهما *** ولا ابن غلاب من سراة بني نصر^(٩٢٢)

(٩١٩) اسد الغابة ج ٣ ص ٤٧٣ / ٣٣٦٥.

(٩٢٠) تاريخ ابن كثير ج ٨ ص ١١٣ .

(٩٢١) العقد الفريد ج ١ ص ٢٦.

(٩٢٢) فتوح البلدان ص ٣٧٧.

إلى آخر الرسالة وذكر فيها جماعة من عماله الذين استأثروا بالأموال وجلهم من الصحابة فعاقبهم عمر واتهمهم بالخيانة، والخيانة لا تجتمع مع العدالة. ولا نطيل الحديث حول قاعدة أصالة العدالة لكل صحابي أو تأويل الأخطاء لهم على وجه يلزم السكوت عليه .

ما ذلك إلا تحد لنواميس الدين ومقدسات الشريعة، ومجادلة بالباطل لحفظ كرامة معاوية وحزبه : (ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً) (٩٢٣).

رواية الصحابي

وواضح ممّا تقدّم أنّ الشيعة لا يذهبون إلى عدالة كل من وسم بالصحبة، وتحقيقها لا يكون إلا بالعمل الذي يصح أن يتصف الراوي بشروط العدالة المقررة، واصالة العدالة في حق الصحابة لا أصل له وإثبات ذلك يحتاج إلى مشقة والنتيجة عقيمة لا تثبت أي ثمرة هناك.

أما السنة فقد أثبتوا العدالة لكل صحابي واستدلوا بأدلة ذكرت في محلها، ومع ذلك فقد اختلفوا، فذهب طائفة إلى عدالة الصحابة أجمع بدون استثناء؛ وآخرون ذهبوا إلى عدالة من لم يلبس الفتنة - أي من حين مقتل عثمان - وذهبت المعتزلة إلى فسق من قاتل علياً (عليه السلام) منهم وحكى ابن الصلاح إجماع الأمة على تعديل من لم يلبس الفتنة. وحكى الآمدي وابن الحاجب قولاً أنهم كغيرهم في لزوم البحث عن عدالتهم إلى غير ذلك من الأقوال (٩٢٤).

أما الشيعة فلا يذهبون لعدالة الجميع كما تقدّم . فهم يتثبتون في قبول الرواية فلا يروون إلا عن ثقة، ولهم شروط مقررة في محلها، إذ الحديث هو دستور الإسلام، ومنهاج حياة المسلمين الدينية والاجتماعية ، لذلك اجتهد المسلمون في دراسته من حيث السند والدلالة.

وقد سمعنا وسمع كل أحد تلك التقولات على الشيعة: بأنهم يردون أحاديث الصحابة ولا يأخذون عنهم ، وهذا طعن على أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم). وقد ذكر بعضهم أنّ الشيعة لا يعتمدون على شريعة المسلمين؛ لأنهم يردون أخبار الصحابة، إلى غير ذلك من الأقوال بل التقولات .

(٩٢٣) النساء : ١٠٩ .

(٩٢٤) ألفية العراقي ج ٤ ص ٣٥ وكفاية الخطيب البغدادي ص ٨١ - ٨٣ .

وواضح أنّ مقتضى تلك الأقوال تهدف لشيء خلاف الواقع؛ اتباعاً لظروف قضت على الأمة بذلك، وليت شعري أمن الإنصاف والواقع أن تؤاخذ الشيعة في التثبت عند قبول الرواية ، وهل جاءوا بشيء نكراً إذا لم يقبلوا رواية من اتضحت حاله لسوء عمله ومجاراة هواه؟ بل تردّ أقوالهم وعدم الاعتماد على رواياتهم ولا كرامة. هذا من جهة . ومن جهة أخرى أن هناك أموراً تقتضي الوقوف عن قبول كثير من الأحاديث من حيث السند والدلالة، فإن هناك سيلاً جارفاً يسبق إلى الذهن إنكاره ويقضي العقل السليم برده.

وعلى أي حال فإنّ رواية الصحابي وقبولها عند الشيعة لم يكن كما يذهب إليه غيرهم من عدم الاعتماد عليها مطلقاً .

وليس من الحق أن يقال لمن احتاط لدينه وتثبت في أخذ أحكامه أنه طعن على أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .

فإذا أردنا أن نتثبت في قبول رواية أبي هريرة مثلاً ونقف أمام أحاديثه موقف التثبت لاستجلاء الواقع وظهور الحقيقة، يقال هذا طعن على الصحابة.

أليس من الحق أن نقف موقف الإنكار على كثرة أحاديثه الهائلة ونتساءل عن اختصاصه بمنزلة لم تكن لأحد من الصحابة قط، وهو حديث عهد في الإسلام . فإنه أسلم بعد خيبر في السنة السابعة، وذهب إلى البحرين مع العلاء في السنة الثامنة، وبقي فيها إلى أن توفي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فتكون صحبته أقل من سنتين . فكيف يختص بما لم يختص به من هو أسبق إسلاماً، وأكثر ملازمة منه للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأفرغ بالاً لقبول ما يسمع؟

فقد كان أبو هريرة مشغولاً بسدّ رمقه، ويصرع من الجوع مرة بعد أخرى، وكان يتعرض للناس يسألهم عن مسائل، وما كان يقصد إلا أن يتعطفوا عليه بشيء يسدّ رمقه ، لماذا كانت هذه الكثرة الهائلة عند أبي هريرة دون غيره من أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ؟ ! فقد كانت كثرة أحاديثه تبعث على الاستنكار والتساؤل ، فقد روى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) (٥٣٧٤) حديثاً، وقد أنكر الصحابة عليه ذلك وكذبوه ، وكان يعتذر بأن غيره من الصحابة تشغلهم التجارة.

روى الأعرج عن أبي هريرة أنه قال: إنكم تقولون ما بال المهاجرين لا يتحدثون عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بهذه الأحاديث؟ وإن أصحابي من المهاجرين كانت تشغلهم صفقاتهم في الأسواق ، وإن أصحابي من الأنصار كانت تشغلهم

أراضيهم والقيام عليها، وإني كنت امرأ معتكفاً أكثر من مجالسة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أحضر إذا غابوا وأحفظ إذا نسوا^(٩٢٥).

وهذا الاعتذار لا يمكن قبوله إذ لم يقبله أصحاب النبي، وقد أنكرت عليه عائشة وابن عمر، ونهاه عمر بن الخطاب عن الحديث.

إنّ أبا هريرة يدعي أنه كان معتكفاً لا يشغله شيء عن حفظ الحديث، لأنه من أهل الصفة، وبالإعراض عن شغله بسد رمقه وكثرة صرعه من الجوع كما يحدث هو عن نفسه، فإننا نسائله عن اختصاصه بذلك ولم يشاركه المعتكفون معه وهم أسبق وأقدم إسلاماً؟ فلم تكن لهم هذه الخصوصية. وإليك انموذجاً عن حديث أهل الصفة. بذكر البعض منهم :

حديث أهل الصفة

حجاج بن عمر المازني الأنصاري شهد صفين مع عليّ (عليه السلام) له في الصحاح حديث واحد. حازم بن حرملة الأسلمي له حديث واحد رواه ابن ماجة عن مولاه أبي زينب. زيد بن الخطاب العدوي قتل يوم اليمامة له حديث واحد يرويه عنه ابن عمر . سفينة مولى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) له أربعة عشر حديثاً انفرد له مسلم بحديث واحد. شقران مولى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، له عند الترمذي حديث واحد. طنخفة - بكسر أوله وإسكان المعجمة - ابن قيس الغفاري مختلف في اسمه، له حديث واحد أخرجه أصحاب الصحاح . عبد الله بن أنيس أبو يحيى المتوفى سنة (٨٠ هـ) بالشام له أربع وعشرون حديثاً انفرد له مسلم بحديث واحد. عبد الله بن الحرث بن جزع - بفتح الجيم - الزبيدي المتوفى سنة (٨٠ هـ) بمصر، وهو آخر من مات بها من الصحابة، له أحاديث قليلة خرّجها أبو داود والترمذي وابن ماجة. عبد الله بن قرط الثمالي المتوفى سنة (٥٦ هـ) له عند أبي داود النسائي حديث واحد، ولعله حديث المعراج. عتبة بن عامر الجهني المتوفى سنة (٥٨ هـ) له خمسة وخمسون حديثاً، انفرد البخاري بواحد ومسلم بتسعة ، وهو ممن حضر صفين مع معاوية. عمر بن تغلب العبدي له حديثان رواهما عنه البخاري. عمر بن عنبسة السلمى له ثمانية وأربعون حديثاً انفرد مسلم بحديث واحد . عتبة بن عبد السلمى المتوفى سنة (٨٧ هـ) له ثمانية وعشرون حديثاً .

عتبة بن الندر - بضم النون وفتح الدال المشددة - له حديثان عند ابن ماجه. عياض بن حماد المجاشعي البصري له ثلاثون حديثاً انفرد له مسلم بحديث واحد. فضالة بن عبيد الأنصاري المتوفى سنة (٥٣ هـ) شهد أحداً وبيعة الرضوان، له خمسون حديثاً انفرد له مسلم بحديثين. فرات بن حيان العجلي له عند أبي داود حديث واحد. وهو الذي كان عيناً لأبي سفيان وحليفه، فأمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، بقتله فمر على حلقة من الأنصار وقال : إني مسلم. فقال رجل منهم : يارسول الله يقول : إني مسلم ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : «إن منكم رجالاً نكلهم إلى إيمانهم منهم الفرث بن حيان». السائب بن خلاد بن سويد بن ثعلبة بن عمر الخزرجي المتوفى سنة (٧١ هـ) ، له خمسة أحاديث ، وغير هؤلاء من أهل الصفة (٩٢٦).

حديث أبي هريرة

فهؤلاء كانوا يشاركون أبا هريرة فيما ادّعاه من تلك الخصوصية التي امتاز بها على جميع أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وقد ضرب الرقم القياسي في الكثرة وهو في الدرجة الأولى من الصحابة في ذلك، مع أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وقد اعتذر عن ذلك بقوله كما أخرجه أحمد في مسنده: حضرت يوماً من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مجلساً فقال: من بسط رداءه حتى أقضي مقالتي ثم يقبضه إليه فلن ينسى شيئاً سمعه مني، فبسطت بردة عليّ حتى قضى مقالته ثم قبضتها إليّ فوالذي نفسي بيده ما نسيت شيئاً سمعته منه (٩٢٧).

ولنا أن نسائله عن إعراض من كان في المجلس عن هذه المكرمة ، ولأي شيء لم يتسابقوا لهذه الفضيلة؟ أكانوا يشكّون بما قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، حاشى وكلا، أم أنهم لم يملكوا رداءً يبسطونه كما بسط أبو هريرة رداءه! فهل يصح لنا أن نتساءل عن ذلك، أم لا يسوغ ونرجع إلى العصور الماضية فنسكت خوفاً من الوقوع في الزندقة وليس وراءها إلا السيف والنطع ؟

كما حدّث الخطيب البغدادي: ذكر عند الرشيد حديث أبي هريرة: أن موسى لقي آدم فقال: أنت آدم الذي أخرجتنا من الجنة؟ فقال رجل من قريش : أين لقي آدم

(٩٢٦) أسد الغابة ج ٢ ص ٣٩١ / ١٩٠٩ .

(٩٢٧) تاريخ ابن كثير ج ٨ ص ١٠٥ .

موسى ؟ فغضب الرشيد وقال : النطع والسيف زنديق يطعن في حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) (٩٢٨).

ومن هذا نعرف شدة الأمر وخطر الموقف ، فهذا رجل يسأل عن المكان الذي لقي موسى آدم ليتضح له أمر لعله كان يجهله فلقي ما لقي وطبقت عليه مادة الفناء وهي الاتهام بالزندقة ، لأنه يستفسر عن غموض حصل له في حديث أبي هريرة ، فأدت الحالة أن اتهم بالطعن على حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .

فكيف إذا أراد الاستفسار عن حديث أبي هريرة الذي أخرجه مسلم والبخاري : إن جهنم لا تمتلئ حتى يضع الله رجله فتقول قط قط. الحديث (٩٢٩). إذاً لا يصح للمسلم الذي ينزه الله تعالى عن تلك الصفة أن يسأل لأن في السؤال وتنزيه الله طعناً على أبي هريرة ، والطعن على أبي هريرة طعن على النبي.

وكيف إذا أراد أن يستفسر عن المحل الذي ينزل إليه الله جل وعلا في سماء الدنيا حين يبقى الثلث الأخير من الليل ، فقد روى ذلك أبو هريرة كما أخرجه الشيخان (٩٣٠). إلى غير ذلك من أحاديثه التي يطول الحديث بالتحدث عنها (٩٣١) .

وغرضنا من هذا العرض أن أحاديث أبي هريرة تحوط بها أشواك من التشكيك لحصول تلك الكثرة الهائلة، ولأنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وهو حديث عهد في الاسلام ، وأقل الصحابة صحبة لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فهو يحدث عن وقائع لم يحضرها ، ومشاهد لم يشهدها إجماعاً .

فمن ذلك ما حدث به عن سهو النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الصلاة وهو منزّه عن ذلك.

قال أبو هريرة: صلى بنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الظهر أو العصر فسلم في ركعتين، فقال له ذو اليمين : أنقصت الصلاة أم نسيت؟ !

وفي لفظ كما أخرجه مسلم: بينا أنا أصلي مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ... - الحديث -.

(٩٢٨) تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٧.

(٩٢٩) وأخرجه أحمد في ج ٣ ص ٣١٤.

(٩٣٠) أخرجه البخاري في باب الدعاء ومسلم في باب الترغيب في الدعاء.

(٩٣١) وقد جمع قسمًا منها سيدنا الحجة شرف الدين في كتابه (أبو هريرة) وأعطى صورة صادقة عنه ببحث علمي يتركز على حرية الفكر، فكان موضع عناية المفكرين ونال القبول لما فيه من إظهار للحقائق الضائعة.

مما يدل على حضوره الواقعة، ومما لا شك فيه أنّ إسلام أبي هريرة كان بعد خبير سنة (٧ هـ)، ووفاة ذو اليمين في بدر في السنة الثانية. وقد حاولوا التوجيه لذلك ولم يتوجه جواب شاف كما يقول ابن عابدين^(٩٣٢).

ويحدث عن رقية بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأنه دخل عليها وسألها عن فضيلة لعثمان .

ورقية ماتت قبل إسلام أبي هريرة في السنة الثالثة من الهجرة. كما أنّه لم يكن حاضراً في المدينة ويحدث عن أشياء يدعي أنه اشترك بها كقوله : كنت مع عليّ (عليه السلام) حينما بعثه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ببراءة^(٩٣٣) .

ومرةً يقول: كنت مع أبي بكر، مع أن التاريخ يشهد بأنه لم يكن حاضراً في المدينة ، لأنه كان مؤذناً في البحرين .

نسوق هذا من باب المثال للتناقض الذي حصل في روايات أبي هريرة . ونحن إذ نتثبت ونرد الرواية التي ليس لها نصيب من الصحة فإن ذلك مما يوجب الإسلام ويقره العقل .

وعلى أي حال فأبو هريرة هو في الدرجة الأولى من المكثرين. فالوقوف عند تلك الكثرة للتثبت لا يوجب طعناً في حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وذلك لا يستوجب أن يقال إن الشيعة لا يعتمدون على أحاديث الصحابة .

ولا نريد هنا أن نتحدث عن حديث عبد الله بن عمر واختصاصه بما لا يكون لأحد من الصحابة ، فهو في الدرجة الثانية بعد أبي هريرة ، فقد روى ٢٦٣٠ حديثاً وهذا لم يكن عند من هو أكبر منه سناً وأشد منه ملازمة، فقد كان حدث السن لأن عمره يوم توفي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يتجاوز العشرين سنة ، فهذه الكثرة تبعث على الاستغراب ، كما أن هناك أموراً لا تسيع لنا قبول كثير من رواياته، والتوقف في ذلك لا يدعو إلى الطعن في الصحابة. ولا نريد أن نعتذر عن رد أحاديثه عند التثبت لمعرفة حاله؛ فإضبارة عمله كافية لكشف الحقيقة. فلنطو صحيفة البحث عن ذلك طلباً للاختصار هنا ونتركه لمحل آخر.

أما أم المؤمنين عائشة فلا نريد أن نساير موكب حياتها من البداية إلى النهاية، فاستقصاء البحث يقصينا عن الموضوع^(٩٣٤) . ولكننا نريد أن نتحدث عن حديثها

(٩٣٢) حاشية ابن عابدين على الدر المختار ص ١ - ٦٤٣ .

(٩٣٣) أخرجه النسائي في الحج.

(٩٣٤) ذكرنا أطوار حياتها ومنزلتها في التشريع الإسلامي في كتابنا (عائشة والتشريع الإسلامي) مخطوط.

بصورة موجزة، فإن لشخصيتها مكانة في المجتمع وأثراً في التشريع الإسلامي، وقد اختصت دون سائر أزواج النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بكثرة الرواية عنه(صلى الله عليه وآله وسلم) بما لا نسبة له بين مجموع رواياتهن ورواياتها، وإليك مايلي:

حديث أمهات المؤمنين

زينب بنت جحش سنة (٢٠ هـ)، لها ١٩ حديثاً. صفية بنت حيي بن أخطب المتوفاة سنة (٥٠ هـ) اتفق مسلم والبخاري على حديث واحد. سودة بنت زمعة المتوفاة في خلافة عمر انفرد البخاري لها بحديث . هند بنت أمية المخزومية وهي آخر أزواج النبي المتوفاة، لها (٣٧٨) حديثاً. حفصة بنت عمر بن الخطاب المتوفاة سنة (٤١ هـ) لها ٦٠ حديثاً. جويرية بنت الحرث المتوفاة سنة (٥٦ هـ) لها أحاديث انفرد لها البخاري بحديثين. رملة بنت أبي سفيان المتوفاة سنة (٤٤ هـ) لها ٦٥ حديثاً . ميمونة بنت الحرث الهلالية المتوفاة سنة (٥١ هـ) لها ٤٠ حديثاً. عائشة بنت أبي بكر الصديق المتوفاة سنة (٥٧ هـ) لها ٢٢١٠ أحاديث، فارتفاع هذا الرقم وحصول تلك الطفرة في الكثرة يستوجب التريث والتثبت وعدم الإسراع في قبول ذلك ، ولا حرج على المفكر لو أعطى النظر حريته مع حصول أشياء تؤيد هذا التفكير من شغلها وشواغلها ، وصغر سنها ولعبها باللعب ومنادمة صويحباتها^(٩٣٥) والقيام بخدمة البيت إلى كثير من ذلك .

فالوقوف هنا لاستجلاء الحقيقة لا يوجب الطعن على أمهات المؤمنين ليستوجب الكفر والخروج عن الدين على أن هناك شيئاً يدعو إلى التثبت وهو أمر رواة أحاديثها ، فإنهم اتخذوا الرواية عنها سبباً للتقرب إلى بني أمية، وقد طعن على هشام بن عروة وغيره. ممن تقربوا للأمويين بوضع الأحاديث عن عائشة خدمة لمصالحهم.

ولا نطيل نقاشنا للأحاديث الواردة عنها التي فيها من الدخل الشائن لروح الإسلام والمنافية لمقام النبي الأعظم ، كما يروي البخاري عنها في الأدب المفرد، أنها قالت: كنت آكل حيساً مع النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) فمرّ عمر فدعاه فأكل فأصابته يده إصبعي فقال عمر: خس لو أطاع فيكن ما رأته عينا^(٩٣٦) .

(٩٣٥) البخاري في الأدب المفرد ص ٥٤.

(٩٣٦) الأدب المفرد ص ١٥٢.

أليس في ذلك حظ لمقام النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ونقصه ؟ وهو الإنسان الكامل والمثل الأعلى لمكارم الأخلاق، أكانت داره أطروقة للذاهب والجائي؟! أم كان يأكل وهو وزوجته على قارعة الطرق؟ أم أن عمر كان لا يحترم النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) فيدخل عليه دخول عابر سبيل؟ كل هذا نسكت عنه لا خوفاً من القول بأنه طعن على ما يروى عن عائشة، والطعن عليه خروج عن ملة المسلمين كما يقولون ! ولكن ضيق المجال يحول دون بسط القول في ذلك.

أليس لنا حق التثبت بما يروى عن عائشة أن رجلاً سأل رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) عن الرجل يجمع أهله ثم يكسل هل عليهما الغسل؟ وعائشة جالسة، فقال(صلى الله عليه وآله وسلم): إني لأفعل ذلك أنا وهذه ثم نغتسل(٩٣٧).

كيف يصح هذا ورسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) مثال الغيرة ومجمع الفضائل والإنسان الكامل؟ فالعقل يمتنع عن قبوله احتراماً لمقام الرسول الأعظم(صلى الله عليه وآله وسلم) ، لذاته وخلته الشخصية فما بالك إذا كان رسول الله وأمينه علي وحيه وخير خلقه؟ وليكن من وراء عدم قبول ذلك اتهام بالكفر ورمي بالزندقة.

كما يحق لن أن نناقش ما يرويه مسلم في صحيحه عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة : إن النبي كان مسحوراً يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله(٩٣٨). فسل صحيح مسلم عن صحة ذلك، وسل عروة وابنه إن كنت رجلاً لاتخاف الاتهام بالزندقة ، وإلا فاترك مسؤولية البحث لمن لا يتقيد بالأوهام ولا يخضع لسلطان العاطفة العمياء ولا يبالي بتوجيه التهم ما دمنّا محافظين على كرامة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وإن طعنا بألف صحابي وصحابي وكذبنا ألف صحيح وصحيح، حاشى للنبي الأعظم ومنقذ الإنسانية وهو الإنسان الكامل في كل صفاته، وهو المثل الأعلى لكل مكرمة، كيف يعتريه النقص ويخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله ؟ ! ليت شعري أيتم نظام العالم وهو مصلحه مع اتصافه بهذه الصفة؟ كلا إنه: (ما ينطق عن الهوى* إن هو إلا وحي يوحى)(٩٣٩).

فلنترك مناقشة كثير من الأحاديث، ولا نمضي في هذا الموضوع بأكثر مما ذكرناه، ونكتفي بذكر ما دعت الحاجة إلى عرضه بدون استقصاء في البحث ولا تتبع شامل لنقاط الموضوع ، وغرضنا من ذلك إعطاء صورة عن تلك الاتهامات

(٩٣٧) البخاري ج ١ ص ١٦١ وصحيح مسلم ج ١ ص ١٨٧ ، وسنن البيهقي ج ١ ص ١٦٤ .

(٩٣٨) صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٤ .

(٩٣٩) النجم : ٣ ، ٤ .

التي وجهت للشيعة بأنهم لا يأخذون برواية الصحابة . نعم الشيعة لا يأخذون إلا عن الصادقين في القول ، ويتشددون في قبول الرواية أكثر من غيرهم .

تهمة سب الصحابة

إنّ تهمة سبّ الصحابة قد استأصل داؤها فعزّ علاجه ، ونفدّ حكمها فعظم نقضه ، وسرت تلك الدعاية في مجتمع تسوده عاطفة عمياء وعصبية هوجاء ، وقد وقفت الحقيقة أمام ذلك الوضع المؤلم مكتوفة اليد، وأسدت دونها أبراد التمويه ، وأحيطت بأنواع الحواجز وأقيمت في طريق الوصول إليها آلاف من العقبات وسلاح القوة فوق ذلك، إذ السلطة قررت نظام انطباق الكفر والزندقة على المعارضين لسياستها ، ولم يمكنها تحقيقه إلا باتهام سب الصحابة أو أبي بكر وعمر بصورة خاصة.

وإذا حاول المفكرون أن يقفوا على حقيقة الأمر والواقع أخذوا بتلك التهمة وشملهم ذلك النظام الجائر.

فكانت الحكومة إذا أرادت أن تعاقب شيعياً لمذهبه لم تذكر اسم عليّ بل يجعل سبب العقوبة أنّه شتم أبا بكر وعمر. قاله في المنتظم ، وقال ابن الأثير في حوادث سنة (٤٠٧ هـ): وفي هذه السنة قتلت الشيعة في جميع بلاد أفريقيا وجعل سبب ذلك اتهامهم بسبب الشيخين^(٩٤٠).

وما أكثر تلك الفظائع السود والأعمال الوحشية التي وقعت طبقاً لنظام السياسة ولا علاقة لها بنظام الإسلام الذي يقضي على مرتكبها بالخروج منه.

وإن المسألة مكشوفة لا تحتاج إلى مزيد بيان لشرح الأسباب التي أدت إلى حدوث تلك الحوادث المؤلمة ، وارتكاب تلك الجرائم الفادحة ، ومعاملة شيعة أهل البيت بتلك المعاملة القاسية .

وليس هناك من شك بأن استقلال الشيعة الروحي وعدم اعترافهم بشرعية سلطان لا يحترم نوااميس الدين، ولا يلتزم بأوامر الشرع جعلهم خصوماً للسلطة . فكانت مشكلة التشيع من أعظم المشاكل التي تواجهها الدولة .

فلقيت الشيعة بسبب خصومتها للدولة ومعارضتها لحكام الجور انتكاسات في سبيل نشر الدعوة، كما لقيت انتصارات إذ لم تكن تلك الانتكاسات لتعود بهم

القهقري، أو تلقى بهم في نطاق الفشل الضيق، واليأس من المضي في سبيل إظهار عقيدتهم ، فقد كان لهم من الحيوية ورسوخ العقيدة ما ساعدهم على المضي في استرجاع مكانتهم في التاريخ ، لحمل رسالة يلزمهم أدائها ويجب عليهم مواصلة الكفاح لتحقيقها تلك هي رسالة الإسلام ، تحت ظلال دعوة أهل البيت(عليهم السلام). فكان لهم الأثر العظيم في نشر الوعي الإسلامي وإطلاق الفكر من عقال الجمود . وعلى أي حال فإن أعداءهم لم يجدوا حلاً لهذه المشكلة إلا بأن يلصقوا بهم تهماً يتلقاها المجتمع بالقبول ، فتوسعوا في التهم واتخذوا مرتزقة لتحقيق ذلك الغرض، فقالوا: إن الشيعة تكفر جميع أصحاب محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) ويطعنون عليهم، وبذلك يتوجه الطعن على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وأنهم يرمون أمهات المؤمنين وغير ذلك.

ووضعوا قاعدة قررها علماء السوء وهي : إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) فاعلم أنه زنديق، وذلك أن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) حق والقرآن حق ، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة والجرح بهم أولى وهم زنادقة^(٩٤١).

وحكموا على من اتهم بسبّ الشيخين بالكفر، فلا يغسل ولا يصلى عليه، ولا تنفعه شهادة أن لا إله إلا الله ، ويدفع بالخشب حتى يوارى في حفرة^(٩٤٢). وإنه إذا تاب لا تقبل توبته بل يجب قتله^(٩٤٣). وقال بعضهم بحرمة ذبيحته وحرمة تزويجه^(٩٤٤). ومن هذا وذاك سرت فكرة كفر الشيعة ، لأن الدولة قضت بنظامها القضاء عليهم، وأن يسندوا ذلك إلى الشرع - وحاشاه من ذلك - ولكن السياسة عمياء ، والحق لا قيمة له عند علماء السوء الذين اندفعوا لموازرة السلطة وإغواء العامة.

ومن الغريب أن بعض أولئك المرتزقة احتاط لدينه واستشكل في تنفيذ ذلك النظام المخالف للشرع ، فجاء بحكم جديد فأفتى بوجوب قتل من سب الصحابة سياسياً لدفع فسادهم وشرهم ، وإن كانوا لا يجوزونه شرعاً للحديث الشريف: لا يحل دم

(٩٤١) الكفاية للخطيب البغدادي ص ٤٩ .

(٩٤٢) الصارم المسلول ص ٥٧٥ .

(٩٤٣) رسائل ابن عابدين ج ١ ص ٣٦٤ .

(٩٤٤) انظر النصب والنواصب ص ٨١ .

امري مسلم يشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الشيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه^(٩٤٥) خرّجه جميع الحفاظ وصحّوه .. هكذا أفتى هذا المأجور .

وكم حكمت السياسة على نصوص الشريعة ونسخت أحكامها المقررة لأن السياسة اقتضت ذلك، وعلماء السوء قد فتحوا باب الارتزاق بالدين وأعمتهم المادة واستغواهم شيطان اللذة وحبّ التمتع بالحياة ، فلم يقفوا عند حدود الله ، وحكموا بغير ما أنزل الله .

وطغا طوفان الافتعالات وتلاطمت أمواج الأكاذيب على الله ورسوله من أولئك القوم الذين ساروا على غير هدى . ولم يستمعوا لمرشد ولم يقفوا عند حد، بل الأمر منوط لرأي السلطة كيف شاءت.

ونودّ هنا أن نشير لنبذة من بحث للإمام كاشف الغطاء حول ذكر الفروق الجوهرية بين الطائفتين^(٩٤٦) :

قال(رحمه الله) - بعد ذكر الاختلاف في الخلافة - : نعم ونريد أن نكون أشد صراحة من ذلك ، ولا نبقي ما لعله يعتلج أو يختلج في نفس القراء فنقول : لعل قائلًا يقول: إن سبب العداء بين الطائفتين أن الشيعة ترى جواز المس من كرامة الخلفاء أو الطعن فيهم ، وقد يتجاوز البعض إلى السب والقبح مما يسيء الفريق الآخر طبعاً ويهيج عواطفهم فيشتد العداء والخصومة بينهم .

والجواب أن هذا لو تبصرنا به قليلاً ورجعنا إلى حكم العقل بل والشرع أيضاً لم نجده مقتضياً للعداء أيضاً .

أما أولاً: فليس هذا من رأي جميع الشيعة وإنما هو رأي فردي من بعضهم ، وربما لا يوافق عليه الأكثر، كيف وفي أخبار أئمة الشيعة النهي عن ذلك. فلا يصح معاداة الشيعة أجمع لإساءات بعض المتطرفين منهم.

وثانياً : إن هذا على فرضه لا يكون موجباً للكفر والخروج عن الإسلام ، بل أقصى ما هناك أن يكون معصية وما أكثر العصاة في الطائفتين . ومعصية المسلمين لا تستوجب قطع رابطة الأخوة الإسلامية معه قطعاً .

(٩٤٥) رسائل ابن عابدين ج ١ ص ٣٦٧ .

(٩٤٦) أنظر هذا البحث القيم الذي نشرته مجلة رسالة الإسلام تحت عنوان (بيان للمسلمين) ص ٢٢٧ - ٢٢٨ النسخة الثانية العدد الثالث .

وثالثاً : قد لا يدخل هذا في المعصية أيضاً ولا يوجب فسقاً إذا كان ناشئاً عن اجتهاد واعتقاد وإن كان خطأ ، فإن من المتسالم عليه عند الجميع في باب الاجتهاد أن للمخطئ أجراً وللمصيب أجرين ، وقد صحح علماء السنة الحروب التي وقعت بين الصحابة في الصدر الأول ، كحرب الجمل وصفين وغيرهما ، بأن طلحة والزبير ومعاوية اجتهدوا وإن أخطأوا في اجتهادهم ، ولكن لا يقدر ذلك في عدالتهم وعظيم مكانتهم ، وإذا كان الاجتهاد يبرر ولا يستنكر قتل الآف النفوس وإراقة دمائهم فبالأولى أن يبرر ولا يستنكر معه (أي مع الاجتهاد) تجاوز بعض المتطرفين على تلك المقامات المحترمة ، إلى آخر البحث .

وليس في وسعنا نقل كلمات علماء الشيعة حول هذه النقطة المهمة التي لها أثرها العظيم في تكدير صفو الأخوة الإسلامية ، فأصبحت طريقاً لأعداء الدين يدخلون فيه لأغراضهم .

نهاية البحث

إن فكرة اتهام الشيعة بسبّ الصحابة وتكفيرهم - كونتها السياسة الغاشمة، وتعاهد تركيزها أناس مرتزقة باعوا ضمائرهم بثمن بخس وتمرغوا على أعتاب الظلمة ، يتقربون إليهم بدم الشيعة ، وقد استغل أعداء الدين هذه الفرصة فوسعوا دائرة الانشقاق لينالوا أغراضهم ، ويشفوا صدورهم من الإسلام وأهله ، وراح المهرجون يتحمّسون لإثارة الفتن وإيقاد نار البغضاء بين المسلمين بدون تدبر وتثبت ، وقد ملئت قلوبهم غيظاً .

وبفعل السياسة وتحكمها أصبحت الشيعة وهي ترمى بكل عزيمة وتهاجم بهجمات عنيفة ، واندفع ذوو الأطماع يعرضون ولاءهم للدولة في تأييد ذلك النظام والاعتراف به، وأنه قد أصبح جزءاً من حياة الأمة العقلية وهم يخادعون أنفسهم . ولم يفتحوا باب النقاش العلمي وحرّموا الناس حرية القول ، وأرغموهم على الاعتراف بكفر الشيعة والإبتعاد عن مذهب أهل البيت (عليهم السلام) ولو سألهم سائل عن الحقيقة وطلب منهم ان يوضحوا لهم ذلك ، فليس له جواب إلا شمول ذلك النظام له ، ونحن نسألهم :

١ - أين هذه الأمة التي تكفر جميع الصحابة ويتبرأون منهم ؟

٢ - أين هذه الأمة التي تدّعي لأئمة أهل البيت (عليهم السلام) منزلة الربوبية؟

٣ - أين هذه الأمة التي أخذت تعاليمها من المجوس فمزجتها في عقائدها؟

٤ - أين هذه الأمة التي حرّفت القرآن وادّعت نقصه ؟

٥ - أين هذه الأمة التي ابتدعت مذاهب خارجة عن الإسلام ؟

إنّهم لا يستطيعون الجواب على ذلك، لأنّ الدولة قررت هذه الاتهامات فلا يمكنهم مخالفتها. ولا يمكن إقناعهم بلغة العلم، وما أقرب الطريق إلى معرفة الحقيقة لو كان هناك صباغة من تفكير وبقايا من حب الاستطلاع وخوف من الله وحماية للدين!

أليس التشيع مبدأ يشمل عدداً وافراً من أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وهم من البدرين وأهل بيعة الرضوان؟ ممن والى علياً (عليه السلام) ويرى أحقيته بالخلافة. أليس من الشيعة علماء اعترف الكل بعلو منزلتهم وغازاة علمهم، واحتاج الناس إليهم ، وهم من شيوخ كبار العلماء ورجال الصحاح كأبي حنيفة ، والشافعي

، وأحمد ، والبخاري وغيرهم ، وقد خرج أصحاب الصحاح لعدد وافر من رجال الشيعة ، يربو عددهم على ثلاثمائة رجل؟ ولا يسع المقام لنشر أسمائهم فتركهم لفرصة أخرى^(٩٤٧).

أليس من الشيعة رجال حملوا رسالة الإسلام وتحملوا المصاعب في أدائها ومنهم حملة فقه لولاهم لضاع الفقه وذهبت تعاليم الإسلام ، وإن للشيعة يداً في المحافظة على التراث الإسلامي وصيانتة عن تلاعب السياسة.

التثبت قبل الحكم

لم نسهب في بيان الموضوع عبثاً واستطراداً ، ولم نقصد به خوض بحث لا علاقة له بموضوع الكتاب ، بل الواقع أنّ هذا الموضوع من أهم المواضيع التي يجب أن نتطرق إليها في هذا الكتاب الذي أقدمنا عليه لبيان مذهب أهل البيت(عليهم السلام).

فمّا لا شك فيه أن أهم مشكلة تقف أمام الباحث هي مسألة اتهام الشيعة بسبب الصحابة أو تكفيرهم، وقد بيّنا مراراً أنّ ذلك يعود إلى عوامل سياسية لا صلة لها بالواقع ، لأن اسم الشيعة ارتبط بآل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) وهم أنصارهم وآل محمد هم الشجى المعارض في حلق أولئك الحكام الذين استبدوا بالحكم وجاروا على الأمة ، فكان من دواعي السياسة أن تطبع في قلوب الناس طابع البغض للجانب الذي ينافسهم ويعارضهم ، أو من لا يؤازرهم ، وهو يقف موقف المعارضة لأعمالهم .

وهل من شك في معارضة الشيعة وعدم مؤازرتهم الدولة ، وإنهم لا يعترفون بشرعيتها في تلك العصور ؟ لأنهم لا يتنازلون عن الاعتقاد بأحقية أهل البيت للخلافة ، لما طبعوا عليه من صفاء النفس والتضحية في سبيل المصلحة العامة، وهم أولى الناس بالأمر وأعدلهم بالحكم، لذلك نرى أنّ تشريع نظام الحكم على من اتهم بسبب الصحابة يهدف إلى عقاب الشيعة فقط . أما غيرهم فلا يشملهم هذا الحكم ولو كان ملحداً كما مرّ بيانه.

وقد تسرع المخدوعون بالظواهر إلى الاعتراف به ، وقاموا بتنفيذه ، فحكموا على الشيعة بالفسق مرّةً وبالكفر أخرى ، وليتهم حددوا لذلك حداً حتى يعرف

(٩٤٧) ذكر منهم سيدنا شرف الدين في كتاب المراجعات مائة رجل . وذكر العلامة الأميني في كتاب الغدير في ج ٣، عدداً وافراً منهم، وبأبيدنا قائمة تقارب ثلاثمائة رجل قد اعتمد رجال الصحاح عليهم .

الناس كيفية المؤاخذة ، ولكثهم وسعوا الدائرة واختلفت الصور، كما وأنهم قرروا عدم قبول توبة المتهم بسبب الصحابة أو الشيخين بصورة خاصة، وقرروا انطباق الآراء الفردية على مجموع الأمة. من دون تثبت في الحكم وتورع في الموضوع . ولهذا فإن المرتزقة من العلماء - الذين أصبحوا مصدراً للفتوى وحكاماً للسلطة التشريعية - قد أخذوا على عاتقهم مسؤولية إغواء العامة وحملهم على خلاف الحق، فكانوا دعاة فرقة وأئمة ضلال ، فحكموا على الشيعة بالأخص من دون بيان لمستند الحكم ودليل للفتوى بأن قتالهم - أي الشيعة - جهاد أكبر، ومن قتل في حربهم فهو شهيد . ويقول في خاتمة الفتوى : ومن شك في كفرهم - أي الشيعة - كان كافراً . وآخر يقول كما في الخلاصة : الرافضي إذا كان يسبب الشيخين ويلعنهما ، فهو كافر ، وإن كان يفضل علياً عليهما، فهو مبتدع^(٩٤٨).

وهكذا زينوا للناس حب الواقعة بعضهم ببعض، وأباحوا قتل المسلم بيد أخيه المسلم بدون تثبت في الحكم ووقوف أمام حرمة ذلك ، وليس غرضهم إلا إرضاء السلطة وإن غضب الله عليهم .

ولا حاجة بنا إلى نقل عبارات تعبر عن عقلية قائلها ومقدار إدراكهم للواقع فلا نطيل الوقوف على تلك الخرافات والأباطيل ، فلنسدل الستار عنها ولا بد لنا أن نلاحظ نقطتين :

الأولى : هل الطعن على مجموع الصحابة موجب لهذه الأحكام القاسية، أم أن هناك فرقاً وتمييزاً ؟ فإن كان هذا الحكم على كل من طعن صحابياً أو وصفه بصفة لا تليق به، فلماذا لم يحكموا على من طعن على عدد كثير من الصحابة ووصفهم بما لا يليق بهم؟ وهم من كبار الصحابة وأعيانهم ، لأنهم أنكروا على عثمان أوضاع بني أبيه الشاذة ومسايرته لهم ، أو خالفوا معاوية بن أبي سفيان .

أليس من الطعن والتنقيص وصفهم للصحابة : بأنهم أجلاف أخلاط من الناس؟ لا شك أنهم مفسدون في الأرض بغاة على الإمام^(٩٤٩).

ويقول ابن تيمية: بأنهم خوارج مفسدون في الأرض - إلى أن يقول - : ولم يقتله - أي عثمان - إلا طائفة قليلة باغية ظالمة. وأما الساعون في قتله فكلهم مخطئون بل ظالمون باغون معتدون^(٩٥٠).

(٩٤٨) رسائل ابن عابدين ج ٢ ص ١٦٩.

(٩٤٩) تاريخ ابن كثير ج ١ ص ١٧٦.

(٩٥٠) منهاج السنة ج ٣ ص ١٩١ - ٢٠٦ .

ويقول ابن حجر في وصف المعترضين عليه: إنّ المجتهد لا يعترض عليه في الأمور الاجتهادية، لكن أولئك الملاعين المعترضين لا فهم لهم ولا عقل^(٩٥١). وقد قرّروا في بحث العدالة أنّ الصحابة عدول إلى وقوع الفتن. أمّا بعد ذلك فلا بد من البحث عن ليس ظاهر العدالة ، هذا هو أحد الأقوال^(٩٥٢). ولا نريد التعرض لجميع الأقوال التي وصفوا بها الصحابة الذين اشتركوا في معارضة عثمان، وحرصوا الناس عليه .

ولا نريد التعرض لجميع الأقوال التي وصفوا بها الصحابة الذين اشتركوا في معارضة عثمان، وحرصوا الناس عليه، ولكننا نورد بعضاً من الرأي المعاصر في هذه القضية ونأخذ قول رفيق بك العظم إذ يقول: «... فإن أولئك الثائرين على عماله (عثمان) الناقمين منه مهما كان الدافع لهم إلى ذلك العمل فإن غايتهم التي يقصدون إليها بحسب الظاهر هي العدل بين الناس بعدم الاستئثار بمصالح ومنافع الأمة».

ويستطرد فيقول: «.. فوقوف الناس على أخبارهم (الصحابة) والأخذ والرد فيما حدث بينهم يحيي في القلوب روح الحرية ويبعث على استظهار عامة الناس للحجة التي يصادمون بها الآن الاستبداد من الخلفاء والملوك الذين حولوا الخلافة إلى الملك العضوض وأمعنوا في التمكن من رقاب المسلمين، ولهذا ولما كثر خوض في أخبار الصحابة أرادوا إلهاءهم عنها بحجة حرمة الخوض فيها، فأوعزوا إلى الوضع والقصاصين بوضع أخبار المغازي وقصة عنجرة وأشباهها في عصر مختلفة لا تعلم بالتحقيق^(٩٥٣)».

وكان من السهل على الأستاذ رفيق بك أن يعلم عصر وأزمان حركات الوضع والقصاص التي لجأ إليها من ذكرهم من المتسلطين والتي انصبت على الإساءة إلى رموز العدل وأهل الإيمان إلى جانب الأخبار والمغازي.

الثانية: إنّ الشيعة لا تتكتم في بغض من عادى علياً ، فإنّ مبغض علي منافق بنص الحديث الشريف : «يا علي لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق»^(٩٥٤).

(٩٥١) الصواعق المحرقة لابن حجر ص ٦٨.

(٩٥٢) شرح ألفية العراقي ج ٤ ص ٣٦.

(٩٥٣) أنظر: عثمان، لمحمد رضا ص ٢١٤ - ٢١٥ .

(٩٥٤) الرياض النضرة ج ٢ ص ١٦٣.

وإن المنافقين لفي الدرك الأسفل من النار . وقد ثبت أن بعض من وسموا بالصحبة كانوا يبغضون علياً (عليه السلام) ويسبونه . وقد اشتهر ذلك عنهم :
فأله يشهد إنا لا نحبهم *** لله لا نخشي في ذاك من غضبا (٩٥٥)
وبدون شك أن معاوية وحزبه كانت تتجلى بهم صفة البغض لعلي وأهل البيت أجمع ، وقد قابلوه بالعداء وأعلنوا الحرب عليه .
كما أعلن معاوية شتم علي وجعله سنة ، وتتبع أنصاره من الصحابة والتابعين ، فأذاقهم أنواع الأذى والمحن، وجرعهم الغصص وقتلهم تحت كل حجر ومدر بما لا حاجة إلى بيانه.

على أن أعماله لا يمكن السكوت عنها: ولا طريق إلى حملها على وجه صحيح .
وليس من الإنصاف أن يقال: إن معاوية مجتهد متأول ، وقد عطل الحدود، وأبطل الشهود، وقتل النفس المحرمة وسبى نساء المسلمين ، وعرضهن في الأسواق ، فيكشف عن سوقهن، فأيتهن كانت أعظم ساقاً اشتريت على عظم ساقها (٩٥٦) إلى كثير من تلك الفظائع والفجائع.

وهذا أبو الغادية الجهني ، كان من الصحابة ، وممن سمع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وروى عنه ، وهو أحد رواة حديث: «ياعمار تقتلك الفئة الباغية» (٩٥٧). وهو الذي قتل عمار بن ياسر رضوان الله عليه، وقد أنكر الناس عليه ارتكابه لهذه الجريمة ، واعترف هو على نفسه بأنه من أهل النار ، وكان يقول : والله لو أن عماراً قتله أهل الأرض لدخلوا النار (٩٥٨).

فكيف يتهم بالخروج عن الدين من تبرأ من هذا المجرم الذي اعترف على نفسه بأنه عدو الله ، ولكن بعض المحدثين تأولوا له ذلك ، وأنه مجتهد أخطأ ويلزم حسن الظن بالصحابة (٩٥٩).

ونحن لا نعرف هذا المنطق الذي يقضي بطرح الأحكام ، وهجر الكتاب في جانب حسن الظن بالصحابة والسكوت عما ارتكبه . وهل يسوغ لنا السكوت عن أعمال بسر وموبقاته ؟ إذ وسم بالصحبة أيضاً، وهو قائد جيش معاوية، وقد ارتكب جرائم لم يشهد التاريخ مثلها فظاعة، حتى أنكرت النساء عليه عندما دخل اليمن ، وقتل

(٩٥٥) أسد الغابة ج ٥ ص ٢٦٧.

(٩٥٦) الاستيعاب ج ١ ص ١٥٧، الإصابة ج ٤ ص ١٥١ .

(٩٥٧) الإصابة ج ١ ص ١٥١ .

(٩٥٨) أسد الغابة ج ٥ ص ٢٦٧.

(٩٥٩) الإصابة ج ٤ ص ١٥١.

الشيوخ والأطفال وسبى النساء ، فقالت له امرأة من كندة: يا ابن ارطاة إن سلطاناً لا يقوم إلا بقتل الصبي الصغير والشيخ الكبير ونزع الرحمة وعقوق الأرحام إنه لسلطان سوء^(٩٦٠).

فكيف يسوغ لنا السكوت عن أعمال بسر، ونصم أسماعنا عن صوت ثكلى تردد نغماتها موجات الحق ، وترفع ظلامتها إلى رجال العدل ، وتدعو هائمة مذهولة؟ ؟

يا من أحسنّ بابيّ الذين هما *** كالدريتين تشظى عنهما الصدف

يا من أحسنّ بابيّ الذين هما *** سمعي وعقلي فعقلي اليوم مختطف

من دل والدة حيرى مدلهة *** على صبيين ذلاً إذ غدا السلف

نبئت بسرّاً وما صدقت مازعموا *** من إفكهم ومن الإثم الذي اقترفوا

أحنى على ودجي ابني مرهفة *** مشحوذة وكذاك الإثم يقترف

فهذا صوت يبعث في القلب شجى ، وفي العين قذى، يصدر من أم والهة - وهي زوجة عبيد الله بن العباس - فقدت ولديها وهما قثم وعبد الرحمن. أخذهما بسر بن أرطاة وهما صغيرين ، فذبهما بين يدي أمهما، فهامت على وجهها مذهولة، فكانت تأتي الموسم وتنشد هذا الشعر وتهيم على وجهها^(٩٦١). إذاً فليس من أنصاف الحق أن يؤاخذ المسلم عندما يغضب لسماع صوتها وينسب الظلم لمن قتل ولديها فيرمى بالزندقة والإلحاد لأنه طعن على معاوية، إذ القتل بأمره وهو صاحبي ، وله في ذلك اجتهاد مقبول أو تأويل صحيح ، إذاً ليجر معاوية في ميدان الحياة وليفعل ما شاءت له نفسه، فقد ضربت الصلبة عليه حصانة لا يمكن مؤاخذته فليأمن من كل خطر وليسفك الدماء ، وليقتل على الظنة والتهمة، فقد انهارت الحواجز كلها في وجهه واندكت العقبات أمامه ، فلا تشملته تلك النظم والأحكام التي قررها الشارع المقدس ، وفيها سعادة البشر ونظام الحياة ، لأنه صاحبي وله حرية التصرف في الأحكام .

ولو كان له ذلك لما أنكر الصحابة عمله ، وفي طليعتهم الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري، فقد أعلن للملأ انحراف سيرة معاوية ومخالفته لنظم الدين . وقد أنكرت عائشة على معاوية قتله لحجر وأصحابه وغضبت عليه ومنعته من الدخول عليها، ولم تقبل بأعذاره إذ قال: إن في قتلهم صلاحاً للأمة، وفي مقامهم فساداً للأمة

(٩٦٠) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٩٥ .

(٩٦١) الاستيعاب : ١ / ١٥٦ والكامل لابن الأثير : ٣ / ١٩٥ .

فَقَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) يَقُولُ: سَيَقْتُلُ بَعْدَ رَأْيِ أَنَسٍ يَغْضَبُ اللَّهُ لَهُمْ وَأَهْلَ السَّمَاءِ (٩٦٢).

وَكثُرَ الْإِنْكَارُ عَلَى مَعَاوِيَةَ لَمَّا ارْتَكَبَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَلَا يَتَسَعُ الْمَجَالُ لِلْإِسْهَابِ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ .

وَخُلَاصَةُ الْقَوْلِ أَنَّ الصَّحْبَةَ بِشُرُوطِهَا فِي الْإِخْلَاصِ فِي الدِّينِ وَالْوَلَاءِ فِي الْإِسْلَامِ وَلَيْسَتْ مَنْزِلَةٌ تَوْجِبُ الْعَصْمَةَ وَتُلْزِمُ الْاعْتِرَافَ بِالتَّفَرُّدِ دُونَ نَظَرٍ وَتَدْقِيقٍ، قَالَ سَفْيَانُ بْنُ عَيِّنَةَ: نَظَرْتُ فِي أَمْرِ الصَّحَابَةِ وَأَمْرِ بْنِ الْمُبَارَكِ فَمَا رَأَيْتُ لَهُمْ عَلَيْهِ فَضْلاً إِلَّا بِصَحْبَتِهِمُ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وآله وسلم) وَغَزَوْهُمْ مَعَهُ (٩٦٣). فَلَيْسَتْ مَقْرُونَةٌ بِمَوَاهِبٍ خَارِقَةٍ وَخَصَالٍ خَاصَةٍ وَقَدْ تَكُونُ اصْطِحَاباً بَلَا أَثَرٍ وَغَزَوْاً فِي الظَّاهِرِ، وَفِي السَّرِيرَةِ أَغْرَاضُ نَفْعٍ وَرِبَاءٌ فَعَنَ مَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ أَنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وآله وسلم) قَالَ: الْغَزْوُ غَزْوَانٌ، فَأَمَّا مَنْ ابْتَغَى وَجْهَ اللَّهِ وَأَطَاعَ الْإِمَامَ وَأَنْفَقَ الْكَرِيمَةَ وَاجْتَنَبَ الْفُسَادَ فَإِنَّ نَوْمَهُ وَنَبِيْهَتَهُ أَجْرُ كُلِّهِ، وَأَمَامُنْ غَزَا رِبَاءً وَسَمِعَةَ وَعَصَى الْإِمَامَ وَأَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ فَإِنَّهُ لَا يَرْجِعُ بِالْكَفَافِ (٩٦٤). فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فِي حَيَاتِهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ فَمَا ظَنُّكَ بَعْدَ أَنْ قَبِضَ (صلى الله عليه وآله وسلم)، وَلَقَدْ أَخْبَرَ! (صلى الله عليه وآله وسلم) أَوْلَئِكَ - كَمَا رَوَى عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَنَسٍ وَآخَرِينَ: «يَرْفَعُ إِلَيَّ أَقْوَامٌ فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ، فَأَقُولُ: يَا رَبَّ أَصْحَابِي، فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: بُعْدًا وَسَحَقًا».

وَسَنَعُودُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْبَحْثِ عَنْهُ مَرَّةً أُخْرَى فِي الْأَجْزَاءِ الْقَادِمَةِ.

وَهَا نَحْنُ أَوْلَاءُ نَعِيدُ تَأْكِيدَ الطَّلَبِ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِينَ يَهْمُهُمْ خِدْمَةُ الْحَقِّ وَإِظْهَارُ الْحَقِيقَةِ، أَنْ يَتَنَبَّهُوا قَبْلَ الْحُكْمِ حَوْلَ تِلْكَ الْاِتِّهَامَاتِ الْمَوْجَّهَةِ إِلَى الشَّيْعَةِ (٩٦٥) وَأَنْ يَسْتَعْمِلُوا لُغَةَ الْمَنْطِقِ وَلَا يَخْضَعُوا لِلتَّقَالِيدِ وَاسْتَعْمَالِ الْأَقْيَسَةِ الْمَعْكُوسَةِ وَمَوَازِنَةِ الْأُمَةِ بِالْفَرْدِ.

نَقُولُ هَذَا وَلَنَا كَبِيرُ أَمَلٍ فِيمَا نَلْمُسُهُ مِنْ وَعْيٍ فِي الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ لِنَبْذِ الْحِزَازَاتِ ، وَقَبْرِ تِلْكَ الْأَرَءِ الَّتِي أَوْجَدَتْ الْخِلَافَاتِ. وَمَنْ اللَّهُ نَسْأَلُ تَحْقِيقَ الْأَمَالِ فَهُوَ الْمَوْفِقُ وَعَلَيْهِ الْاِتِّكَالُ . وَنَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يَنْصُرَ الْمُسْلِمِينَ وَيُوَحِّدَ كَلِمَتَهُمْ (وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ).

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ (الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)

(٩٦٢) تاريخ ابن كثير ج ٨ ص ٥٥.

(٩٦٣) صفة الصفوة لابن الجوزي ج ١ ص ١١١ .

(٩٦٤) السنن الكبرى للنسائي ج ٧ ص ١٥٥ .

(٩٦٥) استقصينا البحث عن التهم الموجهة إلى الشيعة في كتابنا (الشيعة في قفص الاتهام) وقد حالت الظروف بيننا وبين طبعه.

والصلاة على محمد وآله الطيبين وأصحابه المنتجبين

«تم الجزء الثاني»

ويلية الجزء الثالث إن شاء الله تعالى

فهرست المجلد الأول

(الجزء الأول والجزء الثاني)

الجزء الأول :

الإهداء ...

مقدمة الطبعة الأولى ...

مقدمة الطبعة الثانية ...

كتاب الإمام الصادق والمذاهب الأربعة . بقلم الدكتور حامد داود ...

الإمام الصادق بين عهدين : الأموي والعباسي ...

العهد الأموي ...

العهد العباسي ...

الإمام الصادق: شخصيته وأقوال العلماء فيه ...

الإمام الصادق: مدرسته وتلامذته ورواة حديثه ...

مع البخاري ...

آية التطهير ...

حديث الغدير ...

حديث الثقلين ...

الإمام الصادق: ملوك عصره وأمراء بلده ...

ملوك عصره ...

ولاية المدينة في العهد الأموي ...

ولاية المدينة في العهد العباسي ...

المذاهب الأربعة: نشأتها وشهرتها وانتشارها ...

نشوء المذاهب ...

المذهب الحنفي ...

المذهب المالكي ...

المذهب الشافعي ...

المذهب الحنبلي ...

حركة التنازع بين المذاهب ...

محنة خلق القرآن ...
بين السنة والشيعة ...
المذهب الجعفري : نشأته وعوامل انتشاره ...
الغلاة ...
انتشار المذهب الجعفري ...
تصفية الحساب ...
الوضع والحديث النبوي ...
الإمام أبو حنيفة ...
فقهه وتلامذته ...
خلاصة ...

الجزء الثاني :

آيات من سورة «آل عمران» ...
الإمام الصادق ...
عصره ومشاكله ...
مواقف الإمام الصادق ...
الإمام الصادق: تلامذته ورواة حديثه ...
الإمام الصادق في ظل أبيه الباقر ...
الإمام الصادق في عهد المنصور ...
الإمام مالك بن أنس ...
أصول الفقه المالكي ...
تدوين العلم ...
موطأ مالك ...
صحيح البخاري ...
مسألة التفضيل ...
الشيعة والصحابة ...
نهاية البحث ...